

الرقم التسلسلي :

كلية الآداب و اللغات

رقم التسجيل : DL/21/10

قسم اللغة والأدب العربي

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي

تخصص : أدب عربي

أشكال الرّمز في القصيدة الشّعبيّة - شعراء منطقة بوسعادة أنموذجا -

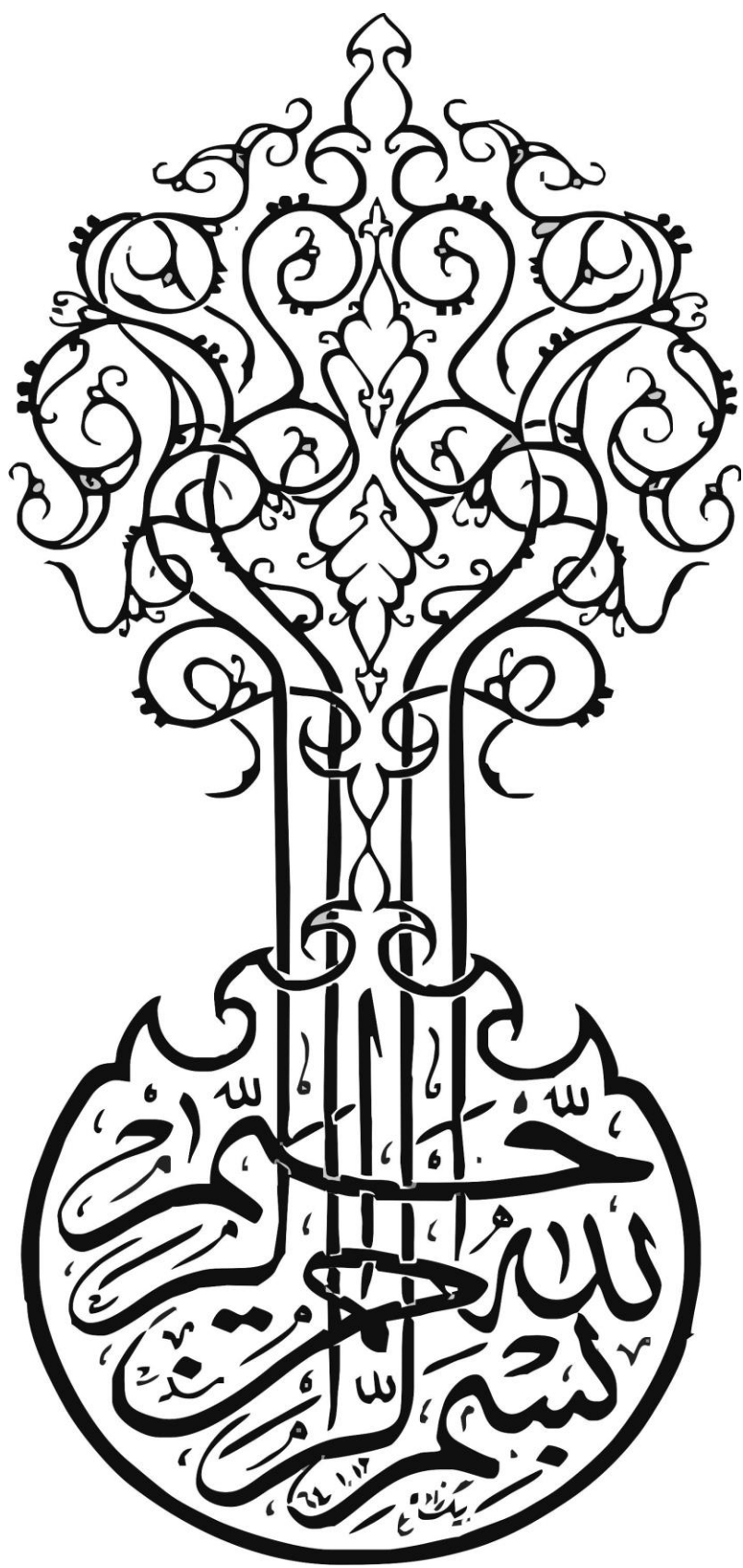
إعداد الطالبة:
نوال مساعد

تاريخ المناقشة: 2017-01-16

أمام لجنة المناقشة المكونة من السادة :

أ.د./ عبد المالك ضيف	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	رئيسا
أ.د./ علي بولنوار	أستاذ التعليم العالي	جامعة المسيلة	مشرفا و مقررا
د/ محمد بن صالح	أستاذ محاضر أ-أ-	جامعة المسيلة	ممتحنا
أ.د./ محمد عزوي	أستاذ التعليم العالي	جامعة سطيف	ممتحنا
د/ العربي بن مسعود	أستاذ محاضر أ-أ-	جامعة الجلفة	ممتحنا
د محمد عزلاوي	أستاذ محاضر أ-أ-	جامعة الجلفة	ممتحنا

السنة الجامعية: 2017/2016



{رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي
عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} . (النمل آية 19)

مقدمة

مقدمة:

يأتي البحث " أشكال الرّمز في القصيدة الشّعبية - شعراء منطقة بوسعادة أنموذجاً - " في وقت شهد فيضاً في الدراسات النّقدية حول الشّعر الشّعبي، و مبادرات من طرف بعض النّقاد والباحثين الذين تناولوا القصائد الشّعبية في بحوثهم الأكاديمية كمواضيع جادة للدراسة والنّقد.

وليس هذا فحسب؛ بل تتوّعت المنابر النّقافية التي تتولّى طبع دواوين الشّعراء وإصدارها، وقد ساهم ذلك بشكل كبير في إخراج هذه القصائد إلى عالم النّشر؛ عالم النّور. ومهما قيل ويقال؛ فإنّ الأدب الشّعبي في الجزائر شهد تطوّراً واضحاً منذ الاستقلال، وتصدّره الشّعر الشّعبي، وذلك من حيث الكمّ والكيف، حيث واكب جميع التغيّرات الحاصلة، واحتفظت الذاكرة الشّعبية بقسط كبير من هذا الأدب، و ساهم الرواة في بقاء النّصوص حيّة إلى وقت متأخّر، كما أنّ التكنولوجيا المتطوّرة يوماً بعد يوم ساعدت على تخزين كمّ كبير من الأعمال التي صرنا نلجأ إليها بطريقة سريعة من خلال شبكات التواصل الاجتماعي وصفحات الشّعراء عبر الإنترنت.

ويعالج البحث قضية هامّة من قضايا النّقد الأدبي؛ وهي قضية تهتمّ بالحضور المكثّف للرموز الفنيّة في الشّعر الشّعبي؛ حيث يشكّل الرّمز وسيلة إبلاغيّة وإيحائيّة لا يستغني عنها الشّعراء في بناء قصائدهم، لِمَا تحمله من دلالات متنوّعة وأفكار متعدّدة، توحى بما يختلج في نفسيّة الشّاعر. و لِعَايَات خاصّة: أدبيّة، وجماليّة، واجتماعيّة، وغيرها، يجعل الشّاعر من الرّمز قناعاً وستاراً.

وقد تناول هذا البحث جانباً من المسيرة الشّعرية لشعراء منطقة بوسعادة إحدى أشهر المدن الجزائرية، وأكثرها عراقية، وأشدّها غوصاً في أعماق التّاريخ؛ هي منطقة سياحية خلّدها الرّسام العالمي المشهور " نصر الدّين ديني " في كتبه ولوحاته وقال عنها مقولته المتوارثة عند أبناء بوسعادة: (لو كانت الجنّة في

السّماء لكانت فوق مدينة بوسعادة، ولو كانت في الأرض لكانت هي مدينة بوسعادة).

وتناول البحث بين دفتيه دراسة نقدية لهذا الشعر الشعبي المنتشر في مناطق بوسعادة وأرجائها وضواحيها؛ وتناولت هذه الدراسة الفنية أشكال الرّمز المبنوثة في هذه القصائد الشعبية، حيث كان التّركيز بصورة واضحة على الرّموز الشعرية التي بَالَع شعراء المنطقة في توظيفها واستخدامها للدلالة على معانٍ ومدلولات ذَهَبَ الشعراء إلى الاستعانة بها رغبةً منهم في الوصول إلى قَمّة البيان والجمال الفنّي، فكان استخدامهم لهذه الرّموز تارة بشكل عفويّ، وطورا بشكل متعمّد، وجاءت في أغلب الأحيان بالسّليقة والفطرة؛ وهذا ما لاحظناه في الرّموز التي تتعلّق بالطبيعة خاصّة.

وكان التّركيز في هذه الدّراسة على أهمّ شعراء المنطقة؛ وأكثرهم شهرة، وذلك لتشجيعهم من جهة، ومن جهة أخرى تعريف جمهور المتلقّين بهم وبرموزهم التي استخدموها في قصائدهم الشعبيّة. كان هذا بداية، وسنليه - بحول الله - دراسات أخرى حول شعراء آخرين لا نقول أنّهم أقلّ شهرة من هؤلاء أو أنّ قصائدهم لا تصل إلى الجودة الفنيّة المطلوبة، ولكنّ ظروفهم - ربّما - هي التي لم تساعدهم على الوصول إلى المنصّات الوطنية، أو أنّ ذلك كان برغبة منهم، وهذا أمرٌ نادر.

حيث كنّا أنقصيّ الحقيقة دائما عند قيامي بالعمل الميداني، وأنعمّد الحصول على القصائد الشعبيّة مباشرة من أفواه أصحابها، وقد كلّفني ذلك الرّحيل إلى كلّ شاعر في مواعيد خاصّة، ومحاورته في بيته أمام أسرته لنقل المعلومة بكلّ أمانة، وما زاد ثقتي بهؤلاء الشعراء هو محافظتهم على المواعيد، وكرم أخلاقهم، وتفانيهم في مساعدتي، والسّخاء الواضح الذي أظهره عند استقبالي، وترحيبهم بشخصي وبما أحمله من شوق ولهفة لسماع القصائد وشرح ألفاظها وفهم معانيها.

وهذا كلّه تفاديا لبعض المشاكل كالانتحال والسرقات العلمية التي وقعت سابقا واطّلت عليها في بعض الرسائل الأكاديمية، وقد أذهلني ذلك، وآلمني.. والموضوع متشعب يحتاج إلى تحقيق ودراية وبحث مستفيض...

منذ البداية؛ جعلتُ أتحرى الصدق فيما أكتبه وأكثُر من ترجمة الأعلام وأقارن الأحداث والتواريخ، ولا أنقل إلا ما أظنه صحيحا بعد دراسة وطول أمل وتحقيق، وفي كلّ مرّة كنتُ أضع في الحساب بأنّ المتلقّي لا يعرف شيئا وأنا عليّ أن أوصل إليه المعلومة الصحيحة، ثمّ إذا أراد المتلقّي أن يستزيد في بحثه عن أمر ما كنتُ أضع أسماء الكتب التي أحسبها قد تفيده بعدما أقلب صفحاتها صفحة بصفحة.

لم أكن أترك أيّ كلمة وأيّ شطر من قصائد الشعر الشعبي إلا وشرحت منه ما كنتُ أظنه صعباً على المتلقّي، ومع أنّ لهجة القصائد لم تكن صعبة إلى حدّ ما لكنني - ولحاجة في نفسي - كنتُ دائماً أتخيّل بأنّ المتلقّي غريبا عن المنطقة ولن يفهم الأبيات إلا إذا شرحت شرحا مستفيضا.

فكنتُ كلّما استصعبتُ أمراً اتّصلتُ هاتفياً بأحد الشعراء لأجدّ الحلول لديه، وإذا اختلط عليّ الأمر في فهم بعض الأبيات أو الألفاظ أو المعاني أسأل أحدهم ليشرح لي ما صعب عليّ فهمه. وهذا ما خلق بيني وبين هؤلاء الشعراء رابطة محبة وتقدير توجت بما أضعه بين أيديكم اليوم.

حاولتُ أن أعبر بلغة بسيطة وتحرّيتُ السهولة في اختيار الألفاظ والعبارات لضرورة وضوح الأفكار؛ فالبحتّ موجّه لطبقات مختلفة وأهمّها الطبقة الشعبية وما أكثرها! بما أنّ المدونة من الوسط الشعبي فالدراسة - في نظري - لا بدّ أن تكون قريبة من الذوق الشعبي وسعة إدراكه، لذلك كان عليّ التخلّي في الكثير من المحطّات - في هذه المذكرة - عن اللغة الأكاديمية العميقة الصّعبة.

وقد تعمّدتُ شرح الأبيات الشعرية في هامش الصّفحات بطريقة سهلة وبلغة بسيطة ومفهومة، وحاولتُ قدر الإمكان أن أحافظ على لهجة الشعراء دون المساس بالمعنى الذي يقصده الشاعر، لأنني لاحظتُ بأنّ لغة الشعراء في منطقة

بوسعادة تميل إلى اللغة العربية الفصحى، وعمدتُ أيضاً إلى إدراج بعض الرموز حتّى وإن لم يكن لها جانب فنّي واضح المعالم، إلا أنّني ارتأيتُ ضمّها لمضمون المذكرة ترسيخاً لجانب القيم في الحياة، لِمَا تحمله من عبق أخلاقي وتاريخي وديني وإيماني وتعليمي وثقافي...

وتحرّيتُ قدر الإمكان جمال الأبيات الشعريّة من حيث الموسيقى الشعريّة وجمال حرف الروي والقافية، وكذلك حسن الرّبط بين الألفاظ وتماسكها، أي جمال بنيتها الفنيّة. وذلك من خلال الاكتفاء بعدد قليل من القصائد التي تحوي رموزاً واضحة. فما الدّاعي إلى توظيف العديد من القصائد دون الوصول إلى هدف البحث وهو تحديد الرموز الهامّة في القصيدة الشعبيّة ومحاولة فكّ شفراتها والبحث عن مدلولاتها؟!

وكان عليّ منذ أن بدأتُ عملية جمع المدوّنّة الشعريّة والتخطيط لدراستها دراسة فنيّة أن أضع في الحسبان إشكاليّات أحاول الإجابة عليها في شكل فرضيّات تجعل البحث ذا قيمة ووزن وأهميّة جمالية وفنيّة. ومن هذه الأسئلة ما يلي:

- ما هو واقع الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة بشكل خاص وفي الجزائر بشكل عام؟!
- ما هي الأغراض التي نظم فيها هؤلاء الشعراء؟! وإلى أيّ مدى حقّقوا مكانتهم في الأوساط الشعبيّة وعبر المحافل الوطنيّة؟!
- ما هو " الرّمز "؟! وما هي أهمّ الرموز التي وظّفها شعراء القصيدة الشعبيّة في منطقة بوسعادة؟! وعلام دّل كلّ رمز منها؟!
- كيف تعامل هؤلاء الشعراء مع هذه الرموز الموظّفة؟! وهل كان توظيفهم لها ذا جودة فنيّة ودلالات جمالية؟!

من هنا؛ كانت الانطلاقة الفعلية للإجابة على هذه الأسئلة وغيرها.. وهي أسئلة لطالما راودتني وأردتُ أن أجد لها أجوبة شافية كافية؛ حيث كانت البداية

بفصل تمهيدي عرّفت من خلاله الرّمز لغة واصطلاحاً، وذكرت مفهومه عند الغرب وعند العرب ثمّ جمالياته في الدّراسات الأدبية.

وتلا ذلك فصول تطبيقية ثلاثة: تناول الأول رمز الطبيعة من حيث المفهوم وعلاقة الشعراء بالطبيعة ورموز الطبيعة الموظفة كالمكان والزّمان والحيوان والنبات. وتناول الثاني رمز التّراث من حيث المفهوم وعلاقة الشعراء بالتّراث ورموز التّراث الموظفة كالأولياء الصّالحين والفنّانين ورجال الدّين (الأئمة) والنّوّار (المجاهدون) والشّعراء العشّاق. وتناول الثالث رمز الدّين من حيث المفهوم وعلاقة الشعراء بالدّين ورموز الدّين الموظفة وهي كثيرة. والخاتمة التي لخصت فيها ما استطعت التّوصّل إليه من ملاحظات رأيت بأنّها قد تفيد الباحثين من بعدي.

ولا بدّ لكلّ دراسة من منهج معيّن أو أكثر ينظّم الباحث على أساسه مادّته؛ وقد كان للمنهج السّيميائي (السّيميولوجي) حضور لافت في هذا البحث، إضافة إلى المنهج البنيوي (البنائي) ونظرية التّناص وهي مناهج حديثة، وكان للمنهج التحليلي والوصفي والتّاريخي والنّفسي والجمالي آثار واضحة - أيضاً - في هذه الدّراسة.

وفي خضمّ هذه السّنوات لجأت إلى العديد من المصادر والمراجع بعد القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، والتي اعتقدت بأنّها نافعة لدراستي هذه؛ منها: القواميس والمعاجم العربيّة القديمة والحديثة وكتب النّقد التي اهتم أصحابها بمواضيع عامّة ومواضيع خاصّة كالسّيمياء والرّمز، والكتب التي تخصّص أصحابها في الشّعر ومنه الشّعر الشّعبي، وبعض الكتب التي تهتمّ بالسّير والتّراجم، وبعض المجلّات والمذكّرات، إضافة إلى الدّواوين المخطوطة لدى شعراء القصيدة الشّعبية في منطقة بوسعادة.

وبطبيعة الحال لم يكن سهلاً عليّ خلال هذه السّنوات وأنا الأنثى التي لم تدّخر جهداً في البحث عن المعلومة أينما كانت؛ من اجتماع بالشّعراء، والتّقاء بالرواة، والبحث عن الكتب المناسبة لهذه الدّراسة في المكتبات والمعارض، لم يكن

أبدا سهلا عليّ التّرحال وكسب ثقة الآخرين وحمل النّقيّل من المعارف ضمن الكتب الكثيرة وإهدار الجهد والوقت والمال لو لم أجد لذة في البحث والعمل الميداني ولو لم أجد في نفسي راحة في التّعرّف على أناس متميّزين، ولولا صفات ذاتية أحملها في شخصيّتي لما كنتُ لأنال شيئا ولما كنت لأصل إلى إنهاء هذا البحث.

فأنا لم أجد صعوبة في التّعامل مع مختلف طبقات المجتمع حسب العمر والجنس؛ ومردّ ذلك إلى طبيعتي الاجتماعية وتربيتي وسط عائلة ضمت الكبير والصّغير، الشّيوخ والكهل، الشّاب والطفّل، الأنثى والذكور.. وكذلك سهولة تحاوري وتواصلي مع الآخرين، وخاصة كبار السنّ منهم.

وما حزّ في نفسي هو عدم وجود دواوين مطبوعة عند هؤلاء الشّعراء في منطقة بوسعادة؛ وكلّ ما كان بحوزتهم هو قصائد مكتوبة بخطّ أيديهم محفوظة عندهم بعناية.

أمّا ما يخصّ البحث في كتب النّقد التي تتناول موضوع الرّمز فالأمر صعب جدّا خاصة مع وجود الكثير من الكتب التي تُعنى بهذا العنصر؛ وهو الأمر الذي يُرهق الباحث ويخلط عليه الأمور ويعقّد عملية البحث وجمع المعلومات وترتيبها في نظره؛ وهذا ما حدث معي أنا خاصّة في الفصل التّمهيدي.

كما أنّني تخليتُ في الكثير من المحطّات عن الكثير من العناصر التي لم تتوفّر لديّ حولها معلومات كافية مثل بعض الشّخصيات التّاريخية، وبعض الرموز التي لم تكن بحوزتي أبيات شعرية كافية حولها. وتركتُ كلّ ذلك لدراسته في وقت لاحق.

وكم كنتُ أودّ أن أعيد الكلمات الدّارجة إلى أصلها الفصيح؛ ولكنّ أعباء الحياة لم تترك لي المجال للبحث في المعاجم والقواميس مع أنّها متوفّرة لديّ، ومع ذلك لا بأس بأن أخصّص لها وقتا لاحقا. وربّما يبقى البحث في أصول هذه

الكلمات أرضاً خصبة يزرعها الباحثون من بعدي ويحصدون ثمارها للأجيال القادمة.

ولا يخفى على أيّ باحث في الشعر الشعبي صعوبة كتابة هذا النوع من الشعر؛ فهو شعرٌ بلهجة محلية لو نقص فيه حرفٌ أو زاد سيتغيّر معنى الكلمة أو الجملة وبالتالي تتغيّر دلالة البيت بأكمله. وهذا ما يُجبر الباحث على الاعتناء أكثر بالأبيات الشعرية وإعطائها وقتاً أطول من حيث الكتابة الصحيحة والتشكيل، فهو شعرٌ مسموعٌ أكثر منه مكتوب، يعتمد على المقاطع الصوتية بطريقة واضحة.

ورغم كلّ الصّعوبات التي ذكرتها والتي لم أذكرها؛ فإنّ ذلك لم يكن أبداً لِيَقِفَ حَجَرَ عَثْرَةٍ في طريق إنّهائي لهذا البحث. لأنّني أعرف جيّداً أنّ فرحة التّسوية بالشّهادة وإسعاد الوالدين والأهل والشّعراء تهوّن تعب الليالي والأيّام، لذلك أنا سعيدة جداً، وأحمدُ المولى عزّ وجلّ على توفيقه لي وعلى أنّه أوصلني إلى هذه المحطة الهامة من حياتي العلميّة.

وأتمنّى أن تفتح دراستي هذه مجالاً واسعاً للباحثين والدّارسين لمناقشة قضايا أكبر تتعلّق بالنّسب العربيّ لقبائل أولاد نايل، وبعض العادات والتقاليد الموروثة عن القبائل العربية منذ العصر الجاهلي، والأصول الفصيحة لأغلب الألفاظ والكلمات المستخدمة من طرف سكان المنطقة وشعرائها، وللبرهنة على ذلك يجب التّقرّب أكثر من شعر هذه المنطقة من خلال تحقيقه والتّعمّق في معانيه ودلائله.

وأرجو من المولى عزّ وجلّ أن يكون مجهودي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يُضاف عملي هذا إلى ما سبقه من أعمال الباحثين، وأن يرقى بحثي هذا إلى مستوى أذواق القرّاء والمتلقّين. والشّكر موصول لأستاذي المشرف على هذا البحث، والذي كان عوناً لي على تذليل الصّعاب، وتصويب الأخطاء، ولطالما شجّعني من خلال كلماته الطيّبة، ونصائحه الصّائبة الرّشيدة.

وبالغُ احترامِي وتقديرِي للجنة المناقشة التي تكبّدت عناء ومشقّة قراءة هذه
المذكّرة ونقدها نقدًا بناءً ممّا سيجعلها طبعة منقّحة جاهزة للعرض في رفوف
المكتبة الجامعيّة.

فصل تمهيدي:

ماهية الرّمز

1.1.1 - لفظة الرمز حسب المعاجم القديمة:

تشابهت أغلب التعاريف اللغوية لكلمة (الرمز) في معظم المعاجم العربية القديمة، وأشار أصحابها إلى أنّ لفظة (الرمز) من حيث الجانب اللغوي تعني الإشارة والإيماء بالشففتين أو الحاجبين، أو بقية أعضاء الجسم كالفم أو اليد أو اللسان، وقد تكون هذه الإشارة بطريقة خفية.

هذا ما أشار إليه أغلب اللغويين العرب في المعاجم العربية القديمة التي عدنا إليها. حيث أورد صاحب "مختار الصحاح" في مادة [رمز] قوله: "(الرمز) الإشارة والإيماء بالشففتين والحاجب."¹

في هذا التعريف اللغوي اقتصر "الرازي" صاحب "مختار الصحاح" على عضوين في وجه الإنسان هما: الشفتان والحاجب، وجعل حركة الإيماء والإشارة محصورة عليهما.

بينما نجد لغويّاً آخر وهو "الفيروزبادي" لا يحصر هذه الحركة في عضوين فقط من وجه الإنسان بل يتعدّى ذلك إلى أعضاء أخرى خارج الوجه كاليد مثلاً، حيث يقول في مادة [رمز]: "الرّمز، ويضمّ ويحرّك: الإشارة، أو الإيماء بالشففتين أو العينين أو الحاجبين أو الفم أو اليد أو اللسان، يَرْمُزُ وَيَرْمُزُ".²

هنا؛ جعل "الفيروزبادي" حركة الإيماء والإشارة تصدر عن أعضاء مختلفة في وجه الإنسان كالعينين والفم واللسان، بالإضافة إلى عضو خارج الوجه، هو اليد.

أما اللغوي "ابن منظور" فقد أضاف إلى حركتي الإشارة والإيماء إشارات أخرى كالتصويت الخفي باللسان، وهو ما يطلق عليه الهمس، هذا يعني أنّ لفظة الرّمز عند "ابن منظور" تدل على الإشارة والإيماء بأعضاء الوجه كالحاجبين

1 - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990، مادة [رمز]، ص112.

2 - مجد الدّين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزبادي الشيرازي الشافعي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج2، 1995، مادة [رمز]، ص284.

والعينين والشففتين والفم، إضافة إلى الإشارة باليد وكذلك ما أسماه الهمس، أي أنّه ضمّ الصوت الخفي والكلام المبهم إلى دائرة الحركات السابقة.

يقول في باب الرّاء، مادة[رمز]: " الرّمز: تصويّت خفيّ باللسان كالهمس، ويكون تحريك الشّفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت، إنّما هو إشارة بالشّفتين، وقيل: الرّمز إشارة وإيماء بالعينين والحاجبين والشففتين والفم ".¹

ويضيف " ابن منظور " أنّ الرّمز من ناحية الجانب اللغوي هو كل ما نشير إليه ممّا نستطيع التعبير عنه وعن معناه بالألفاظ بأي شيء أشرنا إلى ذلك سواء كانت الإشارة باليد أو بالعين أو بغيرهما، " والرّمز في اللغة كلّ ما أشرت إليه ممّا يُبان بلفظ، بأي شيء أشرت إليه، بيد أو بعين؛ ورَمَرَ يَرْمُرُ وَيَرْمُرُ رَمْرًا.. وَرَمَرَتْهُ المرأة بعينها تَرْمُرُهُ رَمْرًا: غَمَرَتْهُ، وَجَارِيَّة رَمَازة: غَمَازة ".²

1- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة،

مصر، مادة[رمز]، ص1727.

2 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

2.1.1 - لفظة الرمز حسب المعاجم الحديثة:

لم تختلف المعاجم الحديثة عن المعاجم القديمة في تعريف لفظة الرّمز، حيث أشار أصحابها إلى أنّ هذه اللفظة تعني في جوهرها الإشارة والإيماء. أورد " عبد الله البستاني " تعريفاً لغوياً للفظّة الرّمز، وهو التعريف نفسه الذي أشارت إليه المعاجم القديمة. إلّا أنّه أضاف مصطلحاً جديداً يدل على ما يشير إلى شيء آخر، ويُقال لذلك الشيء المقصود مرموزاً إليه. مصطلح " المرموز إليه " هو الجديد الذي جاء به البستاني حيث يقصد بالمرموز إليه الشيء الذي نشير إليه، ونقصده بالرّمز. يقول البستاني في باب الرّاء، مادة[رمز]: "رَمَزَ إِلَيْهِ يَرْمُزُ وَيَرْمُزُ رَمَزًا أَوْ مَأْ بِشَفْتَيْهِ أَوْ عَيْنَيْهِ أَوْ حَاجِبَيْهِ أَوْ فَمِهِ، وَفِي فَهْمِ اللُّغَةِ لِلتَّعَالِي أَنَّهُ بِالشَّفَةِ.. وَالْمَرْأَةُ تَرْمِزُهُ بَعَيْنِهَا رَمَزًا غَمَزَتْهُ"¹. ويضيف "البستاني" في تعريفه للرمز: "الرّمز والرّمز والإيماء أو الإشارة وربّما أطلق الرمز على ما يشير إلى شيء آخر ويقال لذلك الآخر مرموز إليه كقوله:

وَقَالَ لِي بِرُمُوزٍ مِنْ لَوَاحِظِهِ إِنَّ الْعِنَاقَ حَرَامٌ قَلْتُ فِي عُنْقِي"².

هذه التعاريف اللغوية للرمز متشابهة إلى حدّ ما، وكلها توحى إلى معنى واحد هو الإشارة والإيماء.

حيث وردَ أيضاً في قاموس عربي حديث آخر عن التعريف اللغوي للفظّة الرّمز ما يلي: "رَمَزَ أَشَارَ؛ أَوْ مَأْ.. الرّمز الإشارة؛ الإيماء؛ ما يُشير إلى معنى خفي"³.

1 - عبد الله البستاني: البستان - معجم لغوي مطول - مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص427.

2 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 - هيئة الأبحاث والترجمة لدار الراتب الجامعية: الأسيل - القاموس العربي الوسيط - (عربي/عربي)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان، مادة[رمز]، ص345.

هذا يعني أنّ مجمل المعاجم والقواميس العربية القديمة والحديثة كلها اشتركت في تعريف واحد للفظ الرّمز، واتفق أصحابها جميعهم على أنّ لفظة الرمز تعني الإشارة والإيماء.

3.1.1- لفظ الرّمز في القرآن الكريم:

وردت لفظة الرمز في القرآن الكريم في سورة آل عمران في قوله سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً، قَالَ آتِيكَ أَلَّا تَكْلِمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسِيِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ} (41).¹

جاء القول في هذه الآية الكريمة على لسان نبيّ الله زكرياء -عليه السلام- حين دعا المولى عزّ وجلّ أن يهبَ له من لدنه وليّاً، يريد بذلك ولداً صالحاً يرثه، بعد أن وهن العظم منه واشتعل رأسه شيباً، وخاف الموالى من ورائه، وكانت امرأته عاقراً.

فبشّرهُ المولى تبارك وتعالى بغلام اسمه يحيى، حينها أراد زكرياء -عليه السلام- أن يجعل له المولى عزّ وجلّ آية: {قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً} فردّ المولى سبحانه وتعالى مخاطباً زكرياء -عليه السلام- : {قَالَ آتِيكَ أَلَّا تَكْلِمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا}.

والمقصود بالآية التي أرادها زكرياء -عليه السلام- حسب كتب التفسير ومنها "تفسير الجلالين"؛ هو العلامة على حمل امرأته، أمّا الرمز هنا فمعناه الإشارة²، والإشارة في هذه الآية قد تكون إشارة باليد، أو الرأس، أو العين، أو اللسان أو بالإصبع.

1 - سورة آل عمران، الآية (41).

2 - ينظر: جلال الدّين المحلّي، جلال الدّين السيوطي: تفسير الجلالين، تحقيق: صبري محمد موسى، ومحمد فايز كامل، دار الخير، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا، ط1، 2001، ص55.

نستنتج من خلال التعاريف السابقة للفظّة الرمز سواء من خلال المعاجم والقواميس القديمة أو الحديثة أو حتى من خلال القرآن الكريم وكتب التفسير أنّ هذه اللفظة أي لفظة الرمز تعني من الناحية اللغوية الإشارة والإيماء.

2.1- الرّمز اصطلاحاً:

الرمز هو صورة شعرية جميلة من أروع الصور الفنية التي استخدمها الشعراء في قصائدهم سواء كان هذا الاستخدام بطريقة عفوية تلقائية أو بطريقة متعمدة.

والرمز هو من أهم الوسائل الفنية في الشعر، حيث " يعتمد الشاعر فيه إلى الإيحاء والتلميح بدلا من اللجوء إلى المباشرة والتصريح " ¹.

هذا التعريف الاصطلاحي يعود بنا إلى المعنى اللغوي للرمز، من حيث هو إشارة وإيماء؛ والفرق بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للفظّة الرمز، أنّ الأول هو الإشارة بأحد أعضاء الجسم وخاصة منها أعضاء الوجه. أما الثاني فهو اللعب بالألفاظ والكلمات واستخدامها للدلالة على معان خفية تفهم من وراء الأسطر والأبيات.

ويمكننا تعريف الرمز على أنه " تلك المعاني الخفية التي يسعى الشاعر إلى التعبير عنها مستعينا بالألفاظ والتعابير الدالة التي تحمل أبعادا جديدة، تدفع المتلقي إلى البحث عنها وكشفها " ².

فالشاعر يغوص في كُنْهِ الأشياء، يلاحظها ملاحظة دقيقة، ويحاول الربط بين معانيها وبين معانٍ مشابهة لها، ثم يستتبط الأسرار الدفينة في داخلها، فيكشف من خلال بحثه ما يوصله إلى نقاط التشابه بينها، فيكون ذلك قد وُلِدَ رمزا.

1 - ناصر علي: بنية القصيدة في شعر محمود درويش، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ط1، 2001، ص146.

2 - نواره ولد أحمد: شعرية القصيدة الثورية في اللّهب المقدّس، دار الأمل، الجزائر، 2008، ص129.

وعلى المتلقي بعد هذه المرحلة أن يبحث عن المعاني الخفية لهذا الرمز الذي يعتمد على التشابه النفسي بين الأشياء "وهو ثمرة يقتطفها الشاعر من خلال إدراكه الحدسي للعلاقات العميقة والخفية بين الظواهر المادية وما يختبئ وراءها من أسرار، ثم يوظف الطاقة الإيحائية المتولدة من التقاء الأشياء للكشف عن تلك الأسرار".¹

ومَهْمَة المتلقي مهمة مضاعفة، فعليه أن يقرأ ويفهم معاني القصيدة، ثم عليه أن يحلّ الألغاز ويفكّ الشفرات، ليصل بعد هذه المراحل إلى الرموز المستعملة من طرف الشاعر.

وقد يتعسّر على أحد المتلقين الوصول إلى هذه الرموز، بينما يصل متلقٍ آخر إليها، وقد يحسن المتلقي فهمها، وقد يخفق في فهم معناها، إلا إذا تعارف جمهور المتلقين على رموز معينة، وأصبحت متداولة بين الشعراء، وصارت معانيها مشتركة، تدل على أشياء معينة، في هذه الحالة فقط يمكن كشف هذه الرموز وتحديد المرموز إليه بدقة، فالرمز "يُوحى بالمعنى لكنه لا يعبر ولا يفصح عنه".²

يستخدم الشعراء الرموز بمختلف أنواعها رغبة منهم في إخفاء بعض التفاصيل، أو خوفاً من إظهار بعضها، فالشاعر من خلال رموزه يريد أن "يعبر عمّا يخبئه الباطن، يكشف دلالة هذا الخفي المشار إليه بالإيحاء".³

وأجمل الرموز وأحسنها هو الذي لا يفضحه الشاعر في ثانيا قصيدته أو في آخرها، ليبقى مرموزه مجهولاً، وعلى المتلقي أن يكشفه حسب مرجعيته الفكرية. ولا يشترط وجود تشابه حسي بين الرمز والمرموز، لأن المواقف والأحداث والتجارب الشعورية "التي يَبني الشاعر من ثمراتها رؤيته الخاصة للكون والواقع

1 - عدنان حسن قاسم: التّصوير الشعري - رؤية نقدية لبلاغتنا العربية - الدار العربية، مدينة نصر، 2000، ص167.

2 - عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2010، ص148.

3 - نواره ولد أحمد: شعرية القصيدة الثورية في اللّهب المقدّس، ص128.

هي التي تمنحه البصيرة الواعية المكتشفة لطابع الأشياء، وجواهر الظواهر المادية المتناثرة والمبعثرة، فيعقد التشابه بينها بواسطة الرمز".¹

وتختلف أنواع الرموز بحسب مصادرها، فمنها رموز الطبيعة، ورموز الدّين، ورموز التاريخ والتراث، والرموز الأسطورية.. منها ما توارثه الشعراء العرب شاعرا عن شاعر آخر، ومنها ما اخترعه الشعراء أنفسهم وتميزوا به عن غيرهم، ومنها ما تبنّاه الشعراء العرب مستلهمين إياه من الأدب الغربي.

فجعل هؤلاء الشعراء العرب يكتفون من استخدام الرموز الغربية في أشعارهم، حتى غدت قصائد بعضهم طلاسماً غير مفهومة، ولعل "هذا ما توصل إليه الوعي النقدي إلى غاية تطور آراء جديدة تتصل بالمفاهيم والرؤى الغربية التي جعلت من النص العربي يستلهم تقنياته من النص الغربي، وتطور معها مفهوم المصطلح في البلاغة الجديدة، حتى أصبح مصطلح الرمز لا يتوقف عند حدّ الإشارة فقط، في مجالها الضيق، إنما توسع ليكون علاقات بين الظاهر السطحي والخفي العميق".²

لقد أصبح النص العربي في العصر الحديث نموذجا للنص الغربي، وكثير عند شعراء العرب استخدام الرموز التراثية، وأهمها الآلهة اليونانية كصورة عن الأساطير القديمة الممتدة في جذور الأدب اللاتيني.

والحديث في هذا الموضوع متفرّع، لذا يمكننا القول بأن الرمز هو عبارة عن لفظة تشير إلى شيء معين، وللشاعر حرية اختيار رموزه، وتوظيفها حسبما أراد، ومتى أراد، المهم في ذلك هو أن توظف هذه الرموز توظيفا فنيا، يساهم في خلق جوّ رمزي في النص، ويثير في نفس المتلقي دهشة لمتابعة عملية القراءة، للبحث في أغوار القصيدة عن معانيها، ولفكّ شفراتها وحلّ ألغازها، وللقارئ الحق في خلق نص جديد بعد هذه المراحل.

1 - عدنان حسين قاسم: التصوير الشعري، ص176.

2 - نواره ولد أحمد: شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، ص129.

والشاعر الفحل المجيد هو الذي يعطي لرموزه بعداً جديداً ومتجدداً في كل مرة، وعليه أن يجعل رموزه ناطقة، لأن الرمز هو في حد ذاته كلمة مجردة "ربما لا تعني شيئاً غير دلالتها القديمة، ولا تثير في الشاعر أو المتلقي أي إحساس غير قوقعتها التاريخية التي عرفت بها، وإنما الأساس في إخصابها، وإعطائها ذلك البعد العميق في غور النفس البشرية هو تحميلها البعد الجديد الذي يعيد إليها حياتها، ونبضها بإطار فنيّ واعٍ ومدروس، لتأخذ مداها الشعوري الحسي الذي يستشعره المتلقي في الشعر".¹

يمكننا أن نستنتج مما سبق قوله أن الرمز هو وسيلة فنية، يستخدمه الشعراء في قصائدهم لإخفاء المرموز إليه، وهو عبارة عن لفظة توظف توظيفاً مجازياً لإنشاء صورة شعرية لا يفهمها إلا من اعتاد على ممارسة الشعر قراءة أو كتابة.

وقد يمتزج التعريفان اللغوي والاصطلاحي لللفظة الرمز فالرمز في اللغة هو الإشارة والإيماء، وهو في الاصطلاح استخدام ألفاظ مثيرة وموحية إلى أشياء أخرى، تفهم معانيها من خلال السياق.

1 - عمر أحمد الريحات: الأثر التوراتي في شعر محمود درويش، دار اليازوري العلمية، عمان، الأردن، 2009، ص40.

2- مفهوم الرمز عند الغرب وعند العرب:

1.2- الرمز عند الغرب:

1.1.2- الإغريق:

الفعل رَمَزَ في اليونانية معناه قريب من المعنى اللغوي للفعل رمز في اللغة العربية، فهو يعنى عندهم "الجمع في حركة واحدة بين الإشارة والشئ المشار إليه".¹

وكلمة الرمز عند الإغريق دلت على شئ يقسم بين ضيفين، وكل ضيف يقدم نصفه إلى أولاده ليبقى شاهداً على هذه الضيافة.

يقول "محمد السرغيني": "إن جذر كلمة الرمز دل في العصر الإغريقي العتيق على شئ يقسم إلى نصفين، يقدم كل نصف منهما إلى ضيف من الضيفين اللذين استضافهما مضيف، من أجل أن يعطي كل من الضيفين نصفه إلى أطفاله لكي يعرفوا به، ويكون شاهداً على أن الضيافة حدثت في وقت سابق".²

وجاء أيضاً على لسان الناقد نفسه أن كلمة الرمز عند الإغريق دلت أيضاً على كل ما يمكن من خلاله التعرف على الأشياء كالندوب والبقع اللونية، وقد دلت أيضاً على قطعة معدنية صغيرة لها استعمالان.

حيث يضيف قائلاً: "ثم دلت الكلمة على كل ما يتوسل به إلى التعرف على الأشياء بما في ذلك الندوب الغائرة في الجسم أو البقع اللونية التي تولد مع الإنسان على أن هذه الكلمة إن دلت على تلك القطعة المعدنية الصغيرة jeton فقد استعملت في معنيين: في معنى شهادة الحضور في مناسبة من المناسبات

1 - هنري بيير: الألب الرمزي، ترجمة: هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت، ط1، 1981، ص07، نقلاً عن: هيفرو محمد علي ديركي: جمالة الرمز الصوفي، دار التكوين، دمشق، سوريا، ط1، 2009، ص21.

2 - محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987، ص45.

حين توزع على الحاضرين فيها، وفي معنى بديل عن مبلغ مالي أو مواد غذائية".¹

2.1.2 - الإنجليز:

جاء في الموسوعة البريطانية حول تعريف الرمز ما يلي: "مصطلح أطلق على الموضوع المشاهد الذي يمثل بالعقل تشابه شيء غير مشاهد لكنه تحقق عن طريق الارتباط به أو التداعي".²

الرمز عند الإنجليز يدل على شيء يصح وجود شيء آخر، أو يدل على شيء متواطئ عليه، وقد يكون هو نفسه هو الشيء المتواطئ عليه، ومن أمثله ذلك الحرف المكتوب، والرسالة البريدية والشكل.

وهو: " كل شيء يصح وجود شيء آخر، أو يدل على شيء متواطئ عليه، أو يكون هو المتواطئ عليه نفسه فهو رمز. يذكر قاموس أوكسفورد DICTIONARY OSCFORD أن الرمز عبارة عن شيء يقوم مقام شيء آخر أو يمثله أو يدل عليه لا بالمماثلة وإنما بالإيحاء السريع أو بالعلاقة العرضية أو بالتواطؤ.. من ذلك الحرف المكتوب والرسالة البريدية والشكل FIGURE أو العلامة المتواطئ عليها، هذا الاستعمال الأخير شائع في البلاد الناطقة بالإنجليزية، ذلك أن الحروف كما ذكر بلومفيلد، تصبح رموزا أي علامات أو مجموعات من العلامات التي تدل بالتواطؤ على بعض الأشكال اللسانية".³

والرمز عند الإنجليز يمثل شكلا لسانيا وهذا ما يسميه موريس علامة العلامة، حيث يضيف الناقد نفسه قائلا: " إذ الرمز يمثل شكلا لسانيا بمعنى أنه يكتب حيث يثبت الشكل، أو يجاب عنه كما يجاب على مسموع ذي شكل لساني.

1 -- محمد السرخيني: محاضرات في السيميولوجيا، ص:45.

2 - Encyclopedia Britannica.Vol 21.yeur 1956.p701.

3 - محمد السرخيني: محاضرات في السيميولوجيا، ص45.

هذا ما يسميه موريس علامة العلامة، أي العلامة التي تنتج قصد النيابة عن علامة أخرى مرادفة لها".¹

وله عدة معان مختلفة عن بعضها البعض، ولكنه يدل أيضا في الموسوعة البريطانية على موضوع مشاهد يرتبط بموضوع غير مشاهد عن طريق الارتباط به أو التداعي.

3.1.2 - الفرنسيين :

كلمة الرمز عند الفرنسيين تدل على الوسائل التي توصل إلى كل شيء قابل لأن يعرف، كالرموز الرياضية والمنطقية والكيميائية، ومعناها قريب من المعنى الإغريقي، حيث كانت اللفظة تدل على القطع المعدنية، يعني أنها تحيل إلى المتواطئ عليه.

وهو عندهم ليس اعتباطيا، وخاصة عند دي سوسير؛ "فلا بد إذن من اشتماله على مبدأ ربط طبيعي بين الدال والمدلول. أما عند غيره، فالقضية توافق قياسي أو تداع طبيعي للأفكار أو شيء أو صورة لهما قيمة تذكيرية أو سحرية أو صوفية. ولكن الملاحظة المهمة، هي أن هذا التوافق يحصل بين شيئين ينتمي أولهما إلى العالم الفيزيائي، بينما ينتمي الآخر إلى عالم المعنويات، وبهذا يصبح الرمز دالا على شيء ليس له وجه أيقوني، كالخوف والفرح والحرب والعدل والملكية والديموقراطية والإخلاص والجمعية الرياضية والحركة السياسية".²

هذا الرأي قريب من المعنى الاصطلاحي للرمز عند العرب، والذي هو الإشارة والإيماء، يعني اشتراك شيئين أحدهما رمز والثاني مرموز إليه، وهذا ما قصده سوسير؛ الرمز عنده هو الدال والمرموز إليه هو المدلول. ولكن العلاقة بين الدال والمدلول عند دي سوسير هي علاقة اعتباطية، أما العلاقة بين الرمز

1 - نقلاً عن: هيفرو محمد علي ديركي: جمالة الرمز الصوفي، ص22.

2 - محمد السريغيني: محاضرات في السيميولوجيا، ص45.

والمرموز إليه عند هذا الناقد نفسه فهي علاقة ليست اعتباطية، بل هي علاقة مقصودة، واضحة المعالم.

2.2- الرمز عند العرب:

الرمز عند العرب هو صورة فنية، مجسّدة لمعانٍ كثيرة، تبلغ مداها عند جودة الشعر، وتصبح صورة مكررة عند بعض الشعراء، استخدمه الشعراء لأغراض عديدة، وتوارثوه شاعراً عن شاعر، وتعددت أنواعه بحسب مصادره وحاجة الشعراء إليه، فكان توظيفهم له إما بصورة تلقائية عفوية، أو بصورة جمالية متعمدة.

فالرمز في هذه الحالة " يرتبط بالفعل الإنساني القادر على الولوج إلى أعماق الأشياء واستبصار مكنوناتها، ومن ثمّ فهو ليس إشارة بسيطة، كما هو بالنسبة للأيقونة والشاهد، بل عنصر مهم في تحريك البنية الكلية للغة الشعرية. وفضلاً عن ذلك فالرمز.. يقوم على طابع التحكم بين الدال والمدلول".¹

استخدم النقاد العرب مصطلح الصورة الرمزية كمرادف لمصطلح الرمز، لأن الرمز بالنسبة إليهم هو عبارة عن صورة فنية كغيرها من صور البيان في البلاغة العربية، وقاموا بتعريفها والتمثيل لها وشرحها، شأنهم في ذلك شأن النقاد العرب القدماء حين صبّوا اهتمامهم على الصور البيانية المختلفة، وقاموا بتصنيفها، والتمييز بينها، وتعريفها، وتقديمها والتمثيل لها بشكل مستفيض.

وهكذا؛ فالنقاد المعاصرون تناولوا الصورة الرمزية باعتبارها رمزا، حيث " درست العديد من القضايا الفنية تحت مصطلح الصورة الرمزية، وهذا مبرر يفضي إلى القول بأن الحدود بين الرمز والصورة هي حدود مبهمة، فقد تتداخل مفاهيم الصورة بمفاهيم الرمز.. وقد تلقت الصورة بالرمز في زاوية الغموض والإبهام، حيث تبدو الصورة المبهمة، غير معتادة أو مألوفة، حالها كحال الرمز

1 - ملاس مختار: دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث - عبد الله البردوني نموذجاً، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 2002، ص 21.

الذي غالبا ما تغيب دلالاته عن كثير من القراء، فإذا غاب سياقه عن المتلقي أدى بالضرورة إلى إيهامه".¹

ويمكن القول بأن الفارق بين الرمز والصورة الرمزية ليس في نوعية كل منهما بقدر ما هو في درجته من الإيحاء والتجريد، فالرمز يستخدمه الشعراء للإشارة إلى شيء خفي قد يصعب على المتلقي فهمه، وقد يفهمه من أول وهلة، وهذا الأمر ينطبق أيضا على الصورة الرمزية، فكلاهما "يبدأ من الواقع ليتجاوز إلى ما وراءه، وكلاهما يعتمد على ما يلحظه الشاعر من شبه بين الصورة وما تمثله، والرمز وما يوحي به".²

والشاعر في استخدامه للرمز لا يقصد أن يجعل لغته صعبة غير مفهومة، وإنما يريد بذلك أن يبلغ بقصيدته مستوى فنيا رفيعا، يجعل معه المتلقي في جو من اللذة الشعرية، تبلغ مداها إذا تمّ الكشف عن معاني الرموز.

ومع ارتقاء الفكر البشري ترتقي لغته، ويرتقي تعامله معها، فينتقل من لغة الشمول إلى لغة أخرى أكثر تحديداً، أو بتعبير أوضح من اللغة المشيرة إلى اللغة الرامزة، وهو لا يبغي بهذه اللغة الرامزة تعقيد اللغة، وإنما غايتها الأولى هي "الارتفاع بالمعنى إلى مستوى جديد، وإنماؤه بإيحاء الرمز، وإخصابه بشحنته التعبيرية التي لا يملكها اللفظ المجرد".³

فاللفظ المجرد في حد ذاته قد لا يوحي بأي معنى، وقد لا يشير إلى أي خلفية، ولكنه داخل السياق الشعري، إذا وظف كرمز فإنه "يستطيع أن يولد لدى المتلقي سلسلة من المشاعر يحس فيها قيمة فنية تكمن خلف الرمز، كما أن

1 - محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز - قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر - دار بهاء الدين، الجزائر، ط1، 2009، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010، ص88.

2 - محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1978، ص330.

3 - ينظر: أحمد بسام ساعي: حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1978، ص337.

الصورة الشعرية قد تكون لها قيمة رمزية لأنها بلا جدال تمثل صورة لأغوار الشعور التي لا نستطيع أن نتوصل إليها".¹

فالشاعر هو الذي يتحكم في ألفاظه، وهو الذي يختار لها السياق المناسب داخل العمل الشعري، سواء أكان ذلك بعفوية منه وتلقائية، أو كان ذلك بشكل عمدي قد وضع له الشاعر مخططاً من قبل.

تتزامن الكلمات والألفاظ داخل النص الشعري، مُشكّلة بتجاورها مجموعة من الصور الرمزية، وكل صورة من هذه الصور "يمكن استثارها مرة على سبيل المجاز، ولكنها إذا عاودت الظهور بإلحاح فإنها تغدو رمزاً، وقد تصبح جزءاً من منظومة رمزية أو أسطورية".²

يمكننا أن نستنتج من خلال ما سبق قوله أنّ الرمز عند العرب هو عبارة عن وسيلة فنية، تناوله نقاد العرب بالدراسة والبحث، وأفردوا له أجزاءً مهمة في كتبهم النقدية، وحاولوا المقارنة بينه وبين بقية الصور البيانية في البلاغة العربية، ومنهم من أطلق عليه مصطلح الصورة الرمزية تيمناً منه بمصطلح الصورة البيانية وكذلك مصطلح الصورة الشعرية.

فالرمز عند العرب هو صورة شعرية كغيرها من الصور الفنية التي يستخدمها الشعراء لإضفاء طابع التميز والجمال على قصائدهم، وإنما الجديد عند هؤلاء الشعراء هو استخدامهم لرموز غريبة جعلت من بعض القصائد العربية المعاصرة طلاسماً غير واضحة المعالم.

1 - رجاء عيد: لغة الشعر - قراءة في الشعر العربي الحديث - مطبعة أطلس، القاهرة، مصر، 1985، ص156.

2 - أوستن وارين و رينيه ويلييك: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون، دمشق، ط2، ص244.

3- جماليات الرمز في الدّراسات الأدبية:

يظهر إبداع الشاعر في لعبه بالألفاظ، وفي كيفية تركيبها، ومن خلال تجاورها بعضها مع بعض في السياق الشعري، حيث تظهر قدرة الشاعر في خلق علاقات مختلفة بينها، هذه العلاقات هي التي تولد صورا شعرية متنوعة، "فالتجارب الإنسانية التي يخوضها الشاعر المحدث بكل أبعادها والتواءاتها وأغوارها، وما يكتنفها من غموض، يجعل التصوير الشعري وأدواته في شبه عجز عن اقتحام الممرات المهجورة في مناطق الظل، وينفصح المجال للرمز خاصة ليضطلع بهذه الوظيفة".¹

وتبقى من مهام الشاعر أن يخلق رموزه داخل نصه الشعري، وأن يجعلها قريبة إلى فهم المتلقي، حيث تظهر عبقريته في خلق جوّ رمزي مناسب لموضوع قصيدته، وعلى المتلقي حينئذ أن يكشف عن هذه الرموز؛ لأن هذه الصورة الرمزية في القصيدة " تؤدي وظيفة ودورًا مهمّين في كشف أحاسيس الشاعر وخبراته ورؤاه المختلفة.. وهناك آراء كثيرة وضحت أهمية الرمز بالنسبة للخطاب الشعري ومدى إسهامه في إبراز شعرية النص وجماليته، ما يؤكد إجرائيا أهمية الرمز في الظاهرة الأدبية، وسعيا إلى كشف التفاعل الذي يظهر في القصيدة".²

وهنا تظهر عبقرية الشاعر في إخفاء جوانب مهمّة في نصه، لا تظهر إلا بعد القراءة الواعية للنص الشعري، وهذا الإخفاء ناتج عن ظروف معينة تحيط بالشاعر، وتجعله يمارس طقوسا معينة في قصيدته، وهكذا فحاجته إلى الرمز حاجة روحية، ويمكن أن تكون "نتيجة ضغط تاريخي وثقافي أيضا، وكلما ازداد تعقد الحياة حول الأديب، واشتدّ الابتذال في محيطه السياسي والاجتماعي والثقافي ازداد هو إمعانا في الرمزية".³

1 - عدنان حسين قاسم: التصوير الشعري، ص187.

2 - نؤارة ولد أحمد: شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، ص130.

3 - عثمان حشلاف: الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر (فترة الاستقلال)، منشورات التبيين، الجاهلية، الجزائر، 2000، ص07.

هذا يعني أن الرمز يتجاوز المستويات اللغوية، وذلك لحاجة في نفس الأديب عموماً، والشاعر بشكل خاص، فهو لا يريد أن يكون سطحياً في تعامله مع ألفاظه وعباراته ومن ثم رموزه، وإنما يفعل ذلك "لِيُقيم نوعاً من التواصل الوظيفي بين الأشكال المختلفة. وعلى هذا الأساس، فالرمزية نابعة من منطلق اجتماعي".¹

الشاعر المبدع يخلق رموزه مستخدماً في ذلك خياله الخصب وتجاربه المختزنة، حيث يقوم بعملية إسقاط لرؤاه وأفكاره وواقعه الذي يعيشه على بساط قصيدته، فيكون من ذلك كله رموزاً حية "تبتدع ابتداءً من خلال مزاجية الشاعر بين تجاربه الشعورية بمواقفها الإنسانية، وبين مختزلاته الثقافية وأصالته الفنية التي تركز ارتكازاً أساسياً على القوة التخيلية وفعاليتها وقدرتها على الاستحضار والربط بين الصورة المتجانسة التي يختزنها الذهن من المحسوسات والمعنويات.. وحين يتمكن الشاعر بإمكاناته الذاتية أن يكتشف العلاقات الرمزية فإنه يستطيع أن يستثمر ما يتجمع في إطار الرمز في معان قديمة ويوظفها لصالح تلك العلاقات المستكشفة".²

فالشاعر فنّان، وهو من خلال قصيدته يرسم لوحات فنية متعددة ومتنوعة، وبتوظيفه لرموز حية في نصه يساعد على خلق إشارة فنية ودهشة إبداعية تأسر المتلقي، وتدفعه إلى مواصلة المطالعة والبحث والتنقيب والكشف عن الغموض الموجود في ثنايا الأحرف والعبارات.

فالشعر رسالة روحية قبل أن يكون رسالة تربوية، وجودة الشعر متعة ولذة، وبيانته فنّ وإبداع، ذلك أن الشعر "يُرينا أنفسنا في انفعالها وعواطفها بما يجلوها من صور نفسية والاحتفاظ لتلك النفس بأصالتها، وهو يُرينا الجمال في الحياة، ويعلمنا تقديره لما يبعث فينا من الألفة لكائناته، كما يعلمنا تقدير النفس والحياة".³

1 - نواره ولد أحمد: شعرية القصيدة الثورية في اللهب المقدس، ص 139.

2 - عدنان حسين قاسم: التصوير الشعري، ص 170.

3 - بشير تاويريريت: رحيق الشعرية الحداثية في كتابات النقاد المحترفين والشعراء النقاد المعاصرين، مطبعة مزوار، بسكرة، الجزائر، 2006، ص 87.

يحدث هذا إذا كانت رموز الشعر معروفة لدى الشاعر والمتلقي، أما إذا وظف الشاعر في نصه رموزاً غريبة غير مألوفة، فإن هذا التوظيف من قِبله سيخلق نفوراً في نفس المتلقي، وسيقتل في نفسه دهشة الاستمتاع ولذة القراءة.

ولكن الرموز القوية تأسر المتلقي و " تأخذ كسفاً من لبه، لتخلق به في فضاءات شعرية تجعله يدمج واقعته بماضيه، وآلامه بنصه الشعري "¹، وقد يخفق الشاعر في اختيار رموزه، فيأتي بغريب الألفاظ، فيدسّها في ثنانيا أبياته دساً، ظناً منه أنه أجاد وأبدع، ولكنه في حقيقة الأمر أفسد على المتلقي متعة التفاعل مع نصه الشعري. فالرموز التي يستخدمها الشعراء في قصائدهم الشعرية "منها ما هو غريب على النفس، حتى لو أقحمناه عليها إقحاماً، فإنها تَأْبَاهُ وترفض الاندغام به، وهذا ما يولد للرمز في بعض الأحيان غموضاً غير مبرّر "².

والشاعر في استخدامه لنوع معين من أنواع الرموز، هدفه في ذلك ربط علاقة بمحيطه الخارجي، ورغبة منه في إحياء ماضٍ سحيق، وقد يكون توظيفه لرمز دون آخر بثاً منه لفكرة ما أو ترسيخاً لرأي معين، وخاصة إذا تكرّر الرمز نفسه عند شاعر بعينه.

شأن الرمز في ذلك شأن الصورة الفنية، فالصورة الفنية بهذا "هدفها الكشف ثم تحقيق المصالحة. والفنان الذي يحاول أن يكشف خبايا نفسه في علاقتها بالعالم المحيط له، يضطرّ إلى أن يتوسّل برموز فنيّة تمكّنه من إحداث هذا التواصل وتجديد الصلة بالأشياء والأحياء، بقصد تحقيق الانسجام الذي يتعرض إلى انقطاع وتوتر لسبب من الأسباب، فيلجأ الشاعر في فنّه إلى الرّمز مجدّداً "³.

وكل رمز فنيّ له طرفان، طرف ظاهر وهو اللفظ الذي نرّمز به لشيء معين، وطرف مخفي، وهو المرموز إليه والذي نقصده بالرمز، حيث نجده في المخيلة فقط، وهو المعنى البعيد، من هنا يجب التفريق بين هذين الطرفين، بين "المعنى

1 - عمر أحمد الربيعات: الأثر التوراتي في شعر محمود درويش، ص42.

2 - المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

3 - عثمان حشلاف: الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر، ص06.

الإشاري لكلمة الرمز، وهو معنى مباشر، وبين المعنى الإيحائي للرمز وهو معنى أدبي، فالمفردات إشارات للأشياء، فحينما نقول مثلاً: محبوبة، فإنّ الكلمة تشير إلى المرأة المحبوبة، ولكن الشاعر حين يستخدم هذه الكلمة في سياق ما ، بمعنى إيحائي، فقد تكون بمعنى الأرض".¹

وَيَسْتَخْدِمُ الشعراء التلويح، دون أن يصرّحوا بما يريدونه في مواطن كثيرة، ويمنعهم من ذلك أسباب كثيرة، فالظروف والمجتمع والدين والتقاليد والعادات والأخلاق والأعراف كلها عوامل تتحكم في مشاعر الإنسان، والشاعر بصفة خاصة، ومن المواطن التي يستخدم فيها الشعراء التلويح دون تصريح "مواطن الوجد والعشق والآهات الدفينة، لأن الحياء يلفّ صاحبه، والخجل يحيط به من كل أطرافه، ومن أجل أن يتوازن الإنسان عصبياً ونفسياً كان لابدّ من الكلمة ذات العبارة التي يرتاح لسماعها أو قولها المتقنّ والمتلقّي معاً".²

ويجب أن نوضح أنه ليس معنى التعمق في الصورة الرمزية أن يتحول الرمز من خلالها إلى صورة معقّدة تُعجّ بالألغاز، بحجة أنّ ذلك يثري التجربة أكثر من الوضوح، و "لا نريد من الشاعر التغلغل في سراديب النفس المعتمدة على نحو ما يفعل الرمزيون والسرياليون من الشعراء، إنّما نريد أن تكون التجربة الفنية حديث النفس بحيث تميّز شاعرها".³

هذا الرأي للناقد شوقي ضيف، وهو رأي الكثير من النقاد المعاصرين، فالإسراف في توظيف الرموز بأنواعها يجعل القصيدة طلاسماً، يصعب فكّ شفراتها، وهو الأمر الذي يؤدّي إلى نفور المتلقّين وابتعادهم عن قراءة الشعر والاستمتاع به، ومن ثمّ إلى التخلّي عنه كلياً وإبداله بتسلّيات أخرى.

1 - ناصر علي: بنية القصيدة في شعر محمود درويش، ص146.

2 - محمد بركات حمدي أبوعلي: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، دار وائل، عمان، الأردن، ط1، 2003، ص131.

3 - شوقي ضيف: في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6، ص148.

ولكن، مع ذلك تبقى الرموز أداة من أدوات إخصاب الرؤية لدى الشاعر، لها القدرة على الإحياء لدى المتلقين "فإذا أحسن الشعراء توظيفها غدت نبعاً من الإحياء لا يَعْرِفُ النُّضوب، ولكنها - على الرغم من رمزيّتها الخصبة - تجفّ لكثرة تداولها إذا لم توظف توظيفاً فنياً راقياً".¹

1 - وهب رومية: الشعر والناقد من التشكيل إلى الرؤيا (عالم المعرفة)، سلسلة شهيرة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 2006، العدد(331)، ص25.

الفصل الأول:

رمز الطبيعة

1- مفهوم رمز الطبيعة:

الرمز الطبيعي هو استخدام ألفاظ معينة ينتقيها الشعراء من معجم الطبيعة للدلالة على أشياء معينة، يقصدها الشاعر قصداً، ويفهمها المتلقي من خلال سياق القصيدة "هذه الصور أو الرموز الطبيعية لها تأثيرها على الشعور والخيال والاحساس والفكر، حسب اللحظة الوجودية النفسية التي يكون عليها الشاعر، فتترك انطباعاتها في تصويره وخياله، إذ أنه يتذوقها تذوقاً خيالياً أو يستمتع بها استمتاعاً جمالياً. وبهذا الاستمتاع تنشأ ألوان من التآلف الوجداني بين الشاعر وتلك الرموز".¹

فالشاعر يستمتع بعناصر الطبيعة بصورة تلقائية مباشرة، يتأملها تأمل الباحث عن أسرارها، ويوظفها في قصائده توظيفاً جمالياً، لذلك جاءت الدواوين الشعرية عند العرب تفيض بمختلف العناصر الطبيعية وذلك تعبيراً منهم عن حالات نفسية أهمها: الحزن والفرح والإعجاب والحب والغضب.. وغيرها من المشاعر التي تتتاب الشعراء في لحظات المخاض، لذلك "يُعدُّ استمداد الشاعر رموزه بكثافة من معجم الطبيعة بقصد إغناء تجربته الخاصة".²

يلتقي الشاعر بالطبيعة التقاءً مباشراً، ويلاحظ عناصرها كل صباح وكل مساءً، ينتقي منها ما يعجبه، ويسقط ما انتقاه منها على كل ما يريد أن يقصده بالرمز، فحياة الشاعر مرتبطة بالطبيعة ارتباطاً وثيقاً؛ "فكان التقاؤه بها مباشراً وطويل الأمد، حيث لا تحجبه عنها جدران ولا تستتره منها سترٌ، عايشها، وخبر ظواهرها.. وحاول إخضاع حياته لظروفها وإخضاع ظروفها لحياته".³

ويظهر تعلق الشاعر بالطبيعة في توظيفه لعناصرها كرموز، تتجلى هذه الرموز في قصائد الشعراء، وتبرز مدى عشقهم لها، وافتتانهم بجمالها، وإعجابهم

1 - محمد عبد الواحد حجازي: الأطلال في الشعر العربي - دراسة جمالية - دار الوفاء، الاسكندرية، مصر، ط1، 2002، ص235.

2 - عثمان حشلاف: الرمز والدلالة، ص33.

3 - علي البطل: الصورة في الشعر العربي، دار الأندلس، ط2، 1981، ص229.

الصارخ بتقلبات فصولها وأحوالها وظروفها، يشكّلون من ذلك كله لوحات فنية ناطقة بالسحر والروعة، حيث "نجد الطبيعة في جمالها ورقتها وغضارة مباهجها التي تتناسق وتتناسب في رشاقة أخّاذة. فالرياح والزهور بألوانها وأشكالها وعطرها الذي يسري مع الريح والنور الذي ينتشر في السماء فيعطي للزهور ألوانها وللخضرة المترامية ينعها.. كل ذلك يتراقص بموسيقى البلاغة الرشيقة التي تتبعث من الرموز المحسوسة والملموسة لتؤكد أن الحياة تسري في الكون كله. أي أنّ حرية الإرادة الإنسانية فطرة أصيلة لا تخضع للقهر وإنما هي إباء وعزّة وكبرياء.. تلك دعاوها دائماً ورسالتها دائماً".¹

وليست الطبيعة الحيّة الجميلة والبهيجة هي فقط التي تأخذ لبّ الشّاعر، وإنّما الطبيعة الغاضبة أيضاً تأسر الشعراء، فتجعلهم يقعون تحت تأثير هجماتها القويّة المفاجئة، وعنفها، وجبروتها الذي لا تقيد حدود أو قيود.

فالرياح العاصفة المزمجرة، والأمطار الطوفانية المدمّرة، والبرق والرعد المزلزلان، والرمال المتناثرة، والبحار الهائجة، كل هذه الظواهر الطبيعية ترتسم في ذهن الشاعر فيسقطها على حالاته النفسية المختلفة؛ "فقوّة الدمار الفيزيائية تنتج عن تصفيق الأمواج الذي يرغم سكينه البحر على الاندثار، وعن الفراغ الذي تورق فيه الأعشاب، وعن النوارس التي تسرع السّير، وتشغل هذه الحالة للدمار، باعتبارها قوة مادية سالبة لموضوعها داخل علاقة مجازية مرسلّة للتعبير عن حالة الدموع الدفينة وقسوة حرقها واكتواء ضمير المتكلم بلهيب نارها"²، ومن خلال هذه الإسقاطات يتكوّن لدى الشاعر أنواع مختلفة من الرموز الطبيعية.

1 - محمد عبد الواحد حجازي: الأطلال في الشعر العربي، ص113.

2 - الطائع الحداوي: النص والمفهوم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010، ص196.

2 - الشعراء والطبيعة:

اشتغل الشعراء بعناصر الطبيعة منذ الأزل، ولاحظوا ظروفها وتغيّراتها المختلفة، واستمدوا منها ما ناسب هواهم، ولم يكن استخدامهم لهذه العناصر كرموز في قصائدهم استخداما عشوائيا بل كانت حالاتهم النفسية هي المسيطرة على أغلب هذه المواقف.

تعددت الرموز المستخدمة من طرف الشعراء، وتنوعت دلالاتها، فمنها ماتوارثه الشعراء شاعرا عن شاعر، ومنها ما ابتدعه كل شاعر بشكل خاص، وجعله من أدواته المميزة. فالسُّحُب مثلا ترمز إلى الأفكار السوداء والحالة النفسية السيئة للإنسان عند أغلب الشعراء، والنار واللهب توظف عند الشعراء للدلالة على مرارة الحب والعشق في قصائد الغزل، والزهور تُعبّر عن المستقبل والحياة الهائلة السعيدة، والرياح والرعود مثلا رمز للتحدى، والسيل لقوة الشعب، والليل هو "رمز للواقع النفسي الذي استقى مأساته من الواقع الخارجي"¹، فالليل رمز يجسّد الحالة المأساوية للإنسان.

ومن الرموز الطبيعية المستخدمة من طرف الشعراء نذكر أيضا: المطر، الشجر، القمر، النخل، الجبال، السّهول، الوديان، الأنهار، البحار، الأطيّار، الفصول الأربعة، الصباح، المساء، الغروب.. "على أن إقبال هؤلاء الشعراء على الطبيعة، وإن بدا في أغلبه تطلّعا إلى الحرية الذاتية واحتجاجا على المجتمع والحياة، يعود في جانب منه إلى ما عُرف به هؤلاء الشعراء من عشق للجمال في جميع مظاهره. ويتلوّن جمال الطبيعة عندهم حسب مزاج الشاعر وأحواله النفسية"².

1 - آمنة بلعلی: الرمز في بنية القصيدة العربية المعاصرة (دراسة تطبيقية)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1995، ص 92.

2 - عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3، ص 303.

فالحالة النفسية للشاعر حزينة كانت أو سعيدة، غاضبة كانت أو هادئة، حرة كانت أو طليقة، هي التي تنعكس على عناصر الطبيعة مضطربة كانت أو ساكنة، فيحدث من خلال هذا الانعكاس مزج بين الحالتين، ويتولّد نتيجة لذلك رموز بديعة ترقى إلى مستوى الذّوق الفنّي الذي يبرز مهارة الشاعر وقدرته الإبداعية، فالرموز الكونية تتجلى لدى الشاعر علامة على " الانشغال النفسي بمظاهر الطبيعة، باعتبار توحيدها مع الواقع، وتحريكها عبر الأحداث إلى حيث يريد الشاعر نفسه".¹

قد يكون هناك نوع آخر من الانعكاس بحيث تفرض الطبيعة نفسها على الشاعر فرضاً، وترغمه على الاندماج معها ومع ظواهرها المختلفة والمتغيرة، فيصبح الشاعر عاشقاً لها، أسيراً لهواها، دائم التتبع لفصولها وتقلباتها، ويطغى جوّها الخارجي على حالته النفسية.

وأكثر ما يستخدم الشعراء الطبيعة أثناء الحديث عن الأطلال، وحين مخاطبتها؛ حيث تبرز قيمة المكان كطّلل يمتزج فيه المكان بالأشخاص والأحداث واستخدام عناصر الطبيعة في الحياة اليومية، فهم في هذه الحالة يسترجعون ذكريات ماضية، حيث ينشأ نوع من التآلف بين الشاعر والرمز الطبيعي، أين التقى الشاعر بحبيبته وعاش معها، فصار هذا الرمز الطبيعي موعداً للقاء.

وقد ألف الحبيبان هذا المكان مدة من الزمن، ولكن الأيام تمضي متسارعة وتمر السنوات مرّ السحاب، ليعود الشاعر إلى هذا الرمز الطبيعي مرة أخرى، وقد غيره الزمن، ولعبت به الظروف، فذهب جماله ورونقه، وصار طّلاً.. "فَيُصِرُّهُ الشاعر وهو يائس محروب أو فزع مذعور"² حسب حالته النفسية الموافقة لهذا الموقف، فالشاعر هنا يخلع ماضيه على الرمز أو يصبغ الرمز الطبيعي بماضيه

1 - عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية - من القديم إلى المعاصر (رحلة المعارضات) - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ج07، 2005، ص93.

2 - محمد عبد الواحد حجازي: الأطلال في الشعر العربي، ص235.

" وعماد الأمر كله في الأطلال الطبيعية أن الإنسان هو الذي يشهد ويألف ويتقلب بين الفرح الذي ييشّر بالرغد والسلام، وبين الشظف الذي يُقلق ويُخيف".¹

3- رموز الطبيعة في الشعر الشعبي:

يُمثّل الشعر الشعبي معجما طبيعيا متنوعا، حيث تعجّ القصائد الشعبية بالألفاظ المنتقاة من الطبيعة التي يعشقها الشعراء، ويهيمون بجمالها وسحرها، وفي استخدامهم لهذا القاموس النابض بالحياة يُضفون طابعا خاصا على ألفاظ بعينها، ويجعلون لها مدلولاً معيناً يشترك في تفسير كُنْهِه الشاعر والمتلقي قارئاً كان أو مستمعا على حدّ سواء.

ومرّد ذلك هو أن الشاعر الشعبي له علاقة وطيدة بالبادية، ولا نكاد نعرف شاعرا شعبيا إلا وقد نشأ في بادية ما، أو عاش فيها مدة من الزمن.

ويظهر هذا التفاعل بين الشاعر الشعبي والطبيعة في العديد من المواقف، وفي الكثير من اللحظات، ويمكن القول بأن قصائد الشعر الشعبي في معظمها - خاصة منها القصائد الطللية - هي عبارة عن طبيعة متحركة، أكثر رموزها ألفاظ طبيعية توحى بمدلولات مختلفة، وتعبر عن مفاهيم واسعة.

ورغم أن رموز الطبيعة الموظفة في الشعر الشعبي لا تعدّ ولا تحصى، إلا أننا سنختار بعضها في هذه الدراسة، لنقترب أكثر من عالم الشعر الشعبي، ولننعرّف على أهم الرموز الطبيعية الموظفة من قبل هؤلاء الشعراء.

1.3- رمز المكان:

يُمثّل المكان في الشعر الشعبي حيّزا طبيعيا مُهمّا، ذلك أن المكان بأنواعه المختلفة والعديدة هو العنصر الطاغي في قصائد الشعر الشعبي، فهو الركيزة

1 - محمد عبد الواحد حجازي: الأطلال في الشعر العربي، ص 235.

الأولى التي يَبْنِي الشاعر الشعبي على أساسها أبياته، وكأنه في ذلك يحاكي قصائد العصر الجاهلي، مفتتحاً إياها بالمقدمة الطليّة، ومُعْرجاً بعد ذلك على وصف الطبيعة على اختلاف أشكالها.

ولا يختلف الشعراء الشعبيون أثناء توظيفهم لعناصر المكان الطبيعي اختلافاً كبيراً، فالمكان بالنسبة إليهم هو نفسه، سواء كان ريفاً أو مدينة، بحراً أو قبراً، خيمة أو منزلاً، قَفْراً أو خُضْرَةً.. يظل المكان عندهم مكمل للإنسان " فهو الذي يحتوي الإنسان، ويعطي للأحداث التي يقوم بها الحيوية والمعنى والقيمة والرمز".¹

المكان الطبيعي يُثير خيال المتلقي، وَيَسْتَفِرُّ مشاعره المختلفة، بما له من دلالات كثيرة إيديولوجية وأخلاقية واجتماعية وتاريخية.. وكل دلالة تحمل معها المتلقي إلى عوالم شتى من الذكريات. فالشاعر الشعبي يوظف في قصائده أمكنة عديدة ومتنوعة ومختلفة، ويحمل كل مكان منها أبعاداً، قد تكون هذه الأبعاد لها صلة بالماضي وقد تكون مرتبطة بالحاضر وقد تتعلق بالمستقبل وما يحمله من آمال وتطلعات وطموحات، فالمكان الذي يَهُمُّ الشاعر الشعبي "هو المكان النفسي، المكان الذي يتخيله أو يحلم به أو يعيش تجربته".²

هكذا تصبح الأمكنة رموزاً عند الشعراء، تحمل في طياتها مدلولات كثيرة ومختلفة المعاني، وكل رمز مكاني يوظفه شاعر ما يمكن أن يكون له دلالة تختلف عن دلالة نفس الرمز وقد وظفه شاعر آخر في قصيدة أخرى.

كما قد يختلف معنى الرمز المكاني عند شاعر بعينه من قصيدة إلى قصيدة أخرى، وذلك حسب الحالة النفسية لهذا الشاعر أو ذاك، فالمكان القديم - مثلاً - عند أحد الشعراء، قد " يثير في المخيلة حوادث الصغر"³ وقد يوحى عند شاعر آخر بالموت والبلوى، خاصة إذا كان هذا المكان مهجوراً، واقترن حضوره

1 - عمر أحمد الربيعات: الأثر التراثي في شعر محمود درويش، ص107.

2 - فتحيّة كحلوش: بلاغة المكان - قراءة في مكانية النص الشعري - مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص244.

3 - المرجع نفسه، ص180.

بوجود طائر البوم، هذا الطائر الذي تعتبره العرب نذير شؤم، ويعد عند العرب منذ الأزل رمزا للخراب والفناء...

ويمكن أن يرمز عند شاعر ثالث إلى فقدان الحب وضياع النفس البشرية بين ركाम السنوات المتعاقبة.. فالرمز ليس مُهمًّا في حد ذاته كلفظة تشير إلى معنى معين، و " إنما أهمية الرمز الشعري تتجلى في قدرة الشاعر على تحويل هذه الإشارات إلى معانٍ مرتبطة بتجربة الشاعر الخاصة"¹.

والمكان الطبيعي سواء كان برًّا أو بحرا أو جوا يوحى للمتلقى بمعنى معين اقترن به، وهو تاريخ الأحداث، وأهميتها في نفوس الشعراء والمتلقين. بعد هذه العجالة عن المكان الطبيعي، لابدّ لنا أن نقف قليلا عند قصائد الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة لنحدّد أهمّ الرموز المكانية التي تمّ توظيفها من قبل هؤلاء الشعراء.

1.1.3 - الخيمة:

الخيمة عند الشاعر الشعبي هي بيته الذي يحتضنه كل يوم، يأويه ويستتره ويحفظ سرّه، ويحافظ عليه وعلى أسرته، والبيت في مفهومه الاجتماعي هو المكان الذي يضمّ إمكانيات الحياة وقواها، ويجعل للحياة قيمة معينة، يعرفها ويدركها كل من جعل الخيمة منزلا له.

الخيمة عند الإنسان العربي هي مستقرّه الأول منذ الأزل، ومستودعه الذي يغادره مع مغادرة الطير لعشّه فجرا، ويعود إليه مع كل مساء، لا يحيد عنه ولا ينكر فضله، ولا يروم عنه بديلا، حتى وإن أغري بقصور المدن.

الخيمة هي بيت الشعر والصوف، خفيفة المحمل، سهلة الطيّ، سريعة التركيب إذا ما أراد الإنسان العربي وضعها في مكان ما، كان قد اختاره وأعجب سكان القبيلة لوفرة مائه ووجود الكلاء، فالخيمة عند الإنسان العربي منذ العصور

1 - فتحة كلوش ، ص280.

الأولى تمثل بالنسبة إليه "مكان الأمان والإطمئنان للنفس الآدمية، بل إنها تمثل المعونة والحماية"¹ فالخيمة هي مكان لهذه الروح والأمن والسكينة.

ونادراً ما نجد شاعراً شعبياً لم تحضنه الخيمة يوماً، ولم يتوسد تربتها، ولم يستعذب ماء قربتها، ولم يَفْض فيها أيام صباه، يجول لاعبا مع أقرانه، يقفز بين الغنيمات، ويقطف زهور شقائق النعمان من بين سنابل القمح الخضراء ليضعها تاجاً على رأس صبية من صبايا عشيرته أحبها حباً فطرياً دون أن يعرف ما معنى هذا الشعور.

الخيمة عند القبائل العربية هي خيمة واحدة، فهي من حيث الشكل لها نفس التركيبة؛ جزء للنساء وجزء للرجال، وقد يكون هناك خيمة للرجال وأخرى للنساء بالنسبة لبعض القبائل، أما من حيث مادة الصنع فكلها من الشَّعْر والصَّوْف، وتتراوح أحجامها بين الخيام الكبيرة، والخيام المتوسطة وكذا الخيام الصغيرة، وهذا حسب الحاجة والظروف المادية وسبب الاستخدام.

الفرق الجوهرى الواضح بين هذه الخيام هو اعتماد اللون الأحمر عند تشكيل الخيمة في منطقة بوسعادة، وهو اللون الغالب الذي يميز خيامهم عن باقي الخيام السوداء، لذلك تجدهم يطلقون على هذه الخيمة الحمراء مصطلح "البيت الحمراء" نسبة إلى هذه الصبغة الحمراء المستخدمة في تركيب الخيمة أثناء عملية التحضير الأولية.²

وللخيمة الحمراء قصة متواترة تُروى من جيل إلى جيل، يتناقلها سكان المنطقة أبا عن جدّ؛ هي قصة الولي الصالح "سيدي محمد نائل" الذي يعود نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - وفاطمة الزهراء - رضي الله عنها - أصغر بنات الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث أورد العلامة الشيخ محمد

1 - عمر أحمد الربيعات: الأثر التراثي في شعر محمود درويش، ص117.

2 - أشار الشاعر الشعبي "عبد القادر العطوي" إلى هذه العملية في قصيدته «البيت الحمراء» حيث وصف طريقة تحضير الخيمة من بدايتها، بشكل دقيق مروراً بكل المراحل؛ سيأتي التعريف بالشاعر وبقصيدته في الصفحات القادمة بحول الله.

بن عبد الرحمان الدّيسي قوله: "اختصاص أولاد سيدي نائل بصبغ بيوتهم بالحمرة دون من يجاورهم ويساكنهم من غيرهم حتى صارت شعاراً لهم وعلامة خاصة بهم فيقال لهم أهل البيت الحمراء ذكر بعضهم أن أصل ذلك أن سيدي أحمد بن يوسف شيخ سيدي نائل هو الذي أمر تلميذه سيدي نائل بذلك الصباغ الأحمر فإن صح هذا فيكون كرامة للشيخ وتلميذه رضي الله عنهما وقّس أسرارهما".¹

وأضاف قائلاً: "أما الشيخ فمن حيث أنه كاشف كشفاً صحيحاً بما يكون إليه حال تلميذه من كثرة النسل وانتشار ذريته وأنهم ستكون لهم عزة ومكانة يحسدون عليها وأعداء يقاتلونهم، وأنهم يحتاجون في مستقبل الزمان إلى زيّ وشعار يميزهم عنّ عاداهم كي لا يختلطوا بغيرهم ويتمكنوا من نصره بعضهم بعضاً".²

الخيمة الحمراء أو "البيت الحمراء" بلهجة سكان منطقة بوسعادة هي رمز للأصالة والعراقة والعروبة والخصوبة والخير والكرم والجود والنماء، وهي الدليل الشاهد على الانتماء للسلالة المحمدية والنسب الشريف.

والملاحظ في قصائد الشعر الشعبي في هذه المنطقة هو الرّبط الجليّ بين هذا النوع من الخيام "البيت الحمراء" وبين قبيلة أولاد نايل، فلا تُذكر "البيت الحمراء" إلا وكان لأولاد نايل حظ واضح. فهذا الشاعر "محمد الرّيغي شبيبة" - رحمه الله -³ وقد مدح أولاد نايل في قصيدة من أروع وأجمل وأبدع ما ترك في ديوانه المخطوط، يقول في مطلع قصيدته واصفا هؤلاء القوم:

أَصْلُ الْجَوْدَةِ وَالْحِنَانَةِ غَرْبِيَّةٌ وَأُضْنَانِيَّةٌ⁴ لَشَرَّافٍ لَا مَنْ يَصْفَاهُمْ
أَهْلُ الْجَوْدَةِ وَالْكَرَمِ وَالزَّيْمَةِ يَتَعَيَّنُ حُبُّ الْغَرِيبِ إِلَيَّ جَاهُمْ

1 - محمد بن عبد الرحمن الدّيسي: تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل، شرح وتعليق: عبد الكريم قذيفة، الجمعية الثقافية للعلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الدّيسي، الجزائر، ط1، 2012، ص61.

2 - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 - محمد الرّيغي شبيبة- رحمه الله -: شاعر من منطقة (مُسَيْف) الواقعة قرب مدينة بوسعادة، ولد سنة 1895، وتوفي يوم الخميس 1957/11/06. وله ديوان شعري مخطوط.

4 - اُضْنَانِيَّة: أولاد، أبناء.

أَهْلُ الْجَوْدَةِ وَالصَّبْرِ نَجَعُ امْخِيزَ اخْلُقْتَهُمْ رَبِّي وَصَوَّرَ وَانْشَأَهُمْ¹

يَتَّصِفُ هؤلاء القوم بكل الصفات الجميلة حسب رأي الشاعر، وهي الصفات المطلوبة في الإنسان العربي المسلم، فهم يمتازون بالجود والحنان والنسب الشريف والكرم والالتزام بالوعد ومحبة الغرباء أو الضيوف الذين يطرقون خيامهم ليلاً أو نهاراً، وكذلك من أهم مميزاتهم صفة الصبر على المكاره والشدائد، وقد خلقهم المولى عز وجل في أحسن تقويم، فهم حسان الوجوه والقلوب.

المهم؛ هؤلاء القوم قوم أولاد نائل هم الذين يتميّزون بالخيام الحمراء. يصف الشاعر هذه الخيام في نفس القصيدة بعد أن قام بجولة في كل المناطق والقبائل ولم يجد أحسن من هؤلاء القوم:

حَوَّسْنَا كَثِيرَ فِي الْمُوطَانِيَّةِ
الْحَرَكَةِ الزَّيْنَةَ وَالسَّخَاوَةَ غَرْبِيَّةَ
مَفْلَاهُمْ بِالْمَالِ دَائِمَ فَالْصَّخْرَا
كُلُّ لَيْلَةٍ فِي دَارٍ وَالْبَيْتَةِ حَمْرَا
اتَعَرَّفْنَا بِنَجُوعٍ وَانْظَرْتُ اهْوَاهُمْ²
مَا رَيْتُشْ مِنْهُوَ مُقَدَّرَ سِوَاهُمْ³
وَقَتُّ أَنْ تَسْعُدَ ذَاكَ هُوَ مَرْسَاهُمْ⁴
وَيُحْطُوا نُوكُ الْمَنَازِلِ مَبْهَاهُمْ⁵

فالشاعر تجوّل في الكثير من المناطق، وتعرّف على العديد من الأقوام، وأعمل فكره في شؤونهم، ولكنه لم يجد أجود من هؤلاء القوم أثاثاً ولا أجمل منهم ثياباً، ولا أكثر منهم سخاءً، فهم يملكون أنعاماً يرعونها في الصحاري التي يستقرون بها أيام الزمن الجميل، ولهم خيام حمراء اللون لا مثيل لها في البهاء والحسن والجمال.

1 - انشأهم: أنشأهم: خلقهم على صورة معينة.

2 - حوَّسنا: بحثنا وتجوّلنا. الموطانيّة: الأوطان

3 - الحركة: الأثاث والملابس والديكور. الزينة: الجميلة. السخاوة: السخاء. ماريّتش: ما رأيت شيئاً (لم أرى).

منهوّ: من هو

4 - مفلأهم: مرعاهم

5 - البيّنة: جمع بيت. مَبْهَاهُمْ: ما أشدّ بهاءهم!

فهذه الخيام أو البيوت الحمراء عند أولاد نايل في منطقة بوسعادة وما جاورها ترمز إلى الحضارة العربية الإسلامية، هذه الحضارة التي تميّزت عن باقي الحضارات الغربية بكرم أصحابها وجودهم وعطائهم اللامحدود واللامتناهي؛ عطاءً يبرز أريحية نفوسهم، واندفاعهم وتطوعهم لعمل الخير دون أن يُطلب منهم ذلك، ودون انتظار أي مقابل مادي، هم يفعلون ذلك بالسّليقة، وقد فُطروا على هذا النوع من التصرفات والمعاملات منذ الصّغر.

فهؤلاء القوم في نظر الشاعر هم مَدْعَاةٌ للتفاؤل، سواء برؤيتهم أو بسماع اسمهم أو النطق به. يقول الشاعر "محمد الرّبيعي شبيبة":

أَلِي صَابِحْ نَجْعُهُمْ لَابْدُ يَرْبِحْ قَلْبُو يَفْرَحْ كِي يَتَفَاوُلْ بِسَمَاهُمْ

ونجد شاعراً آخر وهو الشاعر الشعبي "أحمد وليد بن القبي"¹، يبكي بكاءً شديداً لتذكّره سالف الأيام، ويصف لنا حالته النفسية الصعبة أثناء وقوفه على أطلال الماضي، يوم كان مع أسرته مغتبطاً مسروراً، لا يعكّر صفو حياته سوء، يسكن الخيمة الحمراء مع والديه، ويتولى أبوه مسؤولية العائلة.

يقول الشاعر "أحمد بن القبي" في مطلع قصيدته:

اصْزَكْبْتُ مِنْ الصَّرَا شَفْتُ الصَّحْرَا امْسَدِّي عَنْهَا الْغَيْمَ عَلَى لَلْوَانِ²

صعد الشاعر إلى أعلى الجبل وأطل على بقايا الدّيار، وآلمه منظر الفلاة الموحش، وقد علاه الغيم الداكن الموحى بالفناء والدمار، فالمكان المقفر "شاهد على اندثار الإنسان وضياعه وتشتته في الزمن الجاري الذي لا يعرف التوقف"³ بكى الشاعر في تلك اللحظة بكاءً مريراً، وسقطت دموعه بحرقة، ليتابع قوله:

1 - أحمد وليد بن القبي: شاعر من منطقة سيدي عامر الواقعة قرب مدينة بوسعادة، ولد يوم الاثنين: 12/02/1946، له ديوان شعري مخطوط.

2 - اصْزَكْبْتُ: صعدتُ ونظرتُ من القمة. الصَّرَا: الأماكن المرتفعة (الأعلى).

امْسَدِّي عنها: يضع عليها خيوطا كالنسيج (شبه الغيوم بنسيج العنكبوت وأضاف إليه الألوان)

3 - عبد العزيز محمد شحادة: الزمن في الشعر الجاهلي، دار الكندي، أريد، الأردن، 1995، ص 94.

ابْكَيْتْ وَوَلَّيْتُ رَاجِعًا لِلْجُرَّةِ فَاثْنُونِي دَمْعَاتٍ طَاحُوا مِنْ لُعْيَانٍ¹
مَا هُمْشُ يَصْبُو يَطِيحُوا بِالْقَطْرَةِ عَلَى الْجِهَاتِ يَكْفَحُوا مِثْلَ الْوَيْدَانِ²

لماذا بكى الشاعر وانتحب بهذا الشكل الذي يثير الشفقة في نفوس المتلقين؟! يُجيبنا الشاعر نفسه عن هذا السؤال قائلاً:

نَلْقَى الصَّحْرَا خَالِيَةً قَعْدَتْ قَفْرَةً ابْقَيْتْ أَنْهَوْمَ كَيْمَا مَالِ الْحَيَوَانِ
اتْفَكَّرْتُ مِنْـيْنَ كُنَّا عَلَى بَرٍّ بَابَا يَا مُوجُودٌ وَأَخْنَا فِي لَمَانٍ³
حَطَّاطِينَ بَيُوتَنَا فِيهَا حَمْرًا وَكُنُسْنَا عَوْدَاتٍ فِيهَا عَلَّوَانٍ⁴

فالشاعر تذكّر أيام صباه حينما كان يسكن الخيمة الحمراء مع والديه، هذه الخيمة التي كانت بمثابة المقر والمستودع بالنسبة إليه، فهي هنا رمز للتّسع والطّهر والنقاء والصفاء وكل ما تحمله براءة الطفولة وعفوانها وعفويتها من معانٍ ودلائل، كل هذا كان في الريف بعيداً عن زحمة المدينة وضوضائها وشعور الإنسان بالغربة فيها.

فالريف بالنسبة إلى الشاعر يمثل الحياة الجميلة والبريئة بأكملها، حيث تظهر المشاعر الصادقة، والنوايا الحسنة، وهذا ما أدى بالشاعر إلى أن يذهب إلى الريف في رحلة، وإن لم تكن رحلة جسدية، فهي رحلة ذهنية سرح فيها بخياله، وانتقل فيها بذاكرته إلى مسقط رأسه ومرتع صباه، فأضحت قصائده "مراثي للزمن الجميل المفقود بمكانه وزمانه حيث قريته وذكرياته".⁵

والخيمة الحمراء لدى الشاعر "أحمد وليد بن القبي" هي أيضاً رمز لِعِفّة المرأة وطهارتها، فالمرأة لا تغادرها إلا عند الحاجة الماسّة، والخيمة في ثباتها

1 - وَلَّيْتُ: صرت راجعاً. الجُرّة: الطريق التي جئت منها. فاثْنُونِي: سبقوني طَاحُوا: سقطوا. لُعْيَانُ: العينان.

2 - مَا هُمْشُ يَصْبُو: لا يتساقطون. يَكْفَحُوا: يسيلون بغزارة.

3 - لَمَانُ: الأمان.

4 - حَطَّاطِينَ: ساكنين ومستقرّين. عَوْدَاتٍ: جمع عودة وهي الفرس.

5 - حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر - أحمد عبد المعطي نموذجاً - عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006، ص125.

على الأرض هي شبيهة بثبات المرأة على مبادئها وعاداتها ودينها الذي يفرض عليها المحافظة على شرفها.

يقول الشاعر " أحمد وليد بن القبي " في قصيدة بعنوان "زيارة إلى فرنسا":

تَلْقَى الْبَدْوِيَّةُ مِنَ الْخِيَمَةِ لِلدَّارِ مِنْ بَكْرِي هَذَا الزَّيْنُ وَمِثَالُهَا¹
بَنَاتُ الصَّحْرَا كِي عَوْدَاتِ الْمَشْوَارِ مِنْ بَكْرِي عَنْهُمْ الْقَوْلَانِ قَالُوا²

هنا؛ الشاعر لا ينفي أن يكون لقوم أولاد نايل منازل بجوار الخيام تنتقل بينها النساء في خفة ونشاط، بل يؤكد للمتلقي معلومة تتمثل في ثراء هؤلاء القوم وغناهم الفاحش، والدليل على ذلك هو هذه المنازل التي يتم بناؤها بالقرب من الخيام، وكذلك محافظتهم على المرأة أمًا كانت أو أختًا أو زوجة أو ابنة، فهي في كل الحالات جوهرة مكنونة مصونة، يتغنّون بجمالها ويعشقون أخلاقها ويُعجبون بهدوئها ورزانتها، وينعكس هذا الاهتمام على المرأة فتظهر في أحلى زينتها؛ مبتهجة، تتخضّب بالحناء، وتتعطّر بأشهى أنواع العطور، وتترنّن بأعلى وأبهى الثياب، والتي غالباً ما تكون حمراء اللون، واللون الأحمر في الملابس دليل على الفرح والسرور والغبطة.

فالاحمرار في لون الخيمة والاحمرار في لون لباس المرأة لا يمكن أن يكون مصادفة؛ فاللون الأحمر له دلالة شعبية، اجتماعية وجمالية موروثة يعرفها الناس باختلاف أديانهم وجنسياتهم وأعمارهم، فاللون الأحمر "قد يحمل الدلالة الجنسية والجمالية، إذ إنّ دلالة اللون الأحمر الجمالية غالباً ما تحقق الإثارة والغريزة الجنسية"³، ويقترن اللون الأحمر أيضاً بالعاطفة والافتتان بالجمال، وقد يأتي للتعبير عن الشهوة والغواية.

1 - تلقى: تجد. من بكري: من القديم. الزين: الجمال والحسن. ميثالوا: شبيهه ومثاله.

2 - المشوار: سباق الخيل. القولان: الشعراء الذين يقولون الشعر.

3 - ظاهر محمد هزاع الزواهره: اللون ودلالاته في الشعر - الشعر الأردني نموذجاً - دار الحامد، عمان،

الأردن، ط1، 2008، ص55.

يُطالعنا - أيضاً - الشاعر الشعبي "الحمدي بوشنافة"¹ بِذِكْرِه للخيمة الحمراء في قصائده. يقول الشاعر في قصيدة بعنوان: "تراث بوسعادة وضواحيها" ملخصاً أهم شخصياتها التاريخية ومناطقها السياحية وعاداتها وتقاليدها ولباسها التقليدي، معرجاً على أغلب المناطق التابعة لها تاريخياً وجغرافياً، وذاكراً أسماء بعض شهدائها ومجاهديها:

وَأَقْصَدُ شَوْرَ اطْرَافِهَا زَيْدُ اتَجَوَّلَ عِنْدَ الْبَادِيَّةِ تَفَاجِي كُلُّ امْحَانَ²
الْبَيْتِ الْحَمْرَا اخْذَاهَا دَوْدُ اَيْبِلْ فَوْقَ ظُهُورِ النَخِيلِ شَدَّاتُ الْفَرَسَانِ³

يخاطب الشاعر المتلقي في هذين البيتين طالباً منه أن يقصد منطقة بوسعادة، وأن يتجول في بواديها، هناك سيجد الخيمة الحمراء يقبع وراءها مجموعات عظيمة من الإبل، وفرسان فوق خيولهم، كل هذه الأنعام يقصد بها أصحابها الصّحاري والمناطق الحارة شتاءً ويرتحلون إلى مناطق التلّ (المناطق الوسطى من الجزائر) في فصل الصيف حيث الكأ والماء، فما أشبههم آنذاك بقبيلة قريش في العصر الجاهلي! والتي كان لديها أيضاً رحلتان: رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام.⁴

وقد ذكر المولى عز وجل ذلك في القرآن الكريم في سورة قريش حيث قال: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ① إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②} وهذا التّصّرف من قبائل أولاد نائل هو أكبر دليل على وجود جذور متينة تعود إلى القبائل العربية، وبالضبط إلى قبيلة قريش.

1 - الحمدي بوشنافة: شاعر شعبي من منطقة بوسعادة، ولد يوم: 1946/08/11، بمنطقة عين أغراب، القريبة من مدينة بوسعادة، له ديوان شعري مخطوط.

2 - شَوْرَ: باتّجاه، صوب. تَفَاجِي: تَزِيلُ. امْحَانَ: مَحَن.

3 - اخْذَاهَا: وراءها. دَوْدُ اَيْبِلْ: مجموعة عظيمة من الجمال.

4 - ينظر: جلال الدّين المحلّي، جلال الدّين السيوطي: تفسير الجلالين، تحقيق: صبري محمد موسى وآخرون، دار الخير، بيروت، دمشق، ط1، 2001، ص602.

5 - سورة قريش: الآية: (1) و(2).

يُشيرُ الشاعر في بيت آخر من نفس القصيدة إلى الصفة الطاغية عند قوم أولاد ناييل، صفة الكرم والسخاء والجود، ويوضح مسألة هامة - كنا قد أشرنا إليها سابقاً - وهي مسألة الاعتناء بالمرأة وصونها عن عيون الغرباء، والحفاظ عليها وعلى شرفها، وبالتالي الحفاظ على شرف القبيلة.

يقول الشاعر الشعبي "الحمدي بوشنافه":

وَشَوْرُ الْبَيْتِ إِجْبِي الْمِيعَادُ امْسَهْلُ وَمَقْسُومَةٌ بِخِيَالٍ وَلَا حَدَّ يَبَانُ¹

الشرط الأول من هذا البيت يدل على كثرة الضيوف الذين يقصدون هذه الخيمة الحمراء، أما الشرط الثاني فيشير إلى سمة غالبية عند العرب وهي فصلهم لجناح النساء عن جناح الرجال، فلا تظهر المرأة بدون حجاب عندهم إلا لمحارمها.

وفي قصيدة أخرى تظهر البيت الحمراء عالية، حيث تم تثبيتها في مكان عالٍ يدل على شموخها وترفعها عن الدنس والزنا، والسبب في هذا العلو هو إبعادها عن الظواهر الطبيعية التي تضربها أو تعرضها للفساد والدمار، أو تحط من شأنها وقيمتها. يقول الشاعر "الحمدي بوشنافه" مخاطباً امرأة من منطقة بوسعادة رحلت إلى بلاد القبائل واستقرت هناك مدة طويلة من الزمن، فأضحت غريبة عن أهلها:

وَطَنُكَ غَالِي فِيهِ خَيْرُ بِالْمَزِيدِ بَرُّ الصَّخْرَا فِيهِ نَاسُ فَلَائِيَا²

بِالْتَّعَجَّةِ وَأَجْمَالٍ قَطَعَاتٍ اذْوَاويْدُ وَالْبَيْتُ الْحَمْرَا اخْذَاهُمْ عَلَايَا³

يطلب الشاعر من المرأة -هنا- أن تعود إلى مسقط رأسها، إلى الأرض التي شبت وترعرعت فيها، ويحاول تذكيرها بكل المغريات الموجودة في أرضها، وإقناعها بالعودة بكل ما أوتي من زخرف لفظي وخيال وبديع وبيان...

1 - إجبِي الْمِيعَادُ امْسَهْلُ: يجيء ويأتي الضيوف قاصدين. خِيَالُ: ستار غامق اللون يوضع في وسط

الخيمة للفصل بين جناح النساء وجناح الرجال.

2 - فَلَائِيَا: رُعاة؛ يراعون أنعامهم.

3 - أَجْمَالُ: جِمال. قَطَعَاتُ اذْوَاويْدُ: قِطَعٌ عظيمة من الإبل. اخْذَاهُمْ: وراءهم. عَلَايَا: عالية.

وتظهر الخيمة الحمراء في هذا البيت عالية منتصبة توحى بالبهجة والفرح والسرور للرائي، حيث تبدو من بعيد في قمة الجمال والحسن والبهاء، وتلوح في الأفق كفتاة شابة ذات بهجة ونضارة وعنفوان، وذات دلال وغنج، تزهو بحالها وهي في ربيع العمر، وملاح السعادة تغطي على مظهرها، وقد تجلّت في كامل زينتها وتمام حليها، تثير فتنة الناظرين إليها، وتسيل لعابهم للحصول على ابتسامة منها.

هذه الخيمة التي يغلب على مظهرها اللون الأحمر هي رمز لهذه الفتاة، أغرت الخيمة الحمراء عشاقها من الشعراء، وجعلتهم يتغزلون بجمالها وحمرة لونها كما أغرت الفتاة عشاقها من الشباب الذين يطلبون ودّها.

اللون الأحمر الذي يغلب على لباس المرأة في البادية - إذاً - هو لون متوارث، وقد أبدع الشاعر "محمد الرّبيعي شبيبة" - رحمه الله - في إبراز قيمة هذا اللون وغيره من الألوان في قصيدة مدحه لأولاد نايل، حيث عدّد الشاعر لباس المرأة في البادية، ويظهر من خلال وصفه لهذا اللباس اهتمام واسع من طرف هؤلاء القوم بالمظهر الخارجي، وضرورة التنويع في الثياب، وكذلك اختيار الألوان الجذابة الفاتنة.

يقول الشاعر الشعبي "محمد الرّبيعي شبيبة" - رحمه الله - واصفاً:

الصَّبَّاطُ أَحْمَرُ وَالْخِلَاحُ أَتَقَمَرُ	وَأُرْدِيفُ آخِرُ يَنْتَقِحُوا فِي بَعْضَاهُمْ ¹
أزُوبُ عَفْسَةٍ وَالْخِمَارَةُ فِي الْغَطْسَةِ	شَاشُ الْقِصَّةِ وَالْمُشَلُّ وَاتَاهُمْ ²
شَاشُ أَكْمِيكَزُ وَالْمَنَادِلُ كِي تَزْهَرُ	أَخْضَرُ وَأَحْمَرُ صَافِي خَرِيرُ سَدَاهُمْ ³

1 - شرح البيت: الحذاء أحمر والخلخال تصدر أصواتاً، واخلخال آخر في أرجل المرأة ومن احتكاك هذه الخلاخيل بعضها ببعض تصدّر أصوات تطرب السّمع.

2 - شرح الشطر الأول: فساتين قماشها من نوع معين وخمار مزخرف بألوان الصّباغة. شاشُ القِصَّةِ وَالْمُشَلُّ: نوعان من القماش أو الكتان. واتاهم: ميّزهم.

3 - قطع من الثياب لتغطية رأس المرأة تتراوح ألوانها بين الأخضر والأحمر مصنوعة من الحرير النقي.

السَّلَخُ امْدَبْنْ شُوفْ وَأَنْظُرْ ذَاكَ الْفَنِّ خَدْمُو مَدِينْ لَابْسِينْ¹ وَ كَلَّهْمْ¹

شاشْ الْمَوْجَة طابعْ بِنَاتِ الْعَلْجَة ذِيكَ السَّوْجَة جَارِينْ اَحْوَلاهمْ²

لَحْمَرِ صَفَى وَ الْمَزَايِقْ وَ امْلِيفَة ذِيكَ التَّحْفَة شُوفْ وَأَنْظُرْ لِهَوَاهُمْ³

ألا يَظهر للقارئ من خلال هذه الأبيات أن اللون الغالب على هذه القطع من الثياب هو اللون الأحمر! إنَّه اللون المفضل عند أغلب الناس، وهو الأكثر إشارة وجاذبية، وقد ارتبط هذا اللون منذ الزمن القديم بعدة دلالات، والدلالة الغالبة عليه هي "الإيماء إلى لون الدم، ومايعني من الصِّراع والقتل والموت، والثورة والحرب وغير ذلك".⁴

كما استخدم هذا اللون في سياقات شعبية تراثية، حيث وُصف الخدّ بالحمرة للدلالة على الجمال والحياء والعفوية، وقد تم ربطه بشقائق النعمان، هذه الزهور التي تنمو بصورة تلقائية وسط الزرع الأخضر، فاحمرار الخدين أو الوجه "دلالة على الخجل والخوف والحياء خاصة عند الفتاة، وإذا ما كان الأمر يتعلق بالحب والعاطفة فهو أكثر وضوحاً"⁵ وكذلك الشفاه الحمراء وبعض أنواع الفواكه كالزَّمان والخوخ، والنار وما تحمله عند تأججها من مشاعر الشوق وألم البعد والنأي والفراق...

1 - لحاف عليه نقط كالذباب مصنوع بطريقة فنية قماشه من نوع معين تلبسه كل النساء.

2 - اَحْوَلاهمْ: جمع حَوْلِي وهو نوع من الثياب تغطي به المرأة رأسها وتربطه من الأمام فوق الصدر بقطعة فضية وتتركه يتدلَّى من الوراء ليستر جسمها، قماشه من نوع معين تميزت بلبسه هذه الجميلات في مشيتهن المتمايلة (السَّوْجَة).

3 - أنواع من القماش آنذاك.التَّحْفَة: الحُسن والجمال. شُوفْ: انظُرْ وتأمَّلْ.

4 - ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر، ص43.

5 - المرجع نفسه، ص59.

أمّا الشاعر "عبد القادر العطوي" المدعو: "بن شرّاب الواد"¹، فقد اشتاق إلى قومه أولاد نايل، واشتاق إلى جلسة سَمٍ بينهم داخل خيامهم الحمراء، فكتب قصيدته المشهورة (البيت الحمراء). تبدو هذه القصيدة للمتلقي عبارة عن لوحة فنية متعددة الأبعاد مترامية الأطراف ولكنها ذات وحدة عضوية وموضوعية، ويبدو الشاعر من خلالها فنانا عاشقا لفن الرسم، باستطاعته أن يلتقط أروع اللقطات وأن يجعلها متحركة في مشهد من خياله، ناطقة معبرة عن جمالها الذاتي.

افتتح الشاعر قصيدته بوصف دقيق للمراحل التي تمرُّ بها عملية صنع الخيمة عند قوم أولاد نايل، وعرّج على نسائهم في ازدواجية مثيرة من المدح والتّغزل، كما كان للرجال نصيب من مدحه ووصفه، وكانت له التفاتة واضحة ومميزة - أيضا - لنباتات المنطقة وحيواناتها، وخاصة أحصنتها، والأجمل في القصيدة ذكره لأنواع الأطعمة بشكل ملفت للانتباه، وبطرية تفتح الشهية للتذوق.

يقول الشاعر "عبد القادر العطوي" في بداية قصيدته:

اتَّوَحَّشْتُ أَوْلَادَ نَايِلَ ذِ الْخَطَرَةِ	اللَّهُ لَا تَرَأْسَ نُوغْدَا نَاوِيَا ²
نَسْرِي وَفَتَّ الْفَجْرَ وَنَشَقُّ الْبُكَرَةَ	نَتَوَكَّلُ عَنْ خَالِقِي عَظِيمِ النَّجَا ³
الْبُرِّ الِّي فِيهِ تَطْيَابُ الْعَشْرَةِ	تَوَحَّشْنَا ذُوكَ الْمَرَّاسِمِ يَا حَسْرَا ⁴
مَحْلَاهُمْ قَعْدَاتُ فِي الْبَيْتِ الْحَمْرَا	ذِيكَ الْقَعْدَةَ تَرِيدُ لِلْخَاظِرِ تَنْزَاهُ ⁵

وكعادة شعراء القصيدة الشعبية، فقد اشتاق الشاعر لأبناء قومه، وأخذه الحنين إلى رؤيتهم، والجلوس بينهم، فتمنّى من المولى عز وجل أن يجد شخصا

1 - عبد القادر العطوي شاعر شعبي من منطقة عين الملح الواقعة قرب مدينة بوسعادة، ولد في ربيع

1973 ببادية عين وسارة (ولاية الجلفة) الشُّهر بلقب (بن شرّاب الواد). له ديوان شعري مخطوط.

2 - اتَّوَحَّشْتُ: اشتقتُ. الْخَطَرَةُ: المرأة. تَرَأْسُ: رجلٌ. نُوغْدَا نَاوِيَا: أغتدي أنا وإياه (أذهبُ برفقته)

3 - نَسْرِي: أسري (أسير ليلا). نَشَقُّ الْبُكَرَةَ: أرحل باكرا.

4 - الِّي: الذي. تَطْيَابُ: تطيبُ. الشطر الثاني يعني: اشتقنا إلى تلك الأماكن (الأطلال) ياحسرتاه!

5 - مَحْلَاهُمْ: مأحلاهم! قَعْدَاتُ: جلسات. ذِيكَ: تلك. تَنْزَاهُ: فرحة وبهجة.

يرافقه ليذهب في رحلة إليهم، يجول من خلالها بين خيامهم الحمراء مبتهجا مسرورا، فالخيمة الحمراء لدى الشاعر "عبد القادر العطوي" هي رمز للراحة النفسية والسكن الروحي والطمأنينة والهدوء وسهولة الحياة وبساطتها، هذه الأمور التي يفتقدها ساكن المدينة.. والريف بالنسبة إليه هو رمز للحرية المطلقة، وهو رمز للحضارة العربية الإسلامية في عصرها الذهبي.

ومن المعروف والشائع أن أول ما يحس به الإنسان الريفي تجاه المدينة "هو النفور من الضجيج الكثير والازدحام والتدافع، واضطراره إلى تغيير طريقته في المشي المتباطئ واستحداث سرعة لم يألفها من قبل في الحركة العامة، والإحساس بالحيرة والخوف إزاء أدوات المواصلات وتعقيدها، واللامبالاة في سرعتها دون تقدير لشعور المشاة.. وفي قيمة ذلك كله يتولد لديه شعور بالاغتراب والعزلة وإحساس بفقدان الحرارة في العلاقات الاجتماعية جملة".¹

الخيمة -إذا- مكانها الطبيعي هو الريف، والريف مكان واسع شاسع، ممتد الأطراف، لا تحكمه حدود إلا ما تعارف بين القبائل عند قسمة الأراضي وتوزيعها بينهم، فالريف هنا هو رمز للحرية والأصالة واتساع الفكر وحدّة النظر في الأمور والحكم عليها بالطريقة الصحيحة.

يعود الشاعر "عبد القادر العطوي" إلى الحديث عن الخيمة الحمراء وما تحتويه داخلها من أثاث، والملاحظ في هذا الأثاث هو استخدام الألوان في الأغنية والأفرشة، وقد ركّز الشاعر على اللون الأحمر، فقال:

وَفَرَّاشَاتُ مَرْزُكْشَةِ حُمَزٍ وَخَضْرَا حِنَابِلُ وَمُخَاذُ وَزْرَابِي كَيْفَاهُ²
خِيَالُ مَرْفُذٍ جَائٍ عَلَى الْحُرْمَةِ سُتْرَةٍ لَوْنُو دَاكُنْ مَا يُبَيِّنُ وَاشْ وَرَاهُ³

1 - إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشرق، عمان، الأردن، ط3، 2001، ص90.
2 - حِنَابِلُ: جمعُ حَنْبَلٍ وهو نوع من الأفرشة التي تُصنع بأدوات تقليدية ومادتها الأساسية هي الصوف الذي يتم تلوينه، وقد يستعمل كغطاء في الشتاء. مُخَاذُ: جمع مخدة وهي وسادة تُصنع بنفس طريقة الحنبل.
3 - مَرْفُذُ: مرفوع. الْحُرْمَةُ: المرأة (من كلمة حريم). معنى الشطر الثاني: السُّتَارُ الحائل لونه داكن لا يُبَيِّنُ ما وراءه.

كثرة الأفرشة داخل الخيمة وتعدّد ألوانها في البيت الأول هو كناية عن الكرم وكثرة استقبال الضيوف بأريحية، وهو كناية أيضاً عن الاستقرار النفسي والعاطفي لساكني هذه الخيام ذكورا كانوا أو إناثا، والإناث في هذه الحالة هن أكثر استقرارا بدلالة البيت الذي يليه، فقد وُضِعَ بينهما وبين الرجال حجاب سائر دامن اللون لا يُرى من خلاله ولا من ورائه شيء، وفي هذا رمز للتستّر والفضيلة والعفة والطهارة والمحافظة على الشرف، ونقاء الفطرة والسريرة.

وتتالت أبيات الشاعر في وحدة عضوية موضوعية، تميزها اللغة الشعرية الراقية التي انتقاها الشاعر من معجم الطبيعة، وكذلك الصور الفنية البديعة التي وظفها الشاعر خاصة أثناء الوصف؛ وصف الأحصنة مثلاً.. فالشاعر "إنما يرجع الدار إلى بواكير ماضيه أو فجر ماضيها الذي كانت فيه مهذاً لمسرّات الصّبا، وأي مسرّات هي تلك التي تكون في مهد الصّبا؟ أليست هي التلقائية النضرة الرفاقة بألوان السذاجة والتطلع الذي يناغي كل ما تقع عليه عيناه مناغاة الشوق والحب؟" ¹.

فُتِنَ الشعراء بطبيعة الريف، وسَحَرهم جمال الصحراء في طلاقتهما وعنفوانها، وألهمهم صمتها وهدوؤها قصائد شتى، وأبهرهم غضبها، وزادتهم ثورتها فتنة وعشقا.

وهاهو الشاعر "عبد القادر العطوي" يؤكّد على هذا الحبّ المتبادل بين الشاعر والريف في نهاية قصيدته قائلاً:

دَا بَرِّي مَبْهَاهُ مَخْلَاهُ بِنَظَرَةٍ إِلَيَّ شَافُوا قَالُوا مَا عَادَشَ يَنْسَاهُ
ابْنُ الصَّخْرَا وَصَحْرَتِي لَيَّا فُخْرَةً سَخَرْتَنِي بِجَمَالِهَا إِلَيَّ الرَّبُّ اعْطَاهُ

هكذا هي الصّحراء، مهما اختلفت تسميتها، البرّ، القفار، البادية، الريف، العُرب، النّمل، المراسم (المرسوم)، الدّوار...

كل هذه الأسماء لها معنى واحد، وهو هذا المكان الواسع البعيد عن المدينة والحضر، والذي يسكنه أصحاب الأنعام والمواشي، لأنه المكان المناسب

1 - محمد عبد الواحد حجازي: الأطلال في الشعر العربي، ص 222.

لتربيتها والاهتمام بها بشكل صحيح، لذلك هم يمارسون مهنة الفلاحة والزراعة، وفي أوقات فراغهم يخرجون في نزهة للصيد. أهل البادية يعشقون الحياة من خلال عشقهم للأرض وتفانيهم في خدمتها وحرصهم على حمايتها، والخيمة الحمراء هي شعارهم في هذه الأرض، وهي رمز لصبرهم وقوة تحملهم للظروف الطبيعية القاسية "بينما تبقى الأرض رمزا لخصوبة وأمومة العالم"¹ في نظرهم.

2.1.3 - البحر:

يُعدُّ البحر من أهم الأمكنة التي وظفها شعراء القصيدة الشعبية في قصائدهم الشعرية، وذلك لما يتميز به البحر من خواص جعلته يتفوق على بقية عناصر الطبيعة، من هذه الخواص: ثنائية الحركة والهدوء، وثنائية السكون والاضطراب، واللون، والطعم، والحجم، والمحتوى، والعمق، والفائدة، وغيرها من الخواص والصفات التي ستظهر أثناء تحليل أبيات المدونة الشعرية التي بين أيدينا.

وقد جعل الشعراء الشعبيون البحر رمزا طبيعيا، وضمّنوه العديد من المدلولات والمعاني، وصار البحر عندهم منهلا للتعبير عن الحب الشديد العميق، والعواطف الجياشة، وربما وُظّف البحر رمزا للعلم والعلماء، وهذا ما ظهر جليا لدى الشاعر "محمد الريغي شبيبة" - رحمه الله -.

استخدم الشاعر "محمد الريغي شبيبة" - رحمه الله - البحر رمزا للعلم والعلماء، وهذا الاستخدام لمصطلح البحر كالدال والعلم والعلماء كمدلول، استخدام انفرد به هذا الشاعر بالمقارنة مع ما ورد عند بقية شعراء المدونة -إلا نادرا- والملفت للانتباه عند هذا الشاعر هو هذا الربط بين البحر والعالم؛ ربط قوي له العديد من المعاني التي نستطيع استنباطها من خلال التجربة الشعرية لهذا الشاعر دون غيره.

1 - سحر سامي: شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2005، ص166.

في استعارة تصريحية من أروع ما ورد من بيان في البلاغة العربية، شبه الشاعر محمد الريغي شبيبة صديقه الشيخ "الذوّادي بَعْلِي" - رحمه الله - بالبحر، فذكر المشبه به (البحر) وحذف المشبه (الشيخ الذوّادي بعلي) والقرينة اللفظية الدالة على العلاقة الموجودة بين المشبه والمشبه به هي لفظة (العلوم) وهي استعارة تحمل من الجمال والروعة ما يعجز الكلام عن التعبير عنه، حيث قال "الريغي" في رثائه لصديقه "الشيخ الذوّادي" في قصيدة من أروع ما كتب في فنّ الرثاء:

عَنْهُ مَا لَأَقْتُ الصَّبْرَا بَحْرَ الْعُلُومِ بُوخْضَرَة

قَلْبِي مَجْرُوحٌ مَا يَبْرَا وَالنَحْمَى صَايِمَة عَنِّي¹

بحر العلوم هنا، هو الشيخ الذوّادي - رحمه الله - ولكن، ما سرّ العلاقة بين هذا العالم والبحر؟ يمكننا القول أن "البحر هو الشيء الذي يتعطش إليه الشاعر من حيث أنه ينقله من عالم السأم والملل والتفجع، عالم فقد فيه القدرة على البقاء والمعاشية إلى عالم آخر لا يمكن أن نقول البتة أنه فاقده لصورة الحركة بأبعادها الإيحائية² البحر حسب الشاعر مكان واسع لا حدود له، وهو مصدر الخيرات، ومأوى المخلوقات البحرية، وهو منهل للرزق والعطاء، البحر لا يَرُدُّ طالبا ولا محتاجا، يستقبل كل ضيوفه بصدر رحب، فاتحا لهم ذراعيه، وهذه المميزات هي أيضا من صفات الشيخ.

وفي المعنى نفسه؛ يرمز الشاعر لهذا الشيخ بالبحر في قصيدة أخرى

حيث يقول:

سَيِّ الدَّوَادِي مَا ضَنَّتْهُ ضَنْيَاةٌ تَهْزُبُ جَمْعُ الْخَائِفَةِ تَحْتَ أَرْكَابُو³
بَحْرُ الْفَتَوَى وَالْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ رُبِحَتْ قَاعُ النَّاسِ وَأَسْعَاتُ اعْقَابُو

1 - معنى البيت: لا يليق بي أن أصبر عن بحر العلوم أبي خضرة، قلبي مجروح من فقدته لا يبرأ وقد أخذت الحمى مني كل مأخذ من شدة شوقي إليه.

2 - ملاس مختار: دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث، ص102.

3 - مَا ضَنَّتْهُ ضَنْيَاةٌ: ما ولدته امرأة ولود. الشطر الثاني معناه: يهرب جميع الخائفين للاحتماء بِجَمَاه.

فالشيخ هنا، ليس بحرا للحيتان والأسماك والسفن والمراكب، وإنما هو بحر للفتوى والعلوم الشرعية، كل الناس تستفيد من هذه العلوم، وتظهر الاستعارة التصريحية واضحة جلية في قوله: (بحر الفتوى والعلوم الشرعية) حيث شبه الشاعر الشيخ الدّوادي بالبحر، فذكر المشبه به (البحر)، وحذف المشبه (الشيخ)، وقد نجح الكثيرون ممن تعلّموا على يد هذا الشيخ، واستفادوا من خلال اتّباعهم له ولمذهبه في العلم الشرعي.

يعود الشاعر " الرّيغي " - رحمه الله - في نهاية القصيدة إلى رمز البحر من خلال الاستعارة التصريحية، حيث مزج العديد من التشبيهات في بيت واحد، وهذا ما يدل على الطاقة الهائلة والملكة الشعرية التي تميز بها هذا الشاعر، ويظهر ذلك في هذا البيت :

يَا نَقْمَةً لَعْدَاءُ سِتَارِ الْغَرْبِيَّةِ يَا بَحْرَ الْغُلُومِ عِمَارَةُ مَحْرَابُ¹

وهذه التشبيهات الأربعة هي كالآتي: (نَقْمَةً لَعْدَاءُ، سِتَارِ الْغَرْبِيَّةِ، بَحْرَ الْغُلُومِ، عِمَارَةُ مَحْرَابُ)؛ وهي كلها استعارات تصريحية، حيث ذكر الشاعر المشبه به (نقمة، ستار، بحر، عمارة)، وحذف المشبه به (الشيخ الدّوادي)، وهذا هو الإعجاز الشعري بأم عينه وقمة البيان في اللغة العربية سواء كانت فصيحة أو لهجة دارجة ملحونة.

يُطالعنا -أيضا- الشاعر "عبد القادر العطوي " في حديثه عن البحر، وهذه المرّة جعل البحر رمزا لشخص محارب مناظر مجاهد عن وطنه وأرضه لا يعتريه خذلان، ولا يصيبه فشل أو ملل، هذا الشخص هو (أَحْمِيْدَة) حسب القصيدة، ثار هذا الرّجل ضدّ الجيش الفرنسي أيام ثورة التحرير الجزائرية. يقول الشاعر "عبد القادر العطوي " في قصيدته التي تحمل عنوان (قصة شهيد) وقد وصف فيها هذا المحارب الثائر بشكل يدعو إلى التأمّل العميق في معانيها وألفاظها:

ثَارَ أَحْمِيْدَة كِي الْبَحْرُ الْمَتَهَوَّلُ مَوْجُو لَاطِمٌ فَالْسَمَا سَامِكٌ لَطَنَابُ

1 - شرح البيت: يَأْمُنُقِمًا من الأعداء، سِتَار الخيمة، عِمَارَةُ محراب المسجد (معمرًا لمحراب المسجد)

المجاهد (أَحْمِيْدَة) شديد الشَّبه بالبحر - حسب الشاعر - فكلاهما هائج، يضرب بقوة ولا يهاب ولا تهْمُه لومة لائم، فالمشبه هو (أَحْمِيْدَة)، والمشبه به هو (البحر)، وأداة التشبيه هي (كي)، ووجه الشبه هو (الثورة والهجان). هذا البيت يحمل صورة بيانية توحى بالحرب والقتال، والصورة هي التشبيه التام.

في هذا البيت رمز الشاعر بلفظة البحر لهذا المجاهد، فكان هذا التشبيه التام أبلغ وسيلة للإفصاح عن هذا الرمز وإيصاله إلى أذهان المتقّين، ثار هذا المجاهد مثلما يثور البحر الهائج المتلاطم الأمواج، فالشاعر جعل البحر متحركاً حركة هائلة، وأمواجه تبلغ بسمكها السماء، بالإضافة إلى الحركة، فالأمواج المتعاركة هذه تُحدث أصواتاً قويّة يهلع من صداها كل من سمعها أو كان قريباً منها، ويفزع من منظرها، فهي توحى بالموت الأكيد، وتُشعر بالمصير المحتوم، والغدر من شيم البحر كما هو متداول في الأوساط الشعبية، هذه المدلولات التي تستقرُّ بأذهاننا كلّما ذكر البحر في حالة غضبه وعصبيّته، هي نفسها المدلولات التي أفردها الشاعر للمجاهد (أَحْمِيْدَة) في شراسته وقوّته وجهله أثناء قتال أعدائه.

وفي السياق نفسه؛ أي تشبيه الإنسان بالبحر، نجد الشاعر الشعبي " أحمد وليد بن القبّي " يقرن البحر بالشعر والشعراء، حيث يقول في قصيدة تشبه إلى حدّ كبير قصائد الشعر الجاهلي؛ من حيث وصف طريق الرحلة والزّاحلة (سيارة المرسيدس) وشعور الشاعر ومرافقيه والوصول إلى المكان المقصود (الإذاعة الوطنية بالجزائر العاصمة) :

مُقَصَّادِي بِلَادَ سَعْدٍ يَا حُضَّارَ	الّي يقصّب فالإذاعة زهّاها ¹
لخضر وُقْدُورْ دُوكْ مَعَاهْ اَعْبَارْ	كي يتقرنوعالقصّب ذي شفتهاها ²
تَحْسَبْ رُوحْكَ رَاكْ عَايْمْ وَسَطْ اَبْحَارْ	وابابيز يُشْرِكُو دَاخِلْ مَاها ³

1 - بِلَادَ سَعْدٍ: الجزائر العاصمة.

2 - لخضر و قدور: عازفان على آلة القصبة في الإذاعة الوطنية بالجزائر العاصمة.

3 - أَبَابِيزُ: جمع بابور وهو السفينة الكبيرة. يُشْرِكُو: يَسْبَحُونَ.

والمُوجَّاتُ عَلَى الجَوَايَةِ يَاسَتَا زَجَهْلَةٌ فِي أَعْقَابِ جَهْلَةٍ تَلْقَاهَا¹

فصوت الناي (القصبة) هنا؛ هو عبارة عن بحار ذات أمواج، والسفن في وسط هذه البحار سابحة داخل المياه، وأمواج البحر قوية متدفقة، هؤلاء الأشخاص الذين يعزفون على هذه الآلة الموسيقية (القصبة) يصدرون من خلال هذا العزف أصواتا شجية تطرب لها الأسماع، وتهفو إلى مواصلة سماعها الآذان، هذا العزف يرافقه إلقاء القصائد من طرف الشعراء؛ العلاقة إذن علاقة ثلاثية بين العزف والشعر والبحر، وكأنني بالشاعر يربط بين الصَّوت والأمواج في ارتفاعها وانخفاضها، وفي حِدَّتْها وسمكها، وفي الأصوات التي تصدرها هذه الحركة المتتالية، فالصوت هو عبارة عن موجة تعلو وتنخفض، تذهب يمينا وشمالا، وهذا صحيح علمياً، فمن أين للشاعر الأمي أن يفهم هذا؟

وفي قوله (أَبَحَا ز)؛ يعني: بحار، ذكر الشاعر الجمع بدل المفرد (بحر) وذلك للدلالة على الكثير، وقد توحى لفظة الجمع - أيضا - إلى شِدَّة وعمق التلذذ بهذا الصوت والسفر معه إلى عالم الانتشاء، وذلك من خلال لفظة السَّفْن (أَبَابِير) التي تسبح داخل هذه المياه، فالسفينة "هي المركب الذي تتم بواسطته الرحلة"² إلى العالم الآخر، والمركب "إنما هو الشيء الذي يتمكن الإنسان به من قهر جبروت البحر والتغلب عليه، مبرزاً بذلك قدرته الجبارة على الخوض في كل شيء"³.

فالبحر، هنا، بأمواجه وسفنه رمز لهذا الجوِّ الشعاري من العزف الذي يرافقه إلقاء القصائد، وفي البيتين كناية عن هذا الجوِّ. وفي المعنى نفسه، يشبه الشاعر "بن القبي" صاحب حصاة (ألوان وفنون من الشعر الملحون) المرحوم "عبد الرحمن قاسم" ببحر الأشعار في قوله:

1 - الجَوَايَةُ: الجهات. جَهْلَةٌ: موجة عظيمة.

2 - ملاس مختار: دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث، ص107.

3 - المرجع نفسه، ص105.

جَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَاسِمٌ صَيْدٌ نَتَاغُ قَحَّازٌ شُعَارًا جَاتُ يَاسِرٌ قَرَّاهَا¹
تَبَعْتُ عَنْدُو نَاسٍ يَاسِرٌ فِي لَشَعَارِ وَحَدَّةٌ يَقْبَلُهَا وَلُخْرَى خَلَّاهَا²
حَتَّى هُوَ كَانَ بَحْرُ انْتَاغِ اشْعَارِ سَابِقًا قَدَّاهُ كَلِمَةً وَرَّاهَا³

حيث يظهر التشبيه البليغ في قوله: (حَتَّى هُوَ كَانَ بَحْرُ انْتَاغِ اشْعَارِ) شبه الشاعر "عبد الرحمن قاسم" - رحمه الله - ببحر الأشعار، فاقصر على المشبه (هو) والمشبه به (بَحْرُ اشْعَارِ) وفي علاقة الشعر بالبحر ما يدل على الكثرة والجودة والتّميز والارتجال، وصوره البيانية ومحسناته البديعية هي الدّر الكامنة في أحشاء البحر، والتي لا يستطيع الحصول عليها إلا الغواص الماهر، الذي يشبه إلى حدّ بعيد الشاعر الماهر الذي يوظف درر الرموز والألفاظ في قصائده، وعند إلقائها على مسامع المتلقين يحدث نغماً متناسقاً يثير إعجابهم، وينقلهم في رحلة بحرية عبر بحر هادئ الأمواج، تلوح زرقته بالشفافية والطمأنينة، فالزُّرقة "تدل على الصفاء والهدوء والرّاحة النفسية والاسترخاء، فهي مطلب يبذل له كل جهد".⁴

وهناك من الشعراء من اتجه وجهة أخرى في توظيف رمز البحر، حيث جعله للدلالة على الحب ولوعته، فالحب يشبه البحر لِتَقْلُبِهِ كَتَقْلُبِهِ، ولأنهما مكن الأسرار والألغاز.

فالشاعر "الحمدى بوشنافة" في قصيدة غزلية من أروع ما كتب ونظم في فنّ الغزل يجعل البحر رمزا للحب في قوله:

وُدُّ الْمَكْتُوبِ أَنْ جَابِنِي عَرَفَنِي لَيْكُ دَرَبَانِي عَنْ شَطِّ الْبَحْرِ ارْمَانِي⁵

1 - عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَاسِمٌ (رحمه الله): مُعَدِّ ومُقدِّم برنامج (ألوان وفنون من الشعر الملحون) سابقا في الإذاعة الوطنية بالجزائر العاصمة. صَيْدٌ نَتَاغُ قَحَّازٌ: أسد معارك وحروب.

2 - يَاسِرٌ: كثير. خَلَّاهَا: تركها.

3 - بَحْرُ انْتَاغِ اشْعَارِ: بَحْرُ أشْعَارِ. قَدَّاهُ كَلِمَةً: كم من قصيدة.

4 - ظاهر محمد هزّاع الزّواهرة: اللون ودلالاته في الشعر، ص71.

5 - جَابِنِي: جاء بي. دَرَبَانِي: رماني من الأعلى إلى الأسفل. ارْمَانِي: رماني.

بَحْرُ الْحُبِّ صَعِيبٌ وَاعَزْ لَا يَبْلِيكَ فِيهِ الْمَوْجُ كَثِيرٌ وَالرَّيْحُ إِيْمَانِي¹

فهو يخاطب محبوبته ويخبرها بأن المولى عز وجل هو الذي جعله يلتقي بها في ذلك الوقت بالضبط، وفي تلك الساعة بالذات، فالأمر لم يكن بيده، ولم يكن له فيه أي دخل، ويحذرهما من ولوج بحر الحب لأنه صعب وأمواجه كثيرة وقوية وعاتية، وزادتها الريح اضطرابا وهيجانا، وقد عرف الشاعر ذلك لأنه رُمي قبلها على شاطئ هذا البحر، فهو الذي أحبها أولا، وهو الآن يحذرهما من أن تحبه وربما تتعلّق به أيضا، وبالتالي تدخل هذا البحر معه، وهذا ليس تناقضا في حديث الشاعر وإنما هي رافة المحب بمحبوبه، وخوفه عليه، ولابن حزم الأندلسي في كتابه "طوق الحمامة في الألفة والألاف"² في شأن المحبّ والمحبوب عجائب وغرائب وروايات.

البحر في بيتي الشاعر رمز للحب، فصفاء البحر وهدوء أمواجه وجماله وسكونه وامتداده في الأفق، كلّ هذه الصفات تجعله يشبه الحب في حالة التوافق بين المتحابّين، حيث ينعمان بصفاء الوداد وهدوء النفس وجمال الروح، وامتداد الأمل في رجاء الوصال والقرب .

أمّا إذا حدث العكس، فغضب البحر وثورته وارتفاع أمواجه، دليل على سوء حالة المتحابّين، واضطراب أمواجه هو اضطراب مشاعرهما، وتقلّب حالته إلى سوءٍ هو تعبهما النفسي وخوفهما من الفراق والنأي والبعد.

فهذا الشاعر "إسماعيل مدّاد" المدعو "بن مدّاد"³ يصف لنا حوارا دار بينه وبين محبوبته، حيث خاطبها قائلا:

1 - صَعِيبٌ: صعب. وَاعَزْ: صعب جدا. يَبْلِيكَ: يبتليك.

2 - ينظر: ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، مؤسسة سعيدان، سوسة، تونس، 1989، ص75 (باب الطاعة).

3 - إسماعيل مدّاد: هو شاعر من منطقة امجدل الواقعة قرب مدينة بوسعادة، ولد بمنطقة عين الكحلة سنة 1973، أطلق عليه لقب "بن مدّاد" وأشتهر به. له ديوانٌ شعريٌّ مخطوط، قدّمه مؤخرًا للطبع.

خَافِي مِنْ مَوْلَاكَ لِعِزَّالَةٍ فِي حَلِي قَلْبُكَ مَا تَخْلِيهِشْ حَيْرَانٌ¹
فأجابته:

قَالَتْ خُفْتُ أَنْدَخْلُكَ تَلْعَبُ بِي تَهْرُبُ فَالشَّدَّةُ تَخْلِيلِي لِمَحَانٌ²
بَحْرُ الْحُبِّ اصْغِيبْ بِمَوَاجِ اقْوِيَّةِ الْعَوَامِ الِّي عَاشَقُوا يُخْرِجُ تَغْبَانُ

المحوبة في هذين البيتين تخاف من الدخول في تجربة حب لا تعرف نهاية لها، وقد تعود عليها بالخسران والفشل، لذلك هي تذكره بصعوبة الدخول في هذا البحر، لأن نتيجته معروفة منذ البداية؛ وهي أن كل الذين يسبحون في لجته ويعشقونه ينتهون إلى الشعور بالتعب، والتعب الناتج عن هذا النوع من المشاعر هو نوعان: تعب نفسي وتعب جسدي، ويزداد هذا التعب حدة إذا انتهى الحال بالحبيبين إلى الفراق، وهذا ما أشارت إليه هذه الحبيبة بقولها: (تَهْرُبُ فَالشَّدَّةُ تَخْلِيلِي لِمَحَانُ) وهي تقصد من خلال قولها أنها بعدما تفتح للشاعر قلبها وتشعر بحبه وقربه منها، يتركها بعدما تعلقت به تعاني الأمرين.

فصعوبة البحر إنما تظهر في غرق من لا يجيد السباحة، فمن يريد الغوص يجب عليه أن يأخذ معه الوسائل اللازمة، ويجب أن يكون ماهراً قبل كل شيء، ولهذه الأسباب تخاف المحبوبة من الغوص في بحر الحب.

البحر الذي خافت منه المحبوبة في الأبيات السابقة، فزع منه - أيضاً - الشاعر الشعبي "البشير قذيفة"³، فهاهو في قصيدته (الساعة) يحاول إقناع نفسه بالابتعاد عن هذا المكان الخطير، لأنه كالسيف يطعن كل من يقترب منه، ويجرّه إلى الهلاك لا محالة، والبحر عند هذا الشاعر يقترن بالمرأة دون غيرها، فهو عندما يحاول المقارنة بين النساء؛ يجعل منهن أصنافاً وأنواعاً، لكنه عند

1 - حلي: افتحي. ما تخليهش: لا تتركه.

2 - اندخلك: أدخلك. تخليلي لمحان: تترك لي المحن.

3 - البشير قذيفة: شاعر شعبي من منطقة عين اغراب (جبل امساعد) الواقعة قرب مدينة بوسعادة، ولد في شهر جانفي سنة 1958 بنفس المنطقة، شاعر عصامي، له ديوان شعر مخطوط، طبعت له بعض القصائد في مؤلفات مختلفة.

الحديث عن البحر يذكره مفردًا، وكأن الأمر لا يتعلق بشكل المرأة أو دينها أو نسبها أو مالها؛ وهذا هو السرّ في الاختلاف الذي أوجده المولى عز وجل في البشر. النساء أشكال وأنواع، ولكن مشاعر الحبّ واحدة. يقول الشاعر "البشير قذيفة":

وُتَخْتَلِفُ حَتَّى النِّسَارِيمِ وَبُقْرةَ بَحْرَهُمْ غَامِقُ كُلُّ مَنْ طَغَنُو يَدِيَهْ

ويكمل الشاعر تصنيفه للنساء في أبياته الموالية، إلى أن يصل إلى واحدة منهنّ ملكت قلبه وأخذت لَبَّه، فتاة جعلته يعاني، وألهمته قصيدة من أجمل ما كُتِبَ في فنّ الغزل، فيجد نفسه أسيرًا لحبها غارقا في بحر هواها، وهو الذي عقد العزم على عدم الاقتراب من شطّ هذا البحر ثانية، يقول:

بَعْدَ أَنْ قُلْتُ خُلَاصَ مَنْ هَآؤُ الْخَطَرَةِ مَا نَدْخُلُشِي بَحْرَهُمْ شَطُّو نَخْطِيَهْ
أَرْمَانِي مَكْتُوبُ يَا هَآؤُ الْحُضْرَةِ رَانِي فِي زِيَّازٍ وَحْدِي حَاصِلٌ فِيَهْ¹
أَرْمَاتِي بِسَهَامِهَا طَفْلَةٌ سَمَرَةٌ تَوَدَّرَ عَقْلِي حِينَ رَبِّي رَادٌ غَلِيَهْ

هذا هو الحبّ في نظر الشاعر؛ بحر بلا قرار؛ وشطّ شاسع لا يجب الاقتراب منه، ومع ذلك، فكلّ الناس مُعَرَّضُونَ للوقوع في شباكهم، منهم من يجد في ذلك ضالته، ومنهم من يغرق فيه للأبد، ومنهم من يَنْتَشِلُ نفسه، ولكنّه سرعان ما يقع مرة ثانية.

3.1.3 - السّماء:

السماء هي ذلك الفضاء الواسع الممتدّ، وهي تلك المساحة التي تظهر باللون الأزرق في حالة الصفاء، وقد ارتبطت بالسّمَوِّ والصعود والتّعالّي منذ الأزل، فالإنسان إذا أراد رؤيتها نظر إلى فوق.. وإذا أراد مخاطبة المولى عزّ وجل رفع كفيه إلى الأعلى.. السّماء شيء مقدّس بالنّسبة للإنسان فهي مستقرّه الأوّل

1 - الحُضْرَةُ: الحُضُور. زِيَّاز: ألم شديد

ومرتعه ومستودعه قبل أن يغويه الشيطان¹، لذلك ظلت السماء مطلب الإنسان الأسمى، وجنته العليا التي تهفو إليها نفسه في كل حين.. فهي أمر مقدس ونوع من عالم المجهول البعيد...

السماء نوع من الأمكنة، ولكنه مكان مقدس، وليست السماء هي المقصودة بالرمز في حد ذاتها عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، وإنما الذي قصده الشعراء بالرمز في السماء هو ما احتوت عليه من شمس وقمر ونجوم.

الشمس تظهر في النهار بضوئها الساطع الذي يطبع مهابة وإجلالا على الكون كله، والقمر يرافق النجوم في الليل، وقد أرسل نوره لتهتدي به الكائنات، أما شعراء القصيدة الشعبية فيتأملون كل هذه التغيرات في صمت، ولكنهم سرعان ما يبادرون إلى جعل هذه الكواكب الثلاثة أبطالاً في قصائدهم، ويجعلونها رموزاً موحية بمدلولات يشترك الشاعر والمتلقي في فك شفراتها الغامضة.

1.3.1.3 - الشمس:

تعددت و تتوَّعت مدلولات الشمس في القصيدة الشعبية وخاصة في منطقة بوسعادة، فمن الشعراء من جعلها رمزاً للوطن، ومنهم من جعلها رمزاً للآم، وهناك من رمَّز بها إلى المرأة المحبوبة.

الشاعرة "الزهرة شويحة"² جعلت الشمس رمزاً للحق والعدل، فهاهي تتادي وتصرخ بأعلى صوتها في محاولة منها لمعرفة سبب الأزمة التي مرَّت بها الجزائر

1 - ورد ذلك في القرآن الكريم، وفيه إشارة إلى قصة نزول آدم -عليه السلام- إلى الأرض، يقول المولى عزَّ وحلَّ في ذلك: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ(35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) "سورة البقرة".

2 - الزهرة شويحة: شاعرة شعبية من منطقة الهامل الواقعة قرب مدينة بوسعادة، ولدت سنة 1950 بمنطقة الهامل، حفظت القرآن الكريم على يد أبيها وهي بعد صبيّة. للشاعرة ديوان شعر مخطوط جاهز للنشر.

في التسعينيات والتي أطلق أثناءها مصطلح الإرهاب على كل من يتسبب في قتل إخوانه بدون سبب وجيه.

فُجِعَت الشاعرة بمقتل خمسة أشخاص من منطقتها، فَهَالَهَا الأمر، وجعلت تدعو المولى عز وجل أن يرفع هذا البلاء، وأن ينشر الأمن والسلام في أرض الوطن، وأن يُفَرِّج هذه المحن، ومن فرط ما اعتصر في قلبها من الألم، صارت تتأدي:

يَا بِلَادِي يَا غَالِيَةَ أَمْرِكَ مَجْهُولُ غَابَتْ شَمْسُ الْحَقِّ دُرُقْتُ بَضِيَّاهَا¹

الشمس في بيت الشاعرة هي رمز للحق والعدل، وضوؤها هو الأمان والسلام، وهو الخير الذي يعمّ الكون، تفرح به جميع الكائنات، "فمن نورها يعيش الإنسان وتنمو الكائنات، ويتحقق الأمل في المستقبل، وإنها بأشعتها تبثّ الدفء في قلب كل كائن حيّ فيشعر بالحنان والأمان، فكأنّها أمّه الكبرى التي لم تكل أبداعن منحه عطفها وحنانها".²

الشمس تبعث الضوء والنور، وتقضي بذلك على ظلام الليل، فتصير أشعتها الذهبية رمزاً للأمل والحياة الجميلة السعيدة، أما الظلام فهو رمز للظلم والظلمات والحزن والموت، لذلك يطلبها الإنسان في كل مكان وفي كل زمان لتخلصه من الظلام القاتم الذي يلقي بثوبه على الموجودات ويكسوها بردائه الأسود الذي يثير في النفس الشعور بالألم والوحشة والغربة والخوف من المجهول.

وفي قصيدة أخرى تجعل الشاعرة الشمس رمزاً للدين الإسلامي، حيث أشرقت شمس الحق بفضل الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء والمرسلين، وسكنت الأعالي بانتصار المسلمين على الكفار والمنافقين. تقول الشاعرة في قصيدة تمدح فيها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتتمنى زيارة قبره:

انصَرَّهْم رَبِّي عَلَى جَيْشِ الطُّغْيَانِ شَرَقْتُ شَمْسُ الدِّينِ سَكَنَتْ لَعْلَالِي³

1- دُرُقْتُ بَضِيَّاهَا: اختفت بضوئها.

2 - ملاس مختار: دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث، ص40.

3- شَرَقْتُ: أشرقت. لَعْلَالِي: العُلا.

بِفَضْلِ الرَّسُولِ هَزَامُ الْعُدَيَّانِ خَاتَمٌ لِنَبِيَّاءِ الْمَبْعُوثِ النَّالِي¹

وفي سياق مخالف لما ورد عند الشاعرة "الزهرة شويحة" نجد الشاعر "عبد القادر العطوي"؛ حيث يرمز بالشمس للمرأة بصفة عامة، والمرأة المحبوبة بصفة خاصة، يُشَبِّهُهَا بالشمس، حيث "يُوحِي جمال المحبوبة وحضورها المشرق في حياته بالشمس التي تَبَدَّدَ حلكتها ذاته، وتحيل ليله نهارا"²؛ والشمس إنما هي وجه الحبيبة ذاته في جوٍّ صحوٍّ، بل في عزِّ حرارة الصَّيفِ القائن، هذه الحبيبة يشبه وجهها قرص الشمس في أكثر أيام فصل الصيف حرارة، حيث يشعر الناس بالعطش الشديد، وربما يؤدي بهم ذلك إلى الموت المؤكد، خاصة إذا فقدوا الماء ولم يجدوه، فهم في هذه الحالة يلهثون من العطش الذي قد يقتلهم لا محالة.

يقول الشاعر الشعبي "عبد القادر العطوي" في قصيدة غزلية من أروع ما كُتِبَ في فنِّ الغزل، حيث جعل من قصيدته آية من آيات البيان والبديع، وسرح بخياله في ضروب من الكلام. يقول الشاعر واصفا هذه الفتاة المحبوبة:

شَمْسٌ صُمَامِيْمٌ حَرَّهَا يَقْتُلُ بِالْغُبِّ الْخَالِيقُ عَلَى الْمَاءِ تَلْهَثُ غُؤَابُ³

فشدّة توهّج الشمس توحى بجمال الحبيبة وبياض وصفاء وجهها، وبياض وجه المرأة وجسده - كما هو معروف - من علامات جمال المرأة عند العرب، وقد جعل المولى عزّ وجلّ صفة البياض من صفات نساء الجنّة، كما وَرَدَت هذه الصفة - أيضا - مقترنة بالمرأة في الشعر الجاهلي عند العديد من الشعراء، وتناولها كذلك شعراء العصور التي تَلَتْ العصر الجاهلي، وحتّى في عصرنا الحالي لا زالت صفة البياض ترافق النِّساء الجميلات.

1- العُدَيَّان: الأعداء. لَنَبِيَّاءِ: الأنبياء.

2 - وجدان الصايغ: الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث - رؤية بلاغية لشعرية الأخطل الصغير - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص122.

3 - صُمَامِيْمٌ: هي أيام معروفة في فصل الصَّيف، تتميز بحرارتها الشديدة. الْغُبُّ: العطش. الْخَالِيقُ: الخلائق. غُؤَابٌ: جمع غَابٍ يعني عطشان.

وفي قصيدة "البيت الحمرا" يُشبّه الشاعر المرأة البدوية بالشمس التي تطلّ في الصباح الباكر مع إشراقه بهيجة من وراء الأفق، حيث يرتفع قرصها إلى كبد السماء شيئاً فشيئاً، ترسل أشعتها كخيوط من ذهب لتنتشر الفرح والحبور في قلوب البشر، وتحيل حياتهم فسحة من النشاط الدائم والمحبة والتقاني في العمل، هي ذي المرأة البدوية التي تظهر شمساً؛ "إشارة إلى بياض بشرتها، واستدارة وجهها من جانب، ونصاعة روحها الخيرة وتوجهها من جانب آخر، فضلاً عن أنها تجلّي قدرتها على إحالة حياة الشاعر إلى نهار متصل مشرق زاخرة أجواؤه بالبهجة المستمدة من حضور الشمس بلونها البهيج"¹. يقول الشاعر في ذلك:

أَذا تَأَقَّتْ تَأَيِّفَةُ شَمْسِ الْبُكَرَةِ يَأْوِيحُ إِلَيَّ صَابِتُو لَأَوَيْنَ دَوَاهُ

فهذه الشمس، بقدر ما هي مسالمة، إلا أنّ لها أضراراً، فأشعتها الحارة قد تصيب الإنسان فتهلكه، وتسبّب له أمراضاً تستعصي على الأطباء، وقد لا يجد لها دواءً؛ ومصدر الإصابة من الفتاة البدوية هذه، هو نظرتها القاتلة التي توجهها نحو الناظر إليها كأنها سهم سام يخترق أحشاءه، ويلهب نيران صدره، فيغدو محباً وعاشقاً لها، متيمّاً بها، أسيراً لهواها، حزيناً لفراقها، متألماً ومشتاقاً لوصلها والقرب منها، ولا سبيل له إلى ذلك، وهي الدّرة المحفوظة في خيمتها إلا بالوصل في الحال.

2.3.1.3 - القمر:

وُظِّفَتْ لفظة القمر في الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة على ثلاثة أشكال، وذلك حسب حالة القمر عند ظهوره في السماء ليلاً؛ الحالة الأولى: هي استخدام مصطلح القمر في حدّ ذاته، والحالة الثانية: هي استخدام مصطلح البدر، وذلك عند اكتمال دارة القمر في منتصف الشهر، والحالة الثالثة: هي استخدام مصطلح الهلال، وذلك عند نحول القمر في نهاية الشهر.

1 - وجدان الصايغ: الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث، ص123.

وكل استخدام من هذه الاستخدامات الثلاثة للفظ القمر عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة كان له مدلولاته الخاصة، وذلك حسب كل حالة. في قصيدة للشاعر "السعيد بوعشرين" يتغنّى فيها بأمجاد وكره، يعني مكان ولادته ونشأته، ويرثي فيها أبويه، جعل الشاعر القمر رمزاً للأب الغائب. لقد اختفى القمر ولاحت السحب بينه وبين الابن/ الشاعر، فلم يعد الشاعر يراه. يقول:

يَوْمَ ارْحِلُوا مَشِينُوا كِي عَنِّي غَابَ اَتَمَسَّى قَمْرِي وَغَطَّاهُ اسْحَابُو¹

يتحسّر الشاعر على غياب الأب/ القمر؛ فيوم رحيله كان يوماً من أصعب الأيام التي مرّ بها الشاعر، والمفارقة العجيبة هي عودة القمر الثاني في الليلة القادمة، وربما ظهوره بعد انقشاع السحب التي تغطّيه، ولكن هيهات أن يعود الأب الحقيقي بعدما غطّاه التراب:

بَعْدَ اغْيَابُو كُلِّ شَيْ غَطَّاهُ اَتْرَابُ اَدَفْتُ لَنْصَارَ وَاکْتَفَيْ رَابُو²

فالأب في هذه الحالة غائب من دون عودة ولا رجوع، لذلك فالألم على فقدانه مضاعف، يكتسي صبغة من الحزن والحداد، والدنيا ظلام، والليل حالك، والشعور بالوحدة والغربة شعور رهيب...

هذا الموقف، هو نفسه موقف الشاعر "أحمد وليد بن القبي" عند وفاة والده، وفي تعبير مشابه أيضاً، حيث يقول:

وَأَتَمَسَّى ذَاكَ الْقَمَرَ غَطَّاهُ سَحَابُ وَاظْلَمْتُ عَنِّي الدُّنْيَا مَقُونِي³

لقد بقي الشاعر وحيداً، شريداً، يصارع الحزن والألم، ومرارة البعد والفرق، ودموعه غزيرة بكاءً على هذا القمر الغائب المختفي وراء السحب:

بَقِيتُ أَنَا وَحْدِي نَقَاسِي فَالْعَذَابُ وَأَدْمُوعِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَيَدَانِي

1 - مَشِينُوا: ما أقبحه! كي: عندما. اَتَمَسَّى: اختفى مساءً.

2 - اَدَفْتُ لَنْصَارَ: دُفن الأنصار (المناصرون من الأهل و الإخوان). اِكْتَفَيْ رَابُو: كتفائي هبطاً من مكانيهما (كناية عن فقد المساعدين من الإخوان والأهل)

3 - اظلمت: صارت الدنيا ظلاماً. مَقُونِي: ما أصعب حالتي!

القمر؛ هذا المخلوق الجميل الذي يُنير السماء كلّ ليلة، حيث يطلّ في الظلام الدامس ليَجعل الحياة أحدى وأجمل، عشقه الشعراء وتغنّوا بجماله، وسهر على نوره العشاق منتظرين بزوغ الفجر، فكان أنيسهم في وحدتهم، ورفيقهم في أحلامهم وآمالهم، وسفيرهم إلى الفتاة المحبوبة ورسولهم إليها.

فإذا طلع هذا القمر وأُناّر الدُّنا، فقد ازدهرت الحياة وابتهجت، واعتدل مزاج الشاعر. وفي هذا المعنى يقول " أحمد وليد بن القبي":

اتَعَدَّلُوا لَيَّامًا وَاتَّقُوا لَيَّيً **وَاطْلَعُ قَمْرِي فَوْقَ رَاسِي وَأَضْوَالِي**¹

القمر في بيت الشاعر هذا، هو رمز للحالة الجيدة، فالشطر الثاني هو كناية عن غنى وثراء الشاعر واعتدال ظروفه المادية والمعنوية بعد فقر شديد، وسوء حال، والقمر في الشطر الثاني يوضح ذلك؛ حيث أضاء للشاعر درب الحياة بعد معاناة طويلة مع الظلام.

أمّا لفظ البدر فقد استخدمه الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصائده، مرّة باللفظ، ومرّة بالمعنى، والبدر - كما هو معروف - هو اكتمال قرص القمر من حيث استدارته في منتصف الشهر، فيكون حينها أكثر إنارة، وأكبر حجمًا، وأروع وأجمل شكلًا، يبدّد ظلام الليل بإطلالته البهية، والتي تُشبهها إطلالة النساء الجميلات، فهن في حيائهن وتسترهن وجمالهن يشبهن البدر إذا غزلته السحب وحاولت إخفاءه تارة بعد تارة. يقول الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدة "البيت الحمر":

مَحْجُوبَاتٌ بَزِينَهُمْ جَابُوا فُخْرَهُ **نَعْتُ الْبَدْرُ إِذَا كَمُلَ شَفَعُ بَضْيَاهُ**²

لقد تعود الشعراء أن يشبّهوا المرأة بالقمر والبدر لوجود نقاط تشابه كثيرة بينهما، فالقمر غالبا ما "يبسط ضوءه الفضي في الليل البهيج، فهو يمثل الجمال

1 - معنى البيت: اعتدلت الأيام واستوت بالنسبة إليّ، وطلع قَمْرِي فوق رأسي وأضاء لي.

2 - مَحْجُوبَاتٌ: اسم مفعول من الفعل (حجب) على صيغة المؤنث، بمعنى مخبآت. نَعْتُ: مثل.

الهادئ، والسير الوديع. يطلّ بوجهه المستدير ونوره اللطيف، لا حرقّة فيه ولا شدة¹ وكذلك وجه المرأة وجبهتها. يقول الشاعر في قصيدة أخرى:

وَالْفَشْوَةُ ضَيُّ الْقَمَرِ فِيهَا يَغْرُبُ أَرْبَعُطَاعُشْ فَالشُّهُرُ جَمَعْتُ لَصْحَابٍ²

فجبهة المرأة المحبوبة تشبه البدر في إطلالته المضيئة، وقد غطّاها شعر المرأة الأسود الفاحم، فهي تشرق من تحت خصلات الشعر كأنها القمر في الليلة الرابعة عشر من الشهر، يتوارى من وراء السحاب، فهذه الصورة البيانية تحمل تشبيهاً بليغاً يزيد البيت رقةً وعذوبة، ويحمل المتلقي إلى مشهد من مشاهد الطبيعة البديعة.

ينتقل الشاعر نفسه في البيت الموالي من القصيدة نفسها إلى الحديث عن القمر، ولكن، في هذه المرة، يتخذ القمر شكل الهلال، حيث يرمز الشاعر به إلى حاجب المرأة، هذا الحاجب الذي يظهر من شدة رقة ودقته وكأنه هلال في آخر الشهر، مرتفع عن العين قليلاً، وقد اعتنت به صاحبتة من خلال عملية نمصٍ ل يبدو بهذا الشكل الجميل المتناسق، يصفه الشاعر بقوله:

فَوْفَ الْعَيْنِ هَلَالٌ مَلْقُوطٌ مَنْشَبٌ آخِرُ لَيْلَةٍ فَالشُّهُرُ وَقَضَى لِحَسَابٍ

حاجب هذه المرأة رقيق ودقيق جداً، لدرجة أنه قد لا يُرى، يشبه في حالته هذه هلال آخر الشهر، الذي تصعب رؤيته بالعين المجردة.

هذه الصورة الرمزية للهلال /الحاجب، صورة انفرد بها الشاعر "عبد القادر العطوي" - حسب مدونة الشعر التي بين أيدينا - على خلاف شعراء القصيدة الشعبية الآخرين الذين توارثوا لفظ الهلال للدلالة على رقة ودقة خصر المرأة، وهذا أيضاً من علامات الجمال لدى المرأة.

يقول الشاعر " أحمد وليد بن القبي " في قصيدة غزلية يصف فيها محبوبته وصفاً حسياً، ويشبّه خصرها بالهلال أو الخاتم:

1 - محمد زغلول سلام: مدخل إلى الشعر الجاهلي - دراسة في البيئة والشعر - منشأة دار المعارف، الاسكندرية، مصر، 1995، ص72.

2- الفشوة: الجبهة. ضي: ضوء. أربعطاعش: أربعة عشر. لصحاب: الأصحاب.

جَوْفٌ مَثِيلٌ لَهْلَالٍ شَوْفَةٌ عَيْنِيًّا وَلَاخَاتَمٌ مِّنَ الذُّهَبِ مَافِيهِ غِيَارٌ¹

فَخَصُرُ هذه المرأة المحبوبة المعشوقة يشبه الهلال في رِقَّتِهِ ودَقَّتِهِ، وقد يشبه خاتم الذهب - أيضا - في استدارته، على أن يكون هذا الخاتم من الذهب الخالص الصَّافِي، ولا يجب أن تُفسد نقاءَه بعض الشوائب من المعادن الأخرى.

وغير بعيد عن الشاعر " أحمد وليد بن القبي " نجد الشاعرة " الزهرة شويحة "، التي تتغزل بأختها على غير عادة، وبشكل غير مسبق.. أن يتغزل الشاعر بالمرأة المحبوبة ويصفها وصفاً جسدياً، هذا أمر متوارث منذ عصور الشعر الأولى، ولكنَّ الغريب في الأمر هنا، هو تغزل المرأة بالمرأة ووصفها بهذا الشكل وبهذه الطريقة، ولكنَّها بادرة أولى من نوعها، ودليل على خيال واسع تملكه الشاعرة، وقدرة عجيبة على توظيف المعجم اللغوي الطبيعي في قصائدها؛ وهذا هو الحبُّ الأخويُّ الذي يفجّر طاقة الإبداع لدى الشعراء ويُزغمهم على نظم المزيد من الدُرر في مختلف الأغراض.

تقول الشاعرة " الزهرة شويحة " تصف خَصُرَ أختها " خديجة ":

جَوْفُكَ نَعْتُ اهْلَالٍ وَالطَّوْلَةُ صَرْوَلٌ سُبْحَانُو فِيمَا خُلِقَتْهَا مَوْلَايَا²

فأخت الشاعرة طويلة القامة، ذات خصر دقيق كالهلال، وغير ذلك من الصفات المذكورة في قصيدة الشاعرة.

3.3.1.3 - النجوم:

النجوم هي تلك الكواكب البعيدة المضيئة و المُنيرة ليلاً برفقة القمر، أحبها الشعراء، ووظفوها في أشعارهم كرمز لأشياء معينة، ولها مدلولات حسب ما وُظِّفَتْ له، وحسب وُرودها في سياق الأبيات. والنجوم في الشعر الشعبي واضحة المدلول، بحيث يشترك الشاعر والمتلقّي في معرفة ما ترمي إليه.

1 - جَوْفٌ: خَصُر. غِيَارٌ: غِشٌّ في أصل المعدن.

2- الطَّوْلَةُ: الطَّوْل. صَرْوَلٌ: نوع من الأشجار الطويلة.

فالنجوم عند الشاعر الشعبي " ترتبط في مخيلته بالسمو والرفعة والعدالة والجمال والإشراق، وربما اقترنت بسهر الشاعر ومعانته وصفاء سماء وطنه وجمالها، لقد كانت النجوم معينا مُهمًا لِشِعْرِهِ يستوحيه ويستثمره بدلالات متنوعة وبصور مختلفة مستمدة من طبيعتها التي أحبّها وألفها وبثّ فيها الحياة، وبدأ يشكو إليها همومه، ويرى فيها ألق عيني حبيبته وابتسامتها، ويعيرها سموّ الإنسان العظيم.. وكل ذلك يرد في سياق شعري مناسب يجيد الشاعر تهيئته".¹

وهي عند المتلقي تأخذ نفس المعنى؛ لقد جسّد الشعراء النجوم، وأنزلوها منزلة البشر، فجعلوها بمثابة امرأة جميلة، ذات طلة بهية، فإذا غابت هذه النجمة من السماء، فالمرأة ماتت لا محالة.

هذا المعنى أورده الشاعر " الحمدي بوشنافة " في رثائه لأخته " قوتة " حيث جعلها نجمة غابت، وقد كانت لا تبرح مكانها حتى تفضحها الشمس عند كل صباح.

غابت أخت الشاعر، وحال بينها وبينه غيم كثيف مُدْلَهَمٌ، فلم يجد الشاعر حيلة إلا أن خاطبها:

قَلَّتْهَا بِالْعَافِيَةِ نَجْمَةٌ لَفَجَّارٍ غَابَ ضِيَاكَ وَالْغَيْمُ عَنْكَ طَاخُ اهْدُومْ²

ودّع الشاعر أخته، وفي قلبه حرقه، وفي حلقه قصة، ولم يجد سلوى إلا تذكّر أيامه الماضية معها حين كانا صبيين يمرحان ويلعبان، ولكنه يدرك تمام الإدراك أن لا أحد في هذه الحياة يدوم حيًا، فكل البشر لهم نفس المصير، والقبر هو المسكن الذي ينتظر الناس جميعهم؛ فالموت لا يستثني حتى الصغار منهم، مهما بلغت معرّتهم في قلوب أوليائهم؛ هؤلاء الصغار شبيههم الشاعر بالنجوم في قوله:

مَاذَا قَبْلُكَ يَا خَتِي صَبِيَانُ صَغَارٍ وَغَزَارُ عَلَيَّ وَالْدَيْهَمُ غَيْرُ نَجُومٍ

1 - وجدان الصايغ: الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث، ص70.

2- طَاخُ: سقط . اهْدُومْ: كُتِلَ كثيفة متراكمة

الأطفال الصغار في نظر آبائهم نجوم مضيئة، تنير لهم حياتهم، وتجعلهم أكثر فرحاً وسعادة، ولكن هيهات أن تدوم الحياة لأحد:

وَصَدُّوا جَمْلَةً مَا بَقِيَ غَيْرَ التَّفَكُّارِ وَحَتَّى اخْتَايَا نَلْحَقُوا لَا حَدٌّ يَوْمٌ¹

فالكل سيرحل يوماً ما عن الحياة الدنيا، وستبقى الذكريات شاهدة على أصحابها، وحتى نحن سنلحق بهم يوماً...

استُخدمت النجمة - أيضاً - من طرف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة في قصائد الغزل رمزاً للفتاة المحبوبة للدلالة على جمالها وبهاؤها وتوهجها. وهذا الشاعر نفسه " الحمدي بوشنافة " يشبّه فتاته بنجمة الفجر في قصيدة (نخلة) في قوله:

أَنَا قُلُوبِي رَأَى بِهِ الْمَقْدُودَةَ وَأَتَوَحَّشْتُ أَوْصَافَهَا نَجْمَةً لِفَجَازٍ²

فتاة الشاعر جميلة، حسنة القدّ، اشتاق إليها الشاعر واشتاق إلى صفاتها، فهي تشبه نجمة الفجر التي تلوح في غسق الدجى لِتَبَرُّزَ " مثل خيط الأمل الذي يظل الإنسان متشبّثاً به حتى يُحقّق نجاحه وسعادته"³، ولا تغيب عن ناظره إلا عند الفجر.

و المعنى نفسه نجده عند الشاعر " أحمد وليد بن القبلي " الذي يرمز لمحبوبته بنجمة من النجوم المضيئة، التي تُحِيلُ الليل نهاراً من شدة صفائها ونقائها وبياضها. يقول الشاعر:

مِثْلُكَ نَجْمَةٌ مِنَ النُّجُومِ الضَّوْائِيَّةِ الَّتِي بَضِيَّاهَا اللَّيْلُ اِيْعُودُ انْهَارٌ⁴

لقد توارث الشعراء رمز النجمة، وألحقوه بالمرأة المحبوبة، تعبيراً عنهم عن الجمال الفائق الذي يوصلهم إلى المكانة الرفيعة، والتميّز وصعوبة المنال.

1 - جملة: جميعاً. التفكّار: التفكير. اختايا: نحن.

2 - المقدّودة: الجميلة، حسنة القدّ

3 - ملاس مختار: دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث، ص45.

4- الضوائية: المضيئة. الّتي: التي/الذي. ايعود: يصير.

فهذا الشاعر " إسماعيل مدّاد " قد سار على نفس نسق زملائه، في تشبيهه للفتاة التي يحبّها "فطيمة " بالنجمة التي تتوسّط السماء في جَوْ صَحْوٍ، والشاعر يتأمّلها من خلال وجوده في الصحراء. يقول:

وَأَنَا شَفْتُكَ فَالْغَرْبَةَ مِثْلَ النَّجْمَةِ وَسَطَ الصَّحْرَا صَافِيَةً مَكَانَ اسْحَابٍ¹
نَتَأَمَّلُ بِضْيَاكَ نَحْسِبُهَا نِعْمَةً وَأَنَا فِي نَقْمَةٍ وَمَا دَرْتُشَ لِحَسَابٍ²

من خلال البيتين تبدو حبيبة الشاعر نجمة متألقة تتوسّط صفحة السماء الصّافية، التي لا يعكّر صحوها سحاب، والشاعر غريب من أهله، يعيش في أحد الصّحاري، وقد تذكّر محبوبته عند رؤيته لهذه النجمة المضيئة ليلاً، فأخذه الحنين إليها، وحاول أن يتمثّل صورتها من خلال تأمله لصورة هذه النجمة، ثم أخذ يعاتب نفسه ويلومها على كثرة التفكير والشّرد والتأمل، وأنّه وصل إلى هذا الحدّ من العذاب النفسي والضياع، وهو الذي لم يكن يعرف نتيجة هذا الشعور، ولا إلى أين سيأخذه هذا الحب الجارف!

2.3- رمز الزّمان (الزّمن):

يُشكّل الزّمن الطبيعيّ أحد أهم العناصر المكونة للقصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، وعاملُ الزّمان عند شعراء هذه المنطقة يقتربُ مع عامل المكان لرسم هذه اللوحات الفنية البديعة، وعلى أية حال، فإنّ الزمان هو وقت حدوث الوقائع والمواقف، وهو المحدّد للدلالات المقصودة منها، ولا يمكن فصل عنصر الزمن من أي قصيدة، وحتى وإن حذف هذا العنصر، فلحظة حذفه هي زمن في حدّ ذاته.

استخدام شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة الزمن في قصائدهم بمختلف أنواعه؛ حيث ذكروا الفصول الأربعة، وذكروا الليل والنهار، والفجر والمساء، وكلّ شيء عندهم له زمن ومكان طبيعيين.

1 - شفتك: رأيته. مكان: لا يوجد.

2 - ما درتّش لحساب: لم أحسب حساباً ولم أستعدّ للموقف بعد.

1.2.3- الفصول الأربعة:

وردت الفصول الأربعة في قصائد الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة، وكان لكل فصل مدلولاته، وقد ذكرت الفصول بأسمائها، وفي بعض الأحيان لا تذكر الأسماء، وإنما يرد فقط ما يدل عليها من حقول دلالية توجي إلى فصل معين.

1.1.2.3- فصل الشتاء:

وظّف الشعراء فصل الشتاء في العديد من المحطات الشعرية، وذلك تعبيرا منهم عن الألم وصعوبة الحياة تارة، وتارة أخرى للتعبير عن الخير والنعم والأرزاق، وطورا للدلالة على جمال شجر المرأة وشدة سواده، وطورا آخر للدلالة على أصالة الحصان العربي وشدة بياضه...

فهذا الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدته (قصة شهيد) ينقلنا إلى مشهد رائع من مشاهد الطبيعة الغاضبة المزمجرة، حيث يصف لنا أمّا تنتظر ابنها انتظارا طويلا، وهو في كفاحه وجهاده، وتخطبه قائلة في نغمة حزينة تحمل من الأسى والحزن الكثير:

سَنَنْتِكَ فِي الصَّرِّ وَالنَّوْ تَهْوِطُ¹ لَاحَتْ مَا بَيْنَاتِنَا وَدِيَا وَشُعَابُ¹

في خضمّ ألمها، لا تعرف هذه الأمّ إن كان ابنها حيّا أو ميّتا، ولكنها، ومع قساوة الجوّ الشتوي وبرده القارص، وأمطاره الطوفانية، تملك بصيص أمل في عودته إليها، فالمطر الغزير أو الغيث يرمز إلى "الأمنية التي تتعلّق بالحياة، ولا تبدو هذه الأمنية في أشدّ حالاتها إلحاحًا إلا أمام الموت، طبيعيا كان أم معنويا"²، فالشتاء هنا، هو رمز لقسوة الحياة وصعوبتها، وانقطاع العلاقات الاجتماعية بين الأفراد.

1 - معنى البيت: انتظرتك في أشدّ أيام الشتاء برودة والأمطار تتهاطل. فصل ما بيننا وديانٍ وأنهاز.

2 - علي البطل: الصورة في الشعر العربي، ص230.

والمعنى نفسه نجده عند الشاعر " البشير قذيفة " في قصيدته (الساعة) حيث يقول:

سَاعَةٌ يَأْتِينَا الشُّتَا بَرْدٌ وَقَرَّةٌ سَاعَةٌ يُجِينَا رَبِيعٌ وَأَنْوَارٌ أَمْزَهِيَّةٌ¹

فالشطر الأول يحمل معاني التَّشَاوُم من حالة الجوِّ التي تنعكس على نفسية الشاعر فتحوّلها إلى عالم من اليأس والخيبة والكآبة، فهو في هذا النوع من الجوِّ يغمره إحساس بالغربة والضياع، فالحزن لديه " إحساس طبيعي ملازم، لقد سيطر الحزن المير على وجدان الشاعر من خلال معاناته لتجربة ذاته وإحساسه بالوحدة والغربة والسَّأم²، وهذه المشاعر يبعث عليها الإحساس بالبرد والامتناع عن الخروج، ولزوم المأوى طيلة هذه الأيام.

ولكن سرعان ما تتحوّل مشاعر الشاعر إلى الإحساس بالفائدة التي تنتج عن مطر الشتاء، وما يخلفه من خيرات للبشر ولكل الكائنات الحيّة. وهذا ما أشار إليه الشاعر "الحمدى بوشنافة" في رثائه لأخته "قوتة" عندما رمز إليها بالنبطة الوليدة التي نَبَتَتْ في البرّ، واستفادت من مطر الشتاء. يقول الشاعر:

مَا عَيَاتَشْ فِيكَ عَسْلُوجَةٌ لَوْعَارٌ وَتَتَغَانِي مَتَغْدِيَةٌ مِنْ مَطَرٍ حُسُومٍ³

فمطر الشتاء له فوائد عديدة، منها انتفاع الأرض به، ومن ثمّ ادّخاره في جوفها كأدّخار الأمّ للجنين في بطنها، فالمرأة/الأخت/ والأرض بالنسبة للشاعر سواء، وكذلك النبتة والمطر، والمرأة والمطر أيضاً، فالشاعر رأى كلّ زوجين اثنين رمزاً للأمل، و "لذلك جعل من كليهما مثلاً، فالمرأة سيّدة الخصب ومانحة الحياة.. والمطر باعث على الخصب والحياة، وكلاهما أمل للشاعر أو رموز

1 - قرّة: أيام يشتدّ فيها هطول المطر مع برد قارس في فصل الشتاء

2 - السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث - مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية - دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، مصر، ص265.

3 - معنى البيت: ألم تكن فيك نبتة البراري، تزهو وقد تغدّت من مطر الشتاء!؟

للأمل"¹، فَفَصَّلُ الشتاء في بيت الشاعر رمز للخير والنعم والأرزاق والحياة والخصب.

أما الشاعر الشعبي " أحمد وليد بن القبي " فقد جعل للشتاء غطاءً من الثلج -أيضاً- يغطي رؤوس الجبال العالية كرمز منه لهذا الحصان الأبيض شديد البياض، فالثلج هنا، رمز للنقاء والصفاء والأصالة والسلالة النقية، وكذلك هو رمز للتجديد والتغيير والحرية والانطلاق. يقول الشاعر واصفاً بياض هذا الحصان:

أَبْيَضُ ثَلْجٍ أَحْسُومٌ صَبَّ عَلَى لَوْعَارٍ وَغَلَى رَأْسُ جَبَالٍ جَرَفَ مِثَالُو²

وظّف الشاعر اللون الأبيض للدلالة على الصفاء والمحبة والودّ، وعلى الطهر والحياء، وجاء دالاً على الجمال، "فهو لون محبّب إلى القلوب الناس، يبعث على الأمل والتفاؤل، والصفاء والتسامح، ويدلّ على النقاء، كما يبعث على الودّ والمحبة، فهو غالباً ما يحمل الدلالات الإيجابية"³، وفصل الشتاء في هذه الحالة يدل على مادلّ عليه لون الثلج الأبيض؛ لأنّ الثلج مرتبط بهذا الفصل دون غيره من الفصول.

وفي لوحة فنية أخرى للشاعر " السعيد بوعشرين " تظهر صورة بيانية من أروع الصور في وصف جمال شعر المرأة وسواده، يقول الشاعر:

شَعْرُ امْعَطَّرَ طَايِخٌ عَلَيْهَا مَسْبُورٌ أَسْوَدُ نَعْتِ اللَّيْلِ جَافِي شَتَوَاتُو⁴

شعر المرأة معطرّ بالروائح الجميلة، وقد مال على كنفيّها من شدة نعومته وطوله، وهو أسود يشبه ليل الشتاء الدّامس، الحالك الظلام. في هذه الصورة جمع الشاعر بين عدّة أمور تتعلّق بالشعر؛ منها الرائحة والمنظر والشكل واللون

1 - عبد العزيز محمد شحادة: الزمن في الشعر الجاهلي، ص206.

2 - أحْسُومٌ: أيام شديدة البرودة في فصل الشتاء. صَبَّ: نزل وتساقط. لَوْعَارٌ: الأماكن العالية الوعرة. جَرَفَ مِثَالُو: تساقط أيضاً على رؤوس الجبال تلج مثله.

3 - ينظر: ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر، ص77/94.

4 - طَايِخٌ: مُتَدَلٍّ. نَعْتٌ: مِثْلٌ.

والمكان (الريف) والزمان (لَيْلُ الشَّتَاءِ)، فأصبحت هذه الصورة ناطقة متحدثة عن نفسها بنفسها، فَفَصَّلُ الشتاء بهذا الشكل جمع كل هذه الصفات في ليلة واحدة من لياليه، وجدائل المرأة السوداء ميّزت هذه الأنثى وزادتها جمالاً ورونقاً. فالشتاء هنا، صار ذا دلالة جمالية، ورمزاً لجمال الأنثى، وذلك من خلال ليله المظلم الذي شبّه به الشاعر شعر المرأة.

2.1.2.3 - فصل الربيع:

فصل الربيع من أزهى الفصول وأحبها إلى شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة؛ لأنّه يحمل معاني الحب والجمال، ومن خلاله تبرز الحياة بزيّنتها وثوبها المزخرف المزركش بالألوان؛ فالكون في هذا الفصل تسوده البهجة، ويغمره السرور والفرح، ويظهر ذلك جلياً في كل شيء، وخاصة في الطبيعة التي تصبح حيّة بعدما ماتت في فصل الشتاء، وسكنت حركتها.

في فصل الربيع تدبّ الحياة في الكائنات، وقد عادت إليها الحياة من جديد، فتغدو مغتبطة؛ وتلبس الأرض ثوباً أخضراً، يجعلها تجذب الناظر إليها، واللون الأخضر "يفضي إلى دلالات متعدّدة، فيعني الأمل والاستبشار والجمال، ويعني الحياة والخصب، والبعث والنهضة والتجديد، كما يدل على الزمن"¹، فاللون الأخضر مقترن بفصل الربيع، وهو الفصل الذي تبعث فيه حياة الكائنات.

وشعراء القصيدة الشعبية عادة ما يربطون فصل الربيع بالزهور والورود، فيشبهون خدود المرأة المحبوبة بزهور الأقحوان التي تنتشر وسط الزرع الأخضر، ويكون لونها أحمرًا غامقًا، دلالة منهم على جمال المرأة ونضارتها، فيكون الربيع في صورتهم الفنية هذه، رمزاً للجمال والحياة السعيدة ورغد العيش، فزمن الربيع بالنسبة إليهم هو زمن للحب والهدوء والطمأنينة والراحة النفسية.

1 - ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر، ص42.

فالشاعرة " الزهرة اشويحة " عندما تتغزل بأختها وتصف جمالها تفرد لخدودها صفة الاحمرار، وتقرن هذا الاحمرار بزهور الأقحوان، وتحصر وجود هذا النوع من الزهور بحلول فصل الربيع، حيث تقول:

خَدُّكَ بِنِ نَعْمَانَ فِي مَرْجَةٍ خَبْلٌ نَابَتْ فَصْلُ زَبِيعٍ شَمْسُو ضَوَايَةٍ¹

في هذه الصورة البيانية تشبيهه بليغ؛ المشبه فيه هو خدُّ هذه الأخت، والمشبه به هو زهور الأقحوان (بن نعمان)، حيث تظهر هذه الزهور كثيرة متماسكة ملتوية، وقد اختلط بعضها ببعض، وتراكم بعضها فوق بعض؛ للدلالة على شدة احمرار هذا الخدِّ واحتقان الدماء فيه. وهذا لا يكون إلا في فصل الربيع، وقد أشرقت شمس البهية، وأطلَّت على ذلك المرج الأخضر الممزوج بحمرة الأقحوان.

نفس الصورة نجدها عند الشاعر " السعيد بوعشرين " الذي يصف خدَّ المرأة البدوية، فيقول:

الْخَدُّ النَّائِزُ وَالْعَطُورَةُ وَرْدٌ تَلُولُ يَلْمَعُ بِنِ نَعْمَانَ جَا فِي مِيقَاتُو²

في هذه الصورة - أيضا - نصادف تشبيها بليغاً؛ المشبه فيه هو الخدُّ، والمشبه به هو زهور الأقحوان؛ والزمن هو فصل الربيع.

هذا التشبيه البليغ نجده - أيضا - عند الشاعر " الحمدي بوشنافة " إلا أنَّه لم يخصَّ نوعاً من الزهور بعينه، وإنما جعل خدَّ المرأة يشبه زهور الربيع بكل ألوانها؛ رمزا منه للنضارة والحسن والبهجة. يقول الشاعر في قصيدة غزلية يصف عيون محبوبته وخدودها:

عَيْنُكَ كَخَلَّةٍ وَالْخُلُّ وَاتَى عَيْنِيكَ خَدُّكَ وَرْدٌ أَرْبِيعٌ عَنْ كُلِّ الْوَانِي³

1 - مَرْجَةٌ: مرج، جمعه؛ مروج. خَبْلٌ: اختلط بعضه ببعض .

2 - النَّائِزُ: المنير. تَلُولُ: جمع تل؛ أرض مرتفعة مخضرة. مِيقَاتُو: وقته (زمنه) يقصد الشاعر بذلك فصل الربيع

3 - عَيْنُكَ كَخَلَّةٍ: عينك سوداء. وَاتَى عَيْنِيكَ: زاد عينوك جمالا.

فزمن الربيع في هذه الصور هو رمز للجمال والحسن والبهجة والنضارة، وهو رمز أيضا للنور والحياة الجميلة السعيدة، كيف لا؟ وفي هذا الفصل نتشرح الصدور، وتعتدل الأمزجة والطباع، وتتشأ بين الطبيعة والإنسان علاقة محبة وتواصل؛ ولكنه تواصل مؤقت، سرعان ما تقطع حبال ودّه يد الموت؛ وهو المعنى الذي نجده عند الشاعر " الحمدي بوشنافة " في قصيدة رثائه لأخته "قوة " حين يُعزّي نفسه باستعادته لذكريات الطفولة:

اتَّفَكَّرْتُ مِنْينَ كَتَا شَاوْ اصْغَارُ في نَوَّارِ رِبِيعٍ نَحْسَبُ رَاهُ يَدُومُ

فالشاعر متحسّر على ذهاب زمن الطفولة الذي غادرهم كما يغادر الربيع الحياة، وكما تغادر الزهور فصل الربيع، فأخت الشاعر غادرت الحياة إلى الدار الآخرة كما غادر نَوَّارِ الربيع الأرض وذبلت شجيراته وأوراقه؛ فالربيع من خلال بيت الشاعر يرمز للحياة الدنيا وبهجتها؛ ورحيله هو رمز لمفارقة الأهل والخلان؛ وهذه الصورة يبرزها الشاعر بشكل رائع في هذا المشهد:

ضُرْكُ لَحَقْتُ دَالْتُو دَبْلُ وَاصْفَاوْ هَاهُو سَنَدُ حَطْمُو رِيحِ الْمَسْمُومِ¹

رحلت أخت الشاعر كما ذبل ورد الربيع وسقط على الأرض، وقد حطمته الرياح السامة، فحالة الورد هي حالة الأخت، والمشهد نفسه، وللمتلقي حريّة تامّة في تخيل المشهد ومقارنته وتصوير لقطاته؛ فزهور الربيع ذابلة صفراء، والصفرة تعني المرض، وغالبا ما " يأتي اللون الأصفر دالا من علامات الموت والانهاء² وكذلك الريح الحارة التي توحى بالخراب والدمار والهلاك؛ وقد تتمثل "بوصفها علامة للرحيل المشوب بالتعاسة واليأس والإحباط، فهي إذّاك نظيرة للتيه والضياع، وصورة أخرى للغياب والتماهي داخل العالم المجهول".³

1 - ضُرْكُ: الآن. دَالْتُو: زمنه(أوانه). دَبْلُ وَاصْفَاوْ: ذبل وصار لونه أصفرا. سَنَدُ: تساقط وتراكم بعضه فوق بعض. رِيحِ الْمَسْمُومِ: الريح السامة.

2 - ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر، ص119.

3 - ملاس مختار: دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث، ص109.

فالعلامات الرمزية التي ذكرت في بيت الشاعر وهي: ذبول الزهور واصفرارها وتحطمها وتساقطها على الأرض، وكذا الرياح الحارة السّامة، كلها علامات رمزية دالة على الرحيل والبعد والفرق وتغيّر الحال إلى حال سيّئة، وهي علامات رمزية دالة - أيضا - على خروج فصل الربيع ودخول فصل الصيف.

3.1.2.3 - فصل الصيف:

فصل الصيف من أشد الفصول حرارة، ومن أصعبها تحملاً على البشر، خاصة عند أهل البادية، الذين يرحلون في هذا الفصل إلى الأماكن الباردة نسبياً؛ ومن هؤلاء قوم أولاد نايل الذين يقصدون المناطق الوسطى من الجزائر في فصل الصيف، فهي تتميز بمناخها البارد والمعتدل صيفاً، وبترتها ذات النوعية الجيدة، والتي تصلح للزراعة وخاصة زراعة البقول كالقمح والشعير، وهي مناطق يكثر فيها نزول المطر، فكل الظروف مهيأة لاستقبال هؤلاء الضيوف.

فصل الصيف في هذه الحالة هو رمز للرحيل والانتقال، وهذا ما دلّ عليه بيت الشاعر " الحمدي بوشنافة " الذي يقول:

اَيْشْتُوْ فَالْصَّخْرَا وَالصَّيْفَةَ فَالْتَلْ وَمَوَّالَا بَانْعَاْجَ وَأَمَّاتِ الْخَرْفَانْ

حيث يقضي أولاد نايل الشتاء في صحرائهم، وفي الصيف ينتقلون إلى المناطق الباردة بحثاً عن الماء والكلأ لأنعامهم ومواشيهم، ففصل الصيف بالنسبة إليهم هو فصل الترحال وتغيير المكان، ولتغيير المكان دلالات متعددة منها: تغيير نفسية المرتحل ومزاجه إلى الأفضل وبالتالي تصفية الذهن من الشوائب التي تعوقه، وكذلك التعرف على أماكن جديدة وأناس جدد، وهذا ما يؤدي إلى اكتساب معارف جديدة في كل رحلة يرتحلها هؤلاء القوم؛ وفي تتبعهم للمطر دلالة عميقة تتمثل في محبتهم للحياة، وفي تقديسهم للماء الذي هو أصل الحياة.

فالماء " هو ماء الخلق الذي عجن به التراب الذي خلق منه آدم، والماء هو رمز للقوة فهو أقوى العناصر أقوى من النار والهواء، وعند اختلاطه بالتراب الذي يتميز بالثبوت تحقق لآدم القوة والثبوت ¹. ولقد ارتبط الماء أيضا بالنطفة التي هي أصل الإنسان، وبالتالي الماء هو أصل التناسل والتواصل وديمومة الكون، وهو مصدر الخصب والرخاء. وقد أشار الشاعر ذاته إلى ذلك في بيت آخر بقوله:

وَيْنَ الْبَرْقِ إِيرْشُ لَتَوَالُو يَرْحَلْ مَا يَسْكَأُو لَا جِبَالْ وَلَا وِيدَانْ²

زمن الصيف عند الشاعر " الحمدي بوشنافة " في هذه القصيدة هو رمز للرحيل والارتحال والغربة والتغيير والتجديد.

وينقلنا الشاعر "عبد القادر العطوي " إلى مشهد آخر من مشاهد الحياة في فصل الصيف، حيث يصف لنا أمّا تبكي فقيدها الشهيد في ثورة التحرير الجزائرية، وقد انتظرت حضوره طويلاً، ولكنّه لم يعد.. يقول الشاعر على لسان هذه الأمّ المفجوعة:

سَنْتَنِيكَ فِي الْحَرِّ وَالنَّاسُ اتَّقِيلْ دُونْ جِبَالْكَ يَا جَرِيوي لَآخْ سَرَابْ³

أشار الشاعر في بيته هذا إلى لفظ السَّراب؛ والسَّراب هو خدعة بصرية، يظهر من خلالها الماء على بُعدٍ معيّن، ولكنّ الحقيقة هي عدم وجود الماء أصلاً، بل يتراءى ذلك للناظر بسبب شدة الحرّ، وفي هذا دلالة على وجود أمل كاذب وغير موجود أصلاً وهو أمل هذه الأم في عودة فقيدها الذي استشهد في إحدى المعارك؛ فهو لن يعود إليها أبداً؛ لقد أحسن الشاعر اختيار هذا اللفظ وتوظيفه لهذا المعنى بالضبط.

1 - سحر سامي: شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، ص149.

2 - معنى البيت: أين يومض البرق يرحل باتجاهه، لا تعوقه جبال ولا وديان.

3 - اتَّقِيلْ: تنام وفت القيلولة. جَرِيوي: نسبة للجرو؛ صغير الكلب، وهي كلمة مصغرة تُقال في لهجة المنطقة للتعبير والتدليل والتقريب، وتقصد الأم بهذه اللفظة ابنها الغائب. (وهذا الأسلوب هو ما يسمّى بأسلوب الترخيم في اللغة العربية الفصحى)

فطول الانتظار، وشدة الحرّ، والحرمان من القيلولة، والسراب الخادع، والجبال العالية الحاجبة؛ كل هذه عوامل رمزية دالة على عمق مشاعر الأسى والحزن والألم التي راودت هذه الأم؛ وهل كانت "دائرة السخط كلها بما صاحبها من آلام الفراق والبين وعذاب البعد، واستمرار الحنين إلا نتاجاً طبيعياً لضربة قاصمة من الزمن"¹، حيث لم تستطع هذه الأم إزاءها إلا استسلاماً وانهزاماً وانسحاباً؛ هذا ما حاول الشاعر إيصاله إلينا على لسان هذه الأم الباكية الشاكية.

فصل الصيف بالنسبة للشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدته هذه هو رمز للألم والحزن وخيبة الأمل، وحرارته الشديدة هي حرارة المشاعر واستعار لهيبتها واشتعال جذوتها، وهروب الناس من هذه الحرارة واستقرارهم داخل المنازل وبقاؤهم بها طيلة وقت القيلولة هو محاولة منهم لتهدئة المشاعر الملتهبة داخل صدورهم. وزمن الصيف - هنا - هو أيضاً رمز للانتظار الطويل دون جدوى والصبر على المكار والمصائب، وقوة التحمل، وغيرها من المعاني الرمزية التي قد تحملها الأبيات في قصائد الشعراء حسب مايقصده الشاعر بقوله وما يفهمه المتلقي من خلال مرجعيته الفكرية وقدرته على التخيل والربط بين الأحداث.

أما الشاعر "السعيد بوعشرين"؛ فقد أخذنا بخياله إلى مشهد من أروع المشاهد؛ تظهر فيه بعض عادات سكان منطقة بوسعادة في بواديهم، وبعض تقاليدهم، ومن هذه العادات والتقاليد تربية الخيول العربية الأصلية، والفروسية وسباق الخيل، والمبارزة في الأعراس واستخدام أسلحة الصيد في إطلاق البارود وخاصة في الأعراس والمناسبات المختلفة. يصف الشاعر جواداً عربياً أصيلاً فيقول:

كارم لزرَقْ عالفو في وقت اسبُول يشبه لزوي زين في تقفاطاتو²

1 - عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية، ص172.

2- معنى البيت: يُكرم الفارس حصانه الأزرق ويضع له العلف (الأكل) في زمن حصاد السنابل (زمن الصيف) هذا الحصان يشبه الغزال الجميل في قفزه.

حيث تُقام هذه الأعراس والمناسبات في فصل الصيف، ويكون هذا الفصل مناسباً لإجراء المسابقات والمنافسات بواسطة الخيول، التي كانت قد أُكرمت وحضّرت لهذه المناسبة؛ حيث ذكر الشاعر بأن ذلك يكون في زمن نضج السنابل؛ أي زمن اشتداد الحرارة في فصل الصيف.

فzمن الصيف عند الشاعر " السعيد بوعشرين " هو رمز للأفراح والأعراس والمناسبات السعيدة، وهو رمز لكل ما هو جميل، وحرارته هي رمز لحرارة مشاعر الحب والغرام ولوعة العشق العفيف عند قوم أولاد نايل في منطقة بوسعادة. ورغبة من الشاعر في إظهار بعض الجوانب من حياة هؤلاء القوم، يواصل الشاعر سرد بعض التفاصيل التي تبرز جمال الحياة في منطقة بوسعادة، فيقول:

وَتَشِيرَلُو زينة التَّحْفَة وَالطُّوْلُ
وَتَزْعَرَّتْ وَغَزَامَهَا مَاخَفَاتُو¹
الْمُهْرَة الْحَرَّة كِي اتَشُوفُ الْفَحْلُ اتَّصُولُ
وَيَا حَسْرَاهُ عَلَى الْحُبِّ وَلِيْعَاتُو²
وَسَلَاخْ اَمْنِ الدَّارِ يَلْمَعْ عِنْدَ افْحُولُ
وَعَلَى رَاسِ ابْنَاتِ كَبَّتْ جَعْبَاتُو
وَيُولِي مَنْ شَافَ ذَ الْمَشْهَدْ مَذْهُوْلُ
ويسلّم لولاد نايل من دَاتُو
ويقول الشاعر في آخر القصيدة:

الِّي شَافَ اعراسهم يتَحَمَّرْ طُولُ
يَنْفَحْ فالحياة تَحْيَا نَحْوَاتُو³

هذا البيت يلخص ما أراد الشاعر أن ينقله إلينا عن الحياة الجميلة التي يحياها هؤلاء القوم وخاصة في فصل الصيف الذي يعتبره الشاعر رمزا للأجواء الرومانسية والعواطف الفياضة والقلوب المنشرجة المحبّة.

4.1.2.3 - فصل الخريف:

1- تَشِيرَلُو: تشير إليه. زينة التَّحْفَة وَالطُّوْلُ: جميلة الهندام وحسنة القدّ

2- كِي اتَشُوفُ: عندما ترى. لِيْعَاتُو: لوعاته.

3- الِّي شَافَ: الذي رأى. يَتَحَمَّرْ طُولُ: يُطْرَبُ تماما. يَنْفَحْ فالحياة: تطلو له الحياة. تَحْيَا نَحْوَاتُو: تحيا نَحْوَتُهُ.

فصل الخريف هو فصل تهطل الأمطار، وهو الفصل الذي يقوم فيه الفلاحون بعملية الحرث والبذر، وبالتالي عليهم انتظار نتيجة مجهودهم، وفي المدونة الشعرية التي بين أيدينا عثرنا على إشارة لفصل الخريف كرمز للخيرات والنعم والمياه المنهمرة من السماء، ورد ذلك في قصيدتين للشاعر "عبد القادر العطوي"؛ حيث يقول الشاعر في قصيدة "البيت الحمر" "يصف قوافل أولاد نايل العائدة من مناطق التلّ بعد قضاء فترة الصيف:

وَالْمَرْحُولُ يَسِيرُ جَائٍ أَمِنْ الظَّهْرَةِ شَاوُ أَخْرِيفٍ مَفَارِقُ التَّلِّ وَخَلَاةٌ¹

في بداية فصل الخريف يعود قوم أولاد نايل إلى مراتعهم، خاصة إذا كانت بداية هذا الفصل مبشرة بأيام ممطرة، وخير وفير، وبالتالي لن يضطروا إلى الرحيل مرة أخرى للبحث عن الماء والكلأ، فأمطار الخريف كفيلة بتغيير وجه الأرض إلى وجه مخضرّ تكسوه النباتات والزرور وأنواع الزهور والورود.

وقد شبه الشاعر في قصيدة أخرى ذات موضوع غزليّ دموعه بوديان فصل الخريف؛ وذلك حينما اشتاق إلى محبوبته، فبكى بكاءً شديداً، وتهطلت دموعه بغزارة.

يقول الشاعر متحدثاً عن نفسه:

نَاشِفٌ رِيْقُو مِنْ الْعَطَشِ شَاهِي يَرْوِي وَدُمُوعُو وَيَدَانُ فَصْلُ خْرِيفٍ جَرَاوُ²

في الشطر الثاني من البيت تشبيه بليغ؛ المشبه فيه هو الدموع، والمشبّه به وديان فصل الخريف، ومن دلالات هذه الصورة البيانية الكثرة والوفرة؛ فدموع الشاعر تشبه في غزارتها هذه الوديان الجارية، وكلمة (جَرَاوُ) تدلّ على الاستمرار والديمومة، وكأنّ عذاب الشاعر مستمرّ ومتواصل، وقد ساعده الوزن الشعري وكذلك الموسيقى التي أحدثتها الحروف، وتتأسق الألفاظ وحسن تجاورها، إضافة إلى حرف الروي في الأشطر الأولى والأشطر الثانية والذي هو نفسه حرف الواو

1 - الْمَرْحُولُ: اسم مفعول من الفعل (رَحَلَ) ويعني هنا قوافل القوم. جَائٍ: قادم. الظَّهْرَةُ: الجهة المعاكسة للقبلة. شَاوُ: بداية. خَلَاةٌ: تركه.

2 - نَاشِفٌ رِيْقُو: فمه جاف من الرّيق. شَاهِي: اسم فاعل بمعنى: مُشْتَهٍ: مُحِبٌّ.

على سكب ما كمن في ذاته من شوق وحنين. يوضح لنا الشاعر سبب كتابته
لهذه القصيدة وسبب اختياره لهذه القافية، فيقول:

انرفه عن خاطري كاتب غنوة قافية خيرتها واو مع الواو

فالشاعر يُرْفُهُ عن نفسه، وقد اختار لقصيدته حرف الواو كحرف رويٍ
للشطين، والواو حرف مدٍّ وإشباع وهو من حروف العلة، يساعدنا على مدِّ
الصوت وتصويته وإعطائه نفساً طويلاً عند النطق به.

2.2.3 - الليل والنهار:

يشكّل الليل والنهار تقابلاً لفظياً، فهما لفظان متضادان في المعنى، يحيلنا كلّ واحد منهما إلى مدلولات معينة، يقصدها الشاعر قصداً، ويفهمها المتلقي من خلال السياق وحسب خلفيته الفكرية ومدرّكاته المعرفية، فالليل يتعلّق دائماً بالظلام وما يثيره من أشجان ومشاعر مختلفة، أما النهار فيتعلّق بالضوء وما يبيّنه من شعور بالسعادة والأمل في تغيّر الحال إلى الأحسن، وقد يحدث عكس ذلك، فيحمل الليل سعادة مطلقة، ويأتي النهار بالأحزان والآلام، وهذا حسب الموضوع الذي يتناوله الشاعر.

أدرج شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة مصطلحي الليل والنهار، وكان لكلّ مصطلح منهما دلالاته الخاصة، فهذا الشاعر "الحمدي بوشنافة" يوظف لفظ النهار للدلالة على الحياة السعيدة والأمان الجميلة تارة، وتارة أخرى للتعبير عن الألم ورثاء الأحباب. يقول الشاعر مخاطباً أخته "قوتة" في رثائه لها:

يَتَفَكَّرُونَ نَهَارَ عَيْدٍ اِيْجُو زِيَّارٍ وَلِيَّ تَلَحُّقٍ شَاوَهُمْ هِيَ فَطُومٌ

فيومُ العيد في الثقافة الإسلامية هو يوم فرح وسعادة وسرور، يتبادل فيه المسلمون التهاني والتحيات، وينسّون فيه أحقادهم، ويفتحون فيه صفحات جديدة للسّلم والمصالحة، فالعيد عند المسلمين هو رمز للفرح والغبطة، وهو رمز للجمال وإظهار البهجة؛ وارتداء الملابس الجديدة هو أكبر دليل على التعلّق بالحياة ومعانقة الأمل.

يواصل الشاعر حديثه عن الفرح في القصيدة نفسها، فيقول:

يَتَفَكَّرُونَ نَهَارَ زَهْوٍ مَعَ التَّفَخَّارِ وَسُنْطُ امْحَاتِلْ نَجْعُهُمْ جَمْلَةٌ مَلْمُومٌ¹

إضافة إلى الأعياد، يحتفل المسلمون بمناسبات مختلفة، حيث يجتمع الأهل والأحباب والأصحاب في يوم الفرح، يشعرون فيه بالمحبة والتقارب

1 - التَّفَخَّارُ: الافتخار والفخرة. امْحَاتِلْ: حفلات. نَجْعُهُمْ جَمْلَةٌ مَلْمُومٌ: أهلهم كلهم مجتمعين.

ويؤكدون فيه على روابط التواصل والتواد والتفاهم، ويزدادون في ذلك اليوم ثقة في بعضهم البعض وحرصا على مساعدة بعضهم البعض.

تظهر هذه الثقة والتعاون بين سكان منطقة بوسعادة - خاصة - حين يهيمون بالرحيل وتغيير المكان للبحث عن مكان مناسب لأنعامهم. يقول الشاعر "أحمد وليد" يصف يوم الرحلة:

نَهَارُ الرَّحْلَةِ يَجْبُونَا فَاعِ الْمَدْسُوسُ الْبَارُودُ يَرِيْمُو بِيَهْ اقْبَالَةَ¹

ويقول في قصيدة أخرى يصف فرسان أولاد نايل:

إِذَا حَضَرُوكْ فِي نَهَارِ نَتَاعِ انْقَارِ رَجَالَةَ زَيْنِينَ لِلرَّيْمِ اِيْوَالُو²

فالنهَار عند الشاعر "أحمد وليد بن القبي" هو رمز للرحيل والتغيير وتجديد الحياة إلى الأفضل، وهو رمز لإظهار البطولة والفروسية واستعراض القوة الجسدية عند الرجال في المبارزة وألعاب القتال.

أما الليل فهو عند شعراء القصيدة الشعبية رمز للأشواق والزفريات والآهات المتصاعدة، واجتماع الأشجان والهموم، وما يزيده إحياء بالألم والحزن هو الظلام الأسود الذي يزيد الإنسان المكتئب اكتئاباً، والليل طويل على الشعراء، نكاد نجزم أنه بلا نهاية، وخاصة إذا عانقنا الأرق والسهرة، وصرنا نعدّ النجوم ونعيد عدّها، ويمكن أن تكون "الحالة النفسية للشاعر مسؤولة عن هذه الظاهرة، فالليل هو الوقت الذي تجتمع فيه الأحزان على الشاعر، وتأبى أن تفارقه"، فالشاعر في حالة شوق شديدة، وقد اشتعلت نيران الحنين في صدره.

وهذا الشاعر "أحمد وليد بن القبي"، يعبر عن هذه الأشواق والآلام والأحزان التي انتابته في غربته، وقد أكثر من ذكر الليل في قصائده، يصف حالته، فيقول:

1- يَجْبُونَا فَاعِ الْمَدْسُوسُ: يخرجون كل ما خبأوه. يَرِيْمُو بِيَهْ اقْبَالَةَ: يطلقون الرصاص على العلى.

2 - نَهَارِ نَتَاعِ انْقَارِ: يوم قتال وشجار. معنى الشطر الثاني: رجال ذوو جمال مناسبون للقتال.

لِلرَّيْمِ: للقتال.

متوَحَّشَهُمْ رَاهَا الْكَبْدَةُ مَشْوِيَّةٌ مَا نَرْفُذُشَ اللَّيْلِ قَادِي مَشْعَالِي¹

اشتاق الشاعر إلى قومه أولاد نايل، فأصابه الأرق وطال سهره، وسُهادُهُ وانهالت دموعه غزيرة، تعبيراً منه عما يعتصر في قلبه من مرارة الشوق. يقول الشاعر في نفس المعنى في قصيدة أخرى:

وَيَنْ أَيُّطِخُ اللَّيْلُ يَلْحَقْتَنِي تَحْيَارٌ وَدُمُوعِي مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَنْهَالُو

ويشبه الشاعر لَيْلَهُ بالنهار ودموعه بالوديان في قوله:

لَيْلٌ أَنْقَاسِي فِيهِ عَنِّي عَادَ أَنْهَارٌ وَدُمُوعِي وَيدَانٌ بِالْكَثْرَةِ سَالُو²

في البيت تشبيهان بليغان (ليل يشبه النهار) و(دموع تشبه الوديان) فالتشبيه البليغ الأول دالٌّ على طول زمن الليل وانقلاب الموازين فيه، فالمولى عز وجل جعل النهار معاشاً وجعل الليل لباساً، وأشار إلى ذلك في أكثر من سورة في القرآن الكريم؛ منها قوله سبحانه وتعالى في سورة "النبأ": {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (10) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (11)}³؛ لكن الذي حدث هو العكس، فالشاعر قد جعل ليله نهارة للدلالة على عدم النوم، وقد بدا القلق الشديد، و"التوتر على الشاعر في هذا الليل، ويظهر سبب أرقه، إنه الحزن الشديد على من مضى من قومه، فالليل عند الشعراء مصدر للتوتر والقلق، يقاسون فيه أحزانهم فرادى".⁴

وقد يكون سبب الأرق الذي يصيب الشعراء هو فراق المحبوبة، فالشاعر يشتاق إلى محبوبته، ولا يجد إلى رؤيتها سبيلاً، لذلك نجده ساهراً ليله حائراً يتقلب على أشواك الشوق والحنين، فهذا الشاعر "إسماعيل مدّاد" يعترف لمحبوبته بسهره وأرقه من أجلها، ويخبرها بأن حبه لها جعل النوم يفارق عيونه. يقول:

1 - شرح البيت: اشتقتُ إليهم فكبدني ملتهبة (كناية عن شدة الشوق). لا أنام الليل فناري مشتعلة (كناية - أيضاً - عن الشوق).

2 - عاد: صار.

3 - سورة النبأ، الآيةان (11/10).

4 - عبد العزيز محمد شحادة، الزمن في الشعر الجاهلي، ص211.

سَهَرَنِي قَدَّاشُ لَيْلَةٍ فِي الظِّلْمَةِ سَهَرَنِي قَدَّاشُ نَوْمِي عَنِّي غَابٌ¹
ونفس المشاعر انتابت الشاعر "عبد القادر العطوي" حينما رأى - فجأة -
فتاة جميلة كان قد طرق باب منزلها؛ فأصيب بنوع من الدهول؛ واحتار في أمره؛
وبات ليله في عذاب، وقد حال ظلام الليل بينهما، فعادت هي سالمة، وأصيب
هو. لذلك جعل يُسَلِّي نفسه بقوله:

حَالُ الْحَايِلِ بَيْنًا وَاللَّيْلِ ضَرْبٌ هِيَ رَاحَتُ سَالِمَةٍ وَأَنَا مُصَابٌ
تَرَكْتَنِي وَمُشَاتٌ خَلَّتْ الْمُضْرِبُ نَعْتُ امْقِيدَدَ سَائِقِينُو عَاطُشٌ غَابٌ²
بَايْتُ طَوْلَ اللَّيْلِ سَاهَرٌ نَتَعَذَّبُ سَلَبْتَنِي مَا شَفْتُ فِيهَا مَا يَتَعَابُ³

أُغْرِمَ الشاعر بالفتاة، وهام بحبها، ولكن الليل كان حائلاً بينه وبينها، فلقاؤه
بها صعب جداً خاصة إذا لم تكن هي قد وافقت عليه وبادلته مشاعر الحب،
فالليل في قاموس العشاق والمحبين هو رمز للعذاب النفسي؛ ولكنه عذاب محبب
لديهم، فهم يستمتعون بهذا الظلام ويجعلونه رسولا إلى محبوباتهم، ورسولا من
محبوباتهم إليهم، وقد يستجدون بالليل وظلامه لإحضار طيف المحبوبة، فهم في
أغلبهم يتحدثون عن الليل "فيصفون طولَه ونجومه ويصورون همومهم أو متعهم
فيه متطلعين أحيانا إلى الصباح لينقذهم ممَّا هم فيه من سهد طويل"⁴، وفي
الصباح فرج بالنسبة إليهم وأمل في بلوغ أمنياتهم.

1 - قَدَّاشُ لَيْلَةٍ: كم من ليلة.

2 - شرح البيت: تركتني ومشت وتركت المكان، مثل خروف أبعد عن أمه يُساق وهو عطشان.

3 - مَا شَفْتُ فِيهَا مَا يَتَعَابُ: لم أرَ فيها شيئا يُعِيْبُهَا.

4 - عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص 350.

3.2.3 - الفجر والمساء:

لفظ الفجر من أكثر الألفاظ التي يوظفها شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، وذلك لخصوصية هذا الزمن بالضبط عند سكان المنطقة، فهو موعد إجابة أول داع للصلاة كل يوم، بالإضافة إلى أنه الزمن المفضل عندهم لقضاء مصالحهم وأسفارهم وتنقلاتهم، وقد ذكروه في قصائدهم وتغنّوا به بطريقة مباشرة أو غير مباشرة باستخدام العديد من الألفاظ التي تدلّ عليه حسب لهجة المنطقة والاستخدام اليومي المتداول.

لفظ الفجر عند الشاعر " السعيد بوعشرين " هو رمز لشدّ الرّحال والخروج باكراً في نزهة للاطمئنان على الأهل والأقارب والخلان أو لاستنشاق الهواء النظيف النقي في أعالي الجبال مثلاً. فهو في الحالة الأولى يخاطب أصحابه ويحثهم على الذهاب معه في نزهة إلى مدينة الجلفة لتفقد قومه "أولاد نايل" والبقاء معهم مدة من الزمن واستذكار الزمن الجميل. يقول الشاعر في مطلع قصيدته:

هَيَّا يَا لَصْحَابْ نَمْشُو قَبْلْ اَطْلُوْلْ لِلْجَلْفَةِ مُقْصَادُنَا بَاهْ نُبَاتُو¹
هَبْ الْخَاظِرْ لِلْسَفَرِ قَادِي مَشْعُولْ هِيَّ بَرْكُ الْيَّ تَطْفِي صَهْدَاتُو²

ولفظ "هَيَّا" فيه دلالة جليّة على الإسراع وحث المخاطب على السير إلى مكان مقصود في زمن معين، والزمن - هنا - هو قبل طلوع الشمس في ظلمة الفجر، وذلك للوصول مبكراً، فالمكان بعيد من حيث المسافة، ولكنه قريب من القلب، والشوق إليه وإلى أهله سيقرب المسافة ويختصرها في خيال الشاعر الذي ذهب إليه في رحلة عبر خياله.

وفي الحالة الثانية أراد الشاعر أن يقوم بجولة في أحد جبال المنطقة، رغبة منه في الترفيه عن نفسه، ولكنه فوجئ بوجود حزام قديم وسط عظام رفاة لشهيد من شهداء ثورة التحرير الجزائرية، فتأثر الشاعر أيّما تأثر، وانتابته نوبة من

1 - قَبْلْ اَطْلُوْلْ: قبل أن تطلّ الشمس. مُقْصَادُنَا بَاهْ نُبَاتُو: قصدنا كي نبين هناك.

2 - قَادِي مَشْعُولْ: مشتعّل. معنى الشطر الثاني: هي فقط التي تطفئ نار اشتياقه.

الحزن وبكى بكاءً شديداً. يصف لنا الشاعر هذا المشهد، فيخاطبنا في مطلع قصيدته قائلاً:

اتَمَعْنَ يَا سَامِعِي وَافْتَهَمَ مَا صَارَ يَوْمَ النُّجُولَةِ رَأَى عَقْلِي سَاعَتَهُ فِيهِ¹
قُلْتُ انْحَوَسْ ذَا الْحَبْلِ نَطْلَعُ لُوعَارَ نَتَمَشَّى مَا بَيْنَ شَجَرُو نَفْرَحُ بِهِ²
نَتَرَفَّعُ لَشَوَاهِقُو وَقْتُ الْأَفْجَارِ أَيُّهْبُ أَهْبُوبُ إِنْ كَانَ عَنْ سَفْحُو نَافِيَهُ³

جولة الشاعر هذه كانت في زمن الفجر، وهو زمن صفاء الذهن، وخلوه من شوائب الحياة ومعكراتها، وقد ذكر المولى عز وجل لفظ الفجر وأقسم به في سورة الفجر؛ حيث قال الله سبحانه وتعالى: {وَالْفَجْرُ وَلَيَالٍ عَشْرٍ} (01) {⁴}. وهذا هو أكبر دليل على عظمة وقت الفجر وفائدته الصحية، فالفجر عند الشاعر "السعيد بوعشرين" هو رمز للرحلة والتجوال وتغيير الحالة النفسية بزيارة المناظر الطبيعية والتمتع بجمالها واستنشاق هوائها المنعش النقي الصافي.

أما زمن الفجر عند بقية شعراء المدونة، فقد اقترن بنشاط المرأة وقيامها بواجباتها وخاصة عند نساء أولاد نايل اللواتي يُبدن نشاطاً وحماساً للعمل في الصباح الباكر. يصف الشاعر "عبد القادر العطوي" نساء البادية أثناء القيام بتجهيز الخيمة؛ فيقول:

بَدَأَتْ تَسْلُسِلُ عَوَّلَتْ خَطَفَتْ بُكْرَةَ لُحْرَى تَقَرَّدَشْ طَالِبَةَ عَوْنُو وَرُضَاهُ⁵

العمل عند هؤلاء القوم عبادة، والتعاون عندهن فطرة إنسانية، ومساعدة الزوج في تحضير أثاث البيت واجب مقدس، بالإضافة إلى القيام بجميع شؤون البيت، وهن في كل أشغالهن يَطْلُبْنَ من المولى عز وجل عونهُ ورضاه.

1 - اتَمَعْنَ: خُذْ المعاني. رَأَى: إِتَه. سَاعَتَهُ فِيهِ: شَارِدٌ وَحَائِرٌ .

2 - انْحَوَسْ: أُنْتَرَهُ وَأَتَجَوْل. نَطْلَعُ لُوعَارَ: أَصْعَدُ إِلَى الْأَعَالِي الوعرة.

3 - نَتَرَفَّعُ لَشَوَاهِقُو: أَصْعَدُ إِلَى مَرْتَفَعَاتِهِ الشَاهِقَةِ. مَعْنَى الشَّطْرِ الثَّانِي: تَهَبُّ الرِّيحُ هَبِيباً فِي أَعْلَى الْجِبَلِ عَلَى عَكْسِ السَّفْحِ فَلَا رِيَّاحَ فِيهِ وَلَا نَسَمَاتِ هَوَاءٍ مَنَعِشَةٍ.

4 - سورة الفجر: (الآية: 1).

5 - بَدَأَتْ: بَدَأَتْ. تَسْلُسِلُ، تَقَرَّدَشْ: لَفْظَانِ يَسْتَخْدِمَانِ عِنْدَ تَهْيِئَةِ الصُّوفِ وَتَحْضِيرِهِ بِاسْتِعْمَالِ وَسَائِلِ وَأَدَوَاتٍ خَاصَّةٍ. عَوَّلَتْ: قَرَّرَتْ. خَطَفَتْ بُكْرَةَ: اسْتَغْلَتْ فِتْرَةَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ. لُحْرَى: الْأُخْرَى.

ويشبه الشاعر "الحمدي بوشنافة" المرأة في منطقة بوسعادة بالغزالة الشاردة التي يصعب اصطيادها، فهي تستيقظ باكرا قبل اختفاء آخر نجمة في السماء، فيقول في ذلك:

غَزَالَةٌ شَرَّادٌ مَا تَحْمِلُشُ الصَّيْدُ وَاتَّبَكَّرَ مَعَ النَّجْمَةِ الضَّوَّايَةِ¹

تشتهر المرأة في منطقة بوسعادة بالانهوض باكرا للقيام بالأعمال التي ورثت القيام بها عن أمهاتها وجدّاتها، لا تكسل ولا تملّ، وتظل كالنجمة النشيطة؛ تجيب دعاء هذا، وتقضي حاجة هذا، وتخفف الألم عن ذاك.. وهذا ما قصده الشعراء من خلال ملاحظاتهم الدقيقة لمن حولهم وهو ما ذهب إليه الشاعر "أحمد وليد بن القبي" - أيضا -.

حيث قال الشاعر في قصيدته؛ يصف المرأة عند قوم أولاد نايل بصيغة الجمع:

بَنَاتُ الَّتِي يَغْشَوْنَ عَلَى نَجْمَةٍ لِفَجَّازٍ بَكْتَرَةٌ عِنْدَ أَوْلَادِ نَائِلٍ مَا زَالُو²

لقد خصّ الشاعر قوم أولاد نايل بهذا النوع من الفتيات، ولكن هذا لا يعني أن نشاط النساء وقيامهن باكرا يقتصر فقط على نساء هؤلاء القوم، بل إنّ صفة النشاط هي صفة متوارثة منذ الأزل عند النساء العربيات عموما، فالفجر عند هذا الشاعر ومن سبقه هو رمز للعمل الدؤوب والنشاط المستمر والتعاون والتآزر والتكافل، وهو رمز - أيضا - للمصالحة والتسامح وقلب الصفحات الماضية من الحياة وفتح صفحات جديدة تطغى عليها صفة البراءة والأمل في استقبال يوم جديد مشرق بالأحداث السعيدة والأخبار المفرحة السارة.

أمّا المساء في قاموس شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة فهو مصطلح نادر الوجود، وذلك لارتباط زمنه بالساعات الأولى من الليل، وخاصة

1 - شَرَّادٌ: قوية ونشيطة. مَا تَحْمِلُشُ الصَّيْدُ: لا تتحمل الحيوانات المفترسة كالأسد مثلاً. اتَّبَكَّرَ: تستيقظ باكرا.

2 - معنى الشطر الأول: بنات يستيقظن وقت الفجر.

عند أهل البادية، والمساء عند أغلب الشعراء هو "لحظة تثير كامن الأشجان والأشواق الخفية في النفوس المرهفة الحسّ، وفيها تتعاقب الأضواء والظلام ويتوقد الشفق ويخبو وتعود الطيور إلى أعشاشها والرعاة إلى ديارهم.. كل ذلك يجعلها لحظة وجدانية مثيرة خصبة يجد كل شاعر فيها من المعاني ما يمكن أن يكون رمزا لما تجيش به نفسه من عواطف أو ذكريات أو أشواق".¹

والشاعر " السعيد بوعشرين " استخدم لفظ المساء للدلالة على الأشواق الدفينة والآلام التي اعتصرت في قلبه حينما رأى عظام الشهيد وحزامه، وراح يتأملها، فأثارت في نفسه كوامن الأوجاع، وتذكر إخوانه المجاهدين وأيام ثورة التحرير الوطنية، وأسف أسفا شديدا على الظلم الذي ألحقه الاستعمار الفرنسي بالشعب الجزائري، فودّع الضريح باكيا شاردا حائرا حزينا بعدما قضى يوما كاملا يتأملها، وجعل يقول:

وَقَتَّ الْعَشْوَةَ فَالْمَسَا وَاعْقُوبَ أَنْهَارٍ	خَلَيْتُ لَفَقِيدِنَا رَحْمَةً بَارِيَةً ²
وَدَعْتُ الضَّرِيحَ لِلْمَنْزِلِ سَـيَّارٍ	وَمُشْعَالِي وَسَطُ الْخُشَالَاهِبِ سَانِيَةً ³
دَافَنْ فِي نَفْسِي هُمُومِي بِالتَّقْنِطَارِ	مَتَفَكَّرْتُ وَآوَانَا رَاسِي حَانِيَةً ⁴

لقد اشتعلت نيران الحسرة والحزن في قلب الشاعر، وزادت هذه المشاعر التهاباً حين قُرب النهار على الانتهاء وجعلت الشمس تتحدر نحو المغيب، والشاعر لا يزال في أعلى الجبل، وقد ارتسمت في ذهنه خيالات شتى لهذا الشهيد، وحاول استتطاقه وإخباره بما حصل بعده من مستجدات في أحداث الثورة التحريرية، وأن يزفّ له الكثير من البشائر، وقد تمكن الشاعر من فعل ذلك مثلما أورد في قصيدته.

1 - عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص 350.

2 - العَشْوَةُ: العشيّة: المساء: عقب النهار. بَارِيَةً: بارئته.

3 - لَاهِبٌ، سَانِي(ه): مشتعل: ملتهب: مستعر، والهاء للضرورة الشعرية.

4 - رَاسِي: رأسي. حَانِي(ه): اسم فاعل من الفعل: انحنى، ينحني، بمعنى: منحني: مطأطأ.

فالمساء عند الشاعر "السعيد بوعشرين" حسب قصيدته هذه هو رمز للهدوء والسلام وعودة الأمل والطمأنينة للأرض وللإنسان، والمساء يحيلنا إلى الليل؛ والليل هو رمز للسكينة والراحة النفسية. فالإنسان يضل في حالة نشاط طيلة ساعات النهار، ولكنه يركن إلى الراحة بداية من حلول المساء إلى الليل، فالمساء عند الشاعر هو رمز لانقشاع ضباب الظلم وسيادة جو الحرية والاستقلال.

أما المساء عند الشاعر "عبد القادر العطوي" فقد كان حائلاً بينه وبين محبوبته، حيث قال:

ذِيكَ الْغَارِمُ شَفَّتْهَا وَالْقَلْبُ الْهَبْ ضَيْقُ مَغَارِبِ شَفَّتْهَا مِنْ دُونِ حَجَابٍ¹

لقد كان آخر المساء من أصعب اللحظات على الشاعر، ومن أكثرها رومانسية؛ فعاطفته كانت قوية، وكانت تتراوح بين حبّ الامتلاك والخوف من الخسارة، فكان بين أمرين كلاهما أشدّ مرارة من الآخر؛ المساء يوحي بالليل، والليل سيقضي بوداع المحبوبة، ولا سبيل إلى رؤيتها إلا بطلوع فجر الغد، وربما لن يتمكن من رؤيتها إلى الأبد، فالمساء عند الشاعر في ضيقه وهجوم الليل عليه سريعاً هو رمز للمشاعر المبتورة التي لا تكتمل من حيث النهاية، وتبقى ذات خاتمة مفتوحة، قد تكون سعيدة، وقد تكون حزينة.

1 - ذِيكَ: تلك. الْغَارِمُ: أنثى الطير. الْهَبْ: النهب.

3.3- رمز الحيوان:

أحبَّ شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة الطبيعة حبًّا جمًّا وقدَّسوها، وعشقوا مناظرها حتى النخاع، وجعلوا من عناصرها معجمًا شعريًا يعجُّ بالألفاظ التي تمَّ توظيفها كرموز طبيعية، وقد أقبل هؤلاء الشعراء على الطبيعة واحتضنوها صامته وناطقه، جامدة ومتحركة، واستمتعوا بجمالها وصفائها، فصارت مصدر سعادة بالنسبة إليهم في أغلب الأحيان، ومصدر حزن وألم في أحيان أخرى.

وقد كانت الحيوانات الموجودة في الطبيعة باعثًا قويًّا للتأمل لدى الشعراء، وملهما جيّدًا لكتابة الشعر، وتتوّعت الحيوانات التي وظّفها شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة بين الغزلان والإبل والخيول والأسود والطيور وغيرها، وكلّ هذه الأنواع من الحيوانات استخدمها الشعراء كرمز للدلالة على معانٍ معيّنة حسب ما قصده الشاعر وفهمه المتلقّي.

1.3.3- الغزال:

الغزال من حيوانات البراري التي تغرّل بها شعراء منطقة بوسعادة، حيث أكثروا من ذكره في قصائدهم، وتفنّنوا في وصفه، ورسموا له صورًا جميلة بديعة رائعة، وعدّدوا محاسنه، وأطلقوا عليه تسميات كثيرة حسب لهجة المنطقة، نذكر منها: الغزال، الغزالة، لجدل، لجدل بوقرنين، رانق لجدل، الرّيم، ريم الصحرا، اجدية فشتال، اجدية لدمي، الغزالة البرية.. وغيرها من التسميات التي لم ترد في المدونة الشعرية ولكنها مشهورة الذّكر في لهجة المنطقة، وكل مصطلح من هذه المصطلحات يطلق على نوع معين من أنواع الغزلان الموجودة في المنطقة.

وليس غريبًا على أيّ شاعر من شعراء بوسعادة التّمييز بين هذه الأنواع والتفريق بينها، حيث " لم تكن تلك الظباء ولا المها بعيدة عن نظر الشاعر، فهو يلقاها كلما تنقلت به قدمه في فيافي الصحراء، فقد صارت أليفة لديه، ليست

غريبة، ولا بعيدة المنال، يرصد كل حركة منها، ويشبع ناظره بكل دقيقة من ملامحها".¹

وقد تعددت تسميات الغزال - أيضا - في اللغة العربية الفصحى، فأطلق العرب على الغزال أسماء منها: الطبي، الطيبة، المها، المهاة، البقرة الوحشية، الرّيم.. وكل هذه المصطلحات سواء كانت في اللغة العربية الفصحى أو في اللهجة العامية هي رموز أشار بها الشعراء إلى المرأة منذ العصر الجاهلي، حيث مزجوا بين صورة الغزال وصورة المرأة، واختلطت معالم الجمال في مخيلاتهم. ومن أروع الأمثلة في تشبيه المرأة الجميلة بالغزال نورد مايلي:

تغزل الشاعر "الحمدى بوشنافة" بالمرأة البوسعدية، وشبهها بالغزال المختال وكذا بغزال الصحراء الفتى، فقال:

صِيفَةٌ لَدَمِي فَالْمِرَاقُ يَتَخَتَّلُ وَلَ غَزَالٌ مَعَ الصَّخْرِ شَاوُو جَدْيَانُ²

وأضاف في نفس القصيدة قائلا:

يَتَفَكَّرُ فَالزَّايْحَةُ رَانِقٌ لَجْدَلُ وَغَنُو طَالُ النِّحَالِ فَالصَّخْرُ عَطَشَانُ³

المرأة في منطقة بوسعادة تشبه الغزال، حيث تظهر معالم الجمال لديها في بياضها وسمنتها وجمال عيونها وتكحيلها، ويضيف الشاعر إلى ذلك ما يراه في الغزال من رقة ورشاقة في الحركة واستقامة في العنق مع طول ظاهر وخفة في اللقطة، وقد أفرد الشاعر أخته المرحومة "قوتة". أيضا. بهذا الوصف فقال:

هَذَا مِثْلُ عَلَى اخْتِي زَيْنَةُ لِنُظَارِ قُوْتَةُ وَصَفَ الرِّيمُ فَالصَّخْرُ مَغْلُومُ⁴

فأخت الشاعر تشبه غزال الصحراء الشارد الذي يصعب اصطياده، وفي الأبيات تشبيهات واستعارات تصريحية؛ ذكر فيها الشاعر المشبه به (لدمي،

1 - محمد زغول سلام: مدخل إلى الشعر الجاهلي، ص147.

2 - صِيفَةٌ: صفة. لَدَمِي: نوع من أنواع الغزلان. المِرَاقُ: الأماكن المنبسطة. يَتَخَتَّلُ: يختال.

3 - الزَّايْحَةُ: المرأة التي تجمع بين كرم الطباع وحسن الخلق. رَانِقٌ لَجْدَلُ: نوع من أنواع الغزلان.

4 - مِثْلُ: مثال. زَيْنَةُ لِنُظَارِ: جميلة النظرات.

غزال) في البيت الأول. والتشبيه البليغ (الزاخنة رانق لجدل) في البيت الثاني و(قوة وصف الريم) في البيت الثالث.

أما الشاعر " السعيد بوعشرين "، فقد عمّم الوصف من منطقة بوسعادة بصفة خاصة إلى المرأة النابلية بصفة عامة، فالمرأة في منطقة أولاد نايل تحتفظ بجمال المرأة العربية من بياض الجسد واعتدال القوام وسواد الشعر وطوله وسواد العيون وكبرها وخفة الحركة والنشاط الواضح بالإضافة إلى حسن الخلق والتستر والحفاظ على الشرف وطاعة الأهل واحترام الزوج. يقول الشاعر:

اجْدِيَّة فَشْتَالُ فِي لَعُطَافٍ اتَّجُولُ تَلْعَبُ فَالْنَوَّارُ تَشْتِي نَطَّاتُو¹
تَرْوِّجُ بَنَ عَمَّهَا مُحَالُ اتَّحُولُ عَرَبِيَّةُ فَالْدَمِّ عَاهِدُ وَفَاتُو

فهي عربية الأصل، تحبّ التمتع بشبابها، وتعتزّ بأصلها وبجمالها، تنتزّه داخل الرياض الخضراء المزينة بالزهور والورود، لا تروم غير ابن عمها زوجها لها كي تحافظ على نسلها، وحتى لا تختلط الأنساب.

وذهب الشاعر " إسماعيل مدّاد " مذهباً مشابهاً لمن سبقه من الشعراء، فشبه حبيبته بالغزال، وأضاف إلى ما ذكره سابقوه أن أورد اسمها دون كناية أو تلميح، حيث قال:

يَا حَدَّةَ عَدِيَانَا رَاهِمُ بَرَّافُ وَالنِّيَّةُ هُوَ النَّاجِحُ فَالْتَالِي²
أَتَوَكَّلُ رَبِّي عَلَيْهِمْ لِأَشْ أَنْخَافُ وَمَا نَسْمَحُ مُحَالُ فِي حُبِّ اغْرَالِي³

وفي هذا خروج برمز الغزال من دائرة نساء بوسعادة ونساء أولاد نايل إلى المرأة الجزائرية ككل، ولم لا إلى المرأة العربية بصفة عامة، فنحن لسنا على يقين من هوية هذه المرأة التي أطلق عليها الشاعر اسم "حدة" وناداهها في مطلع قصيدته، وأكد لها محبته الصادقة، وشبهها بالغزال في صورة بيانية رائعة، ذكر

1 - اجْدِيَّة فَشْتَالُ: نوع من أنواع الغزلان. لَعُطَافُ: جمع: عَطْفُ: مكان منخفض في أسفل الجبل تكثر فيه

الحشائش والزهور لاجتماع ماء المطر فيه دائماً. تَشْتِي نَطَّاتُو: تحب القفز فيه.

2 - عَدِيَانَا رَاهِمُ بَرَّافُ: أعداؤنا إنهم كثر. النِّيَّةُ: الشخص الذي يحمل نية سليمة.

3 - لِأَشْ أَنْخَافُ: لماذا أخاف. وَمَا نَسْمَحُ: ولا أسمح.

فيها المشبه به (اغزالي)، فصارت استعارة تصريحية تشير إلى محبوبة الشاعر "حَدّة" التي هي صورة حية لجميع النساء.

وفي سابقة من نوعها في الشعر الشعبي الجزائري، أفرد الشاعر "البشير قذيفة" قصيدة مطوّلة عدّد فيها أنواع الرجال والنساء، وجعلهم أصنافا وألوانا شتّى. من بين هذه الألوان والأصناف ذكر الشاعر المرأة / الغزال حيث قال:

وَحْدَة مِثْلُ اغْزَالٍ تَسْلُبُ مِنْ نَظَرَةٍ بِشَوْفَةٍ مِنْهَا كُلُّ مَجْرُوحٍ اتْدَاوِيَةٍ

وحسب الشاعر؛ هناك نوع من النساء يشبهن الغزلان في جمالهن فالواحدة منهن تسلب العقول وتأسر القلوب من نظرة واحدة ترسلها في حنان وعطف ولطف وغنج ودلال، والشطر الثاني (بَشَوْفَةٍ مِنْهَا كُلُّ مَجْرُوحٍ اتْدَاوِيَةٍ) يحمل صورة بيانية هي كناية عن العشاق/المرضى، فالجرح هنا، هو جرح القلب وألمه بسبب الهيام والغرام، والمجروح هو المتيمّ الولهان، الذي تكفيه نظرة إلى هذه المرأة/الغزالة لتطيب جراحه ويُشْفَى.

هذا عن المرأة بشكل عام، أما عن المرأة المحبوبة المعشوقة التي يهيم بحبّها الشاعر، ويعشقها إلى حدّ الجنون، فهي غزالة - أيضا - وريم حذرة حتى من خيالها، تلتفت برشاقة، وتتنظر بعيون كحيلة جميلة تفيض حنانا؛ وقد نقل الشاعر "عبد القادر العطوي" هذا المشهد بشكل دقيق يوحي بعبقريّة في اختيار الألفاظ الناقلة لهذا الحدث، وبراعة في تركيب الألفاظ وتجاورها، وأهمّ من ذلك اختيار حرف الواو كحرف رويّ وذلك لمدّ النَّفَس في كلا الشطرين. يقول الشاعر متغزلا بفتاته "سلوى" مشبّها إياها بالغزال:

جَدِيَّةٌ لَدُمِي مِنَ الْهَوَى كَانَتْ تَرَوِي مَا لِحَقَّوْهَا سَلَاقٌ عَلَى الصَّيْدِ تَرَبَّأُوْ¹
حَذَرِيَّةٌ مِنْ حَسِّ خِيَالِكَ تَدَوِي الْقَتَاصَةَ بِسَهَامِهِمْ ضَرَبُوهُ خُطَاوْ²

1 - جَدِيَّةٌ لَدُمِي: نوع من أنواع الغزلان. تَرَوِي: ترتوي. سَلَاقٌ: نوع من أنواع الكلاب تُدْرَب خصيصا للصيد. تَرَبَّأُوْ: تَمَّت تربيّتهم.

2 - معنى البيت: حذرة جدا بحيث يفزعها صوت خيالك. رماها الصيادون بسهام فأخطأوها.

مَقْوَى مِنْ صَابُوهَ لِرَمَاحٍ بِقَسْوَةٍ مَسْمُومَةٌ مِنْ صَابَتْ عِظَامُوهَ يَرْشَاوُ¹
أَذَا خَلَّاهُمْ ضُرُّهُمْ زَادَ اتَّقْوَى خَرَجَهُمْ مَارَاتٍ فِي الْكُبْدَةِ خَلَّأُو²

فتاة الشاعر تشبه غزالة ترتوي من الهواء بدلا من الماء، تعدو سريعة، حتى أن كلاب الصيد التي تم تدريبها للحاق بالطريدة لا تستطيع الإمساك بها، حذرة، تفر هاربة من أدنى صوت يصدر بالقرب منها، لا تُصيها سهام الصيادين وإن اجتمعوا على الغدر بها، بل هي التي تصيهم بنظراتها التي تشبه الرماح السامة، فينقلب المكر على الماكر، وتبقى لهذه السهام آثار واضحة في أجساد هؤلاء الصيادين؛ وخاصة في أكبادهم.

والبيت الأخير يحمل كناية في شطره الثاني (خَرَجَهُمْ مَارَاتٍ فِي الْكُبْدَةِ خَلَّأُو)؛ وهي كناية عن شدة الألم ومدى تأثير نظرات المحبوبة في نفس الشاعر، واستحواذها على ملكات قلبه. وفي الأبيات رموز عديدة؛ فالغزالة (اجديّة لَدُمِي) هي رمز لمحبوبة الشاعر، والصيادون (القناصة) هم رمز للعشاق والمحبين، وسهام الصيادين هي رمز لنظراتهم الهائلة الولهانة، أمّا الرماح السامة فهي رمز للنظرات القاتلة التي تصدر عن الفتاة المحبوبة.

وهذه النظرات السامة هي التي وصفها الشاعر ذاته في قصيدته "نظرة" وعنوان القصيدة يدلّ دلالة صارخة على فحواها. يقول الشاعر مشبّها فتاته بريم الصحراء:

رِيمُ الصَّخْرَا غَيُونَهَا بِيَهُمْ تَغْطِبُ رَافِعُ رَأْسُو فِي السَّمَاءِ حَذْرِي لَوَابُ³

فالمحبوبة غزالة تعيش في أرض صحراوية، ترسل من عيونها السوداء الكحيلة نظرات قاتلة سامة، وقد رفعت رأسها إلى السماء في فخر ودلال، ومشت

1 - معنى البيت: ما أصبر من أصابته الرماح بقساوة! سامة. كل من أصابته جعلت عظامه حطاما بالية.

2- معنى البيت: إذا ترك هذه السهام مغروزة في جسده سيغدو ضررها أقوى. وإذا انتزعهم من جسده سيتركون له آثارا في كبده. (في البيت كناية عن شدة الحب والعشق والتعلق).

3- تَغْطِبُ: تصيب وتلحق الضرر الشديد. حَذْرِي: حذر. لَوَابُ: يحرك رأسه متلفتا يمينا ويسارا.

مختالة متبختره متعجبة، ورغم كل ذلك فهي تبدو حذرة، تريد المحافظة على نفسها قدر المستطاع.

والملاحظ في بيت الشاعر أنه وظّف اللفظة مؤنثة (ريم الصحرا) عند حديثه عن المرأة (عيونها، تعطب)، ولكنه عند انتقاله إلى وصف الغزال وظف الألفاظ بصيغة المذكر (رافع، راسو، حذري، لواب)، وهذا الأمر شائع عند العرب منذ العصور الأولى، ويظهر بشكل واضح عند الشعراء أثناء مخاطبتهم لمحبياتهم وحديثهم عنهن. فالشاعر وهو يشبه فتاته بالغزال "يترك الفتاة جانبا، ويقف عند الغزال الشارد الذي يبدو يقظا شديد اليقظة، حذرا شديد الحذر، لا يتوقف إلا على ربوة عالية، وكأنما يتحسب وجود صياد يباغته برصاصة في أي لحظة، فهو لذلك لا يهدأ على حال، سريع الانفلات لا تكاد تستقر عليه النظرة، فهو دائم الحركة دائم الانتباه، يستعصي على أمهر الصيادين"¹.

وقد تفتّن الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى تصوير موقف الغزال في حالة حركة، وسار على نسقهم شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة؛ فهذه الشاعرة "الزهرة اشويحة" تشبه أختها "خديجة" بالغزال الشارد الفارّ من الصيادين الذين يطاردونه. تقول الشاعرة:

خَدِجَة مَثَلَتْهَا تَشْبَهُ لَجْدَلْ وَلَا بُوقَرْنَيْنْ فَاتِ الْحَيَاةِ²

أمّا الشاعر "أحمد وليد بن القبّي" فقد أخذ في قصيدته منحى آخر، واقتصر في تشبيهه محبوبته بالغزال باستخدامه لِعُضْوٍ من أعضاء كلّ منهما، عُضْو من المرأة المحبوبة وِعُضْو من الغزال، ألا وهو الأنف؛ فأنف محبوبته يشبه أنف الغزال الذي يرعى الفلاة. يقول الشاعر:

1 - أحمد زعب: سيمياء الاستطراد والتخلص في الخطاب الشعري الشفاهي - نزاع القيم بين الموت والحياة - محاضرات الملتقى الثالث، السيمياء والنص الأدبي، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2005، ص 326.

2 - لَجْدَلْ: نوع من أنواع الغزلان. بُوقَرْنَيْنْ: نوع من أنواع الغزلان له قرنان طويلان. الْحَيَاة: مجموعة الصيادين المطاردين.

الخنثوفة مثل الغزالة البرية

لجَدَلُ بُوقَرْنَيْنِ فَالِي فِي لَدَوَّازٍ¹

هذا الاستخدام من قِبَلِ الشاعر وبهذا الشكل - أيضا - هو " استعمال فيه نوع من الجدة والحيوية لرمز الغزال، فالشاعر يريد أن يقول أن هذا الغزال ليس غزالا عاديا، إنه نادر وفريد من نوعه"²، وذلك من حيث بهائه وجمال أنفه وعيشه في أرض خضراء معشوشبة، وقد " كفَّ عن كل مظاهر الحذر التي كان يحيط بها نفسه واختار أرضا منخفضة وأمن على نفسه"³، ونادرا ما يأمن الغزال على نفسه حسب ما أورده شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، فالحذر الدائم من أبرز صفاته، وترصد أمر الصيادين في كل ثانية من أجل مميّزاته.

ومن الصّور الجميلة التي تنقل بعض المفارقات العجيبة التي تحدث في حياة الإنسان والحيوان ما لخصه الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدة بعنوان "الجدّة"، حيث شبه هذه الجدّة بالغزالة الفتية (فشتالة) في مرحلة الشباب، وعند الكبر والعجز شبّهها بجلد العنز الجاف. يخاطب الشاعر الجدّة ويسألها عن الأسباب التي أوصلتها إلى هذه الحالة قائلا:

يَا جَدَّةَ عَيْدِي عَلَيَّ قَصِيَّةٌ كَيْفَ الدُّنْيَا تَغْفُوتُ عَالِرَاسَ الْيَّ شَابٍ
فَشْتَالَةٌ كَيْفَاهُ وَلَيْتِي ظَبِيَّةٌ وَيَا حَجَلَةَ قَدَّاهُ حَامٌ عَلَيْكَ عَقَابٌ⁴

فالغزالة في أول أيامها هي رمز لهذه المرأة في عزّ شبابها، وقد فاضت حيوية وخصوبة، وامتألت غبطة وسرورا، ولكنها في المرحلة الأخيرة من قطار العمر صارت تشبه الغزالة الضعيفة التي لا تقوى حتى على النهوض لوحدها،

1 - الخنثوفة: الأنف. فالِي: اسم فاعل من الفعل فلى، يَفْلَى بمعنى: رعى، يرعى. لَدَوَّازٍ: البراري.

2 - أحمد قنشوية: الشعر الغض - اقترابات من عالم الشعر الشعبي - الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، الجزائر، 2006، ص144.

3 - أحمد زغب: سيمياء الاستطراد والتخلص في الخطاب الشعري الشفاهي - نزاع القيم بين الموت والحياة - ص326.

4 - كَيْفَاهُ وَلَيْتِي: كيف صرت. ظَبِيَّةٌ: جلد الماعز بعد ذبحه، تتم معالجته ليُستغلَّ في حفظ بعض المواد الغذائية، ويسمى أيضا: مَزُودٌ.

كفيلة البصر، صمّاء، اشتعل رأسها شيئاً، وسقطت جميع أسنانها، وأضحت شاردة
الفكر، حائرة، ومع كلّ هذا فقد أجابته قائلة:

بَعْدَ النُّعْزِ ضُحِيتُ ظَبْيَةً مَنْسِيَّةً عَافَتْهَا حَتَّى النِّفِيرَانِ وَلُكْلَابُ
تَتَلَاوَحُ تَحْتَ الرُّفَافِيفِ دُونِيَّةً تَتَلَاعَبُ بَيْنَهَا الصَّبَبِيَّةُ فِي لُعْلَابٍ¹
وفي قول الشاعر (ظبية منسية) كناية عن شدة النحول والضعف.

1 - تتلاوَحُ: تترامى. الرُّفَافِيفُ: أركان الخيمة حيث يُحتفظ بالحاجات لتخزينها. لُعْلَابُ: الأماكن الخالية:
البراري.

2.3.3 - الخيل:

الخيّل هي عُدّة الرّجل العربيّ منذ العصور الأولى، والتاريخ أكبر شاهد على بطولات الفرسان في الحروب والمعارك، في الغارات وخرجات الصّيد. وقد سجّل الشعراء منذ العصر الجاهلي حضوراً كثيفاً لهذا النوع من الحيوانات الأليفة في قصائدهم ودواوينهم الشعرية، وسار على نهجهم شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة.

وكثيراً ما تلتقي قصائد الشعراء الشعبيين في الجزائر ككلّ وفي منطقة بوسعادة بشكل خاص مع قصائد الشعراء الجاهليين في غرض الفخر وذكر الأمجاد والأنساب، ووصف الفرس؛ " فقد كان الفرس ولا يزال عنواناً للرّجولة والفتوة، وقد امتدّت هذه المكانة من العصر الجاهلي إلى اليوم، وأسهب شعراؤنا الشعبيّون في وصفه والتغنّي بصفاته"¹، وفي التقاء هذه القصائد ببعضها البعض تتقاطع أبياتها في تناصّ جميل يوحي بثقافة الشعراء ومدى اطلاعهم على ثقافة الآخر، حتى وإن كان هذا الاطلاع اطلاعاً شفهياً.

وصف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة الأحصنة على اختلاف ألوانها، وتفنّنوا في التغزّل بجمالها وبسرعتها في العدو أثناء السباق، وبالغوا في تشبيهها بعناصر الطبيعة المتنوعة من ثلج وورد وفحم ودم وبحر وجمر... ولم يكن هذا الاهتمام الشديد إلّا عن حبّ وتقدير لهذا المخلوق الوديع منذ أزمان سحيقة، فعلاقة الإنسان بحصانه هي علاقة مودة ومحبة؛ فقد كان العربيّ يعتز بفرسه و "يكرمه، ويسقيه من اللبن، ويفضله على نفسه وعياله وللخيل عندهم أنساب كأنساب البشر منها الكريم ومنها غير ذلك."²

1- بولرباح عثمانى: دراسات نقدية في الأدب الشعبي، الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، الجزائر، ط1، 2009، ص41.

2 - محمد زغلول سلام: مدخل إلى الشعر الجاهلي، ص36.

جرت العادة أن يجعل الشعراء الفرس رمزا لجملة من القيم "كالكرم والإباء والتضحية وعزّة النفس وحماية المظلوم ومكارم الأخلاق"¹؛ وهذا ما توارثه الشعراء منذ العصور الأولى، ولكن الشاعر "عبد القادر العطوي" خرج عن منهج القدماء والمعاصرين في سابقة فريدة من نوعها، فأفرد قصيدة عنوانها "عوّدي" للحديث عن حصانه - كما يبدو من ظاهر القصيدة - يشرح فيها حالة هذا الحصان، ويخاطبه في مطلع القصيدة قائلا:

يَا عَوْدِي وَغَلَاهُ بَايْتُ فِي حَيْرَةٍ اُمْبِيَّتِي لَيْلَةُ الْبَارِحِ حَايِرٌ²
تَرْخَفْتُ وَزَلْتُ عَلَيْكَ الطَّيْرَةَ أَمَّا لَفٍ مَا تَهْدَأُشْ فِي رَايِكُ قَادِرٌ³

فالحيرة شعور اشترك فيه الشاعر مع حصانه طوال الليل، والسبب هو تعب هذا الحصان وكبره وهرمه بعدما كان يطير طياراً من شدّة سرعتة وخفّته ورشاقتة، وهو الذي لم يكن يهدأ في يد أحد، وقد عدّد الشاعر صفات حصانه كما فعل قبله شعراء الفصحى منذ العصر الجاهلي عند وصفهم للراحلة. وذلك من خلال الأبيات اللاحقة:

شَرَّادٌ وَمُجَنَّا فٍ مَا تَقْبِلُ جِيرَةً وَمُحَدَّدٌ شُرُوطُ مَنْ قَصْدُكَ زَايِرٌ⁴
مَتَقَلِّظٌ مَقْعُودٌ شَاطِرٌ فِي السَّيْرِ وَاتَاكَ التَّسْمِيرُ جَاتَحْتُ الْحَافِرُ⁵
مَا تَشْرَبُ قَلْتَاتٍ وَسُدُودٌ بِحَيْرَةٍ مَا تَشْرَبُ بَرَكَةَ الْيِّ مَاهَا حَاجِرُ⁶
تَشْرَبُ شَلَالَاتٍ فِي السَّيْلِ غَزِيرَةٍ تَشْنَقُ رَاهُ الرِّيحِ مِنْ زَاهِدٍ خَاطِرُ⁷

- 1 - عبد القادر فيطس: الشعر الملحون الجزائري-1954/1830- دراسة تحليلية فنية، أطروحة دكتوراه، إشراف الأستاذ: أحمد الأمين، كلية الأدب واللغات، جامعة الجزائر، 2009/2008، ص415.
- 2 - عوّدي: حصاني، فرسي. غلاه: لماذا. بايْتُ: اسم فاعل من الفعل: بات. اُمْبِيَّتِي: مسهرني.
- 3 - تَرْخَفْتُ: تراخيت وصرت كسولا. زَلْتُ: زالت. أَمَّا لَفٍ: مُتَعَوِّد. مَا تَهْدَأُشْ: لا تهدأ.
- 4 - مُجَنَّا فٍ: متعفا بنفسه، لا يكثر مخالطة غيره. جِيرَان: جيران.
- 5 - مَتَقَلِّظٌ: أنيق في خفة. مَقْعُودٌ: حسن القد.
- 6 - قَلْتَاتٍ: جمع قلته؛ وهي مكان يُحفر لجمع مياه الأمطار. مَاهَا حَاجِرُ: ماؤها راكد.
- 7 - تَشْنَقُ: تشنق. زَاهِدُ: صافٍ

مَا تَغْلَفُ فَضْلَاتُ وَتَهْزُكُ غَيْرُهُ اتَّوَّفَ عَلْ لُخْيَارٍ مِنْ فَوْقِ النَّادِرِ¹

وتتوالى أبيات الشاعر محملة بمواصفات هذا الحصان الذي كان في صغره وأيام عمره الأولى شاردا، لا يحتمل كثرة الاختلاط بغيره، بل زاد على ذلك أن حدّد شروطاً لمن أراد زيارته، معجبا بنفسه مُعْتَدّاً بها، حسن القدّ في خفة وسرعة سير وقد زادتة قطع الحديد التي وضعت في حوافره بواسطة المسامير جمالاً واعتزازاً بنفسه، عيوقاً؛ لا يشرب أيّ ماء يجده في طريقه، بل يختار مَشْرَبَهُ من أجود أنواع المياه الموجودة في هذه المعمورة؛ وهي مياه الشلالات الصافية التي تشق طريقها وسط الصخور في قمة الجبل؛ منهمرةً تتابع طريقها إلى أسفل الجبل في حرب شرسة مع الرياح. ويجعل مَطْعَمَهُ من أحسن التبن الذي احتفظ به الفلاحون لأيّام القحط، وتعاف نفسه أكل فضلات غيره.

ويواصل الشاعر الفخر بحصانه، ويصفه بأبهى الصفات وأجملها، ولكنه سرعان ما يكشف عن مقصوده في آخر القصيدة بعدما رسم لنا صورة للحصان في حالة الضعف والهزم والتعب والإرهاق.

يقول الشاعر في هذا المعنى:

وَالنَّعْرَةُ الَّتِي فِيكَ وَلَا تَنْعِيرُهُ	زَادَ الْحَالُ عَلَيْكَ مَا طَقَقْتَ تَكَابُرُ ²
وَعَلَى دَوْرِ الْعَامِ فِي الْعَيْنِ شَعِيرَةُ	سَالَ الدَّمْعُ عَلَى خُدُودِكَ يَتَقَاطِرُ ³
وَتَرَكَبْتُ وَدَرْتَ لِلْسَّاقِ جُبِيرَةُ	تَمْشِي بِالْعُكَّازِ وَأَمَالَفَ شَاطِرُ ⁴
اقْبَضْتَ الرِّكْنَةَ لِبَسْتَ قَتِيدِيرَةَ	امْكُونُ فِي الْخَالِفَةِ قَادِي سَامِرُ ⁵

1 - اتَّوَّفَ: تطلّ وتتطلّع. عَلْ لُخْيَارٍ: على الأحسن. النَّادِرُ: أكوام التبن التي توضع فوق بعضها البعض بشكل خاص لحفظها من الظروف الطبيعية.

2 - النَّعْرَةُ: الخفة والنشاط. نَعِيرُهُ: تصغير لكلمة نَعْرَةٌ، التي تطلق على النجدة والحماية أيضاً.

3 - دَوْرُ الْعَامِ: مُضَيَّ الْعَامِ. شَعِيرَةُ: (بوشعيرة) مرض معروف يصيب العين.

4 - معنى الشطر الأول: انتفخت ركبتيك ووضعت لِسَاقَكَ جُبْساً لمعالجته.

5 - اقْبَضْتَ الرِّكْنَةَ: لزمت ركنا من أركان البيت. قَتِيدِيرَةُ: تصغير لكلمة قندورة وهي ثوب يلبسه الرَّجُل.

معنى الشطر الثاني: جالس أمام الكانون في ركن الخيمة تشعل ناراً.

يكشف الشاعر عما أراده من خلال توظيفه لهذا الحيوان في قصيدته ليفاجئنا في آخر حديثه بأنه لا يقصد حصانا، بل يقصد إنسانا بذاته، يعني أن كل الوصف السابق كان لرجل عجوز يدعى "الحاج الطاهر"، وقد أفصح الشاعر عن اسمه في خاتمة القصيدة، وأوضح - أيضا - ما أراد إيصاله للمتلقى من عبر وعظات قائلا:

بْنُ شَرَّابِ الْوَادِ جَابَ التَّذْكِيرَةَ اِبْنَبَهُ مِنْ رَأَى فِي غَزْلُو خَامِرٍ¹
مَانِيشْ عَلَى عَوْذٍ وَلَا تَقْصِيرَةَ انْظَمْتُ اَزْكَابِي عَلَى الْحَاجِ الطَّاهِرِ²

لم يكن الشاعر صبوراً كفاية؛ ومن عجلته وخوفه من أن يختلط الأمر على المتلقي كان في قصيدته لجوجاً، وهذا من العيوب التي يقع فيها الشعراء حين استخدامهم للرموز، ولكن ذلك مقبول في الشعر الشعبي - حسب رأيي الخاص - باعتبار أن جمهور المتلقين متعدد الطبقات، وقد يكون من ضمنهم الأمي وقليل الثقافة.

فالحصان الذي وظفه الشاعر هو رمز لهذا الرجل في مراحل العمرية المختلفة، وكل ما ذكره الشاعر من أوصاف لحصانه هي أوصاف تنطبق على هذا الرجل. وفي قول الشاعر (مَنْ رَأَى فِي غَزْلُو خَامِرٍ) كناية عن غفلة الإنسان وسوء فهمه للحياة؛ وهذا ما يدل عليه لفظ (غَزْلُو).

وفي قصيدة "الخيمة" سجّل الشاعر صوراً تشبيهية في قمة الإبداع الفني؛ حيث شبه فرسه تارة بشخص يقوم بمناسك العمرة لبياضه النَّاصِع، وحيناً بجمر مستعر لغلbian الدماء في جسده. يقول الشاعر مفتخراً بقومه أولاد نايل، معجبا بفرسانهم وبأحصنتهم:

أَبْيَضُ نَاصِعٍ كِي الْيَّ جَايِبُ عُمَرَةٍ كِي يَزْمَزْلُو رَاكِبُو يَفْهَمُ مَعْنَاهُ
أَحْمَرُ قَانِي كِي الْيَّ ثَاقِبُ جَمْرَةٍ دَمُو يَغْلِي سَارَ فِي جَسْدُو حَمَاهُ³

1 - التَّذْكِيرَةُ: الذكري، العبرة. معنى الشطر الثاني: ينبّه من هو غافل.

2 - شرح البيت: لست أقصد حصانا ولا حكاية للهو. نظمت قصيدي (قصيدتي) في الحاج الطاهر.

3 - قَانِي: غامق. ثَاقِبُ جَمْرَةٍ: مشعل جمرّة. حَمَاهُ: سخنه.

شبه الشاعر في البيت الأول الحصان الأبيض بالإنسان الحاج إلى بيت الله عز وجل، وأضاف إلى صورته اللونية صورا حركية تتمثل في الرموز والإشارات التي يوجهها الفارس إلى فرسه، وردة الفعل التي يستجيب من خلالها الفرس، هذه الحركات المتبادلة بين الفارس وفرسه تحمل قيما دلالية متنوعة؛ اجتماعية، ودينية وخلقية وجمالية...

فالفرس في العرف الاجتماعي هي رمز للكيان العربي والأصالة، وهي من رموز الوجهة والتميز الاجتماعي في المجتمع البدوي العربي منذ القديم¹، وهي عدة المترفين وأبناء السادة وسراة القوم، وهي رمز من رموز الفنتازيا والحياة السعيدة والمناسبات السارة.

يصف الشاعر " إسماعيل مدّاد " جانبا من هذه الاحتفالات فيقول:

وَالْفَرَسَانِ بَحِيلٌ عَرَبِيٌّ مِنْ لَوْلٍ لِمَصَيِّلٍ مَرْفُوعٍ رَأْسُو لِمَالِيَّةٍ²
يَا سَامِعُ بَارُودِهِمْ رَأَاهُ أَيْزَلْزَلٍ يَا شَايِفُ مَشَوَاهُمْ تَتَعَجَّبُ فِيهِ³

يسجل الشاعر في هذا المشهد البديع فرسانا على خيولهم ذات الأصل العربي، والنسب الأصيل، يتنافسون في ميدان واسع ويتسابقون في جو من الحماس والنشاط والفرح، وصحب هذا الجو طلقات البارود من هنا وهناك، وقد ألقت الأحصنة أصحابها، ونشأت بينها وبين ركابها علاقة محبة وودّ، فصار التواصل بين الفرس وصاحبه تواسلا روحيا قد لا يتعدى الرمز والإشارة في أغلب الحالات.

ومن القيم العريقة التي تميز الفرسان منذ العصور القديمة قيمة متأصلة في نفوس الأبطال العرب هي نجدة المظلوم وإبعاد الأذى عن الآخرين وحب

1 - أحمد قنشوبة: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، منطقة شمال الصحراء نموذجا

- 1950/1850 - دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، 2010، ص358.

2 - لمصيّل: الأصيل. أمالية: جمع(مؤلة) وهو صاحبه الذي يركبه.

3 - مشوارهم: تُطلق كلمة مشوّاز على سباق الخيل وسط مضمار الفروسية حيث يصحب ذلك طلقات البارود وزغاريد النساء.

المساعدة وتقديمتها في أي وقت وفي أي مكان دون انتظار لمقابل مادي، وكل ما يهتمهم في ذلك هو التنفيس عن المكروب وإدخال الفرحة في القلوب. يلخص الشاعر " السعيد بوعشرين " هذه القيم الجميلة في قوله:

يَا فَرَسَانَ اللّوْمَ بِالْخَيْلِ وَعِدَّةٌ نَعَارِينَ الِّيَ انْدَهَمَ جَاؤَ مَعَاهُ¹
يَتَذَهُوْ فَرَسَانَ يَاتُوا لِلنَّجْدَةِ وَيَغِيثُوا مَضْيُومَ وَأَزْمَانُو عِيَاهُ²

وحول نفس القيم يتحدث الشاعر "الحمدى بوشنافة " في قصيدة رثائه لأخته "قوته " يقول:

مَاذَا قَبْلُكَ يَا اخْتِي رِجَالُ خِيَارٍ قَلَاعِينَ الضَّيْمِ مِنْ فَرَسَانَ اللّوْمِ³

يخاطب الشاعر أخته المرحومة ويذكرها برحيل جميع البشر في يوم ما حسب أجل كل واحد منهم، وحتى هؤلاء الفرسان مهما بلغوا في الأرض من مبلغ النجدة والخير، فلا بدّ لهم من مغادرة هذه الحياة في يوم ما إلى دار الآخرة والاستقرار في القبور إلى قيام الساعة.

ومن القيم الجمالية التي تدلّ على محبة الفرسان لخيولهم عند العرب منذ القديم اهتمامهم بهذه الأحصنة واعتبارها من أفضل المتاع وأثمنه وأبهاء وأغلاء وأجوده، ويظهر ذلك في الزينة التي تُوضع على الفرس، والتي تتركب من عناصر عدّة، منها: السّرج والطّرحة والرّكّاب واللّجام وغيرها من أدوات الزّينة التي تشتهر عند الفرسان خاصة. يعدّد الشاعر " أحمد وليد " هذه الأدوات أثناء مدحه لفرسان قومه أولاد نايل وافتخاره بهم، وذلك بعد تصنيفه لأنواع الخيول حسب ألوانها -وهو العرف الشائع عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة وفي أغلب المناطق في الجزائر - ويقول مفتخرًا معجبًا:

1 - نَعَارِينَ: مُنْجِدِينَ. انْدَهَمَ: ناداهم واستجد بهم. جَاؤَ: جاءُوا.

2 - مَضْيُومَ: مظلوم، حزين متألم، متضايق. عِيَاهُ: أعياءه، أتعبه.

3 - قَلَاعِينَ: من الفعل: قلع، يقلع، وهنا بمعنى: نزع واجتثّ وأبعد. أي: مُقْتَلَعِينَ وَمُبْعَدِينَ. الضَّيْمِ: الحزن، الألم، الظلم، الضيق.

طَبَعُوهُمْ بِسُرُوجٍ وَطَرَّحَةَ نَوَّارٍ طَرَحَ الْفَضَّةَ كُلَّ حَالٍ عَلَى حَالُو¹
 اِرْكَابُ الْفَضَّةِ الَّتِي يَغْنِي مَشْرَارُ مَصْبَاحُ الْفَضَّةِ يَقْدِي مِثَالُو²
 الْفَرَسَانِ اِيْجُو اثْنَيْنِ اِثْنَيْنِ اَعْبَارُ الْبَارُودُ اِيْفَزُ حَوَزَاتٍ اَكْحَالُو³

يشبه الشاعر الطَّرحة بالنوَّار (الأزهار المختلفة والملونة)، وفي هذا التشبيه توظيف مباشر للطبيعة الحيَّة، وانعكاس لعناصرها على نفسه الشاعر، وعلى نفسية الفرسان الذين يحاولون خلق جوٍّ من الحيوية والفرحة والنشاط والبهجة على أنفسهم وعلى خيولهم وعلى الآخرين. وقد دأب شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة على توظيف الأزهار كمشبَّه به في هذه الحالة بالضبط "وذلك لأنَّ هذه النباتات جميلة في ذاتها كمادة فبمجرّد وصول اسمها إلى أسماعنا يغمرنا شعور بالطمأنينة والهدوء، فالزَّهور تُومئ إلى عالم الجمال والنضارة والطهر والنقاء هذا بالإضافة إلى ألوانها السَّاحرة التي تتميز بها، فَمِمَّا لا شك فيه أنَّها في هذا - كألوان - من أجمل الأشياء التي داعبت ملكات الفنانين واستهوت مشاعرهم وأوحت إليهم بكثير من المعاني والأفكار".⁴

وما يزيد من جمال منطقة بوسعادة لحدّ الآن هو الفنطازيا وسباق الخيل، وقد كانت الفروسية ولازالت سببًا لنجدة المظلوم، وهذا أمرٌ متوارث منذ الأجداد، أي منذ الجدِّ الأول "سيدي محمد نايل" الذي يُكثر الشعراء في المنطقة من ذكره والتَّعْنِي بأمجاده، كيف لا وهم ينتسبون إليه، ويفتخرون بهذا النِّسب. يقول الشاعر "السعيد بوعشرين" معبرًا عن ذلك:

1 - طَبَعُوهُمْ: زادوهم جمالا. الطَّرْحَة: فراش مزركش ملون يوضع تحت السَّرَج على ظهر الفرس.

2 - اِرْكَابُ: يُصنع من الفضة لِيَضَعَ الفارس فيه رجله. مَشْرَارُ: بخيل. يَقْدِي: يُشعل.

3 - اَعْبَارُ: عبرة، مثال، فخر. اِيْفَزُ: ينطلق. حَوَزَاتُ: مجموعات. اَكْحَالُو: اسودّ لونهم.

4 - علي بولنوار: الشَّعر الشَّعبي الجزائري في منطقة بوسعادة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون،

الجزائر، 2010، ص168.

أَدَا رَكْبُؤَا يَغْجُبُوكَ أَيَّامَ الْهُولِ نَعْرَةً لِلْمَضْيُومِ فَرَسَانُ جَاتُوا¹
سَعْدُ إِلَيَّ نَعْرُوهُ فَرَسَانُ الْمَقْبُولِ نَحَّاحِينَ الضَّيْمِ وَقَتَّ أَنْهَارَاتُ²

فنجدة المظلوم، وكفّ الأذى، وحماية الضّعفاء، والتّصديّ للمعتدين هي كلّها من شمائل هؤلاء الفرسان الذين يتمتّعون بهذه الخصال الحميدة بالسّليقة والجبلّة. ومع كل ما يتحملونه من مسؤوليات اتّجاه قومهم، فهم يجدون وقتاً للعب والمرح والتّنفيس عن النفس، وهذا ما قصده الشاعر ذاته بقوله:

وَإِذَا رَكْبُؤَا يَلْغَبُوا فَرَسَانُ اتَّجُولُ تَسْمَعُ لِرَرْقٍ كِي اِيْعَلِّي صَهْلَاتُ³

فهؤلاء الفرسان الذين يجولون ويصولون ويلعبون ويتسابقون هم رمز للحياة الرغيدة والسعيدة، وصهيل هذه الخيول هو دليل على الحرّية والاستقلالية وعلى حسن العلاقة بين الحصان وصاحبه، وهذا ما يؤدي بنا إلى القول بأن هذه المنطقة آمنة لا تشوبها نزاعات، ولا يعتري سكانها نقاشات، بل يعمّها السلام، ويربط بين أفرادها علاقات محبة وتآزر وتضامن وتعاون واتّحاد.

ولم يغب عن أذهان الشعراء في منطقة بوسعادة ما تحمله أنثى الحصان من رموز وقيم ودلالات، فهي رمز للانطلاق والحرّية والتحرّر، وهي رمز للعزّة والكرامة، وقد وظفها الشعراء في أغلب الحالات رمزا للمرأة. فهذا الشاعر "الحمدي بوشنافة" يشبّه أخته "قوتة" رحمها الله بأنثى الحصان (العوّدة)، ويتمثّل وجه الشبّه بينهما في قوّة الحركة والاندفاع لدرجة توقظ النائم. يقول الشاعر:

مَا عَيَاتَشْ فِيكَ عَوْدَةَ الْمَشْوَارِ وَتَصْلُصَلْ تَنْوُضُ النَّاعِسُ مِنْ النَّوْمِ⁴

فالجلبة والصّهيل ودك الأرض من صفات الخيل ذات الأصل العربيّ والنّسب الأصيل، والتي ذكرها المولى عزّ وجلّ في القرآن الكريم في سورة

1 - نَعْرَةً لِلْمَضْيُومِ: نجدة وحماية للمظلوم.

2 - الْمَقْبُولُ: يقصد به الشاعر الوليّ الصّالح والجدّ الأكبر سيدي محمد نايل. نَحَّاحِينَ: نَحَّاح: صيغة مبالغة بمعنى نازع ومُبْعِد. الضَّيْمِ: الظلم، الحزن، الألم.

3 - لِرَرْقٍ: الحصان الأزرق. صَهْلَاتُ: صهيله.

4 - تَصْلُصَلْ: تحدث أصواتا وحركة قوية. تَنْوُضُ: توقظ.

العاديّات في قوله سبحانه وتعالى: {والعاديّات ضَبْحًا} (01) فالموريّات قَدْحًا (02) فالمغيرّات صُبْحًا (03) فَاثْرَنَ به نَقْعًا (04) ¹ وهذه الصفات، إذا انطبقت على النساء فقليلا ما تكون مرغوبة خاصة إذا كانت دائمة فيهن " أما العنصر الحركي في الحصان فهو معدّ لإحداث تغيير معاكس لحركة الزمن، فهو لإحداث تغيير نحو الأفضل. فبهذا يكون عنصرا للثبات والحركة في الحصان لمواجهة الزمن كليًا ²، وتشبيه الشاعر أخته بالفرس فيه دلالة على سعادة هذه المرأة ونشاطها الناتجين عن زهو الشَّبَاب الفاضل والتعلّق بالحياة.

وكان الشاعر "أحمد وليد" من بين الشعراء الذين وظفوا الفرس رمزا للمرأة؛ ولكن هذا الشاعر اختلف عن سابقيه من شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة - حسب المدونة الشعرية التي بين أيدينا - فأعطى لهذا الرمز ميزة وخصوصية، وجعله من بين أشهر وأجمل الرموز التي اعتاد الشعراء إلحاقها بالمرأة عموما وبالمرأة المحبوبة بصفة خاصة. يقول الشاعر:

وَلَا عَوْدَةَ فِي جُلَايِبِ رَكْبِيَّةٍ انْهَارَ الرِّيمِ اِيَقْدُمُوهَا لِلْمَشَوَارِ ³
عَنْهَا سَرَجٌ جَدِيدٌ وَالطَّرْحَةُ غَايَةٌ طَرَحَ الْفَضَّةَ صَوَّرُوا فِيهِ النَّوَارَ ⁴

فرس الشاعر فرسٌ قوية مزينة بأبهى وأغلى أنواع الحليّ والحُلل، مدلّلة لمتستغلّ أبدا للقيام بالأعمال الشاقة، بل درّيت ليوم السِّباق، مكرمة معزّزة. وكذلك

1 - العاديّات: الخيل تعدو في الغزو وتضبح. ضَبْحًا: وهو صوت أجوافها إذا عدت. الموريّات: الخيل توري النار. قَدْحًا: بحوافرها إذا سارت في الأرض ذات الحجارة بالليل.

المغيرّات صُبْحًا: الخيل تُغيّر على العدو وقت الصبح بإغارة أصحابها. فَاثْرَنَ: هيّجن. به: بمكان عدوهم، أو بذلك الوقت. نَقْعًا: غبارا بشدة حركتهم.

- ويُنظر: جلال الدّين المحلّي، جلال الدّين السيوطي: تفسير الجلالين، ص599.

2 - عبد العزيز محمد شحادة: الرّمن في الشعر الجاهلي، ص199.

3 - عَوْدَةَ: فرس: أنثى الحصان. جُلَايِبُ: من الفعل جلب بمعنى أحداث حركة وأصواتا. رَكْبِيَّةٌ: مهيّأة للركوب. انْهَارَ الرِّيمِ: يوم السِّباق.

4 - الطَّرْحَةُ غَايَةٌ: الطَّرْحَةُ جميلة.

محبوبة الشاعر؛ فتاة محبوبة، جميلة، أنيقة في دلال وغنج، لم تُر إلا عروسا في يوم فرحها.

وفي نفس السياق أفرد الشاعر "إسماعيل مدّاد" قصيدة عنوانها "العودة" راح يخاطب فيها محبوبته، ويتمنى رؤيتها، وقد شبهها بالفرس. يقول الشاعر:

عَوْدَةٌ بَنَتْ أَخْيُولَ وَغَلِيهَا مَهْبُولٌ يَا سُبْحَانَ الَّتِي خَلَقَهَا مَوْلَايَا
اعْطَاهَا جَمَالَ مَنْ كُلُّشْ مَعْدُولٌ بِالْقَدْرَةِ وَالْكَاتِبَةِ جَاءَتْ مَعَايَا¹
مَا تَشْبَهُشْ الْخَيْلَ فَالدُّنْيَا مَجْمُولٌ مِنْ يَوْمِ الَّتِي شَفَّتْهَا شَفْتُ ابْلَايَا²
كُنْتُ هَانِي مَا نَعَاشِرُ بَرَّ الْهَوْلِ يَا عَوْدَةَ وَغَلَّاشْ خَوْضَتْ مَايَا³

ويعتزُّ الشاعر بنسبه العربيّ الأصيل؛ أي بانتسابه إلى هؤلاء القوم؛ قوم أولاد نايل؛ ويفخر بقومه كعادة شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة.

وقد انفرد الشاعر - حسب المدونة الشعرية - بالحديث عن بعض الرموز التي تميّز منطقة بوسعادة خاصة ومنطقة أولاد نايل بشكل عام، حيث عدّها في هذين البيتين:

بَرُّ الْحَمْرَةِ وَالْبَيْضَةِ رَمَزُ الْمَرْحُولِ بَرُّ السَّبْحَةِ وَ الْمَوْحَةِ وَالْعَنَايَا⁴
بَرُّ النِّيَّةِ وَالزَّهْدِيَّةِ وَالْمَقْبُولِ سَيِّدِي نَايِلُ يَا الْفَاهِمَ مَعَايَا⁵

الشاعر من بلاد تكثر فيها الخيول الحمراء والبيضاء، والخيول بالنسبة إلى الشاعر هي رمز للرحلة والترحال، واختياره للونين الأحمر والأبيض من بين الألوان هو دلالة على الفرح والسرور والبهجة والنقاء والصفاء. أما الألفاظ التي

1 - معنى الشطر الأول: منحها المولى عز وجل جمالا وعدلها من كل جانب

2 - معنى البيت: لا تشبه خيول الحياة الدنيا بأكملها. من اليوم الذي رأيتها فيه رأيتُ بلائي.

3 - معنى الشطر الثاني: يا عَوْدَةَ (يا فرس) لماذا عكّرتِ صفو حياتي؟

4 - الْحَمْرَةُ وَالْبَيْضَةُ: الفرس الحمراء والفرس البيضاء. السَّبْحَةُ: خيط مركّب من تسع وتسعين بلّورة، يفصل بينها شاهدان صغيران ويجمع الكل شاهد كبير، تستخدم للتسبيح. الْمَوْحَةُ: تُستخدم لكتابة القرآن الكريم وحفظه في الكتاب. الْعَنَايَا: العناية.

5 - النِّيَّةُ وَالزَّهْدِيَّةُ: أصحاب النية الحسنة والزهاد. الْمَقْبُولُ: يُقصد به الجد الأكبر لأغلب سكان المنطقة، الولي الصالح سيدي محمد نايل.

أوردتها الشاعر متتالية (السَّحْبة، اللُّوحة، العَنَايا، النِّيَّة، الزَّهْدية، المقبول)، فهي كلها تمثل حقلا دلاليا واحدا، وتدخل ضمن مصطلحات المتصوفة التي يتواصلون من خلالها فيما بينهم. ولا غرابة في توظيف الشاعر لهذه الرموز مجتمعة، ولا عجب في ذلك؛ والشاعر ابن بيئة بدوية، لا تزال محافظة على قيمها ومبادئها الإسلامية وعلى تقاليدها وعاداتها وأعرافها، وعلى ثوابت دينها ورموزه.

وليس بعيدا عن الحصان والفرس، هناك رمز المهرة الذي استخدمه شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة للدلالة على المرأة النموذج تارة، وتارة أخرى للدلالة على الفتاة المحبوبة.

الشاعر " البشير قذيفة " في قصيدته " الساعة " يجعل المهرة رمزا لنوع من أنواع النساء اللواتي يرى بأنهنَّ يمثلنَّ أحسن أنواع النساء في العالم أجمع. يقول الشاعر:

وَحْدَةَ عَابِرٍ سَابِقَةً مِثْلَ الْمُهْرَةِ رَاكِبَهَا مَا تُهْرِبُ الْفَرَسَانَ عَلَيْهِ¹

فالشاعر عند تصنيفه للنساء، جعل من الطبيعة ملاذا لجأ إليه، وانتقى من عناصرها ما اتفق مع خياله وحاجته الشعرية، واستخدم المهرة رمزا للمرأة التي يراها نموذجا لغيرها من النساء، فهي فتاة مندفة، نشيطة، سريعة البديهة، معتمدة على نفسها، تجمع كل الخصال الحميدة في شخصيتها المستقلة.

وإذا كان هذا الشاعر قد جعل المهرة رمزا لواحدة من النساء بشكل عام، فإن شاعرين آخرين جعلوا من المهرة رمزا للمرأة الناييلية بشكل خاص، أحدهما الشاعر " السعيد بوعشرين " الذي وصف علاقة الحب التي تربط بين الزوجين أو الحبيبين عند قوم أولاد نايل، حيث شبه الفتاة بالمهرة الحرة. يقول في ذلك:

1 - وَحْدَةُ: واحدة. عَابِرٌ: جريئة وقوية (أستخدم اللفظ بصيغة المذكر لضرورة شعرية؛ وهو أمر شائع عند سكان منطقة بوسعادة حيث يستخدمون ألفاظا مذكورة للدلالة على أشياء مؤنثة؛ ويكثر ذلك بشكل خاص عند الحديث عن المرأة أو مخاطبتها. ولا يقتصر هذا الأمر على اللهجات، بل نجد مثله أيضا في اللغة العربية والشعر الفصيح). سَابِقَةٌ: مندفة ومتقدمة. المهرة: صغيرة الحصان والفرس.

المُهْرَةُ النَحْرَةُ كِي اتشُوفُ الفَحْلُ اتصُولُ وُيَا حَسْرَاهُ عَلَى الحُبِّ وَلِيَعَاتُو

علاقة الحب عند هؤلاء القوم هي علاقة مقدسة، مبنية على التفاهم والتعاون بين الشريكين، يحترم أحدهما مشاعر الآخر، ويتبادلان حبًا صادقًا، وغالبًا ما تؤدي هذه العلاقة إلى نهاية سعيدة، ويكون الزواج رابطة قوية بين كل متحابين.

والشاعر الثاني هو "عبد القادر العطوي"؛ الذي اتخذ من المهر رمزًا للمرأة النشيطة، التي تقوم بواجباتها بكل حب وإتقان وتفان، ويصفها بالجمال والحسن والحياء وقلة الكلام. فيقول:

بالبَثْرُورُ تَحَرَّمْتُ نَعْتُ المُهْرَةِ طَاخُ شَعْرَهَا عَلَى الظَّهْرِ كَامِلٌ كَسَاءً¹

حَشْمِيَّةٌ مِنَ الضَّيْفِ وَقَلِيلَةٌ هَذَرَةٌ تَخْجَلُ مِنْ خِيَالِهَا مَا تَنْخَطَأُ²

فالمراة عند أولاد نايل كالجوهرة المصانة المحفوظة في أعلى الأماكن وأبعدها، وهي رمز لشرف القوم، لا يجب أن تُذَلَّ أو تُدَاسَ، كما لا يجب أن تُهان أو تُحتقر، لأنها بالنسبة إليهم هي رمز للحياة، وهي رمز للخصوبة؛ فهي الأم، وهي الأخت، وهي الابنة، وهي الزوجة، وهي الحبيبة التي تلهم الشاعر الذي يتغنّى بجمالها، ولا يسمح لنفسه أبدًا بذكر اسمها إلا نادرًا - وقد يكون ذلك تعريضًا وتلميحًا مع استبدال الاسم الحقيقي باسم آخر من اختيار الشاعر ذاته - وهذا التصرف من قبل الشعراء هو دليل على احترام المراة وصيانة شرفها وشرف والدها وأهلها.

ويركز الشعراء في منطقة بوسعادة على جمال المراة، وفي كل مرة يعدّون مواطن الحسن لديها؛ والشعر الأسود الطويل من أهم المواطن، وتشتهر النساء في هذه المنطقة بهذا النوع من الشعر حيث ترسله المراة مُسدلاً وراءها مترنحًا فوق ظهرها وأعلى كتفيها، إضافة إلى الخصر الدقيق الذي تشدّ عليه المراة حزامًا

1 - البَثْرُورُ: حزام مكون من خيوط ملونة. تَحَرَّمْتُ: وضعت الحزام على خصرها. نَعْتُ: مثل.

طَاخُ: سقط. كَسَاءً: غطاء وكساء.

2 - حَشْمِيَّةٌ: خجولة. هَذَرَةٌ: كلام.

للزينة، والشعر الأسود الطويل عند هؤلاء القوم هو رمز للجمال والبهاء، وكذلك الخصر الدقيق، فهما رمزان للأصالة والعروبة، أمّا الحزام فهو دلالة على الحزم والجِدّ والاجتهاد وانتقان العمل.

ونجد الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدة أخرى ذات موضوع غزليّ يشبّه حبيبته بالمهرة، ويشيد بخصرها الدقيق، وهو في ذلك يسير على منهاج القدماء، فيقول:

خَاوِ الْمَخْرَمَ كِي الْمُهْرَةَ تَتَجَلَّبَّبُ مَا شَدَّتْ مَشْوَارَ مَا شَافَتْ رُكَّابَ¹
رَكْبِيَّةً فِي الشَّوْءِ لَسَّعْ تَدْرَبُ عَرَبِيَّةً مِنْ صِيلِهَا هَاكُذْ هَيَّابَ²

فحبيبة الشاعر تشبه مهرة مدلّلة لم تخض سباقا ولا دخلت ميداناً، ولا ركبها فارس من قبل، عربية الأصل، حذرة، مبتدئة في مجال التدريب. ولم يغب عن ذهن الشاعر أن ينقل صورة حركية للمهرة، فاستخدم الفعل (تتجلّبب) للدلالة على إحداث جلبة وحركة، وزاد على ذلك أن وظف حرف الباء كحرف رويّ في كلا الشطرين، فأحدث هذا الحرف قلقلة وموسيقى على المستويين الخارجي والداخلي للقصيدة؛ ذلك أنّ حرف الباء له قيمة صوتية موسيقية تتناسب جوّ النصّ وإيقاعه النفسي الشديد الذي يسيطر على الشاعر، وهو صوت شديد مجهور، وهو من حروف القلقلة، والقيمة الصوتية لموسيقى هذا الحرف تتبع في تكراره، وهذا ما يحول مناخ النصّ إلى مناخ موسيقي يتّفق وطبيعة التجربة، إضافة إلى أنه يثير بغزارته الخيال.

1 - خَاوِ الْمَخْرَمَ: دقيقة الخصر. كي: مثل. تَتَجَلَّبَّبُ: تحدث حركة قوية وأصواتاً. مَا شَدَّتْ مَشْوَارَ: لم تشارك في أي سباق.

2 - معنى البيت: حديثه العهد بالركوب والتدريب. عربية الأصل دائماً الحذر.

3.3.3 - الإبل:

للإبل عند الإنسان العربي القديم مكانة مرموقة، ولم يكن له مجال أبدا للاستغناء عنها؛ لأنّ الجمل والناقة هما وسيلة تنقله إذا أراد السفر والتّرحال، وهما مصدر غذائه إذا جاع، وهما أنيسه في الصحراء الواسعة إذا استوحش، وقد لعبت الناقة دوراً هاماً في حياة العرب منذ العصور الأولى؛ حيث كانت تمثل "مركبة وعدة رحلته، ومطية أهله، وأنيسه في الصحراء، وهي غذاؤه، وطعامه من لبنها يشرب ويصنع الزبد والجبن...".¹

وقد ذكر المولى عزّ وجلّ الإبل في القرآن الكريم في صورة الغاشية فقال سبحانه وتعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17)}²؛ مخاطباً في هذه الآية كفار مكة ومتسائلاً عن سبب عدم اعتبارهم عند النظر إلى هذه الآيات؛ ومنها آية خلق الإبل.

كما جعل المولى تبارك وتعالى الناقة آية للنبي العربي صالح عليه السلام، فقال الله سبحانه في سورة الشمس: {فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13)}³ ومع أن النبي صالح - عليه السلام - خاطب قومه ثمود طالباً منهم ترك المجال للناقة للشرب يوماً، ولهم اليوم الموالى، إلا أنهم عصوا أمره، وضربوا بكلامه عرض الحائط، وعقروا الناقة، فعاقبهم المولى عزّ وجلّ على قتلهم الناقة.

وعند العودة إلى الشعر الشعبي الجزائري، وبالضبط إلى المدونة الشعرية الخاصة بمنطقة بوسعادة نجد الشاعر "عبد القادر العطوي" قد وظّف الجمل رمزاً للإنسان صاحب الشخصية القوية المجاهدة؛ وقد جعل إحدى قصائده تحمل عنوان "فحل الفحولة" ويعني بالفحل الجمل القوي الجريء، فعنوان القصيدة إذا

1 - محمد زغلول سلام: منخل إلى الشعر الجاهلي، ص180.

2 - سورة الغاشية: الآية(17).

3 - سورة الشمس: الآية(13).

قرأناه قراءة سيميائية، فنحن سنستنتج لامحالة دلالات غامضة قد تستعصي على المتلقي البسيط، ولكنها واضحة المعالم بالنسبة للمتعلّم المثقّف. والشاعر يستخدم أسلوب النداء في مطلع قصيدته، ويخاطب الحزن (يا ضيمي) رغبة منه في تشويق القارئ، والولوج به في عالم من الألم والحسرة والندم، حيث يقول:

يا ضيمي فحلّ الفخولة عنا صدّ
نكؤ بكّي ايتيم باباه مسند
خلانا عام السنة نبكي تغزاد¹
كي هزوه مزايعة قصدو للخاذ²
بكي الزاهد كان في الخلوة يعبد
متمني لو كان فالدنيا ما زاد³
بكي الحرّة خايفة لا تتمرّد
من عينيها طالقة ربعة تعداد⁴

غاب هذا الفحل عن نظر الشاعر، وعن نظر أهله، ولكنه بقي مرتسماً في خيالاتهم وأذهانهم وسيبقى معهم إلى الأبد، والشاعر رسم صوراً متعدّدة لحزنه على هذا الفحل، فشبه بكاءه في أول الأمر ببكاء يتيم يندب أباه الذي حمل على الأكتاف إلى مثواه الأخير، ثم شبه بكاءه ببكاء زاهد في خلوته يعبد المولى عز وجلّ ويتمنى في نفسه أنّه لم يولد أبداً في هذه الحياة، والمشهد الثالث هو مشهد المرأة التي فقدت زوجها، فهي تبكيه مفعوجة متأثرة، وقد خافت من حياة الوحدة بعده، ومن الذلّ والهوان، وهي الحرّة الكريمة العزيزة طوال حياتها. فبكاؤها في هذه الحالة هو نتيجة لأسباب عديدة منها: خسارة الرفيق المؤنس، والخوف من المستقبل، وفقدان مصدر السعادة.. فهي تبكي زوجها بحرقة ومرارة.

1 - يا ضيمي: يا حزني وألمي. فحلّ الفخولة: الجمل القوي الشجاع. خلانا: تركنا. تغزاد: من التغريد وهو صوت العصفور، وقصد به الشاعر هنا: البكاء بحرقة وصوت.

2 - مسند: ميت موضوع على الأرض في كفنه الأبيض. كي هزوه: عندما حملوه. مزايعة: بترقيق الرأ: الأشخاص الأربعة الذين يحملون النعش على الأكتاف. للخاذ: القبور.

3 - بكّي: بكاء. ما زاد: لم يولد ولم تنجبه أمه.

4 - الحرّة: المرأة. تتمرّد: تهان وتذل. طالقة: مُرسلة. ربعة: بتخيم الرأ: أربعة دموع ترسلها من كل عين (كناية عن غزارة الدموع وحرقتها). تعداد: بكاء بصوت مع ذكر مناقب الميت.

كل هذه التشبيهات المختلفة لحالات البكاء والألم أطلقها الشاعر على نفسه، وعكس أجواءها على حالته النفسية آنذاك، فهو يبكي هذا الفحل، ويرثيه في أبياته هذه، ولكنه سرعان ما يكشف عن رمزه، ويفك شفراته - وهذه عادة شعراء القصيدة الشعبية غالباً - فيذكر اسم المرموز إليه، ويصرح بنسبه، ويمدح قومه قائلاً:

الشَّرِيفُ الّـي كَانَ لِلْمُسْتَعْمَرِ ضَدُّ ذَاكَ النَّائِلِي سَمَعْتُو فَاتَتْ لِبِلَادُ¹
رَحْمَاوِي فِي نَسَبْتُو مِنْ جَدُّ لَجَدُّ عَزَّ النَّعْرَةُ نَقَهْرُوا بِهِمْ لَضْدَادُ²

فالشخص الذي رمز إليه الشاعر بالجمل الفحل هو مجاهد فذ من مجاهدي ثورة التحرير الجزائرية، عايش أحداثها بكل تفاصيلها، وفاقته سمعته مسقط رأسه، وبلغت الآفاق، وقد وصفه الشاعر وصفاً حسياً ووصفاً مادياً، حيث عدّد مناقبه التي جعلت منه شخصية مرموقة ومشهورة بين كل الجزائريين، فقال مفتخراً معجباً:

وَكَلَامُكَ بَارُودُ يُخْرَجُ مَا يَتَرَدُّ إِذَا فَاتَكَ قُلْتَ كَلِمَةً مَا تَتَعَادُ³
بَيْتُ كَبِيرَةِ النَّبَابِ مَفْتُوحٌ مَشِيدٌ طَوَّلَ السَّنَةَ مَا تَفَارَقَتْهَا لَعِبَادُ⁴

1 - الشَّريف: هو الحاج الشريف شنوفي من مواليد 1922 بأولاد رحمة - الشعبية حالياً - ولاية بسكرة، أبوه عيسى، وأمه الدراجية سريتي، نشأ وترعرع في بادية «الشعبية» وسط أسرة ثرية علمياً ومادياً وخلقياً، التحق بصفوف جيش التحرير الوطني في بداية الثورة، حيث قاد جيش الولاية التاريخية السادسة بعد استشهاد قائد الولاية عاشور زيان. انتقل رفقة زملائه الثلاثة - محمد معاش، رويني لخضر بن الصالح، وعلاوي سالم - إلى المغرب، قام بعدها الضباط الأربعة بجولة عبر العالم حيث زاروا من خلالها دولاً من المعسكر الاشتراكي منها: كوبا، ودولاً من المعسكر الرأسمالي منها: كندا، وعادوا إلى الجزائر قبيل الاستقلال. التحق الشريف شنوفي رحمه الله بوزارة المجاهدين وأبناء الشهداء بعد الاستقلال، ثم عُيِّن محافظاً وطنياً للشرطة. استقر بعد ذلك بمسقط رأسه «الشعبية» وعمل على فك بعض النزاعات التاريخية بالجهة الصحراوية، اشتغل رئيساً لبلدية «أولاد رحمة» من عام (1964 إلى غاية عام 1974). له من الزوجات أربع، ومن الأبناء 24 منهم 10 إناث و14 ذكراً، توفي رحمه الله - يوم 30 مارس 2013 ودفن بمقبرة «سيدي خالد» ببسكرة.

- هذه المعلومات زودنا بها ابن المرحوم السيد: بلقاسم شنوفي، مدير متوسطة ببلدية «الشعبية» يوم الخميس 25 سبتمبر 2014 بمساعدة الشاعر «عبد القادر العطوي»

2 - رَحْمَاوِي: نسبه إلى رحمة بن زكري بن سيدي محمد نايل، وكانت المنطقة أيضاً تسمى (أولاد رحمة).

3 - معنى البيت: وكلامك يشبه البارود إذا خرج لا يعود. إذا سبق وقلت كلمة لا تعيدها.

4 - معنى البيت: مسكنك كبير وبابك مفتوح على مصراعيه. لا تفارقه العباد.

مَا يَطْفَى كَانُونَهَا نَارُ تَصْهَدْ
تَحْلَى الْجَلْسَةَ كِي أَنْتَ فِيهَا تَقْعَدْ
لِعِمَامَةِ تَيْسُورٍ وَالْكُوسْتِيمِ أَسْوَدُ
الْمُبَسَّةِ الزَّيْنَةُ تَوَاتِي زَيْنُ الْقَدْ
طَيَابُ الْمُكْرَمِ دَارُ دُخَانٍ لِلْبَعَادِ¹
بَحْضُوكَ نَتَفَكَّرُ أَيَّامَ الْقِيَادِ
وَالْقَنْتُورَةِ فَوْقَهَا وَبَرِي وَقَادُ²
مُتَرْتَّبٌ فِي هَذَرْتِكَ صَاحِبُ مِعَادِ³

أراد الشاعر أن يجعل من هذا المجاهد البطل صورة مشابهة لجمل فحل، فكان تركيزه كله منصباً على هذا الرجل العظيم عظم مقاومته وتصديده لأعداء الدين والوطن، ولم يظهر توظيفه لهذا الرمز (الفحل/المجاهد) إلا في عنوان القصيدة والبيت الأول، وكل ما يلي ذلك من أبيات هي إشارة إلى المرموز إليه، ووصف لأدق تفاصيله، ونقل لأغلب جوانب حياته ومكانته بين أفراد قومه، حيث كان اهتمام الشاعر بالرموز إليه على حساب الرمز رغبة منه في إبراز محاسن المرموز إليه (البطل المجاهد)، وإظهاره مكانته الاجتماعية، فكانت سيطرة المدلول في القصيدة واضحة جلية، ولكن علاقة التشابه بين الدال/الرمز/الجمل الفحل وبين المدلول/المرموز إليه/المجاهد تبدو قريبة من ذهن المتلقي الذي سيرحل خياله بطريقة تلقائية ليستعيد ما خزنته ذاكرته من قيم ومعان يحملها لفظ الإبل، الجمل أو الناقة.

فالجمل حسب هذه القصيدة هو رمز للصبر على المكاره والصعاب، وهو رمز للشجاعة والمروءة والتضحية والعطاء غير المحدود، وهو رمز - أيضاً - للقناعة والرضى بالقليل في مقابل الكرم والحلم والجود، وهذا ما أشار إليه الشاعر "عبد القادر العطوي" في القصيدة ذاتها مفتخراً بهذا المجاهد وقومه:

1 - معنى البيت: لا ينطفئ كانونها ونارها دائماً مشتعلة. طبخ الكريم يظهر دخانه من بعيد.

2 - القَنْتُورَةُ: ثوب مشهور في المنطقة يلبسه الرجال. وَبَرِي وَقَادُ: بُرْثُ من الوبر يَنْقَد.

3 - معنى البيت: اللباس الجميل يزِين صاحب القد الحسن. كلامك منسق ومرتب وأنت صاحب همة.

وَهَالَةَ بِالضَّيْفِ جَمْلَةً تَتَوَجَّدُ ذِي خَصْلَةٍ خَلَّوْهَا فِيهِمْ لَجْدَادُ¹

الشاعر في هذا البيت الشعر يعكس تلك الخصال الحميدة التي امتاز بها المجاهد على هذا الحيوان الصحراوي الذي أطلق عليه اسم "سفينة الصحراء"، وفي نفس الوقت عكس صفات هذا الحيوان الصبور على شخصية هذا البطل الذي ساهم في الدفاع عن وطنه ودينه إلى آخر نفس في حياته؛ فصار هذا المزج بين الإنسان والحيوان نسقاً خاصاً بالشاعر أذاب فيه لغة التعبير ليعصر من هذا المزيج صورة فنيّة رائعة من الشّهامة والنبيل والإباء والصّمود والقدرة على تحمل المشاق.

وفي قصيدة "الشهيد"؛ شبه الشاعر "عبد القادر العطوي" أحد المجاهدين بالجمال الفحل الذي تخافه مجموعة الإبل في القطيع، والخوف هو نتيجة حتمية لما يبديه هذا الفحل من قوة وشجاعة وزعامة وقيادة لغيره وسلطة. وقد اختار الشاعر الجمال الفحل كرمز لهذا البطل الصّنديد الذي اختار له اسم "أحميّة". يقول الشاعر:

وَلَا فَحْلٌ يَبَانُ فِي مَجْمُوعَةٍ بَلْ حَوَاشِي مَتَمَازِفَةٍ مِنْهُ هُرَابُ²

يظهر هذا الفحل وسط مجموعة الإبل كما يظهر البطل الشهيد "أحميّة" وسط أعدائه، فالجمال تهرب فزعة مذعورة وقد أعماها الهلع، فهي تعدو مسرعة لا تقصد مكاناً معيناً، ولا تعرف لها وجهة محددة، فخوفها هذا والرعب الذي أصابها هو دلالة على إحساسها بالخطر المحقق بها، وحتّى تبتعد عن سبب الخطر ومكانه يجب عليها أن تهرب وتفر.

1 - وَهَالَةَ: مشتقة من «أهلاً» بمعنى: يرحبون بالضيف ترحيباً حاراً بقولهم له: أهلاً بك. جَمْلَةً تَتَوَجَّدُ: جميعهم متواجدون ومستعدون لاستقبال هذا الضيف. خَلَّوْهَا: تركوها. لَجْدَادُ: الأجداد.

2 - يَبَانُ: يظهر. بَلْ: إبل. حَوَاشِي: جمع حاشي وهو الجمل. مَتَمَازِفَةٍ: هاربة وفارة في كل اتجاه من الرعب والهلع. هُرَابُ: هاربة.

هذا المشهد الذي صورهُ الشاعر لهذه الجمال هو المشهد نفسه الذي صورهُ للبطل "أحميْدَة" مع الجيش الفرنسي المدجج بمختلف أنواع الأسلحة. يصف الشاعر هذا البطل الصنديد قائلاً:

أَحْمِيْدَة صَنْدِيْدٌ حَرْبِي مَتَقَتْلُ يَفْجِي النِّهْمُ إِذَا تَلْتَمَّ دَارُ نَقَابٍ¹
مَتَبَصَّرٌ عَنَتِيْرٌ فَالْهَدَّةُ يَخْصَلُ مُوْلَى حَكْمَةٍ حِيْنَ تَضَاقِقُ تَصْعَابُ²
ثَلَاثُ أَعْوَامٍ كَمَا لَهُمْ لَيْلَةٌ مَا ذَلُّ مَتَمَكَّنٌ فِي رَمِيْتُو كَافِي عَطَابُ³

"أَحْمِيْدَة" بطل مقاتل صنديد، أَلِفَ الحرب والقتال، وخاصة إذا وضع لثامًا على وجهه، فهو في لحظات وضع اللثام يزيل الهموم عن غيره، ذو بصيرة، شجاع وقوي يشبه البطل الجاهلي الشاعر العربي "عنتر بن شداد"، تسري لديه خصال الخير، حكيم وحليم في أوقات الضيق والشدائد، دامت فترة نضاله مدة ثلاث سنوات، ولم يهزم أبدًا، يُصِيبُ أهدافه بدقة فائقة، وإذا سدّد رميته تركت لعدوّه جرحًا غائرًا مؤلِمًا. فهو دائماً كما قال الشاعر:

يَتَسَلَّتْ بَيْنَ الْمَقَاسِمِ يَتَجَوَّلُ دَوَّخُ جَيْشِ فَرَانْسَا لَا تَرَوْ مَا صَابُ⁴

ولكن طرف الحبل ليس دائماً من جهته، والغلبة ليست دائماً في صالحه، ولكل بطل مصير محتوم وأجل مكتوب، والإنسان الأصيل يفضل الموت الكريم على العيش في ذلّ ومهانة واحتقار، لذلك:

آمَرْنَا نَنْسَاحِبُو نَفْسُو سَبَلُ الْمَوْتُ فَرِيْدٌ وَفِيْهِ تَتَعَدَّدُ لَسَبَابُ
الطِّيْرُ الْحُرُّ إِذَا قُبِضَ مَا يَتَذَلُّ مَوْتُ الْعَزَّةِ خَيْرٌ مِنْ عِيْشَةِ الْكَلَابِ
كُلُّ النَّاسِ تَمُوْتُ مَحْدُوْدُ الْأَجَلُ وَأَحْمَدُ تَمَّتْ سَاعَتُو صَكَرَ لِكِتَابُ⁵

1 - أَحْمِيْدَة: اسم وظفه الشاعر - مثملاً أكد لنا في سؤالنا له عن خلفية هذا الاسم - بصورة تلقائية، وقد يكون لهذا التوظيف خلفية دينية. حَرْبِي مَتَقَتْلُ: له باع طويل في الحرب والقتال. دَارُ نَقَابٍ: وضع نقاباً.

2 - عَنَتِيْرٌ: نسبة لعنتر بن شداد. الْهَدَّةُ: عمل الخير.

3 - عَطَابُ: من الفعل يعطب بمعنى يضرب ضرباً جارحاً مؤلماً

4 - يَتَسَلَّتْ: يمشي في خفة يختبئ تارة ويظهر تارة. الْمَقَاسِمِ: جمع مقسم؛ وهو الأرض المنخفضة الواقعة بين جبلين. دَوَّخُ: أوهم وأتعب. لَا تَرَوْ مَا صَابُ: لم يجد له أثراً.

5 - صَكَرَ: أغلق.

جَنَّةُ الْفَرْدَوْسِ فِيهَا يَسْتَأْهِلُ حُورِيَّاتٌ مُعْرَّسَةٌ فَتَحَتْ لِبَوَابٍ¹
وُقَرَّابُو سَبْعِينَ ضَمْنُو ذَا الْمَنْزَلِ مَا تَحَرَّمْنَا يَا اللَّهَ مِنْ ذَا النَّصَابِ

استشهد البطل " احميدة " أو " احمد " كما أسماه الشاعر تاركاً وراءه أمّا تنتظر قدومه ودخوله عليها في أي لحظة، وقد اشتعلت نيران الشوق في قلبها وابيض شعر رأسها، وقد فقدت الأمل في عودته إليها سالماً أو كادت.. يصف الشاعر حالة هذه الأم المفجوعة الباكية الشاكية في القصيدة ذاتها وهي تخاطب ابنها قائلة في نعمة حزينة تبكي حين سماعها القلوب قبل العيون:

يَا ضِيْمِي وَعَلَّاشٌ عَنِّي مَا تَسْأَلُ مَا فَكَرْتُ نَهَارَ تَبْعَثُنِي جَوَابٍ²
اتَّجَافِي مَنْ كُنْتُ عَنْوُ تَتَدَلَّلُ طَالَ غِيَابُكَ يَا أَحْمَدُ وَغِيِيْتُ حُسَابٍ³
رَاهَا كَبْدِي عَلَى الْجَمْرِ فِيهَا يَشْعُلُ وَاشْ اِيْطْفِئْ يَا ابْنِي هَازِلَ الْمَشْنَهَابِ⁴
ثَلُثُ اسْنَيْنٍ بِحَالِهِمْ مَا قُلْتُ انْظُرْ يَا تَهْوَاسِي مِنْ فِرَاقِكَ رَاسِي شَابٍ⁵
نَارُ الْفَرْقَةِ حَطَمَتْ مَا كَانَ أَمَلُ شَلْهَابَةَ مُقْبَسَاسَهَا يَقْدِي لَهَابٍ⁶
اتَّرَيَلَفْتُ وَخَافِيَةً عَنْكَ نَهَبْلُ تَتَشَشْفِي فِي الْجَبْرِانِ وَلُحْبَابٍ⁷
اِنْتَا جَاتِي حَالِهِمْ رَاهُ امْعَدْلُ عَيْرُ اَنَا مَتَمَحْنَةُ وَالرَّاسِ اشْهَابٍ⁸

لقد بكت هذه الأم فقيدها، وطال بكاؤها، وانتظرت عودته طويلاً، وطال انتظارها، ولم يصل إلى مسمعها أي خبر عنه، فصارت خائفة من فقدان عقلها،

1 - يستأهل: يستحق. حوريات: حور العين في الجنة. معرسة: مقيمة للأعراس.

2 - يا ضيمي: يا حزني. وعلّاش: لماذا؟

3 - غييت حساب: تعبت من حساب الأيام والشهور والسنوات.

4 - يشعل: يشتعل. معنى الشطر الثاني: ما الذي يطفئ يا ابني هذه النار المشتعلة في قلبي؟

5 - يا تهواسي: يا حسرتي. راسي شاب: اشتعل رأسي شيباً.

6 - الفرقة: الفراق. شلهابة: ملتهبة. مقباسها: قبسها. يقدي: يشتعل. لهاب: يشعل الأشياء التي تقترب منه ويحرقها.

7 - اتريلفت: التهبت واحترقت.

8- انتاجاتي: أترابي من النساء. امعدل: معتدل. متمحنة: أحمل في قلبي هموماً. الرأس اشهَاب: أصبح شعر رأسي أبيضاً.

ولم تجد لها سلوى في غيابه إلاَّ عدَّ الأيام والليالي والشهور والسنوات، هكذا كانت هذه الأم التي ذاقَت مرارة الألم، واعتصر قلبها حزناً، وبكت عينها شوقاً، ولم تعلم بعد أن ابنها مات شهيداً...

استخدم الشاعر في هذه الأبيات معجماً من الألفاظ الموحية بالحزن بطريقة عفوية، حيث نقل مشاعره على لسان هذه الأم، فكانت عاطفته عاطفة حزن وألم وبكاء ممزوجة بعاطفة شوق وحنين، وقد أكثر الشاعر في هذه الأبيات من توظيف الكنايات بشكل تلقائي منها قوله: (راها كبدي على الجمر فيها يشعل) كناية عن شدة الحزن ومرارته، واستخدام الكبد في الوسط الشعبي أمر متوارث، فالكبد عند عامة الشعب هي موطن الألم، وتوظف للدلالة على أعلى درجات الحزن والألم والشوق، وقوله: (راسي شاب) هي كناية عن درجة أقوى من الحزن والألم والاشتياق إلى الغائب مع الصبر والاحتساب، وكذلك قوله: (الرأس اشهاب) كناية عن طول الانتظار والشوق.

ويظهر في هذا المقطع من القصيدة الاستخدام المفرط للفظه النار ومشتقاتها، ويتجلى ذلك في قوله: (الجمر، يشعل، يطقي، المشهاب، نار الفرقه، حطمت، شلهابة، مقباسها، يقدي لهاب، اثريلفت)؛ والنار هي من أقوى الرموز المستخدمة في التعبير عن المشاعر الملتهبة والشوق الدفين.

وفي نادرة من نوعها نجد الشاعر يجعل من هذه المرأة/ الأم محرّكا للأحداث، فهي التي تحكي قصتها، وتشبه نفسها بالناقة التي فقدت صغيرها. يقول الشاعر على لسان هذه الأم:

مثل الناقة نجعها صد مقفل تكرر على مخلولها مدة ما غاب

لقد جعل الشاعر الناقة التي غاب عنها حوارها، وهي (تكرر) مدة غيابه رمزاً لأم هذا البطل التي ظلت تبحث عنه مدة غيابه، وتمني نفسها برؤيته في أحضانها قريباً، والكرُّ والكرور في اللغة العربية الفصحى بمعنى الانعطاف والرجوع، وكرَّ بمعنى عطف وانعطف ورجع. وهذا المعنى اللغوي للفعل (تكرر) في الشطر الثاني فيه دلالة واضحة على حالة تردد الناقة وقد سار (نجعها)، وصدَّ

مرتحلاً في قوافل من البشر والإبل؛ وتظهر هذه الناقاة التي صورها الشاعر منعطفة تبحث عن (مخلولها) الذي غاب عن ناظرها وقد يكون ذلك لأسباب منها: موته صغيراً، أو ضياعه في الفيافي المقفرة، أو أن القوم قاموا ببيعه أو ذبحه، وقد تكون هناك أسباب أخرى. ولكن حرقه هذه الأم/ الناقاة هي نفسها والإحساس هو ذاته وإن اختلف الأمر بين الإنسان والحيوان.

والكرُّ هو فعل مشترك بين كل الكائنات في حالة فقدان الصغار، وقد ورد هذا اللفظ ومشتقاته في الشعر الجاهلي، ومن ذلك قول الشاعر "امرؤ القيس بن حجر الكندي" ¹ في معلقته الشهيرة يصف فرسه:

مِكْرٌ مِفْرٌ مُقْبِلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ ²

وكرر في اللغة " [كراً ومكروراً وتكراراً] على العدو: حمل عليه وهجم وانقضَّ" ³، والتركيز على هذا الفعل في بيت الشاعر "عبد القادر العطوي" هو إشارة مناً إلى أهمية هذا الحدث بالنسبة للناقاة، وبالنسبة للأم، والناقاة قد جعلها الشاعر رمزاً لهذه الأم لذلك فقد اقترن معنى الفعل (تكرُّ) بمعاني الأفعال (طال غيَابك، غيبتُ حَسَاب، راسي شاب، اتزَلَّفتُ، نهبلُ، مَثْمَحْنَة، سَتَتَيْتُكَ..)، وقد لخص الشاعر المشاعر والأحاسيس السابقة في البيت التالي الذي نقله على لسان هذه الأم تصف فيه حالتها النفسية وقد أضناها الشوق وأرقها الحنين، وأتعبها البحث والتطلع والانتظار. يقول الشاعر متحدثاً على لسان هذه الأم:

1 - ينظر: الإمام أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الرُّوزني: شرح المعلقات السبع، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2010، ص33.

2 - شرح البيت: (يقول: هذا الفرس مكر إذا أريد منه الكر، ومفر إذا أريد منه الفر، ومقبل إذا أريد منه إقباله، ومدبر إذا أريد منه إدباره، وقوله: ((معاً)) يعني أن الكر والفر والإقبال والإدبار مجتمعة في قوته، لا في فعله لأن فيها تضاداً، ثم شبهه في سرعة مفره وصلابة خلقه بحجر عظيم ألقاه السيل من مكان عالٍ إلى الحضيض). - ينظر المرجع السابق: الصفحة نفسها.

3 - هيئة الأبحاث والترجمة، الأسيل، باب [الكاف]، ص592.

نَبَاتٌ نَهْتَرَفُ فِي مَنَامِي نَتَخَيَّلُ نَصْبَحُ عَطْشَانَةً وَنَشْرَبُ بِالنَّقْرَابِ¹

في هذا البيت دلالة قويّة على عِظَم حجم المعاناة والآلام التي قاستها هذه الأمّ طيلة فترة غياب هذا الابن البطل، وفيه نزعة من الحزن الذي طغى على نفس كلّ من الناقة والمرأة، وهذا ما دلّت عليه معاني الأفعال المتتالية في ذات البيت الشعري (نَبَاتٌ، نَهْتَرَفُ، نَتَخَيَّلُ، نَصْبَحُ، نَشْرَبُ)؛ وهي أفعال في الزمن الحاضر ولها دلالة على زمن المستقبل؛ وذلك يؤدّي بنا إلى القول بأنّ هذه الأم كانت تتطلّع وتشتاق لرؤية هذا الابن بشغف كبير، وكانت تمتلك بصيصاً من الأمل في عودته إليها سالماً معافى.

ولطالما راودتها الأحلام والكوابيس التي أقنعتها بقاءه قريباً تارة، وأحياناً أخرى صوّرت لها مشاهد مرعبة توحى بمقتله واستشهاده أي حرمانها من رؤيته إلى الأبد، لكنها لم ترد تصديق هذه الكوابيس المزعجة، والدليل على ذلك استخدام الشاعر للفعل (نَصْبَحُ)، وهو الفعل الذي يدل على النور والأمل وعودة البسمة إلى وجوه الخلائق وتغيّر الأحوال إلى الأحسن بظهور يوم جديد.

1 - نَبَاتٌ: أبيت. نَهْتَرَفُ: أحلم أحلاماً مزعجة. نَتَخَيَّلُ: أرى خيالات في أحلامي. نَصْبَحُ: أصبح، أستيقظ صباحاً. نَشْرَبُ بِالنَّقْرَابِ: أشرب كميات كبيرة من الماء (يمكن أن تكون كلمة النقراب مأخوذة من القرية التي يوضع فيها الماء قديماً، يعني النقراب نسبة للقرية).

4.3.3 - الأسد واللبوة:

الأسد هو مَلِكُ الغابة، وهو من الحيوانات المتوحشة التي لا تظلم ولا تؤذي الإنسان إلا إذا استفزها، أو اقترب من صغارها، وهو من الحيوانات البرية التي تعتمد في الحصول على طعامها على الصيد ومطاردة الفريسة.

كثر توظيف هذا الحيوان في القصائد الشعبية في منطقة بوسعادة، واستخدمه أغلب الشعراء للدلالة على أمور عديدة؛ فهناك من جعله رمزاً للإنسان الأصل في منطقة أولاد نايل، وهناك من وظفه رمزاً للمجاهد القوي، ومن استخدمه للدلالة على البطولات الخارقة لبعض الأولياء الصالحين...

ولم يغفل هؤلاء الشعراء عن توظيف اللبوة - أيضاً - في قصائدهم؛ فجعلوا منها رمزاً للأُم في حنانها وعطفها ورعايتها لأبنائها، ورمزا للمرأة المحبوبة في قوة شخصيتها وأناقته وتميزها عن غيرها من بنات جنسها.

الشاعر " السعيد بوعشرين " في مدحه لقومه أولاد نايل ذكر لفظة (اسْبُوعَة)، وهي جمع سبع والسبع هو لفظ مرادف للفظ الأسد، ويقصد الشاعر من خلال توظيفه للفظ (اسبوعة) أن يرمز به لأبطال قومه الذين يعتبرهم من خيرة الرجال، فيقول في قصيدته مفتخرًا مادحا:

وَأَسْبُوعَةٌ بِالْمَالِ زَاخُوا يَا مَهْبُولُ ثُمَّ حَطَّ الْخَيْرُ دَارَ امْبَاتَاتُو¹

ففي الشطر الأول من البيت استعارة تصريحية؛ حيث شبه الشاعر رجال أولاد نايل بالأسود، فذكر المشبه به (اسبوعة)، وحذف المشبه (الرجال الأغنياء)، والقرينة اللفظية الدالة على المشبه المحذوف هي الفعل (زاخوا) واللفظة (بالمال)، وفي الشطر الثاني استعارة مكنية، فقد شبه الشاعر الخير بالإنسان الذي جعل لنفسه مكاناً يبيت فيه، فذكر المشبه (الخير) وحذف المشبه به (الإنسان)، وترك قرينة لفظية دالة على المشبه به (الإنسان)، وهي الفعل (حطّ)، والعبارة (دار امْبَاتَاتُو).

1 - شرح البيت: وأسود بالمال يتباهون يا أيها الإنسان. هناك استقر الخير وجعل منامه ليلاً. ولفظة (مهبول) في البيت لا تعني الإنسان المغفل، بل قصد بها الشاعر الإنسان الطيب الذي يحب فعل الخير.

ويظهر من خلال البيت الشعري توظيف الشاعر لرمز الأسود الذين هم أبطال قومه؛ ووجه الشبه بين هؤلاء الرجال والأسود هو الشجاعة والقيادة والزعامة، بالإضافة إلى الكرم والإباء والجود والعطاء، والأسد - كما هو معروف في التراث الشعبي - هو ملك الغابة، وهؤلاء القوم هم ملوك بأموالهم وأعدادهم وأخلاقهم وجمال رجالهم ونسائهم.

ويصنّف الشاعر " الحمدي بوشنافة " هؤلاء القوم حسب مناطق استقرارهم ويطلق على الأسد لفظ " الصَّيْدُ " ¹، ويعدد في قصيدته أشهر أعيان منطقة بوسعادة، وأولياءها الصالحين، وأسماء جبالها، والألبسة التقليدية لسكانها، ونباتاتها وحيواناتها، وبعض الجوانب من الحياة فيها، ثم يُعَرِّج على ذكر المناطق الموجودة في مدينة بوسعادة واحدة بواحدة، ولا يختم القصيدة إلا بعد أن يتطرق لذكر ثوار المنطقة ومجاهديها، ويعطي لمحة عن الثورات في المنطقة أثناء الثورة التحريرية الجزائرية، ومساهمة أهالي أولاد نايل ومشاركتهم في مختلف المعارك.

واختار الشاعر " الحمدي بوشنافة " لقصيدته عنوانا مثيرا للانتباه: "تراث بوسعادة وضواحيها"؛ وهو عنوان يدل دلالة واضحة على فحوى القصيدة، وفي قراءة سيميائية لهذا العنوان تظهر لنا دلالات متعددة - لسنا بصدد التعليق عليها - ولكن المهم في ذلك هو أنه رسم لنا خريطة جغرافية للمنطقة المقصودة في البحث، وقد ضمّ فيها قبائل أولاد نايل وأضاف إليها بعض القبائل من المناطق المجاورة، والذين تربطهم علاقات المصاهرة والمعاملات التجارية والجيرة والعمل بالقبائل المذكورة.

يخاطب الشاعر أحد الفرسان في مطلع قصيدته - كما كان يفعل شعراء الجاهلية في مطلع قصائدهم الطللية - ويطلب منه أن يتأني قليلا حتى يزوده ببعض المعلومات عن المنطقة وبعض العناوين. يقول الشاعر:

1 - الصَّيْدُ: لفظة يطلقها شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة على الحيوان المفترس، وعلى الأغلب أنهم يقصدون بذلك الأسد.

يَا فَارِسَ لَعْلَامَ ثَائِي وَاتَّمَهَلْ
أَنَا ضَاقُ الْحَالِ عَنِّي يَا رَاجِلْ
وَيْلًا قَاصِدُ بُوسَعَادَةٍ تَجَّوَلْ
انْوَرِّيكُ طَرِيقَهَا وَلَا تَسْمَهَلْ
وَنَحْكِيكَ عَنْ حَالِهَا لِأَشْ تَسْوَلْ
عُرُوسَةٍ وَفَرَّاشَتِهَا فَضَّةٌ وَاخْمَلْ
وَالْكَمْخَةَ وَخَرِيرَ بِالذَّهَبِ مُشَلَّلْ
حَشْمَتُكَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ الْعَدْنَانِ¹
وَمَنْ هَمَّ النُّغْرِيَّةَ انْقَاسِي فِي لِمْحَانِ²
لِلأَصْدِيقَا وَاحْبَابِ نَعْطِيكَ عُتُونِ
شُقُّ النُّغَيْمِ إِلَيَّ مَذْلَكَمَ طَاخِ ادْكَانِ³
وَأَنْوَرِّكَ أَوْصَافَهَا زِينَةً لِلْوَانِ⁴
بِالْوُرُودِ مَزْخَرَفَةٍ وَسَطُ النُّبُتَانِ⁵
وَالْجَوْهَرِ مَعَاهُ يَاقُوتَاتُ تَبَانِ⁶

وبعد هذه المقدمة الطللية ينتقل الشاعر بخياله الواسع إلى مراحل الرحلة ويصف أمورًا عديدة بدقة وروعة، وفي أثناء ذلك يجعل الأسد مرافقًا له ليرمز به لرجال قومه أولاد نايل فيقول:

لَوْلَدْتُ عِيسَى اغْدَا زَيْدٌ اِتَّمَثَلْ⁷ وَفِي الْفَضَّةِ تَلْقَى الصَّيْدَ إِلَيَّ فَتَّانِ⁷
ثم يؤكد الشاعر رمزه ويُثْرِيه بتوظيفه لرموز أخرى قريبة إليه في معناها، حيث تساهم هذه الرموز في نقل صورة لهؤلاء الرجال الأبطال فيقول:

1 - ثَائِي: انتظر واهدا قليلا وتمهل. حَشْمَتُكَ: أخلجتك.

2 - انْقَاسِي فِي لِمْحَانِ: أقاسي المحن.

3- انْوَرِّيكُ: أريك. شُقُّ النُّغَيْمِ: سِرٌّ مع انتقال الغيوم، وفي العبارة كناية عن الرحيل بسرعة الغيوم التي تنتقل في طبقات الجو من مكان إلى مكان. إِلَيَّ: الذي. مَذْلَكَمَ: مختلط ومتراكم بعضه فوق بعض. طَاخَ: سقط، وهنا طاح بمعنى ظهر من بعيد وكأنه ملتصق بالأرض من كثرتِه وتراكمه وسرعة انتقاله. ادْكَانُ: صار لونه داكنًا.

4 - لِأَشْ تَسْوَلْ: لماذا تسأل؟

5 - اخْمَلْ: أفرشة مزخرفة كثيرة الألوان، والخميلة هي القטיפه أو المكان الذي تكثر أشجاره.

6 - الْكَمْخَةُ: أفر من أنواع الحرير. مُشَلَّل: مطلي. تَبَانُ: تظهر.

7 - أَوْلَدْتُ عِيسَى: أولاد عيسى: فرقة من فرق أولاد نايل. اغْدَا: فعل أمر من غدا يغدو واغتدى يغتدي. ويقصد الشاعر بفعل الأمر اغدا: اذهب وارجل باكرا. اِتَّمَثَلْ: تأمل واستمع. الْفَضَّةُ: يقصد الشاعر "بئر الفضة" وهي بلدية تقع في الجنوب الغربي لولاية المسيلة وهي تابعة لدائرة عين الملح، لها حدود مع ولاية الجلفة، سكانها هم عرش أولاد عَمَّارة وهم فرقة من أولاد عيسى المذكورين في بيت الشاعر. هذه المعلومات رُويت لنا من طرف الشاعر «عبد القادر العطوي»

تَلْقَى الصَّيْدَ مَعَ النَّمْرِ الْمُقَاتِلِ وَفِي النُّهَى الْعُقَابُ وَفِي لَارِضِ ثُعْبَانَ

أضاف الشاعر لرمز الأسد الرموز التالية: النمر، العقاب وُثُعْبَانَ، وهي كلها رموز توحى بالشجاعة والقوة والسلطة والانتصار على العدو وهزيمته والتغلب عليه، وتدل كذلك على القتال والاعتماد على النفس ومحاربة أعداء الدين والوطن. لذلك نجد الشاعر نفسه في القصيدة ذاتها يفخر بمجاهدي المنطقة وأبطالها، ويعجب بتضحياتهم، فيذكر أسماء بعضهم، ويشبه أحدهم بالأسد الذي لم يذلّ ولم يخضع يوماً للمستعمر الفرنسي فيقول:

مُحَمَّدٌ قَنْتَارٌ صَيْدٌ لَا يَذَلُّ بِلَمْدَانِي جَبَّارٌ ضَدُّ الْيِّ يَخْشَانُ

والمعنى نفسه ذهب إليه الشاعر " عبد القادر العطوي " حين نظم قصيدته في رثاء المجاهد المرحوم الحاج " الشريف شنوفي " من بلدية الشعيبة، حيث شبهه بالأسد تأكيداً منه على الحبّ الدفين الذي يكنه له وللثوار أمثاله الذين لم يغمض لهم جفن حتى حققوا النصر، وكان لهم ما أرادوا بتوفيق من المولى عز وجل، ولمعرفة سبب بكاء الشاعر ونحيبه يجيبنا بقوله:

أَنَا بِيَا صَيْدٌ عَزُو فَاتَتْ الْحَدَّ حُبُّوا فِي كَبْدِي رُشَقُ فِيهَا لُؤْتَادُ¹
الشَّرِيفُ الْيِّ كَانَ لِلْمُسْتَعْمَرِ ضَدُّ ذَاكَ النَّائِلِي سَمِعَتْهُ فَاتَتْ لِبِلَادُ
رَحْمَاوِي فِي نَسْبَتُو مَنْ جَدُّ لَنَجْدُ عَزُّ النَّعْرَةِ نَقْهَرُوا بِيَمٍ لَضَادُ
مَا خَابَشَ مَضْيُومٌ بِهِمْ يَسْتَنْجَدُ نَعْتُ اسْبُوعَةٍ يَحْضُرُوا يَوْمَ التَّعَادُ²

فالمجاهد أسد وزملاؤه وقومه كلهم أسود، ولهم صفات النخوة والحمية ونصرة المظلوم ونجدة المستغيث، ولقد فاقت سمعتهم الآفاق لاتصافهم بهذه الخصال وغيرها.

وقد خلد الشاعر "البشير قذيفة " الجزائر وثورتها التحريرية وبطولات شعبها في قصيدة ملحمة طويلة، نقل فيها العديد من المواقف، وصور فيها الكثير

1 - عَزُو فَاتَتْ الْحَدَّ: معزته فاتت الحدود. رُشَقُ: غرس: طعن. لُؤْتَادُ: الأوتاد.

2 - شرح البيت: لم يخب مظلوم استنجد بهم. يشبهون الأسود الذين يكون حضورهم دائماً في مواعده لنجدة المظلوم.

من الأحداث والوقائع، وأورد فيها أسماء لبعض القادة والثورات الشعبية، حيث استخدم الشاعر رمز الأسود للدلالة على الأبطال المجاهدين الذين رفعوا راية الكفاح والدفاع عن الوطن في الفاتح من نوفمبر سنة 1954.

فقال مشبهاً إياهم بالأسود:

كِي مَثْلُ الْأَسْوَدِ مَا فِيهِمْ خَائِبٌ الرَّاجِلُ وَخَدُو مَيَّةَ مَا يَخْشَاهَا¹

لقد صدق الشاعر في وصفه وتشبيهه، فرجال الجزائر كانوا أبطالاً ولازالوا أبطالاً، والكل يعرف ذلك ويعترف به وخاصة الشعراء الذين خلدوا ذلك في قصائدهم، والشاعر " السعيد بوعشرين " واحد منهم، ففي قصيدة " الشهيد " يصف هؤلاء الثوار ويفخر ببطولاتهم إلى درجة أنه يشبههم بالأسود. يقول الشاعر:

عَاشُوا كِي نَعْتَ السُّبُوعَةَ فِي لَغَوَازٍ اتَّصَابَحَ دِيمَا عُدُوهَا وَاتَّمَسِيَّةُ²

رمز الأسود هو نفسه عند أغلب الشعراء، ولكن طريقة توظيفه تختلف من شاعر إلى آخر، وذلك حسب موضوع القصيدة ومناسبتها وحسب الدلالة التي يريد الشاعر إيصالها للمتلقي، فالشاعر " السعيد بوعشرين " جعل من هؤلاء المجاهدين أسوداً مستقرهم هو الأماكن الخطرة والأحراش الوعرة، يظهرون لعدوهم في كل لحظة صباحاً ومساءً.

وفي تصنيفه لأنواع البشر جعل الشاعر " البشير قذيفة " الأسد رمزاً عاماً للإنسان الشجاع القوي، الذي يعتمد عليه في اللحظات الصعبة، والذي يحمي نفسه ويحمي كل مظلوم، وقارن بينه وبين إنسان حقير ذليل لا يفيد غيره ولا يفيد حتى نفسه، وذلك في تقابل جميل وبديع من نوعه. يقول الشاعر:

وَاحِدُ مَثْلُ الصَّيْدِ مِنْ أَهْلِ النَّعْرَةِ وَاحِدُ هَانَةِ وَيَخُ مِنْ جَا بَيْنَ إِيْدِيهِ³

1 - خَائِبٌ: خائب. مَيَّة: مئة.

2 - لَغَوَازٍ: الأماكن الوعرة الخطرة. معنى الشطر الثاني: تظل دائماً على عدوها صباحاً ومساءً.

3 - النَّعْرَةُ: الحماسة والحيمة. هَانَةُ: مهان وذليل.

أليس الشاعر صادقاً في قوله؟! بلى. إنه صادق في وصفه إلى أبعد الحدود، ونحن نلاحظ هذين النوعين من البشر في حياتنا اليومية؛ إنسان يشبه الأسد في تميّزه بقيادته وزعامته ورعايته لأهل بيته، ومروءته وجاهه ومكانته بين قومه، وإنسان ذليل مهان لا فائدة ترجى منه، يعيش حياته كلها في سبات، فهو إنسان أحمق جبان، لا يشعر أبداً بمن حوله، ويا ويح من وقع بين يديه أو اختلط به!

وفي قصيدة "سيدي خالد"¹ للشاعر "السعيد بوعشرين" يتوسل فيها الشاعر بهذا الولي الصالح ويعدّد فيها فضائله وفضائل قومه، ويعجب بمآثرهم وأخلاقهم وإنجازاتهم وكثرة شعرائهم، ويرمز لهؤلاء الشعراء بالأسود، فيقول:

جَيْتُكَ خَاضِعٌ يَا وَكَرْ فَيْكَ اَصْيُودَة شُوعَارًا وَافْحُولُ تَزْهَرُ فِي قَدَّاهُ²

شبه الشاعر شعراء منطقة "سيدي خالد" بولاية بسكرة بالأسود، ووجه الشبه بين هؤلاء الشعراء والأسود هو الزعامة والقيادة وحبّ الذات ورئاسة الغير والتأثير فيهم، وأضاف الشاعر إلى هذا التشبيه الأول تشبيهاً ثانٍ نقل من خلاله صورة سمعية تتمثل في تشبيه صوت الشعراء أثناء إلقاء القصائد بزئير الأسود، والعلاقة بين هذين الصوتين تكمن في قوة الصوت ووصوله إلى أقصى مدى، فقصاصد الشعراء هي طيور ذات أجنحة ترفرف في الفضاء الطلق، لا تستقر في مكان معين، ولا حدود لطيرانها، تملأ الآفاق بالتغريد، ولا تطلب مقابلاً إزاء ما تصدره من زقزقات تبهج البشر أو حركات تثير إعجاب الناظرين.

أمّا لفظة "وكر" فتدلّ على المكان الذي يأوي إليه الأسد واللبؤة وصغارهما ويعيشان فيه، ويعتبرانه مستقراً، والمقصود بالوكر في بيت الشاعر هو هذه المدينة التي تحوي بين أحضانها فحول الشعر منذ عهود خلت، فالوكر في

1 - سيدي خالد: هو خالد بن سنان بن غيث بن مريطة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس، ولي صالح قبره متواجد في مدينة «سيدي خالد» الواقعة في الجنوب الغربي من مقر ولاية بسكرة، تمتاز هذه المدينة بغناها ببساتين النخيل التي تنتج أجود أنواع التمور على المستوى العالمي، وقد أخذت هذه المدينة اسمها نسبة لهذا الولي الصالح.

2 - شرح البيت: جيتك خاضع يا وكر فيك أسود. شعراء وفحول تزأر بأعداد هائلة.

لغة هذا الشاعر هو رمز للمكان الهادئ الذي يقطنه فحول البشر من شعراء وغيرهم.

لقد تعددت الرموز المتعلقة بالأسد في هذا البيت الشعري، ويمكننا إعادة صياغتها في الجدول التالي:

الرموز إليه (المدلول)	الرمز الشعري (الدال)
مدينة سيدي خالد	الوكر
الشعراء والفحول	الأسود (اصبودة)
صوت الشعراء أثناء إلقاء القصائد	الزئير (تزه)
الأصل العربي لأهل المنطقة وفصاحتهم	كثرة الشعراء (في قذاه)

وفي المعنى نفسه يورد الشاعر "أحمد وليد" بيتاً يمدح فيه الشاعر "عبد الرحمن قاسم"، حيث يقول:

جَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَاسِمٌ صَيْدٌ نَتَاغُ قَحَّارٌ شُعَارَا جَاثٌ يَاسِرٌ قَرَّاهَا¹
تَبَعْتُ عَنْهُ نَاسٌ يَاسِرٌ فِي لَشُعَارٍ وَحَدَّةٌ يَقْبَلُهَا وَلُحْزَا خَلَّاهَا²

فالمناظرات التي تقوم بين الشعراء الفحول في مختلف المناسبات والجلسات الشعرية تشبه إلى حدٍّ ما حركة العراك والقتال التي تحدث بين الأسود في الغابة، حيث يعرض كل شاعر ماجادات به قريحته الشعرية، ويتنافس الشعراء فيما بينهم رغبةً منهم في إنتاج أكثر غزارة وأجود بياناً وديعاً وأحسن صوراً وخيالاً.

وقد انفرد الشاعر "أحمد وليد" باستخدامه لمصطلحات مختلفة تعبر كلها عن معنى الأسد، وهي مرادفات للفظ الأسد، ومن هذه المصطلحات: لَدْرَمٌ، حَيَزَرًا.. يقول الشاعر مشبهاً بعض الأولياء الصالحين بملك الغابة:

1 - صَيْدٌ نَتَاغُ قَحَّارٌ: أسد قتال وكراك. معنى الشطر الثاني: شعراء كثر جاؤوا إليه فنقد أشعارهم.

2 - لَشُعَارٌ: الأشعار، القصائد. خَلَّاهَا: تركها.

عِيسَى بُوقْبَرِينَ يَا لَدَرْمَ حَيْدَارَ
بَلْعُمُورِي ذَاكَ صَيْدَ انْتَاغِ انْتَاغَ
مَنْ عَمَّرَ ذِيكَ الْبِلَادَ وَخَلَّاهَا¹
جَا فِي حَنْيَةِ وَالْجَبَلِ دَارَ اخْذَاهَا²

وميزة الولي الصالح " سيدي عيسى " أو " عيسى بوقبرين " أنه عمّر البلاد وترك وراءه الأولاد والأحفاد، وبقيت آثاره شاهدة عليه بعد مماته؛ وكذلك الولي الصالح " بلْعُمُورِي " .

وذهب الشاعر " الحمدي بوشنافة " برمز الأسد مذهباً مشابهاً، فجعل منه رمزاً لرجل الدين الذي يدافع عن القيم والمبادئ، ويرفع كلمة الحق عالياً، وهذا الإمام هو الشيخ " سي محمد " الساكن في ولاية بجاية والمنحدر عن عرش أولاد عامر، يشبّهه الشاعر بالأسد، فيقول:

سِي مُحَمَّدٌ كِي وَجَدْتُو مِثْلُ الصَّيْدِ
بِلَهْلَالِي مَا تَجِبُو ضَنْيَا³

ويظهر تميز هذا الشيخ الإمام واضحاً من خلال ما يقوم به من حفظ لكلام المولى عز وجل وتعليم وتدريس ونشر لكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - إضافة إلى كرم أخلاقه، وحسن صفاته وجوده ونبله، وهو البعيد عن أهله، الغريب بين أناس لا تربطه بهم إلا علاقة الجيرة والإنسانية والإسلام.

أما الشاعر " السعيد بوعشرين " فقد جعل من الأسد رمزاً للأب المناضل من أجل سعادة أبنائه صغاراً كانوا أو كباراً، فهو يحافظ عليهم ويربهم ويعلمهم

1 - عِيسَى بُوقْبَرِينَ: هو الولي الصالح سيدي عيسى الذي نسجت حوله العديد من الأساطير أهمها الأسطورة التي تقول أنه دفن في قبرين مختلفين أحدهما بمدينة سيدي عيسى بولاية المسيلة والتي سميت نسبة إليه فيما بعد، والآخر في ولاية تيارت، ويروي سكان المنطقة أن قبيلتين اختلفتا بعد موته من لها الحق في دفنه في أرضها، ولكن السكان لاحظوا وجود جثتين له في مكان واحد، فأخذت كل قبيلة جثة وقامت بدفنها. حَيْدَارُ: نسبة لحيدرة وهو الأسد.

2 - بَلْعُمُورِي: هو الشيخ والولي الصالح محمد بن سعد الملقب: بلْعُمُورِي، ولد سنة 1835م، ارتحل إلى العديد من الحواضر العلمية في الجزائر لتلقي العلوم، استقر بمدينة سيدي عيسى ولاية المسيلة وأسس بها زاويته سنة 1895م، والتي اشتهرت باسمه فيما بعد. انْتَاغَ: عراك وقتال. حَنْيَةِ: انحناء والتواء.

3 - سي محمد: هو الإمام سي محمد بلهلال من عرش أولاد عامر، يقطن في ولاية بجاية. ضَنْيَا: امرأة ولود.

وينصدهم ويرشدهم إلى الطريق المستقيم ويسهر من أجل راحتهم. يقول الشاعر في قصيدة رثاء لوالديه، أبيه وأمه، ومسقط رأسه:

عندي في الدنيا ثلاثة من لحباب كل آخر لمحبتي شوقو جابو¹
وقت الضيم يفأججو عني لكرب ويجودو بالصائبة عني نابو²
لؤل بابا كي الصيذ ايجي لواب ينهم عني ما يكودوه اتعابو³
هاني عندك يا بني وعلاه اتهاب هاذ النعمر على ابني جا في بابو⁴
يتخمل نعت السبع يحمل لتعاب في جالي عمرو يمدو بعقابو⁵

استخدم الشاعر في هذه الأبيات صوراً بيانية في قمة الروعة، ورسم لوحة فنية في رثاء هذا الوالد المتوفي من أجود اللوحات التي رسمت في فن الرثاء، فجعل من خياله الصوري مساحة لخلق جو من الطبيعة الحية النابضة بعناصر الجمال، فكان الأب أسداً بكل ما يحمل الأسد من صفات ومقومات كالشجاعة والعطاء والإيثار ونبل المشاعر وصدق الأحاسيس.

لقد وظّف رمز الأسد من طرف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة للتعبير عن دلالات متنوعة؛ فمن الشعراء من استخدمه للدلالة على فرسان أولاد نايل وأبطالهم، ومنهم من جعله رمزاً للشهداء والمجاهدين، وبعضهم وظّف الأسد لينقل من خلاله صورة عن الإنسان الشجاع بصفة عامة، وكثير من الشعراء من رمز به للأولياء الصالحين، ومنهم من خصّ به الأئمة ورجال الدين.. وبعد هذا؛ ماذا عن توظيفهم للبوّة؟

1 - معنى البيت: عندي في الدنيا ثلاثة أحباب. كل منهم جاء به شوقه كل ذلك من أجل محبتهم لي.

2 - في زمن الظلم والحزن يفرجون عني الكرب. ويجودون بالعطايا وينوبون عني بإخراجها.

3 - الأول أبي مثل الأسد يأتي مسرعا. يهجم ويصرخ لنجدي ولا يههم تعب.

4 - معنى البيت: أنا بين يديك يا ابني لماذا تخاف ومما تهاب؟! هذا العمر من أجل ابني جاء في بابي (في الشطر الثاني كناية عن التضحية بالنفس من أجل الابن)

5 - معنى البيت: ينتفض كالأسد ويتحمل التعب والمشاق. من أجلي عمره كله يهديني إياه.

لم يغب عن الشعراء ما يحمله رمز اللبوة من حنان وعطف، فهي في نظرهم تمثل الأمّ برأفتها واهتمامها بصغارها وسهرها من أجل إيصالهم إلى بر الأمان، وهي الصدر الرحيم والحضن الدافئ. يقول الشاعر "السعيد بوعشرين" في قصيدته السابقة، وقد جعل اللبوة رمزاً للأم:

نَعَتْ اللَّبَّةَ حَامِيَتِي كُلَّ اجْتَابٍ تَسْهَرُ شَاوُ اللَّيْلِ عَنِّي وَاعْقَابُ¹

فالأم لبوة في حمايتها لصغارها، وفي شفقتها عليهم، وفي رعايتهم، والمتأمل لمنظر اللبوة مع صغارها يلاحظ تلك العلاقة التي تربط الأم بصغارها والصغار بأمهم، وهذا ما ينطبق على الأمهات عند البشر، فالأمومة إحساس فطري عند كل أنثى رزقها الله سبحانه وتعالى بأولاد...

ونفس المعنى جاءت به الشاعرة "الزهرة اشويحة" حيث جعلت اللبوة رمزاً للأم، وهذه الأم جارتها القديمة التي رحلت وفارقت منزلها، وتركت الأبواب مقفلة، والقفل رمز للرحيل والفرق والنأي والبعد. تقول الشاعرة وقد حزنت حزناً شديداً لهذا الفرق، واشتأقت إلى هذه الجارة التي كانت بمثابة أم لها:

انْسَيْتِ الْجِيرَانَ وَاحْبَابَكَ لِقَرَابٍ وَشُمْنِ سَبَّةٍ يَا اللَّبَّةَ دَوَاتِكَ؟²

واستخدمت الشاعرة الفعل (دواتك)، وربطته باللبوة لتنتقل صورة مجسدة عن قانون الطبيعة الذي يجعل السلطة للأقوى دائماً؛ فيصير الضعيف حينئذ ذليلاً، خائفاً، فاراً وهارباً في غالب الأحيان، وهذا ما أرادت الشاعرة التعبير عنه بالفعل (دواتك) الذي أرادت من خلاله التساؤل عن سبب هذا الرحيل المفاجئ، وعن المتسبب في هذا الفرق والنأي، فجعلت تخاطب هذا المنزل (الحوش) وتساؤه عن سبب رحيل أهله، وعن الأسباب التي جعلتهم يغلقون الأبواب خلفهم قائلة بنبرة حزينة تنبئ عن عيون باكية وقلب مفجوع محطم:

قُلِّي وَيْنِ اغْدَاوْ وَقْفَلُوا هَاذُ النَّابِ مَكْرُ الدَّنْيَا لَا يَرْجِعُ مَا فَاتَكَ

1 - معنى البيت: مثل اللبوة تحميني من كل الجوانب. تسهر من أجل راحتي أول الليل وآخره.

2 - معنى البيت: نسيت الجيران وأحبائك المقربين. ما هو الداعي أيتها اللبوة الذي جعلك تهريين وتهجرين مكانك وكأنك مطاردة؟

والشاعرة تعرف جيّدًا بأن هذا الباب لن يجيبها عن تساؤلها هذا، ولكنها أرادت أن تريح قلبها، وكأنها في تصرفها هذا تضاهي وقوف الشعراء الجاهليين على الأطلال، حين كانوا يسألون الطلل.

واللبوة عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة هي - أيضًا - رمز للمرأة الجميلة الفاتنة التي تَمِيد في مشيتها والتي تفوق بنات جنسها حُسْنًا وأناقَة ووسامة، وأهم ما يميزها حسب الشاعر "عبد القادر العطوي" هو جمال قدميها وصغرهما، وخطواتها المتناسقة، حيث يقول هذا الشاعر في قصيدته التي تحمل عنوان "سلوى":

مَرْشُوقَةٌ لِقَدَامِ تَمْشِي تَتَخَطَّوِي
لَبَّةٌ تَأَقَّتْ سَلْمُو لَيْهَا رَنَدَاو¹

ظهرت هذه الفتاة المحبوبة فانحنت قامات النساء والفتيات تحية إعجاب وتقدير منهن لهذا الجمال والحسن، وقد شَبَّهَنَّ الشاعر بجنود منهزمين في إحدى المعارك قاموا برفع راية الانهزام والاستسلام، وأبدوا خيانتهم الجلية لرفقائهم، وانضموا إلى الفريق المنتصر اختيارًا منهم وطواعية؛ هكذا هو حال هؤلاء النسوة عندما لَمَحْنَ هذه الفتاة التي تدعى "سلوى" والتي أذابت قلب الشاعر، وألهمته قصيدة من أروع ما قيل في فن الغزل.

وفي الموضوع نفسه، يعني موضوع الغزل، والرمز للمرأة الجميلة باللبوة، نجد الشاعر "السعيد بوعشرين" يجعل الأسد رمزًا للفراس البطل عند أولاد نايل، ويرمز باللبوة للمرأة الجميلة عند هؤلاء القوم، حيث يصف حسننها وصفًا دقيقًا، ويبرز كل علامات الجمال التي تميزها؛ وأهم هذه العلامات وجود العيون السوداء الواسعة، والحواجب الرقيقة الدقيقة السوداء، مع بياض بشرة الوجه والجسد، وسواد الشعر وطوله، وجمال النظرة وهدوئها، وغير هذه الصفات الجمالية التي يعدها

1 - مَرْشُوقَةٌ لِقَدَامَ: نوع من أحسن أنواع الأقدام عند النساء، حيث تتميز القدم بوجود ارتفاع (فراغ) في أسفل القدم بين الأصابع ومؤخرة القدم. وهذا النوع من الأقدام اعتنى أغلب الشعراء بوصفه والتغني بجماله عند المرأة المحبوبة، فصار تقليدًا شائعًا بين الشعراء والمثقفين.

شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة ويتغنّون بها في قصائدهم، حيث يفتح الشاعر " السعيد بوعشرين " هذا الوصف المادي بقوله:

كِي يُنْظَرُ لَوْصَافَهَا يَبْقَى مَخْتُولٌ وَيَهَاتِي بَغْرَامُ تَصْغُبُ كَيَّاتُو¹
شَعْرُ امْعَطَّرَ طَايْحُ عَلِيْهَا مَسْبُولٌ أَسْوَدُ نَعْتِ اللَّيْلِ جَا فِي شَتَوَاتُو²
عَطَى الحُرَّةَ كَامِلَةً مِنْ عَرْضِ وَطُولِ فَوْقَ الجِبَّةِ طَابَعَاتُو جَمَّاتُو³
الْعَيْنِ الكَحْلَةَ فَوْقَهَا حَاجِبٌ مَكْحُولٌ وَالْيَّ تَنْظُرُ لِيَهْ فَالْحَيْنِ ادَّاتُو⁴
يَبْقَى خَاضِعٌ عَدَّهَا طَايْحُ مَسْبُولٌ سَبَغَ الهَدَّةَ طَوْعَاتُو لِبَّاتُو⁵
ذَبَّالَةً بَغْيُونَهَا تَسْنُبِي لِعَقُولِ يَا وَيْحَ الِّي صَيِّدَاتُو مَلَكَاتُو⁶
سُبْحَانَكُ يَا خَالِقَ الطَّرْفِ المَذْبُولِ فَاقِ المَغْنَاتِيْسِ وَالسَّحْرِ وَفَاتُو⁷

من صفات الأسد في الغابة السيطرة والسلطة والقوة والاندفاع، وهذه الصفات جعلها الشاعر حاضرة عند أبطال أولاد نايل، فَوَجَّهُ الشَّبه بين الأسد/ الرمز، وبين الرجل الفارس/ المرموز إليه، هي هذه الشجاعة والحماسة والمروءة والقيادة، ومع ذلك فالأسد يكون أليفاً في حضرة اللبوة، ونفس الأمر ينطبق على الإنسان، فالرجل مهما وصلت به القوة والجبروت والقسوة إلا أنه يصير مطيعاً أليفاً في وجود المرأة؛ وهذا ما قصده الشاعر بقوله:

يَبْقَى خَاضِعٌ عَدَّهَا طَايْحُ مَسْبُولٌ سَبَغَ الهَدَّةَ طَوْعَاتُو لِبَّاتُو

ويكمل الشاعر وصفه المادي للمرأة، فينقل من خلال تصويره تشبيهات رائعة، استوحى الشاعر مشاهدتها من الطبيعة الحيّة التي تفيض جمالاً وعطراً وسخاء. يقول الشاعر:

- 1 - معنى البيت: عندما ينظر إلى أوصافها يبقى مختل. ويحلم بغرام كياته صعبة.
- 2 - معنى البيت: شعرها معطر يتلى على كتفها. أسود مثل الليل الذي يأتي مسرعاً في فصل الشتاء.
- 3 - طَابَعَاتُو جَمَّاتُو: خصلات شعرها مسبلة على جبهتها زادت جمالا.
- 4 - معنى البيت: عينها سوداء اللون فوقها حاجب أسود أيضاً. كل الذي نظرت إليه جعلته قريباً جداً منها.
- 5 - معنى البيت: يصير خاضعاً لديها ملقى بين يديها. أسد النخوة والحماسة جعلته لبوته مطيعاً لها أليفاً.
- 6 - معنى البيت: عيونها ذابلة تأخذ بالألباب. يا ويح من اصطادته وامتلكته!
- 7 - معنى البيت: سبحانك يا خالق العيون الذابلة. تأثير نظرتها وجاذبيتها فانت المغناطيس والسحر أيضاً.

- وُشْفَايْفُ خَلَاوْ ذِ الْعَاقِلْ مَهْبُولْ
وَأَسْنَانُ التَّبْرُورْ تَلْمَعْ شَاوْ اِطْلُولْ
الِّي دَاقُو كُلْ هَمَّ غَلِيهِ اِيْزُولْ
وَالرَّقْبَةُ بَسْخَابْهَا حَبُو مَكْحُولْ
بِرَوَايْخْ وَاعْطُورْ تَكْسِفْ نَعْتْ اِهْطُولْ
صَدْرْ اَمْرِغْ وَالتَّهْوُدْ اَضْرَافْ اَمْتُولْ
سَاقْ اَمْبَرَمْ رَادَمْ الكَعْبَةُ مَغْدُولْ
رَجْلْ اَصْغِيرَةَ وَالْخَوَى قَوْسْ مَهْلُولْ
مَرْبُوعَةٌ فَالْقَدَّ لَا قَصَرَ وَلَا طُولْ
سُبْحَانَ الْبَدِيعِ بَيْنَ آيَاتُو¹
وَالْمُسَوَاكُ اِيْجُولْ دَاخِلْ فَلْجَاتُو²
طَبُّ اَمْخِيْرَ كَانَ جَادَتْ وَاعْطَاتُو³
مِسْكُ وَعَنْبَرْ عَطَرَاتُو مُوَلَاتُو⁴
اِتَحَيَّرَ مِنْ كَانَ نَائِمٌ وَصَفَاتُو⁵
مَنْ تَفَاحْ اَخْيَارْ مَغْلَى سَجَرَاتُو⁶
وَيَا لَطِيْفَ اِذَاَنْ هِيَ عَرَّاتُو!⁷
وَاعْطُرْ بِالْحَنَّةِ الْحَرَّةَ حَنَاتُو⁸
وَتُسَاعِدْ خَطِيْبَهَا مَا عَيَّاتُو⁹

فشاه المرأة في منطقة بوسعادة آية من آيات المولى عز وجل، وأسنانها حبات برد تلمع، وريقها أحسن دواء لمن به علة أو هم أو غم، والرقبة مزينة بعقد تقليدي صنع من مواد عطرية أهمها المسك والعنبر، وروائح عطورها تشبه هطول الأمطار الغزيرة في قوتها وتأثيرها على بعد مسافات.. ونَهْدِيْهَا كأنهما تفاحتان من أجود أنواع التفاح وقد ظهرتا في أعلى الشجر حتى صارتا بعيدتين عن محاولة قطفهما، وساقها مثيرة وخاصة إذا تركتها عارية، ورجلاها صغيرتان قد خضبتهما بالحناء، معتدلة القد لا طويلة ولا قصيرة، لا تتعب خطيبها بل تساعده وتتحمل

1 - شَفَايْفْ: شفاء. خَلَاوْ: تركوا.

2 - التَّبْرُورْ: البرد. الْمُسَوَاكُ: السواك.

3 - طَبُّ اَمْخِيْرَ: دواء من أحسن أنواع الدواء.

4 - السَّخَابْ: عقد يصنع بطريقة تقليدية طويل نوعا ما تضعه نساء المنطقة. حَبُو مَكْحُولْ: حباته سوداء اللون.

5 - تَكْسِفْ نَعْتْ اِهْطُولْ: تفوح مثل هطول المطر. وَصَفَاتُو: ووصلت إليه.

6 - معنى البيت: صدر مرتفع ونهداها ظريفان متماثلان. من أحسن أنواع التفاح عالية أشجاره.

7 - معنى البيت: ساق معتدلة ملفوفة باللحم حتى الكعبين. ويا لطيف إذا تركت ساقها عارية!

8 - معنى البيت: رجل صغيرة وفي أسفلها فراغ كالقوس وكالهلال. قد خضبتة الحرة بالحناء.

9 - قدها معتدل لا قصيرة ولا طويلة. وتساعد خطيبها ولا تتعبه.

معه مشاق الحياة، تحترم الرجل سواء أكان زوجاً أو أباً أو أخاً، وتقوم بواجباتها على أكمل وجه، متسامحة إلى أقصى حدّ، ذات حنان ورقّة وعطف، لا تنتظر مقابلاً جراً ما تبذله من جهود لإسعاد من حولها.

هكذا كان توظيف رمزي الأسد واللبؤة في القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة؛ حيث استخدم الشعراء اللبؤة استخداماً متقناً، ظهرت من خلاله في صورة فنية توحى بدلالات عديدة منها: الإشارة إلى الأمّ بكل ما تحمله لفظة الأم من حبّ وعطف وشفقة وحنوّ ورأفة ولطف وحنان ورحابة صدر. والدلالة الثانية هي الإشارة إلى المرأة الجميلة عند قوم أولاد نايل بصفة عامة، وإلى المرأة المحبوبة بصفة خاصة.

5.3.3 - الطيور:

شَكَت الطيور بمختلف أنواعها وأشكالها وألوانها المثيرة أنيسا للإنسان ورفيقاً له في وحدته؛ وقد اتخذ من لحوم أغلبها طعاماً له، وجعل من أصوات بعضها مصدر طرب واستمتاع، ولا عجب؛ فالطائر هو أحد عناصر الطبيعة الحيّة التي ما انفك الشعراء يوظفونها كرموز في قصائدهم منذ الأزل ويتغنّون بجمالها وبروعة حركاتها ومقاطع غنائها سواء أكانت فوق الشجر أو كانت سابحة في الفضاء.

استمدّ الشعراء صورهم الفنية من واقعهم الذي عاشوه وشاهدوه، فجاءت قصائدهم زاخرة بما حفلت به بيئتهم وطبيعتهم بمنظاهر وصور، عكست هذه الصور الشعرية ما تكنه ضمائر هؤلاء الشعراء، وما يختلج في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس تعبّر عن تجاربهم في الحياة؛ حيث وظفوا الطير في قصائدهم الشعرية على حسب ما ينطبق وحالاتهم النفسية حزينة كانت أو سعيدة، وخاطبوه في افتتاحيات قصائدهم وخاصة في حال وقوفهم وبكائهم على الأطلال.

ومثلما كان توظيف شعراء الفصيح للطير بمختلف أجزائه وألوانه وأنواعه وأصواته لرسم صور فنية مختلفة الدلالات والمعاني، كان أيضاً هذا التوظيف وارداً عند شعراء القصيدة الشعبية في الجزائر بشكل عام وفي منطقة بوسعادة بشكل خاص، حيث ذكروا أنواعا مختلفة من الطيور، وجعلوا منها رموزاً لأمر عديدة، سنأتي إلى تفصيل نواحيها في الأسطر التالية:

1.5.3.3 - الحمامة/القمرى:

الحمام من الطيور المحبة للبشر، والتي يأنس بها الإنسان كلما شاهدها أو سمع تغريدها، والحمامة هي رمز لحاجة الروح الإنسانية إلى الحرية والهروب والتخلص من أشياء يعيها الإنسان في لاشعوره الباطني، وقد تكون رمزا للانطلاق والتحرر والحاجة إلى السمو والرفعة وتطلع الروح والفكر للخلاص من كل ما يعيقها أو يضيقها.

لقد وظفت الحمامة بلفظها ومعناها عند المؤلفين العرب؛ فوردت الحمامة المطوقة بطلقة لقصة من قصص كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفع، وجاء ذكرها أيضا كعنوان مثير لكتاب ألفه "ابن حزم الأندلسي" وسماه "طوق الحمامة في الألفة والألف" وغير ذلك من المؤلفات المنشورة في المكتبات، كما كان استخدامها أيضا من طرف الشعراء المعاصرين أمثال الشاعر "محمود درويش" الذي جعل حمامته رمزا للسلام إشارة منه لقصة الطوفان في عهد سيدنا نوح عليه السلام.

وليس بعيدا عن الشعراء المعاصرين هناك شعراء القصيدة الشعبية الذين شاع لديهم توظيف الحمامة و "القمرى"¹ كرمزين لمدلولات عديدة ومتنوعة، فهذا الشاعر الفحل "محمد الريغي شبيبة" - رحمه الله - في قصيدة من أروع ما نظم في مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخاطب القمرى كعادة شعراء الملحون²

1 - القمرى: هو ذكر الحمام.

2 - من شعراء القصيدة الشعبية في الجزائر الذين ذاع صيتهم، وخاطبوا القمرى: أ- الشيخ «السماتي» الذي افتتح قصيدته بقوله: يا قمرى حيرتني وأنا محتار من قدام اليوم قلبي بهبالو*

• القصيدي عن رواية الشيخ بوعدى عبد العالى - رحمه الله -

والقصيدة كاملة برواية أخرى في كتاب: أحمد قنشوية: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، ص585.

ب- الشاعر تونسي قويدر بن الزبير: من سيدي خالد؛ الذي خاطب القمرى بقوله:

لا تامن الغيران فيهم يا قمرى المجودة*

• المرجع نفسه: ص618.

ج- الشاعر الخيثر بن السايح: من الأغواط؛ الذي يناجي القمرى قائلا:

وبيّثه همومه وشكواه ومناجاته، وخاصة في لحظات الشوق والحنين.. حيث يشواق الشاعر لزيارة بيته الكريم ورؤية قبر الرسول . صلى الله عليه وسلم . فيقول في قصيدته:

يَا قَمَرِيًّا طَالَ الشُّوقُ بِبَيْتِكَ وَبِيَا
دِيرِ امْرِئِيَّةٍ أَسْكُرُ وَاهُ رُوحِ ارْقُدْ¹
اتَّغَيَّرَ حَالِي حَيْثُ مَا بُدِيتُ اتَّصَالِي
وَكَرْكُ عَلِيٍّ سَاكِنُ حَوْشِ مَسْرُفْدِ²
دُرْتُ جُنَايَةَ لَحَقْتُ بِبَيْتِكَ كَيْمَا نَايَا
كَتَرْتُ اغْتَايَا كِي غَنَيْتُ وَاشْ بَرْدِ³

فالشاعر وجد في طائر الحمام وهديله مثيرا للشجن والحزن، وباعثا لتذكر الماضي وأحداثه، فبدل أن يطرب الشاعر لصوت هذا القمري وهو يغني "فيمسح طربه ما حملت نفسه من هموم الحياة والناس، يجعل نفسه هو طائرا تواقا إلى الغناء يود لو شارك العصفور بهجته لولا ما يخرس أوتاره من شعور بالوحدة والأسر"⁴، فالشاعر يحلم بالتحليق عاليًا، ويرغب في الوصول إلى مكة المكرمة وإلى المدينة المنورة، ولا سبيل إلى ذلك وشوقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قد أفناه . إلا بالطيران، وإسقاط حالته النفسية وتجربته العاطفية على هذا الطائر المسالم، أو بتحميله رسالة شوق وحنين ممزوجة بدموع الأسى والحزن لبعد المسافة وقلة ذات اليد.

وريشك سهم يسوط في الريح يكاوح

يا ذا القمري ياك ضاري بالهدة

والقصيدة كاملة في كتاب: إبراهيم شعيب: الديوان المثير للشاعر ابن السايح الخيثر، مطبعة رويغي، الأغواط، الجزائر، ط1، 2006، ص50.

وقد تتالت ردود على هذه القصيدة من قبل شعراء كثر أخذت نفس النسق واتبعت منهجية مخاطبة القمري في افتتاحيتها. من هذه الردود قصيدة للشاعر لهزيل لهزيل في المرجع السابق، الصفحة نفسها، وقصيدة للشاعر الشيخ الحُسنِي في المرجع السابق، ص51.

- 1 - معنى الشطر الثاني: اصنع فيَّ معروفًا. اصمت واذهب لترقد.
- 2 - معنى البيت: ساءت حالتي عندما بدأت تسجع. وكرك عالٍ وقد سكنت في حوش عال.
- 3 - معنى البيت: ارتكبت جناية ولحقت بك عقوبتها مثلي أنا. فهل أفادني غنائي عندما غنيت؟!.
- 4 - عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ص304.

فالقمري في أبيات الشاعر هو رمز للروح المثلهفة للحرية والانطلاق، وارتداد آفاق جديدة وبعيدة. ويظهر هذا المعني جلياً في أبيات الشاعرة "الزهرة شويحة" التي تمثل نفسها حمامة طائرة تنعم بكل حريتها لتصل إلى مقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتسعد بالقرب منه.

وهاهي الشاعرة توقع أبياتها في ظل هذا الألم الذي يعتصر قلبها وهي تعاني الأمرين: الشوق للذهاب، وصعوبة تحقيق ذلك لأسباب تشرحها الشاعرة في خضم قصيدتها. تقول الشاعرة مشبهة نفسها بالحمامة:

مَا صَابَنِي حَمَامَةٌ نَعَزَمَ وَأَنْطِيرُ سَائِرَةً نَتْنَعَمُ¹
نَتْرُكُ حَاجَتِي وَأَنْسَلَمَ وَأَنْفُوتُ سَائِقَةَ الْمَرْحُولِ

الحمامة هنا، هي رمز للنفس المشتاقة، الهائمة في عالم روحي يدعو للتأمل العميق، والغوص في باطن النفس البشرية، والشاعرة بحكم تربيتها الدينية وعلاقتها بزاوية الهامل؛ نجدها قريبة من عالم التصوف الذي يجعل صاحبه في حالة زهدٍ وعزلة عن الحياة المادية، فالحمامة هاهنا، أقرب لكونها رسول سلام وأمن واطمئنان، حيث جعلت الشاعرة من هذه الصورة الفنية تجسيدا لواقع حلمت به، وتمنت تحقيقه، فأحدثت بهذا التشبيه اندماجا بين المشبه والمشبه به، لتؤكد انطباع الصورة في ذهن المتلقي.

وإذا تأملنا بيتي الشاعرة بشكل دقيق، ولاحظنا الأفعال المضارعة (نَعَزَمَ، أَنْطِيرُ، نَتْنَعَمَ، نَتْرُكُ، أَنْسَلَمَ، أَنْفُوتُ)، وكذلك اسمي الفاعل (سَائِرَةً، سَائِقَةً)؛ نجد أن كل هذه الألفاظ تدل على الحركة والسير في سلم الزمن والسرعة والتبكير والخروج صباحا من الأوكار لطلب الرزق والتحليق عاليا، وكل هذه الأفعال تدل على الجد والنشاط والطموح لبلوغ أقصى الغايات والوصول إلى المراتب العليا والمنازل الرفيعة.

وفي القصيدة "الساعة" للشاعر "البشير قذيفة" نجده يستخدم الحمام بصيغة المذكر ليرمز به للإنسان النشيط المخلص المتقن لعمله. يقول الشاعر:

1 - معنى البيت: يا ليتني كنت حمامة أعزم على الرحيل. وأطير سائرة أنتعم.

سَاعَةٌ نَصِيدُ حَمَامٍ حَازِقٍ فَالطَّيْرَةُ سَاعَةٌ قَلْبِي يَطِيحُ فِي هَامَةٍ تَدِيَّةٍ¹

فالطائر الحمام - كما هو معروف منذ القدم - من الطيور النشيطة الجادة، التي تمتاز بالذكاء والوفاء والإخلاص والتضحية والإيثار والأمل والحب الشديد. هذا الحب المقدس الذي يظهر بين كل زوجين متفقين ومنسجمين؛ وقد أشارت إلى ذلك الشاعرة " الزهرة شويحة " في قولها مخاطبة:

شُوفُ حَمَامَةٍ فَالْوَكْرُ قَمَرِيهَا غَابَ مَاذَا سَاجَتْ فِي امْرُوجِ وَرَهَاتِكَ
مَاذَا شَافَتْ عَزْ مِنْ شَاوٍ لَعَقَابِ كَامِلَةُ الْأَوْصَافِ مَبْهَى صِيفَاتِكَ

فتوظيف الحمامة كرمز من قِبَلِ الشاعرة هو إشارة منها للزوجة العاشقة لزوجها، المتفانية في إسعاده، وهذا التوظيف ليس غريباً على الشاعرة، ولا على شعراء القصيدة الشعبية الآخرين؛ لأن الشعراء يملكون حساً فطرياً يدعوهم إلى التأمل وملاحظة الطبيعة المحيطة بهم، فقد أدركوا بفطرتهم "خصوصية كل طائر وما ينسجم مع إحياءات صورته في تشبيهاتهم فرأوا في الحمامة العشق للجمال والحب".²

وشبهوا المرأة في عفتها وطهارتها ونقاء سريرتها وإخلاصها لرفيق دريها بالحمامة، ومن ذلك ما أورده الشاعر "الحمدي بوشنافة" حين شبه جماعة النساء بفرقة من الحمام في حالة هول وفزع، وقد أصبحن يَحُمْنَ بين النوافذ والأبواب، ويلبسن ملابساً شديدة البياض³، يشبهن في أشكالهن حمامات بيضاء تحوم حول مآذن المساجد. يقول الشاعر:

وَلَا فَرَّاقُ حَمَامٍ صَبَّحَ مَتَهَوَّلٌ وَيَحْوَمُ بَيْنَ النُّوَافِذِ وَالْيَبَابِ

1 - معنى البيت: في ساعة من الساعات، أُصِيدَ حماماً حازقاً في طيرانه. وفي ساعة أخرى، يسقط قلبي بين يدي هامة (أنثى اليوم) تأخذه إلى الجحيم.

2 - كامل عبد ربه حمدان الجبوري: الطير ودلالاته في البنية الفنية والموضوعية للشعر العربي قبل الإسلام، دار الينابيع، دمشق، سوريا، ط1، 2010، ص183.

3 - تشتهر المرأة في منطقة بوسعادة بثوب يدعى «الملحفة» تلبسه عند الخروج من البيت، وهو ثوب ناصع البياض، يخاط بشكل خاص، وتبدو النساء وهن يلتحفن هذا اللحاف الأبيض في شكل حمامات بيضاء.

فالحمام رمز للمحبة والحنان ودفء العلاقات الإنسانية، وهو كذلك رمز للألفة والزينة والوداعة والطيبة والرقّة، ويظهر ذلك - أيضاً - في قول الشاعر "الحمدي بوشنافة " في رثائه لأخته "قُوّة ":

اتفكرتُ منينُ كانتُ لي فالنجارُ مثلُ حمامةٍ زاهيةٍ بيّا واتحومُ

شبه الشاعر أخته بالحمامة التي تحوم حول رفيقها وحول صغارها، أما أخته فهي تحوم حوله في فرح وغبطة وسرور، معجبة بنفسها وبأخيها، تلهو وتمرح.. ولم تكن بعيدة عن نظر الشاعر بل كانت جارة له، يراها في كل صباح ومساء.

وما أصعب غياب الأحبة! والأسوأ في هذا الغياب أنّه غياب أبديّ؛ غياب بلا رجعة ولا عودة، غياب إلى الدار الآخرة بداية من القبر وظلمته، ولا سبيل للشاعر إلى إعادة بثّ الحياة في أخته من جديد، ويستحيل عليه إرجاع الزمن إلى الوراء وتجديد اللحظات المنقضية، لذلك عمد الشاعر إلى اتخاذ الحمامة رمزا لهذه الأخت الفقيدة في محاولة منه لتجديد عهده بها وكذلك رغبة منه في بعث الحركة فيها من جديد، وهو بهذا الشكل جعل من الحمامة أنيسا ورفيقا بديلا عن هذه الأخت الغائبة يُعزّي نفسه من خلال تأمله لها، و "الحمام رفيق الشعراء من المحبين الوالهيّن" ¹ منذ القدم، حيث يثير بنواحه وسجعه شجونهم، ويهيج فيهم كوامن الأشواق ولوعة الحنين والبعد والفراق، ويوقظ فيهم ذكريات الأحبة.

والأمثلة على ذلك كثيرة في الشعر العربي، وهي منتشرة في كتب الأدب وفي كتب النقد؛ والمثير في رمز الحمامة عند القدماء وحتى المعاصرين هو توظيف صوت الحمام في الشعر العربي الفصيح بشكل ملفت للانتباه وخاصة أثناء البكاء على الأطلال.

1 - محمد زغلول سلام: مدخل إلى الشعر الجاهلي، ص38.

2.5.3.3 - العقاب / العارم:

العقاب طير من الطيور الجارحة التي تسكن البراري، وتصطاد فرائسها بقوة وشراسة؛ وهو رمز للقوة والاقتدار والهيبة والشموخ والأنفة والرفعة، وقد يمثل الحذر واليقظة والشجاعة والحرية والانطلاق، ويمكن أن يحمل دلالات منها: الصمود والإقدام والكرامة والسّموّ والعلو والتحدي، وأنثى العقاب تدعى العارم في اللهجة الجزائرية عامة، وفي لهجة سكان منطقة بوسعادة بشكل خاص، ويكثر توظيف رمز العقاب والعارم عند شعراء القصيدة الشعبية في الجزائر ويظهر ذلك خاصة عند شعراء منطقة بوسعادة.

فهذا الشاعر " السعيد بوعشرين " يفخر بفرسان أولاد نايل، ويُشبه الفارس منهم بالعقاب الذي يصدر أصواتاً قوية، ويهجم على طريدته، فيصطادها في لمح البصر، وقد نفش ريشه في قوة وصمود وتحّد، زادت حدة بصره إرادة وشجاعة وجمالاً. يقول الشاعر في عزّة وحماسة:

وَالْفَارِسُ نَعَتْ الْعَقَابَ إِجِي مَعْدُولٌ يَزْرَشُ نَعَتْ السَّافِ هَبُوا رِيشَاتُو¹
هَزُو رِيحِ غَرَامٍ بِالسَّامِرَةِ مَخْتُولٌ سَبْعُ مَكَاحِلُ مَا تَبَرَّدَ مَخْنَاتُو²
يَلْطَمُ بِالْبَارُودِ وَالسَّيْفِ الْمَسْلُولُ مَتَقَبَّ مَحْزُومٌ تَقْتُلُ نَظَرَاتُو³

الفارس النايلي يشبه طائر العقاب في الكثير من الصفات، أورد الشاعر بعضها بشكل واضح، والبعض الآخر يفهم من خلال القراءة السيميائية للأبيات؛ حيث يتمتّع الفارس/ العقاب بالهمة والنشاط وقوة الصوت وحدته والشجاعة والاندفاع والإقدام وحبّه لأنثاه وعشقه لها وتعلقه بها، ودفاعه عنها، بالإضافة إلى

1 - معنى البيت: والفارس مثل العقاب يأتي مرتباً منظماً. يصدر أصواتاً قوية مثل طير جرح ينفش ريشه عند انقضاضه على فريسته.

2 - معنى البيت: جُنّ جنونه بفتاة سمراء البشرة فصار كالمختل. سبع بنادق لا تستطيع أن تطفئ نار وجده وغرامه (الشرط الثاني يحمل كناية عن استعار نار الهوى في القلب).

3 - معنى البيت: يقاتل أعداءه بالرصاص وبالسيف المسلول. يضع نقاباً على وجهه وحزاماً في وسطه ونظراته قاتلة جارحة.

قوة بصيرته وحدة بصره وكبريائه وحبّه للأرض، وحفاظه على عادات الأجداد وتقاليدهم، ولم يهمل الشاعر بعض التفاصيل الهامة التي تتعلق بهذا الفارس/ العقاب، منها جمال العيون والوجه وحسن القدّ، وهذا ما تدل عليه الألفاظ (معدول، محزوم، تقتل نظراتو)، إضافة إلى جمال الثياب وتنسيقها، والنمّتع بكلّ خامات الرّجولة من حبّ للصيّد واستخدام البندقية والسيف...

وفي صورة تشبيهية تضمّ ثنائية الأب/ العقاب، تظهر فيها البراعة الفنية للشاعر في استخدام لفظ العقاب كرمز للأب الطيب الحنون العطوف على صغاره، الحاضن لهم، والذي يضحي براحته وعمره في سبيل إسعادهم وإيصالهم إلى برّ الأمان يصف الشاعر معاناة هذا الأب وتضحيته من أجله قائلاً في نبرة تشعّ حزناً وحسرة وألمًا:

يَرْمَقُ عِلْبَعَادَ يُوصِلُ جَوَابُو ¹	كِي نَضَامُ يَجِي امهُوْهي نَعْتُ عَقَاب
وَالْخَاوَةُ يَلْهَاقُ تَلْقَاهُمْ غَابُو ²	وَيُونَسْنِي حِينَ تَدَّرَقُ لَصْحَاب
يَتَنَعَّمُ تَلْقَاهُ يَعْتَزُّ بَجَنَابُو ³	يَشْتِنِي دِيمَا الْفَائِزُ عَلْصَحَاب

والعقاب هو أيضا رمز للجندي الذي يخوض غمار المعارك، ولا يبالي بحياته في سبيل الدفاع عن أرضه ودينه وشرفه، وهذا ما أشار إليه الشاعر "الحمدي بوشنافة" في حديثه عن الثورة التحريرية الكبرى:

وَأَمَالِيهِ ابْطَالُ رَهْبَةٍ لِلْعُذْيَانِ	وَجَبَلُ مَسَاعِدُ مَا يُحُولُ وَلَا يَرْحَلُ
وُجْبَالُو غَمَامُهُمْ دَايِرُ دُخَانِ	التَّارِيخُ يَقُولُ عَنْهُمْ وَيَسْجَلُ
وُفِي النُّهْوَا لِعُقَابُ وَفِي لَارِضْ ثَغْبَانِ	تَلْقَى الصَّيْدُ مَعَ النَّمَمَزِ الْمُقَاتِلِ

1 - معنى البيت: عندما أحزن أو أظلم يأتي متجها نحوي كالعقاب ينصبّ على فريسته. يتأملني بنظرة حادة من بعيد فأفهم قصده حالا.

2 - معنى البيت: يؤنسني حين يخنقي الأصحاب. والإخوة ينشغلون تجدهم غائبون.

3 - معنى البيت: يحبني دائما أن أكون أنا الفائز على الأصحاب. تجده فرحاً مسروراً يحاول إظهار جميع قوته الجسدية.

وَمَا تَعْقِبُشْ بَيْنَهُمْ مَا تَسْنَهُلْ وَرَأَ الْحَالُ صَعِيبَ يَاهَاذُ الْإِنْسَانُ¹
وَأُنُورِيكَ غِلَالَةَ جِبْنًا ذَا الْمَثَلْ وَوَقْتُ الثَّوْرَةِ جَاهِدُوا وَاحِدَ مَاخَانِ²

وفي ذات القصيدة يعدّد الشاعر "عُرُوشَ" أولاد نايل، ويشبه أبطال بعضهم بالعقبان الذين يحومون في شموخ وكبرياء في رؤوس الجبال العالية، وخاصة أثناء ثورة التحرير الجزائرية حيث يقول:

الرَّحْمَاوِي وَالرَّابِحِي شُجْعَانُ أَكُلْ وَنَعْتُ عَقْبَةَ لَانَ حَامُوا عَالِكِفَانِ³

ووجه الشبه بين هؤلاء الأبطال والعقبان يظهر حسب قول الشاعر في الشجاعة والقوة والهيمنة والسيطرة والحرية وبعد النظر، فالعقاب هو رمز للفارس البطل وللمجاهد الشجاع، حيث يصور الشاعر حركة طيران هذا الجارح بانصبابه على فريسته في شكل خطّ مائل يقتنصها بقوة وشراسة، ويساعده على هذا الفعل حدة بصره ونظراته الثاقبة وأجنحته القوية ومخالبه الفتاكة الدامية، هذا ما يشبه إلى حدّ بعيد ما فعله البطل الجزائري أثناء المعارك التي كانت تقوم بين جيش التحرير الوطني وبين جيوش المستعمر الفرنسي، والشواهد على ذلك كثيرة في كتب التاريخ.

ونطالع صورة استعارية جميلة في قصيدة " الجدة " للشاعر "عبد القادر العطوي"؛ حيث يفتح الشاعر قصيدته بذائه لهذه الجدة وسؤالها عن أحوالها وعن أسباب تغيرها، فيقول:

يَا جَدَّةَ عِيْدِي عَلَيَّ قِصِيَّة كَيْفَ الدَّيْنِيَا تَفُوتُ عَالِرَاسَ الْيَّ شَابِ⁴
فَشْتَالَةَ كَيْفَاهُ وَلَيْتِي ظَبِيَّة وَيَا حَجَلَةَ قَدَّاهُ حَامَ عَلَيْكَ عَقَابُ

1 - معنى البيت: لا تحاول المرور بينهم ولا تغرنك سهولة الأمر. فالحال صعب عليك أيها الإنسان.

2 - معنى البيت: سأريك لماذا نظمنا هذه الأبيات. فقد جاهد الكل أيام الثورة ولا أحد خان زملاءه أو وطنه.

3- الرَّحْمَاوِي وَالرَّابِحِي: الرحماوي نسبة لأولاد رحمة، والرابعي نسبة لأولاد رابح، وهما فرقتان من فرق أولاد نايل. أكل: كلهم. معنى الشطر الثاني: ومثل العقبان إذا حاموا على الجبال العالية.

4 - معنى البيت: يا جدتي قصّي علي قصة. كيف يمضي العمر بمن اشتعل رأسه شيبا؟

شبه الشاعر في الشطر الثاني من البيت الثاني الجدة في شبابها بالحجلة، فذكر المشبه به (الحجلة)، وحذف المشبه (الجدة وهي فتاة)، على سبيل الاستعارة التصريحية، كما شبه في نفس الشطر عاشق هذه الفتاة/ الجدة بالعقاب الذي يحوم حولها مدفوعاً بحبه لها وإعجابه بجمالها، فذكر المشبه به (العقاب)، وحذف المشبه (الجدة في شبابها)، وهي استعارة تصريحية أيضاً.

وقد زاد من جمال هذين الاستعارتين الاختصار الموجود فيهما والإيجاز، فَشَكَّلَتَا لوحة فنية استوحى الشاعر عناصرها من الطبيعة الحية. فالطائران (الحجلة، العقاب) كلاهما يعيش في البراري، ويأنس بالجمال والأحراش، ويخلق جواً لطيفاً للإنسان في تحليقه وطيوانه في الفضاءات الرحبة.

وكذلك تفعل العارم وهي أنثى العقاب، والتي أكثر شعراء القصيدة الشعبية من توظيفها في أشعارهم، واتفق أغلبهم على جعلها رمزاً للمرأة؛ فصورة العارم مبنوثة في قصائدهم بشكل جميل مثير للاهتمام والبحث، وقد سار شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة على نفس الدرب الذي سار على نهجه سابقوهم.

فهذه الشاعرة "الزهرة اشويحة" تفتتح قصيدتها بندائها (يا عارم) إشارة منها إلى هذه المرأة التي غاب زوجها، وهي جارتها التي انتقلت من بيتها إلى بيت آخر في مكان آخر. تقول الشاعرة:

يَا عَارْمَ دَمْعَاتِ عَيْنِكَ جَاؤَ صُعَابٌ	بَكَيْتَنِي كِي طَرَحْتَ سُؤَالَكَ ¹
اتَفَكَّرْتِي نَاسٌ كَانُوا لِيكَ أَحْبَابٌ	مَرَّيْتِي عَالِحُوشْ شَطَطْتِي بَالِكَ ²
تَفَكَّرْتِي مَافَاتِ عَنْكَ لَمَّا غَابَ	وَيَنْ الْعَزُّ الِّيْ عِبَادُؤُ تَحْلَاكَ ³
وَيَنْ الدَّارُ الِّيْ مَجَالَسَهَا تَطْيَابُ	وَيَنْ الْقَلْبُ الِّيْ مَوَالِفُ يَزْهَالُكَ ⁴

1 - معنى البيت: يا عارم دمعات عينك جاء وقعهم صعباً على نفسي. أبكيتني عندما طرحتي عليّ سؤالك.

2 - معنى البيت: تذكرت أناساً كانوا أحبّاء لك. مررت بالبيت وخلقت لنفسك حيرة.

3 - معنى البيت: تذكرت أيامك الماضية لما غاب عنك زوجك. أين أيام العز والدلال التي كانت تحلو لك بصحبة الناس الطيبين؟

4 - معنى البيت: أين البيت ذو المجالس الطيبة؟ أين القلب المتعود على الفرح معك؟

وِينْ اَمَعَمَّرْ ذِ الْفَجُوحْ مَعَ لَعْلَابْ وِينِ السَّيْدُ لِي مَوَالِفْ يَلْقَالِكْ¹

أبيات الشاعرة كلها تساؤلات، ولكنها في أعماق نفسها لا تريد إجابة عنها، لأنها موقنة بأن الزمن لن يتكرر، والأيام الخوالي لن تعود...

أما الشاعر "محمد الريغي شبيبة" - رحمه الله - فقد جعل "العزم" رمزاً لنساء أولاد نايل اللواتي يتصفن بالحسن والجمال والفرح الدائم، إذ يقول:

هَاهُوْ جَبِّي مَحْفَلْ تَرَكَ النَّوْبَةَ عَامِلْ قَبَّةَ بِالزُّغَارِيْتْ اخْدَاهُمْ²

تَرَكَ النَّوْبَةَ كِي الْعَرْمُ تَجَبِّي رِيْمُ الْجَلْبَةِ كِي اتَحَيَّا جَا دَاهُمْ³

وهو المعنى نفسه الذي ذهب إليه الشاعر "السعيد بوعشرين" في تشبيهه لنساء أولاد نايل بالعزم، حيث يقول:

يَبْهَرْ بِيْهْ أَجْحَافْ وَأَبَارِيْدُ تَقُولْ عَرْمُ وَزْغَارِيْتْ لَجْبَةَ دَوَاتُوْ⁴

وفي رثاء الشاعر "الحمدى بوشنافة" لأخته "قوتة" يشبهها - أيضاً - بالعارم فيقول:

مَا عَيَاتَشْ حَاطَّةَ عَارْمْ لَوْكَازْ مَدْيِيْهَا رِيْحُ الْهُوْىْ بَرْيَاشْ تَحُومْ⁵

ويشبه بنات عمها بالعزم، فيقول:

وَسَطْ بَنَاتُ الْعَمِّ وَالصَّيْفَةِ تَنْوَارْ مَثْلُ الْعَرْمِ دَايِرِيْنْ مَعَاهَا قَوْمْ⁶

1 - معنى البيت: أين من ملأ كل النواحي والقفار؟ أين السيد الذي تعود أن يدعوك؟

2 - معنى البيت: هاهو ذا ارتفع وصعد وظهر جمع النساء. شكلهم يشبه شكل القبة التي تظهر من بعيد، وقد تعالت أصواتهم بالزغاريد.

3 - معنى البيت: هؤلاء النسوة يشبهن العزم (إناث العقاب) يظهر من وراء الأماكن المرتفعة شيئاً فشيئاً. كأنهن مجموعة غزلان اندفعت تعدوا في غير انتباه بعدما طوردت من قبل الصيادين.

4 - يَبْهَرْ: ينبهر. أَجْحَافْ: جمع جحفة: ما يوضع فوق ظهر الجمل لتركب فيه المرأة عند السفر.

أَبَارِيْدُ: جمع بارود. عَرْمُ: جمع عارم. لَجْبَةَ دَوَاتُوْ: أفزعت الكثير من الناس.

5 - معنى البيت: ما فتئت عارم الأوكار مستقرة على الأرض. وقد غلبتها رياح الهوى وهي تحوم معجبة بریشها.

6 - الصَّيْفَةِ: الصَّفة. تَنْوَارْ: تتير (بمعنى: على وجهها وجسدها نور من شدة جمالها). دَايِرِيْنْ: مشكلين.

مَعَاها: معها. قَوْمْ: قوم، قبيلة.

لقد أشار الشعراء الثلاثة إلى نقطة مشتركة تجمع بين نساء أولاد نايل، وهي اشتراكهن في جميع الأعمال حتى في السير للتنزه أو الانتقال والرحيل من مكان إلى آخر، وهذا التصرف ليس غريباً عليهن، بل هو من الصفات التي جُبلنَ عليها منذ الصغر؛ التعاون ومساندة بعضهن البعض في الأحزان والمصائب وكذلك في الأفراح والولائم والأعراس والمناسبات المختلفة.

3.5.3.3 - الغراب:

لقد كان شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة أكثر تفاؤلاً وحباً للحياة من غيرهم، فقد وظفوا من الغراب ريشه الأسود للدلالة على جمال شعر المرأة في هذه المنطقة بسبب شدة سواده وكذلك طوله، وهي الصفة المحببة عند العرب منذ القدم، رغم أن شعراء الفصحى منذ العصر الجاهلي استخدموا الغراب رمزاً للشؤم والحزن والانكسار والخيبة، إلا أن شعراء منطقة بوسعادة لم يراعوا ذلك، وحاولوا كسر هذه الذهنية العربية التي تدعو إلى التطير ببعض الطيور، والتشاؤم ببعضها، واختاروا قاموساً طبيعياً يفيض أملاً وحيوية ونشاطاً.

ومن الصور الفنية التي أوردها أصحاب المدونة الشعرية التي بين أيدينا، صورة غزلية شبه فيها الشاعر "أحمد وليد بن القبي" شعر محبوبته بريش الغراب، فكان ريش الغراب الأسود رمزاً لجمال الشعر عند المرأة العربية بصفة عامة وعند المرأة في منطقة بوسعادة بصفة خاصة.

يشبه الشاعر شعر حبيبته في قصيدته "الوردة" بريش الغراب، حيث

يقول:

دَرَبَاتُ الْمَمْشُوطِ لِحَلِّ عِلْ لَلْوَانِ رِيْشُ اقْرِبَةِ طَالِقَاتُو فَتَانَةٍ¹

والصورة نفسها نجدها عند الشاعر "الحمدى بوشنافة"؛ حيث يقول متغزلاً

مشبها شعر فتاته بالحرير في ملمسه وطوله، وبريش الغراب من حيث شدة

السواد:

1 - معنى البيت: تركت شعرها الأسود مرسلًا. ريش غرابان أطلقته تلك الفتاة.

شَعْرُكَ مِثْلَ خَرِيرِ طَائِحٍ بَيْنَ أَيْدِيكَ أَكْحَلُ مِثْلَ غَرَابٍ فَوْقَ الْجَنْحَانِي¹

وفي لوحة غزلية أخرى للشاعر "عبد القادر العطوي"؛ نلمح استعارة تصريحية، شبه من خلالها الشاعر شعر محبوبته "سلوى" بريش غراب زينت خصلاته جبهتها، فذكر المشبه به (ريش الغراب)، وحذف المشبه (شعر سلوى)، وهي عادة دأب الشعراء عليها، حيث يصفون المرأة وصفا ماديا، ويبدوون ذلك بشعر الرأس، وينهونه بالقدمين، يقول الشاعر معجباً:

رِيشُ غَرَابٍ امْزَيْنَةُ بِيَةِ الْقَشْوَةِ حَوَاجِبُ مَقْرُونَيْنِ فِي الْقَدِّ اسْتَوَا²

وفي قصيدة غزلية أخرى لذات الشاعر، يصف فيها شعر الفتاة التي فتنه جمالها وأبهره سواد شعرها ولمعانه، فهو في نظره أشد سواداً من ريش الغراب وأكثر لمعاً منه، وقد تكون هذه مبالغة من الشاعر، ولكنها عاطفة الحب والإعجاب هي التي تتحدث على لسانه. حيث اختار الشاعر ريش الغراب كمشبه به لاستحالة مشيبه. يقول:

طَلَقْتُ سَالِفَ عَلَى الصَّدْرِ طَاخَ مَلُولِبَ دَامَسَ لَامِعَ عَابَ عَنْ رِيْشَةِ الْغَرَابِ³

فالشاعر في بيته هذا عقد مقارنة بين شعر هذه الفتاة الحسناء وريش الغراب؛ فتفوق شعر الفتاة على ريش الغراب حسناً وجمالاً ولمعاً وطولاً وسواداً، وقد ربط الشعراء بين شعر المرأة واللون الأسود منذ العصور الأولى، فوصف الشعر بالأسود، وإذا كان الشعر موطن الجمال والإثارة لدى المرأة، فإن الشعر الأسود قد أخذ دلالات مضاعفة، وارتباط السواد بالشعر منحه مسحة جمالية، ولذلك تغنى به الشعراء كثيراً.

1 - معنى البيت: شعرك مثل الحرير مرسل بين يديك. أسود مثل ريش الغراب.

2 - معنى البيت: ريش غراب زينت به الجبهة. حاجبان مقرونان قد استويا في الطول والعرض وتشابها في الشكل.

3 - أطلقت شعرها على صدرها فسقط على شكل خصلات. شديد السواد لامع بل أشد سواداً ولمعاً من ريشة الغراب.

فهو الشعر الذي يميّز المرأة العربية عن غيرها، وهو الذي يعكس بياض الوجه، ويبرز ملامح العيون السود والحوارب السود، وهو رمز الليل المظلم (الدامس) بكل ما يحمله الليل من سهر وأرق وحبّ وتعّب وترقب وانتظار، وللشعر الأسود قدرة هائلة على إشعال نار الوجد والعشق في قلوب الشعراء.

4.5.3.3 - البوم:

البومة من الطيور المحبّة للخلاء والقفار، وهي من الطيور التي يكثر ظهورها في الليل، وقد أنكر العرب صوتها منذ العصور الأولى، واعتقدَ بأنّها تحمي الأرواح، وباستطاعتها إيصال الرسائل إليها في العالم الآخر، وأنها ترافقها أيضاً، وهي الوحيدة التي يمكنها رؤيتها، ولكن هذه المعلومات تبقى مجرد اعتقادات، بنى عليها الإنسان بعض الأحكام، ونسج على منوالها بعض القصص الخرافية، والمؤكد حسب المدونة الشعرية التي بين أيدينا أن طائر البوم - حسب شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة - هو رمز من رموز الخراب والدمار والشؤم والموت والبكاء.

ومع أن شعراء بوسعادة ترفّعوا عن بعض العادات والتقاليد والمعتقدات التي تهدم النفس البشرية وتحدّ من إمكانياتها وطموحها، وتقضي على الأمل والحلم بداخلها، إلا أنهم - بحكم التقليد العفوي - انجرفوا في تيار سبقهم إليه غيرهم من الشعراء العمالقة، حيث نجد هؤلاء المعاصرين يقدمون صورة البوم كرمز للقفار وخلوّ الديار ورحيل الأهل والأحباب.

وهذه دلالة الصور التي قدّمها الشاعر " أحمد وليد بن القبي " في قصيدة تحاكي في بنيتها ومضمونها قصائد الطلل الجاهلية؛ حيث عاد بنا الشاعر إلى الافتتاحات الطلالية، حين كان الشاعر يقف على رسوم الديار وآثارها، يبيكها، وينوح على غياب أحبابه الذين فارقوها، وقد أخذته لوعة الحنين لماضٍ عاش فيه طفولته وأيام صباه. يلخص الشاعر الحالة التي آلت إليها المنطقة التي كانت مرتع آبائه وأجداده بقوله:

الذئب يعوق قًا وخذو في قفرة
أخلى بيه الوطن واتبقى عزيان¹
مَا قَعْدَتْلُو قًا الْبُومَة فَالْعَشْرَة
تَبَاتِ اتتَوَّجْ كُلُّ لَيْلَة فَالْوَيْدَانِ²

يرسم لنا الشاعر في هذه اللوحة صورة لباديته وقد صارت موحشة المنظر، عارية من النباتات، مقفرة، مجدبة، خالية من البشر والكائنات الحية، توحى لزارها بالحزن واليأس والخيبة، وتثير في نفسه شعورا بالرّهبة والألم وعدم الأمن، فتتصارع في ذهنه هواجس شتى، وتتقاذفه وساوس مختلفة، وتزداد هذه المشاعر حدة عند سماع أصوات الحيوانات النائحة في الكهوف والمغارات والوديان؛ وأبرز هذه الحيوانات التي ذكرها الشاعر في بداية قصيدته: الذئب وطائر البومة.

لقد جعل الشاعر من الذئب والبومة رمزان لغربته الذاتية، وكأن صوتيهما النائحين صوت أناس يندبون فقيداً عزيزاً على قلوبهم، وقد شكلت هذه الأصوات صوراً سمعية مثيرة للهواجس والأشجان لا سيما في الفيافي والصحاري المقفرة الجدبة التي كانت أهلة بالسكان، مليئة بالحركة، تشع بالنور، وتفيض بالحياة.

وصار طائر البوم مصدر شؤم وعلامة دالة على الخراب والرحيل والفرار والنأي والبعد عن الأهل والأحبة، وله دلالة على الموت والتأبين والنوح والبكاء، ويكاد أن يكون صوته صورة للصوت الداخلي للشاعر، الذي يعاني من آلام دفيئة بصمت، وينعكس ألمه على الجوّ الحزين المحيط به، وفي مقابل ذلك ينعكس هذا الجوّ الحزين على نفسية الشاعر ذاته.

وفي رثاء الشاعر " الحمدي بوشنافة " لأخته "قوتة "؛ يشبه بناتها بالبومات اللواتي يبكين أمهن وينحن على فراقها، وقد خلت الديار من بعدها، وأسكنت النار؛ والنار المشتعلة الملتهبة هي رمز للكرم والجود والعطاء وهي دليل على كثرة استخدامهما للطبخ وتحضير الأكل للضيوف وعابري السبيل. يقول الشاعر:

1 - معنى البيت: الذئب يعوي وحده في قفار. بقي عاريا وأصبح موطنه خاليا.

2 - معنى البيت: لم يبقَ من عشيرته إلا البومة. تبّيت نائحة في الوديان في كل ليلة.

قَلَّتْ لَهَا: دَارُكَ قَعْدَتْ خَالِيَةً مَا فِيهَا نَارٌ وَبُنَاتُكَ يَتَعَاوَفُوا كِي مِثْلُ الْبُومِ¹

يخاطب الشاعر أخته - رحمها الله - وهو على يقين بأنها لن تجيبه وإلى الأبد، ولكنه كان يبثها شوقه، ويحاول أن ينقل إليها حالة بناتها من بعدها، وقد شبههن باليوميات، فهن يبكين أمهن ويذرفن الدموع ويندبنها بألفاظ وجمل حزينة مؤلمة، ويمجدن ذكرها، ويعددن فضائلها، ويشدن بمناقبها ومآثرها، ولا سبيل لهن لإعادتها إلى الحياة من جديد، وهن في أشد الحاجة إليها، وإلى حضنها الدافئ وعطفها وحنانها.

ويتضح مما سبق أن شعراء منطقة بوسعادة وظفوا طائر البوم كرمز للشؤم والحزن والموت والخراب والفناء، وجعلوه - أيضا - من جهة أخرى رمزاً للنوح والفرق والرحيل، وأكثر ما استخدموه من هذا الطائر صوته النائح الذي جعلوه صورة نمطية سار على سياقها أغلبهم.

1 - معنى البيت: قلت لها: دارك بقيت خالية لا نار مشتعلة فيها. وبناتك يصحن ويعوين مثل اليوميات (البوم).

5.5.3.3 - طيور متنوعة:

يبدو للملاحظ - ومنذ الوهلة الأولى - هذا الإكثار من توظيف الطير بكل أنواعه، وبمختلف أجزائه من قِبَل شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، وقد يكون من أسباب هذه المبالغة؛ تأثرهم بالطبيعة الحية المحيطة بهم (جغرافيا المنطقة) فبوسعادة هي بوابة الصحراء الجزائرية، وهي منطقة سياحية غنية بمختلف الحيوانات والطيور، وقد يكون هناك سبب متعلق بالحياة النفسية للإنسان، ويمكن تفسير ذلك بالعودة إلى كتب علم النفس الحديث؛ فالشاعر ينشد الحرية، ويحب الإنطلاق إلى المجهول، وقد يرجو سرعة الانتقال والرحيل، وهو في قرارة نفسه يودّ اكتشاف الآخر...

ويمكننا توضيح هذا التوظيف المميز والمثير لمختلف أنواع الطيور في قصائد الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة في الجدول التالي؛ وذلك بعد إدراج الأبيات المقصودة وأصحابها، حيث يضم الجدول المقاطع التي يظهر فيها الرمز مع ذكر المرموز إليه وتحديده بدقة:

وَيْسَلَّمْ وَيَنَالْ مَا هُوَ يَتَمَنَّا	الِّي شَارِدْ فَالْسَمَّا لِيَكْم يَهْدَى
خَلَالُو رِيْشُو مِثْنَرْ فِي لَعْلَابْ	وَلَا طَيْرْ يَجِي مَنَاطَحْ فَرْقْ حَجَلْ
وُنَصِيدْ لُحْبَارْ وَنَحْوَسْ نَلْقَاهْ	نَتَمَتَّعْ بِالرَّيْمْ مَخَالَهْ بَخَزَرَهْ
سَاعَهْ كَاسِبْ تَيْسْ نَبْقَى حَايزْ فِيْهْ	سَاعَهْ كَاسِبْ طَيْرْ وَمَخَالِبْ شَفْرَهْ
وُنَشُوفُكْ يَا حَبِيبْ قَلْبِي وَنَرَوُحْ	لَوْ لَقَيْتْ نَطِيرْ لِيَكْ بَغْيَرْ جَنَاحْ
طَيْرُورْ وَعَرْمْ لَأَنْ دَارُوا حَيَايَا	بِالْبُرْهَانْ يَفْتَوُوا يَا لَوْ كَانَ خَدِيدْ
وَاتَقَصَّبْ الطَيْرْ مَا تِيْلَاشْ يَحُومْ	اتَشَرَّبْ بَعْدَ النَعْلْ كَيْسَانْ امْرَارْ
فِي قُصُورْ مَنْظَمَهْ حُسْنُ الْبَنِيَانْ	تَلْقَى الطَيْرْ اِيْحُومْ وَمَعَاهْ الْحَجَلْ
نَنْظُرْ نَظْرَهْ لِلْهُوَا وَآخَرَى لِلدَّارْ	وَأَنَا قَلْبِي كِي النُّوْعْلْ عَنْكَ يُغْدَى
مَا صَبَرْتُ لِهِيَهْ مَا جِيْتُ اِهْنَايَا	وَالِّي قُصِفُوا جَنَحْتُو لَا وَيْنْ اِيْزِيدْ
وُخَالِدْ بِنِ الْوَلِيدْ يَحْصَدْ مِنْ وَالَا	وَحَمَزَهْ يُضْرَبْ كِي الطَيْرْ عَلَى لُوعَا
وَاطْلُبْ وَكُرُو كَالنَّشْرْ طَارْ بَجْنَحِيَهْ	بَعْدَ اتَّوَسَّطْ فِي النِّجَرْ دَارْ اِيْطْمَطْمْ

حين اطلّقتُ قَا فَرَحَ نَتَاعِ حَبَارٍ كي شَقَّتْ جَوْفَ السَّمَاءِ دُرَقَتْ وَالْوُ
إِذَا خَلَيْتُ خَرِيمَهُمْ تَرْجَعْلِي عَارٍ كَأَيْنَ لَجْدَلٍ وَلُحْبَارٍ عَلَى حَالِو
فَرَفَرُ قَلْبِي وَالنَّعْلُ حَسَيْتُو طَارٍ امْفَرَفَرُ قَلْبِي وَقَادِي مَشْعَالُو
وُخْطَفْتِي بَغْيُونَهَا ذِ الْمَوْذِيَّةِ نَحْسُ الْقَلْبِ مِنَ الْفَرِيْسَةِ فَرَفَرُ طَارٍ¹

الشاعر	الصورة الشعرية	الرمز	الرموز إليه
السعيد بوعشرين	الْيَّ شَارِدُ فَالسَّمَاءِ لَيْكُم يَهْدَى	الطير الشارد	الإنسان الحائد عن طريق الصواب
البشير قذيفة	سَاعَةٌ كَاسِبٌ طَيْرُ وُمُخَالِبٌ شَفَرَةٌ	الطير	الإنسان الشجاع
	لَوْ لَقَيْتُ نَطِيرَ لَيْكُ بَغَيْرِ جُنَاحٍ	طائر بدون جناحين	الشاعر العاشق
محمد الريغي شبيبة رحمه الله -	وَاطْلُبْ وَكُرُو كَالْنَسْرِ طَارُ بُجْنَحِيَّةِ	النسر	السفينة (البابور)
عبد القادر العطوي	وَلَا طَيْرٌ يُجِي مَنَاطِحُ فَرْقُ حَجَلٍ	الطير. الحجل (نوع من الطيور)	الشهيد احميدة. الجنود الفرنسيين.

1 - البيت الأول: للشاعر السعيد بوعشرين.

- البيتين: الثاني والثالث: للشاعر عبد القادر العطوي.

- البيتين: الرابع والخامس: للشاعر البشير قذيفة.

- الأبيات: 11/10/9/8/7/6: للشاعر الحمدي بوشنافة.

- البيت: الثاني عشر: للشاعر محمد الريغي شبيبة - رحمه الله -

- الأبيات: 16/15/14/13: للشاعر أحمد وليد بن القبي.

وُنْصَيِّدٌ لِحُبَّارٍ وُنَحْوَسٌ نَلْقَاهُ	الحبار (نوع من الطيور)	نساء أولاد نايل الجماليات
أحمد وليد بن القبي	حين اطلّقت قفا فرّخ نتاع حبار	الحبار
كأين لجدل ولحبار على حالو	الحبار	المرأة الناييلية الجميلة
نحس القلب من القزيسة فرّخ طار	الطيور أو العصفور	قلب الشاعر المتيم.
فرّخ قلبي والعقل حسّيتو طار	الطيور أو العصفور	قلب الشاعر المشتاق وعقله.
امفرّخ قلبي وقادي مشعالو	الطيور أو العصفور	قلب الشاعر المشتاق.
طيوّر وعزم لأن داروا حيّايا	الطيور. العزم.	رجال أولاد نايل. نساؤهم.
واتقصّب الطير ما تيلاش يحوم	الطير	الإنسان الحر
وحمزة يضرب كي الطيّر على لوعاز	الطير	حمزة بن عبد المطلب
تلقى الطير ايحوم ومعاه الحجل	الطير. الحجل	الرجل في منطقة أولاد سيدي ابراهيم نساء هذه المنطقة.
والّي قُصِفُوا	الطائر قصير	المرأة المتغربة عن

أهلها.	الجنّاحين	جَنَحْتُوْ لَا وَيُنْ ايّزِيدْ
قلب الشاعر المحبّ	الوعل (العصفور)	وَأَنَا قَلْبِي كِي الْوَعْلُ عَنْكَ يُعْدَى

4.3- رمز النّبات:

النباتات من أهم عناصر الطبيعة، التي لعبت دوراً هاماً في حياة الإنسان منذ الأزل، ولا غنى للإنسان عنها، فمن ثمارها طعامه، ومن جذوعها وأغصانها بيته وأثاثه، وفي ظلها راحته، ولاتسل عنجمال منظرها الذي يمتعه في كل حين! وسواء أكانت هذه النباتات أشجاراً أو زهوراً فهي أحسن رفيق بالنسبة إليه، ومدعاة لإرضائه، وقد جعل منها الإنسان متنفساً وسبيلاً سهلاً إلى راحته وطمأنينته وهنائه واستقراره؛ فكان كلما وجد في طريقه خضرة وتربة خصبة وماءً متدفقاً جعل هناك موطنه وعمر تلك الأرض، وزاد على أن جعلها جنة مختلفة الألوان والثمار، تأوي إليها الكائنات من كل الأنواع والأشكال.

وإذا كان هذا حال الإنسان العادي، فما بالنّا بحال الإنسان الشاعر؟! الذي يرى الجمال في كل ما يشاهده ويحيط به؛ لذلك نجد أبلغ الشعراء وأفصحهم وأجودهم شعراً هو من جعل من الطبيعة قاموساً ثرياً تعج به قصائده وترتوي به عواطفه وتفيض به أبنيته الفنية وصوره الشعرية.

وهكذا، كان حال شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة؛ لقد كان توظيفهم للطبيعة عفويًا، وبطريقة تلقائية، وشاع في قصائدهم استخدام النبات بشتّى أنواعه، وجاءت أبياتهم الشعرية مليئة بالرموز الطبيعية النباتية التي تشير كل منها إلى دلالة معينة، وتوحي إلى مدلول وقصد ظاهر أو مستتر:

1.4.3 - الشجر:

لعبت الشجرة دورًا مميزًا في حياة البشر منذ الأزل؛ واحتاج الإنسان إلى جميع عناصرها بدون استثناء، وجعل منها رمزًا للحياة الجميلة المليئة بالعطاء والأمل والتفاؤل.

أما شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة فقد اتخذوا من البساتين والحدائق رموزًا للحياة الممتدة السعيدة، وهذا ما يظهر جليًا لدى الشاعر "البشير قذيفة" في قصيدة "الساعة" حيث يجري الشاعر مقابلة بين طبيعتين؛ صحراء قاحلة جرداء، وأرض حية خضراء. يقول الشاعر مقارنًا:

سَاعَةٌ سَاكِنٌ فِي الصَّحَارِي وَالْقَفَرِ سَاعَةٌ وَسَطُ جَنَّاتٍ وَخُضَارٍ مَغْطِيَةٍ¹

الصحراء القفار في بيت الشاعر هي رمز لنفسية الشاعر الحزينة التعيسة، وهذه الصحراء خالية من عناصر الحياة، كما تخلو نفس الشاعر من أدوات الجمال والإحساس بالسعادة والبهجة، وفي مقابل ذلك قد يعيش الشاعر في مكان يعج بالنباتات الخضراء، فيشعر بالطمأنينة والراحة النفسية، فينعكس ذلك على نفسيته، وقد يرسم الشاعر في خياله لوحة جمالية لطبيعة حية خضراء ويمزجها بجماله الداخلي، فتبدو للمتلقي جنة فوق سطح الأرض، وهذا ما حدث مع الشاعر "محمد الريغي شبيبة" - رحمه الله - الذي جعل لذلك أسبابًا ونتيجة، حيث يقول:

خَرَجُوا نَعَتْ النُّورَ عَنْهُمْ لَأَخِ النُّورِ شَاعَرَهُمْ مَسْتَوْرٌ مَقْبُولٌ دَعَاهُمْ²
فِيكُمْ نَشْكُرُ بَاقِي جَنَاتِي يَثْمَرُ فِدَانَاتِي مَا يُرْلَشُ مَرْعَاهُمْ³

1 - معنى البيت: ساعة أسكن في صحراء وقفار. وساعة أسكن في بستان مغطى بالاخضرار.

2 - معنى البيت: خرجن مثل حور العين وقد لاح النور على وجوههن. شاعرهن مستور ودعاهن متقبل عند المولى عز وجل.

3 - معنى البيت: أشكرن وأمدحن وأريد أن تكون أشجار بستانني مثمرة. وتصير مزارعي دائمة المرعى مستمرة الاخضرار. ويستخدم الشعراء لفظة (الجنان) بمعنى المكان الذي تكثر فيه الأشجار والنباتات مثل: الحقل والبستان والمرج والروض والمزرعة.

في البيت الأول يشبه الشاعر نساء أولاد نايل بالحرور العين في الجنة، وقد لاحت الأنوار على وجوههن، ولشدة صلاحهن فقد تقبل الله عز وجلّ منهن الدعاء للشاعر على وجه الخصوص، واستقبلن شكره ومدحه لهن بالحياة الهائلة التي منحها لهن المولى سبحانه وتعالى، ونال الشاعر منهن البركة مثلما يوضحه في البيت الموالي:

فِيكُمْ نَمَدَحٌ بَاقِي اتَّقُولُوا يَرْبِخُ كَلِّي نَالُو صَحِّ رَبِّي هَنَاهُمْ¹

وقد عدّد الشاعر أسباب نيّله لهذه الجنة؛ فذكر منها توسّله بأولئك النساء الصالحات ودُعاهنّ له، إضافة إلى شكره ومدحه لهنّ، وطلبه بركتهنّ، والنتيجة التي أرادها الشاعر هي صلاح أولاده وأحفاده من بعده ونزول رحمة المولى تبارك وتعالى عليهم، وحصوله وأهله على القبول في الأرض.

البستان، أو كما سمّاه شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة (الجنان) هو رمز للأعمال الصالحة، وأعمال البر والخير، والدعوات المستجابة، ومثلها تثمر الأشجار إذا سقيت واعتني بها، فإنّ أولاد الشاعر وأحفاده سيجعلون من اتحادهم قوة ومن كثرتهم وصلاحهم مثلاً يقتدى به على مرّ العصور، ومن تقواهم وعلومهم سبيلاً إلى حياة سعيدة مليئة بالعطاء والوفاء.

والشجرة شبيهة بالإنسان في بقائها طويلاً، وفي شدة اتصالها بالأرض والتربة، وارتفاعها إلى الأعلى في شموخ وكبرياء؛ حيث تمتد جذورها في باطن الأرض، وتصعد أغصانها وفروعها إلى السماء معبرة عن معاني الشهامة والأريحية والتسامي، هذه المدلولات هي التي جعلت الشاعرة "الزهرة شويحة" تشبه قومها الشرفاء بالشجرة، إذ تقول:

1 - معنى البيت: أنا أمدحكم وأريد أن تقلن لي بأنني سأنال ربحاً. وكأنني نلت هذا النجاح حقيقة، منحن

الله الهناء والسرور والراحة والطمأنينة.

اَحْنا شَجَرَة طَيِّبَة وَاتَمَدُّ اَعْرَافُ كُلِّ عُرْفٍ اِيْمَدُّ بَنَّةً بِثَمَارُو¹

الشجرة الطيبة هنا، هي رمز للأصل الشريف لهؤلاء القوم، وأغصانها هم القوم، وثمارها هي أعمالهم الصالحة ومآثرهم وعلومهم وأخلاقهم، وكل ما يميزهم عن بقية البشر.

وقد جعل الشاعر " السعيد بوعشرين " من الاخضرار والأشجار النامية رمزاً للسلام والاستقلال والنصر بعد أيام الذل والحصار والاستعمار؛ فالتربة التي كانت رماداً أسوداً بسبب اللهب الذي تعرضت له وكثرة النار التي أصابتها أصبحت مخضرة مكسوة بغطاء من الأشجار المتفتحة، التي سقتها مياه الأمطار المتدفقة الغزيرة. يعبر الشاعر عن ذلك بقوله:

وُتْرَابُكَ بَعْدَ الْكُحُولَةِ رَأَى اخْضَارَ شَجَرُو فَتَحَّ وَالنْمَطَرُ سَاخَ ايساقية²

هذه الأشجار الخضراء التي سقتها مياه الأمطار بُعِيدَ الاستقلال مباشرة صارت رمزاً للأمل والتفاؤل والحياة السعيدة الهانئة، وإشارة كبيرة إلى الحرية والتحرر والخلاص من براثن الاستعمار الغاشم، وهي في نفس الوقت ترمز للأرض الأم وللخصوبة، فهي تمثل أصل الإنسان، وهي رفيقته على الدوام، ولا غنى له عنها، وهي شبيهة بالأم الكريمة المعطاءة الحنون ذات الحزن الدافئ والمشاعر الرقيقة الفياضة، وهي الوطن وهي الأرض، وهي التربة التي لامست جسده وليدًا، وصرخ فوقها أول صرخة له.

وفي هذا المعنى، يشيد الشاعر "السعيد بوعشرين" بمسقط رأسه الذي أطلق عليه اسم "الوكر" تشبيهاً له بمأوى الطيور الذي يشترك الزوجان في بنائه والمحافظة عليه وتربية الصغار داخله. يقول الشاعر مفتخرًا مادحًا:

وَالثَالِثُ وَكَرِيَّ الْيَّ دِيْمَا سَلَابُ هَازُ الرُّوحُ مُوزَّعَةٌ بَيْنَ اجْنَابُو³

1 - معنى البيت: نحن شجرة طيبة وتعطي أغصانا. كل غصن يقدم ذوقاً من خلال ثماره.

2 - معنى البيت: وترباك بعد اسوداده صار أخضرًا. شجره فتح والمطر سال يسقيه.

3 - معنى البيت: والثالث هو وكري الذي يسلب الأبواب دائماً ويسحرنى بجماله. هذه الروح قد وزعت بين جنباته.

العَيْنُ الْخَضْرَاءُ هِيَ الْمَرْسَمُ فِي الشَّبَابِ شَجَرٌ مَفْتَحٌ غَارِسِينُو شِيَابُو¹
مَرْتَعٌ جَدِّي قَالَهُـ هَالِي ذَاكَ الْآبُ كَلَشُ فِيهِ اخْيَارٌ حَتَّى بَغْلَابُو²

الملاحظ للبيت الثاني يجد أن اسم المنطقة "عين الخضراء" قد أُخذ من اللون الأخضر الذي طغى على منظر هذه الأرض، والذي ساهم الأسلاف في بعثه حتى صار يبدو بهذا الشكل الموحى بالملكية والمحبة والأمل الباسم والغد المشرق، كما أن لهذا اللون خلفية تشعر الناظر إليه بالراحة النفسية والطمأنينة والأمل والتفاؤل وحب الحياة، وتزرع في أعماق نفسه شعوراً بالرغبة في العيش والحصول على الأفضل، ففي المناطق المخضرة غالباً ما يميل الإنسان إلى الاسترخاء وطلب الهدوء، ويكون ذلك باعثاً لسروره وبهجته وسعادته.

ومن رموز الشجرة أيضاً ما أورده الشاعر "عبد القادر العطوي" الذي جعل من الشجرة رمزاً لدنيا الإنسان التي يعيش في كنفها ويستظل بظلها؛ فقد شبه الشاعر الدنيا بالشجرة، وشبه العيش فيها بالاستظلال تحت هذه الشجرة. نقل الشاعر هذه الصورة التشبيهية في سياق حديثه عن أحد الفرسان في منطقته، وقد بلغ من الكبر عتياً، فقال واصفاً حالة هرمه وشيوخته:

حَالُ الدُّنْيَا يِي الْي تَحْتُ سَجِيرَةٍ فَاتُ الظِّلُّ عَلَى ائِمِينُو وَائِيَّاسُ³

هذا الشيخ هو "الحاج الطاهر" الذي ذهب أكثر عمره، ولم يبق من أيامه إلا القليل، حالته هذه هي شبيهة بحالة من يطلب ظلاً، ولكن الظل سرعان ما يبتعد ويتوارى تاركاً مكانه لشمس حارة، فالظل لا بقاء له، وكذلك حياة الإنسان، لأن مصير الإنسان هو الموت لامحالة.

1 - عين الخضراء: هو اسم لبلدية من بلديات ولاية المسيلة، تقع في الركن الشرقي لهذه الولاية، وتعتمد هذه المنطقة على الزراعة بالدرجة الأولى. الْمَرْسَمُ: هو مكان السكن؛ من الرَسْم: آثار الدِّيار وبقاياها. غَارِسِينُو شِيَابُو: غرسه شيوخه.

2 - معنى الشطر الثاني: كل شيء فيه جميل وحسن حتى بمناطقه الخالية الفقار.

3 - سَجِيرَة: شجيرة، الشائع في لهجة المنطقة قلب بعض الحروف في الكلمات وإبدالها بحروف أخرى، قد تكون متقاربة في المخرج الصوتي. ائِيَّاسُ: صار من جهة اليسار.

صورة مركبة حملها الشاعر من إبداعه الكثير من الجمال والبلاغة. وليس بعيداً عن هذه الدلالات، نجد الشاعر ذاته يصور مشهداً مثيراً لموكب جنازي بطله هو المجاهد الحاج " الشريف شنوفي " - رحمه الله - حيث يجعل من الشجرة رمزاً لهذا المجاهد البطل، وسقوط هذه الشجرة فجأة هو موت هذا البطل، وتعرية الشجرة من أفنانها الغضة وذبول أوراقها بعد سقوطها هو إشارة من قبل الشاعر إلى تشتت خلفه وتفرقهم من بعده وتمزق صفوفهم، وجفاف هذه الأغصان فيه دلالة على الحزن الشديد الذي أصاب القوم بعد وفاة زعيمهم وقائدهم. يصور الشاعر مصير هؤلاء القوم بعد فقدانهم لهذا البطل المغوار بقوله:

خَلَّى نَاسُو فَاَلْمَرَاسِمُ تَتَفَقَّدُ سَجْرَةَ طَاحَتْ تَيْبَسُ وَرَاهَا لِعُضَادٍ¹

وهناك من الشعراء من جعل الشجرة رمزاً للمرأة بما تدرّه من جمال ودفء وثمار وظل وخصوبة، وبما يوحي منظرها من استقرار وثبات على الأرض، وصبر على مواجهة الكوارث بأنواعها. وهذه الشاعرة " الزهرة شويحة " تُصِرُّ على تشبيه أختها " خديجة " بالشجرة التي لا تبخل بثمارها، كما أنها تدعو لها ولزوجها بالحفظ والصون من كل مكروه، وتحثها على البقاء في بيتها وطاعة زوجها والمحافظة على حياتها الزوجية، وبذلك تختم قصيدتها في مدح أختها فتقول:

وَيَحْفَظُكَ الزَّوْجُ وَاتَّمَى فَالْدَارُ مَغْرُوسَةٌ شَجْرَةٌ وَفِيهَا ثَمَرَاتِي²

الشجرة هنا، هي رمز للمرأة الولود الودود، ذات الخلق الكريم، التي إذا نظر إليها زوجها سرته بجمالها، وإذا غاب عنها حفظته في ماله وبنيه، وإذا أمرها أطاعته، كالشجرة تماماً إذا تعهد لها صاحبها أفادته بكل عناصرها، وإذا أهملها تألمت وحزنت، وظهر ذلك في تجردها من كل أدوات الجمال والحياة والخصوبة.

والمرأة العربية الجميلة تشبه الشجرة الطيبة في الكثير من الصفات، فهي حسنة القدّ طويلة القامة، قوامها ظل شجرة صفصاف في مساء صيفٍ حار. دلالة

1 - معنى البيت: ترك ناسه وأهله يتفقدون مكانه ويبحثون عنه في حيرة وشرود. شجرة سقطت وتداعت على الأرض فهلك أغصانها وجفت ويبست.

2 - اتَّمَى فالْدَارُ: تبقي في البيت (الدار). معنى الشطر الثاني: شجرة مغروسة وفيها ثمرات.

هذا المعنى نجدها لدى الشاعر "عبد القادر العطوي" الذي يشبه جمال القد وطوله عند محبوبته بظل هذه الشجرة، إذ يقول:

زَيْنُ الطَّوْلَةِ ظِلُّ صَفْصَافِ الْعَشْوَةِ وَقَتُّ صُمَايِمٍ فِيهِ يَاسِرٌ يَسْتَتَاوُ¹

أما الشاعر "أحمد وليد بن القبي" فيشبه قد حبيبته بساق الشجرة؛ ولكنه لا يوضح أي نوع من الأشجار قصد بقوله، إلا أننا نذهب معه بخيالنا في رحلة تفتيش عن أطول شجرة في البستان، لنقارن طول فرعها وممتها بطول القامة لدى محبوبته.

يحاول الشاعر أن يرسم لنا لوحة جسدية جميلة لصاحبته، فيبدأ هذه اللوحة بوصف القد وطوله واعتداله. يقول الشاعر:

انْوَرِيكَ أَوْصَافُهَا رِيْمُ الْغُزْلَانِ الطَّقْلَةُ هَذِيكَ عُرْفُ الْبُسْتَانَا²

وفي نفس القصيدة، يركز الشاعر على حسن القد وطوله، وهو الأمر الذي جعل من هذه الفتاة فاتنة، مثيرة وجذابة، حيث يصف حبه لها بالنيران التي تشتعل داخل صدره فتأتي على الأخضر واليابس.

ويرمز لقامتها الطويلة الفارحة المنتصبة بساق الشجرة النامية في بستان وقد تعهدها صاحبها، فيقول:

وَهَآذِ الطَّقْلَةُ حُبَّهَا شَاعِلُ نِيرَانٍ زِينَةُ الطَّوْلَةِ كِي اعْرِيفُ الْبُسْتَانَا³

وتشبيه المرأة بالشجرة وقامتها بساق الشجرة، فيه من الحيوية والخصوبة الكثير، فالشجرة هي أم الكائنات، تأوي إليها من كل الأنواع والأشكال، وتتخذ منها

1 - معنى البيت: معتدلة القد والطول مثل ظل شجرة الصفصاف في المساء. ظل هذه الشجرة ممتد في عشية يوم حار من أيام الصيف بحيث ينتظره الكثير من الناس. شجرة الصفصاف: شجرة عالية من أشجار الزينة، مدهشة وفائقة الجمال، أغصانها متهدلة وأوراقها متألئة جذابة، ساقها قصيرة وفروعها عريضة الانتشار، وهذا ما يجعلها الشجرة الأسرع توفيراً للظل بعد زراعتها. الصُمَايِمُ: الأيام الأكثر حرارة في فصل الصيف.

2 - معنى البيت: سأريك صفاتها ريم الغزلان. تلك الفتاة تشبه قامتها ساق شجرة في البستان.

3 - معنى البيت: اشتعلت نيران حبي لهذه الفتاة. جميلة القد ومعتدلة الطول مثل ساق شجرة في بستان.

مسكنا ومطعماً، وتفيض عليها إشفاقاً وعطفاً وحناناً وحباً، وكذلك المرأة التي هي أم البشر والنصف الثاني للمجتمع، ورفيقة الرجل وأنيسته على الدوام.

وقد اختار بعض الشعراء أنواعاً معينة من الفواكه، واعتنوا بذكرها في قصائدهم، وكانت فاكهة التفاح والرمان والخوخ من أهمها، لما تحمله من جمال في الشكل وعذوبة في المذاق؛ لقد صور الشاعر "السعيد بوعشرين" نَهْدِي المرأة عند أولاد نايل، وشبههما بالتفاحتين حيث قال:

صَدْرُ امْرِفَعٍ وَالنَّهْدُ اضْرَافُ امْتُولُ مِنْ تَفَاحٍ اخْيَارُ مَعْلَى سَجَرَاتُو¹

والتفاح الذي شبه به الشاعر نهود المرأة النيلية هو من أجود أنواع التفاح، كما أن أشجاره عالية مرتفعة، بعيدة عن يد اللّمس. الشجرة شاهقة منتصبة وثمارها عالية مرتفعة، وارتفاع الثمار هذا جعل منها صعبة المنال، غالية، عزيزة، وفي هذه الصفات دلالات قوية على المكانة المرموقة التي تحظى بها الأنثى عند قوم أولاد نايل، فهي عندهم درّة مصونة، وجوهرة ثمينة، وياقوتة جميلة، لا يجب أن تخدش أو يزاح عنها السّتر والحياء؛ جسدها مقدّس، وكل أعضائها مستترة، لذلك حاول الشعراء رسمها، وتفننوا في إيجاد معادل لكل عضوٍ من أعضائها من خلال توظيفهم لعناصر الطبيعة الحيّة.

واستخدم الشاعر "الحمدى بوشنافة" فاكهة الرمان للإشارة إلى شدة احمرار الشفتين عند محبوبته ولمعانها، وقد أدّى به ذلك إلى انفطار قلبه من كثرة إعجابه وافتتانه. يقول الشاعر واصفاً شفاه محبوبته بصيغة المفرد:

وَالشَّفَّةُ رُمانٌ زادتْ بِسَمَةِ لِيكَ تَفَتَّتَ الْقَلْبُ إِلَيَّ امْسَكْ دَخْلَانِي²

هذه الشفاه غضة ريانة، تفيض عذوبة، يتفتت من منظرها المدهش، المثير، القلب الجامد القاسي، وهي حمراء وردية، يسري بداخلها بريق الشباب وغضارته، ويشع منها ماء الحياة بصفائه وبرودته، وقد زادتها الابتسامة جمالاً وحسناً.

1 - معنى البيت: صدرها مرتفع ونهداها ضريفان متماثلان. من أجود أنواع التفاح ما أشدّ علو أشجاره!

2 - معنى البيت: وشفتك رمان زادتك جمالاً حين الابتسام. تفتت القلب المغلق من الداخل.

وفي عبارة (الشَّقَّة رُمَان)؛ تشبيهه بليغ يوحي بالإثارة وبلوغ الشهوة الجنسية أقصاها لدى الرجل عند رؤيته شفاه المرأة الحمراء، وإذا كان هذا يحدث مع الرجال عادةً، وهو ردّ فعل فطري، فما بالنساء بالشعراء الذين يعرفون مواطن الجمال في المرأة، ويعجبهم ذلك؟!

ومثال ذلك الشاعر "عبد القادر العطوي" الذي يجعل من فاكهة الخوخ رمزاً لشفاة محبوبته وثغرها، حيث يقول:

مَنْ الْخَوْخُ الرَّأْيِي عَاطِشٌ يَرْوِي بِالْحُرَّاسِ غَلِيَّةَ مَا صَابُوا يَصْنَفُونَ¹

حبّات الخوخ معلقة على أغصانها، تسحر عقول العاشقين قبل قلوبهم، تستثيرهم لقطفها والتلذذ بمذاقها الحلو والتمتع برائحتها الطيبة الزكية، ولكن ذلك ليس سهلاً على الإطلاق، فهذه الفاكهة مراقبة من طرف حراسٍ أقوياء أشداء، وبالتالي يحرم الوصول إليها، وهي حمراء شديدة الحمرة، واللون الأحمر هو لون الشهوة والإثارة، وهو لون يدل على السعادة والفرح والغبطة والابتهاج، وأمثلة ذلك من الطبيعة جليّة وملاحظة وكثيرة أيضاً.

ونفس الفاكهة جعلها الشاعر ذاته رمزاً لجمال الخدود واحمرارها، وقد استعار الشاعر من الطبيعة عنصرين هما: الورد والخوخ، للدلالة على حمرة الخدود وامتلائها وجمال منظرها. يقول الشاعر وقد وظّف تشبيهين اثنين في بيت واحد:

خَدُّ مَرْعَرَزٍ كِي النَّوَّارِ مَرْتَبٍ خَوْخٌ مَلَقَمٌ بَانَ فِي سَجَرَاتِهِ طَابُ²

خدّ هذه الفتاة التي أحبّها الشاعر من أول نظرة أحمر، غامق، لامع، يتلألأ، يشبه في حالته هذه الورد الحمراء التي تفوح جمالاً وجاذبية وعطراً، وفي نفس الوقت يشبه الخوخ الطازج على أغصانه، وقد تم تلقيح أشجاره بأنواع أخرى

1 - معنى البيت: يرتوي العطشان من الخوخ المسقي. لم يستطع أحد الوصول إليه لأن هناك من يحرسه.

2 - معنى البيت: خدّ يلمع ويتلألأ مثل الورد المنسق. خوخ ملقح بفاكهة أخرى ظهر وتجلّى في أشجاره وقد نضج وحن أوان قطافه.

من الفواكه حتى يصبح أكبر حجماً، وألذ ذوقاً، وأجمل شكلاً، وأعمق لوناً، وباختصار: مثيراً في كل حالاته كخود الفتاة الحبيبة تماماً.

2.4.3 - النخل:

النخلة هي كائن اجتماعي، تفضل أن تتشأ ضمن مجموعات، وتشكل بذلك واحات واسعة جميلة، والنخلة هي من الأشجار المعمرة التي تستطيع أن تصبر وتصمد في مناخ شديد الحرارة، وفي تربة رملية جافة، كما أنها تشبه الإنسان في الكثير من الصفات، فهي ذات جذع منتصب، وفيها الذكر والأنثى، والنخلة الأنثى لا تنتج ثماراً إلا إذا لقحت، وإذا قطع رأسها ماتت، وإذا تعرض قلبها لصدمة قوية هلكت، وإذا قطع سغفها لا تستطيع تعويضه من محله كما لا يستطيع الإنسان تعويض مفاصله، وهي مغطاة بالليف الذي يشبه شعر الجسم في الإنسان.

وهي شامخة، مرتفعة، تفرد أجنحتها بتسيق بديع في كل اتجاه، فارعة الطول، ممتدة القامة، يعلوها فرع مجلّ بسعفات كثيفة تأخذ شكل الأقواس، بعضها فوق بعض، تصنع بذلك إحساساً مفعماً بالمهابة.

والنخلة الباسقة تشبه المرأة المعطاء؛ سغفها المنتشر يشبه شعر المرأة الجميل وظفائرها الطويلة الحريية. وتشبه المرأة النخلة -أيضاً- في كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، وقد خصّها الإنسان العربي بالتبجيل دون باقي الأشجار باعتبارها رمزا للحياة والنماء.

وقد أوحى النخلة للشاعر العربي منذ القديم بدلالات كثيرة، استمدت من تجاربه في الحياة، ومشاعره المختلفة، والظروف المحيطة به، ومن أروع الأمثلة في الشعر العربي، قصيدة لـ: "عبد الرحمان الداخل" (صقر قريش) الذي جعل من النخلة صورة مقابلة له في الغربة والنأي عن أهل عندما وجد نخلة غريبة في بلاد الأندلس، حيث قال:

تَبَدَّتْ لَنَا بَيْنَ الرِّصَافَةِ نَخْلَةٌ تَنَاءَتْ بِأَرْضِ الْغَرْبِ عَنِ بَلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ شَبِيهِي فِي التَّغْرُبِ وَالنَّوَى وَطَوَّلُ التَّنَائِي عَنْ بَنِي وَعَنْ أَهْلِي

نشأت بأرضٍ أنتَ فيها غريبةٌ فمَثَلِك في الإقصاء والمنتأى مثلي

وتعدُّ النخلة رمزا للكرم والعطاء والعلو والشموخ والخير والخصب والود والوفاء، ولم تعد الصورة الشعرية عند الحديث عن النخيل وصفية حسيّة، بل تطورت إلى رموزٍ لها إحياءات مختلفة، منها المعاني سابقة الذكر، وقد تشير إلى معانٍ ودلائل منها: الحب، الحنان، الجمال، التّسامي والرّفعة عن قبيح الصّفات، التّرفع عن الحقد، الهدوء والسّكينة، العمر الطويل، روح الجماعة، الجاذبية من خلال النمو بصمت، جمال القوام والخصوبة، الحياة، وقد تدل أحيانا على الوطن.

أما شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، فقد وظّفوا النخلة توظيفاً جمالياً، حيث رسموا من خلالها صورةً للأنثى بكل ما تحمله الأنثى من حبّ وحنان وعطف وخصوبة وجمال، فجعلوا منها رمزاً للعشيقّة تارة، ورمزاً للجدة تارة أخرى، وأحيانا أخرى أشاروا من خلالها إلى المرأة عند أولاد نايل. والمتتبع لهذه القصائد، يجد بأن هؤلاء الشعراء قد قرّنوا كل جزء من النخلة بعضوٍ يقابله في المرأة، وحتى وإن لم يصرّحوا بذلك علناً، إلا أنهم يقصدون ذلك حقيقة، وكأنهم في هذه العملية يقومون بنحت المرأة في مكان النخلة، أو يركّبون صورة المرأة في صورة النخلة، فتمتزج الصورتان، وتذوب إحداها في الأخرى.

وقد خاطب الشاعر " الحمدي بوشنافة " نخلة وحيدة غريبة، وحاول استنتاجها، في حادثة مشابهة للحادثة التي ذكرت سابقاً مع الشاعر "عبد الرحمان الداخل " -وقد كان ذلك قبل عدة قرون- وهذا الموقف هو أكبر دليل على التناص الموجود في الشعر العربي منذ العصور الأولى، وقد وجدناه - أيضاً - في الشعر الشعبي.

يقول الشاعر، وقد جعل من هذه النخلة رمزاً لغربته الذاتية وتعبه النفسي وإحساسه بالوحدة:

يَا نَخْلَةَ وَشْ نَبْتِكَ فِي مَهْمُودَةٍ غَلَّاشْ تَغَرَّبْتِي مَعَ بَرِّ الْقَفَّارِ¹

1 - معنى البيت: يا نخلة من أنبتك في أرض منعزلة؟ لماذا أنت غريبة في برّ قفر؟

فِي قُوَّةٍ لِرِيَّاحٍ جِيَّتِي مَرْفُودَةٌ وَخُلِقْتِي بَرِّ السَّوَاقي كُلِّ نَهَارٍ¹
وَقَوَائِلَ وَأَيَّامَ بِيَهُمْ مَصْنُودَةٌ وَمَرْحُوكَ عَالِي فَالْهَوَا دَائِمَ يَخْضَارُ²

يسأل الشاعر هذه النخلة عن الأسباب التي جعلتها تنمو وحيدة، غريبة في هذا المكان المجدب والقفار الخالي، ولكنه لا يروم إجابة لأنه يشعر بحالتها، وتتطبق هذه الحالة مباشرة على حالته النفسية، فهو وحيد، غريب، شارد الأفكار، تائه، يبحث عن سعادته المفقودة.

جعل الشاعر هذه النخلة رمزاً لعزله وانفراده وغربته، هذا ما يظهر من خلال هذه الأبيات الأولى التي جعلها الشاعر مطلعاً لقصيدته، وهي افتتاحية شبيهة إلى حدٍّ ما بالمقدمات الطللية التي يتم فيها الوقوف على الأطلال، ومساءلتها والبكاء على آثارها وتذكر من رحل عنها من الأحباب. أما الشاعر "محمد الريغي شبيبة" - رحمه الله - فقد وظف النخلات رمزاً لنساء أولاد نايل، حيث قال:

ابْنَاتُ الرَّقَادِ جَبَّارَاتُ الْوَادِ تَأْقُو مِنْ لُبْعَادٍ بَانُو مَعْلَاهُمْ³
شُورُ الْحَاجِبِ فِي جُنَايْنِ شَيْخٍ أَعْرَبَ نَخْلُو طَايِبَ وَالْعَرَايْنِ دَرْبَاهُمْ⁴
اكَثِيرُو جَبَّارَ دَقْلَةٍ جَبَّارَاتُ اخْيَارَ لِلْمَرْضَى عَقَارَ هَذَاكَ ادْوَاهُمْ⁵

شبه الشاعر بنات أولاد نايل (ابنات الرقاد) بالنخلات (جبارات الواد) اللواتي يظهرن من بعيد شامخات يحملن ما لذ وطاب من الثمار التي تعتبر من أجود أنواع الفاكهة، هذه النخلات هي في بستان في المكان المسمى (الحاجب)، صاحب هذا البستان هو شيخ عرب، والدلالة المستقاة من هذا هي أن لهذا الشيخ خدم وعمال يقومون بالاعتناء بهذه النخلات ويحرسونها، ويمنعون عنها

1 - معنى البيت: بسبب قوة الرياح جئت راحلة. وتركيت البر الذي يسقى كل يوم.

2 - معنى البيت: وحرارة احترقت بها لأيام عديدة. فرعك تعلوه سعات كثيفة دائمة الاخضرار.

3 - معنى البيت: بنات أولاد نايل نخلات في الوادي. تطلن من الأماكن البعيدة وظهرن عاليات.

4 - معنى البيت: باتجاه الحاجب في بساتين لشيخ قوم عرب. نخله ناضج وعراجين التمر متلية منه.

5 - معنى البيت: أكثره نخل دقلة نور (أجود أنواع التمر). ذلك هو دواء للمرضى.

الغرباء، والنخلات كريمات، يجدن بأحسن أنواع التمر التي تتدلى من الشماريح، وفيها شفاء للناس، وخاصة المرضى منهم.

هذا التشبيه البليغ (ابنات الرقّاد جبارات الواد) أعطى الحركة والحياة للنخلات، فصارت النخلات نسوة يمشين ويتجوّلن في سرور وحبور يفتن الناظر إليهن بجمالهن وزينتهن.

وفي صورة مشابهة، استعار الشاعر "عبد القادر العطوي" النخلة لتصير رمزاً لهذه الجدة في زمن الشباب، يوم كانت فتاة غضة حديثة العهد بالطفولة، حيث قال:

يَا جَبَّارَةَ بِالرُّوَايَحِ مَسْقِيَّةً فِيهَا دَقْلَةٌ نُورٌ بَعْسَلَهَا تَرْطَابٌ¹
مَبْنِي عَنْكَ صُورٌ وَسَطُوْهُ مَحْظِيَّةٌ السَّلَكُ الشَّائِكُ مَا يُحْلُوشُ الْكَلَابُ²

في البيت الأول استعارة تصريحية، حيث شبه الشاعر الجدة / الفتاة بالنخلة (الجبارة) فذكر المشبه به (الجبارة)، وحذف المشبه (الجدة/الفتاة)، وفي الصورة تظهر البراعة الفنية للشاعر في تصوير الجماد في صور حية متحركة، حيث جعل النخلة / الفتاة تفوح بالعطور الشذية المنعشة التي سقتها من كل الجهات فأنجبت تمرا يفيض عسلاً وعذوبة، وقد أحاط بها سور من الأسلاك الشائكة التي تمنع اقتراب الغرباء منها، وفي الشطر الثاني من البيت الثاني (السلك الشائك ما يحلوش الكلاب) كناية عن الحماية وشدة الاهتمام وقوة الحراسة.

الصورة الفنية نفسها نجدها عند الشاعر "أحمد وليد بن القبي"؛ الذي يشبه محبوبته بالنخلة، فيذكر المشبه به (النخلة)، ويحذف المشبه (الفتاة المحبوبة)، وهي استعارة تصريحية زادت المعنى جمالاً بإعطاء الأهمية والأولوية للمشبه به

1 - الجبّارة: اسم يطلقه الشعراء على نوع من أنواع النخيل، أو النخلة الشابة الصغيرة.

معنى البيت: يا جبارة بالروائح مسقية. فيها دقلة نور لينة وملساء ورطبة الملمس.

2 - معنى البيت: مبني حولك سور وأنت في وسطه محظية. سور من الأسلاك الشائكة لا يفكها الكلاب.

الكلاب: أداة لتقطيع الأسلاك الحديدية.

(النخلة) التي تفيض بالعراجين المليئة تمورا، وهي تمر من أجود الأنواع، غالبية ولها مكانة في السوق، لهذه الأسباب يتنافس التجار على اقتنائها والمتاجرة بها. ويتفق شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة على جعل النخلة المعطاء رمزا للحبيبة، وقد صار هذا التوظيف نمطاً سار على نسقه هؤلاء الشعراء، وتأثرهم بالطبيعة يبدو واضحاً جلياً من خلال هذا الاستخدام، وقد أطلقوا على النخلة تسميات عدة منها: الشعوية، الشعواوية، الشعوة، الجبارة... وقد أورد الشاعر "عبد القادر العطوي" بعضاً من التسميات السابقة على معشوقاته، فذكرهن بهذه المصطلحات، وأثنى على جمالهن وخصوبتهن واعتدال القدّ لديهن.

يقول الشاعر في أبيات مختلفة من بعض القصائد:

ذِي شَعْوِيَّةٍ فِي نَخِيلٍ عَلَى مَنْعَبٍ لَاحَتْ مِنْ لِبْعَادٍ بَانَتْ وَسَطَ سَرَابٍ¹

ويقول الشاعر في قصيدة أخرى:

شَعْوِيَّةٍ فِي الزَّابِ جَاءَتْ عَلَى رِبْوَةٍ عَرَايْنُ دَقْلَةٍ نُورٌ مِنْهَا يَتَدَلَّوْ²

ويعاتب حبيبته في بيت آخر، ويلومها على جفائها، فيقول:

عَلَّاشُ الْجَفْوِ عَلَّاشٌ مِنْكَ يَا شَعْوَةٍ حَنِّي عَنُّوْ وَعَظْفِي عَنَّا نَرْضَاوْ³

1 - معنى البيت: هذه النخلة (شعوية) منفردة عن النخيل. لاحت من بعيد وظهرت وسط السراب.

2 - معنى البيت: نخلة (شعوية) موضعها على ربوة في منطقة الزَّاب. تتدلى منها عرايين دقلة نور.

الزَّاب: جمعه زيبان: اسم يطلق على منطقة بسكرة في الجنوب الجزائري.

- يُنظر: عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 09، وما بعدها.

3 - معنى البيت: لماذا هذا الجفاء منك يا نخلة (شعوة)؟ الشاعر يطلب منك حناناً وعظفاً حتى يرضى عنك.

شَعْوَةٍ: اسم يطلق على نوع من أنواع النخيل، وقد تكون نخلة دقلة نور حسب الشاعر «عبد القادر العطوي».

3.4.3 - الزَّهْرُ:

تمثل الزهرة طفولة النبات من خلال غضارتها ورقتها، وهي المرحلة النضرة الزاهية في شباب أي نبتة، ولا غنى لأي شاعر عن توظيفها في قصائده، فهي رمز للأمل والسعادة والفرح والبهجة، وقد أكثر شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة من الاستعانة بالورد لوصف احمرار الخدود وجمالها عند النساء، وكذلك الشقاء، وهناك من جعل من المرأة الجميلة وردة أو زهرة تبض بالحياة، وتفيض بالعدوبة والإثارة.

يفتح الشاعر "أحمد وليد بن القبي" قصيدته الغزلية التي تحمل عنوان "الوردة" بوصفه لوردة رآها في شهر رمضان، وبالضبط في اليوم الثالث منه، فذكرته بصاحبته التي هجرته وتخلت عن حبه، وانتقدت نيران الشوق والحنين في قلبه، فجعل يقول:

وَحَذَّ الْوَرْدَةَ شَفْتَهَا ثَالِثَ رَمَضَانَ	مَسْقِيَّةٌ بِمِيَاهِ دِيمَا زَقْرَانَةٍ ¹
يَا وَرْدَةَ زِدْتِي عَلَى قَلْبِي نِيرَانُ	فَكَرَّرْتَنِي فِي غَزَلٍ خَلَانَا ²
يَا وَرْدَةَ مِنْ حُبِّ مَسْبُوعَةٍ لَعْيَانُ	الطَقْلَةُ الَّتِي حُبَّهَا رَأَى اكْوَانَا ³

في الأبيات صورة بيانية في قمة الجمال الأدبي، حيث بادرنّا الشاعر بدلالتين لمضمون الأبيات؛ الدلالة الأولى: وهي المعنى السطحي القريب الذي يشير إلى وردة حقيقية رآها الشاعر، فألهبت مشاعره، وأرقت، ونبتت فيه مشاعر الألم والحزن والشوق والشجن والأسى. والدلالة الثانية: وهي المعنى العميق البعيد الذي لا يصل إليه إلا المتلقي الذي يمتلك ذكاءً وحسّاً شعرياً، ولديه خلفيات فكرية ومعرفية تامة وواسعة بأساليب الشعراء - وقد يعرف ذلك أيضاً الشعراء أنفسهم - هذه الدلالة الثانية المقصودة هي التي توحى إلى المعنى الذي يستشفه الناقد المتفحص من خلال الأبيات، وهي إشارة الشاعر إلى حبيبته الحقيقية التي شبَّهها

1 - معنى البيت: إحدى الوردات رأيتها في اليوم الثالث من شهر رمضان. مسقية بمياه ودائمًا فرحة سعيدة.

2 - غَزَلٌ: تصغير: غزال. خَلَانَا: تركنا وجفانا.

3 - لَعْيَانُ: العيون.

بالوردة، وفي الصورة البيانية تورية لها معنيان: معنى قريب (الوردة) ومعنى بعيد (الحبيبة).

وتتوالى الأبيات لدى شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة لترسم لوحات فنية رائعة مستوحاة من الطبيعة، تلعب فيها الزهور والورود دوراً هاماً وبارزاً، وقد وظّفها الشعراء كرموز توحى بدلالات عديدة، فهناك من جعلها رمزاً لجمال المرأة عموماً، وهناك من خصص المرأة عند أولاد نايل، وبعض الشعراء جعل منها رمزاً للعشيق والحبيبة، أما أغلب الشعراء فقد اتخذوا من لون الورد رمزاً لجمال الخدود عند النساء وشدة احمرارها.

الشاعر " البشير قذيفة " في قصيدته الشهيرة " الساعة "؛ يشبه نوعاً من النساء بالزهرة التي تفوح بالعطور الندية، وهي جذابة ومثيرة دائماً، شكلها جميل وألوانها فاتنة، ورائحتها زكية عطرة. يقول:

وَحْدَةً فِي عَيْنَيْكَ تَشْبَهُ لِلزَّهْرَةِ رِيحَتَهَا مِنْ مَسْكَ وَالْعَنْبَرِ تَغْطِيهِ

ويُشَبِّه الشاعر " أحمد وليد بن القبي " نساء أولاد نايل بالنّوّار الذي يكثر وسط المروج الخضراء، وتختلط ألوانه بعضها ببعض، فيقول:

وَفِيهِمْ صِيْفَاتٌ كِي مِثْلُ النّوَّارِ تَتَخَالَفُ لِلْوَانِ فِي وَسْطِ اقْدَالُو¹

هؤلاء النسوة فانتات، ملفتات للنظر بأثوابهن المزركشة، وبجمالهن الأخاذ، وبقدودهن الطويلة المنتصبة، وبخدودهن الحمراء الممتلئة، وبشعورهن الطويلة الحريرية، وبعيونهن الواسعة السوداء، وبحليهن وزينتهن الثمينة المتنوعة...

ويشارك شاعران آخران في تمثيل العشيق بالوردة الندية الغضة، التي تنتشر عبقها في الأرجاء، تزهو بشبابها وبنضارتها وعفوانها، وتجذب الناظر إليها بسحرها وروعته، وتثيره بشكلها وألوانها البديعة الزاهية. يقول الشاعر "إسماعيل مدّاد " متغزلاً، وقد شبّه "حذّة " صاحبتة بالوردة الندية:

1 - صِيْفَاتٌ: صفات. تَتَخَالَفُ: تختلط. اقْدَالُو: لُقْدَال: هو الأرض التي زرعها صاحبها ومنع عنها الماشية، فنمّا زرعها بشكل جيد، ونمت في وسطه التّواوير (الزهور).

مثل الوردِ النّادِيّةِ ماها شفافٌ ما بين الكيفان في الفجّ العالِي¹

ويليه الشاعر " الحمدي بوشنافة " الذي يتغزل كذلك بصاحبته "السّعدِيّة " ويشبّوها بالوردة في قوله:

يا السّعدِيّة خاطري متعلّق بيك وأتغرسني كي الوردِة بامكاني.

الوردة عند هذين الشاعر ينهي رمز للمحبوبة ذات النّفس الشفّافة، المستترة عن مرأى الشاعر، والبعيدة عن ناظره. وقد أوضح ذلك الشاعر "إسماعيل مدّاد " في قوله: (ما بين الكيفان في الفجّ العالِي)؛ حيث دلت العبارة على صعوبة الوصول إلى هذه المحبوبة، وعلى مشقة الالتقاء بها، وفي العبارة كناية عن شرف النساء وصون أعراضهن.

أما العبارة الثانية (وأتغرسني كي الوردِة بامكاني) فتدل على الأصل الطيب لهذه المحبوبة، وعلى ارتباطها بالتربة والأرض التي تمثل بداية الخلق والأصل الأول للبشر.

لقد شغلت الزهور بشتى أنواعها وأشكالها وألوانها فكر الشعراء في منطقة بوسعادة، فتفننوا في وصفها والتغزل بجمالها، وأفردوا للورد الأحمر وشقائق النعمان الحمراء أهمية بالغة، وقاموا بتوظيفهما لرسم الخدود والشفاه الحمراء عند النساء وخاصة العشيقات منهن.

ويمكننا استعراض الأبيات التي تتضمن توظيف شعراء بوسعادة لهذين النوعين من الزهور كرمز للخدود والشفاه تباعا لتشابه مضامينها ومعانيها، وإنما يمكن الاختلاف في البنية التركيبية لنسق هذه الأبيات، حيث يظهر تأثر هؤلاء الشعراء بالطبيعة الزاهية البهيجة، التي تحيا في فصل الربيع - خاصة - وتزهو باخضرارها وهوائها وزهورها وطيورها، لذلك تشابهت أبيات الشعراء، ولعب التناسل دوراً جلياً فيها. أما الأبيات المقصودة فهي كالآتي:

عَيْنُكَ كَحَلَّةٍ وَالتَّحَلُّ وَاتَى عَيْنُكَ خَدُّكَ وَرْدٌ زَبِيغٌ عَنْ كُلِّ الْوَانِي
خَدُّكَ بَنُ نَعْمَانَ فِي مَرْجَةٍ خَبَلٌ نَابَتْ فَصْلُ زَبِيغٍ شَمْسُو ضَوَايَا

1 - ماها: ماؤها. الكيفان: الجبال العالية. الفجّ: البرّ: القفار.

الْخَدُّ النَّائِزُ وَالْعَطُورَةُ وَرْدٌ اتَّلُولُ
 اخْدُودُكَ وَرَدَاتٌ وَلَا بِنَعْمَانُ
 خُدُودُكَ وَرَدَاتٌ فِي الزَّيْنِ حُكَايَةٌ
 خَدُّ مَزْعَرَرٍ مِى النَّوَّارِ مَرْتَبٌ
 شَفَّةٌ حَمْرًا كَانْهِيَ دَمٌ مَخْضَبٌ
 يَلْمَعُ بْنُ نَعْمَانَ جَا فِي مِيقَاتُو
 وَالشَّفَّةُ حَمْرًا مَثِيلُ الْمُرْجَانَةِ
 وَلَا بْنُ نَعْمَانَ فَتَحَ شَاؤُ نَهَارُ
 خَوْخٌ مَلَقَمَ بَانَ فِي سَجَرَاتُو طَابُ
 وَلَا بْنُ نَعْمَانَ تَزْهَى بِبَيْهِ اَعْلَابُ¹

تتضمن الأبيات الخمسة الأولى تشبيهات بليغة؛ المشبه فيها هو خد المرأة، والمشبه به هو ورد الربيع أو شقائق النعمان، بينما يحتوي البيت السادس على تشبيه تمثيلي؛ نلمح فيه تمثيل صورة بصورة، الصورة الأولى: هي خد المرأة الذي تسري فيه الدماء ساخنة حمراء، والصورة الثانية: هي الورد الأحمر الذي يثير شهوة المتأمل، أو حبات الخوخ الطازجة الحمراء.

أما البيت السابع فيشبه الشاعر من خلاله الشفاه الحمراء بالدم المخضب أو بشقائق النعمان الحمراء التي تنتشر وسط المروج الخضراء، لتزيدها بهاءً وحسنًا، وفي اختلاط الألوان؛ خضرة الزرع وحمرة الورد وزرقة السماء ولون التربة البني، لوحة فنية في منتهى الجمال والأناقة والإحساس الرقيق والذوق الرفيع لدى الشاعر، كما أن اللون الأحمر هو لون الشهوة والإثارة الجنسية وخاصة إذا كان في المرأة على الشفاه والخدود.

ونختم حديثنا عن الزهور بجدول يوضح توظيف الشاعر " أحمد وليد بن القبي " للورد توظيفًا يختلف دلالاته من بيت شعري إلى آخر:

1 - البيت الأول: للشاعر الحمدي بوشنافة.

- البيت الثاني: للشاعرة الزهرة اشويحة.

- البيت الثالث: للشاعر السعيد بوعشرين.

- البيتان الرابع والخامس: للشاعر أحمد وليد بن القبي.

- البيتان السادس والسابع: للشاعر غبد القادر العطوي.

الرمز	المقطع الشعري	المرموز إليه
الورد (النَّوَّار)	مَقْيُومَةٌ مِنْ كُلِّ جِبْهَةٍ بِالنَّوَّارِ مَتَّحُوفَةٌ وَالْبُسُطُ كَاسِيَتْ مَعَاهَا ¹	- جمال السيّارة. - الفرح. - السّعادة.
النَّوَّار الورد	اعْجَبْنِي ذَاكَ الْجَبَلُ فِيهِ النَّوَّارُ وَرَدٌ مَخْلُطٌ كُلُّ صَيْفَةٍ شَفْتَاهَا ²	- البهجة. - النّسّامي
النَّوَّار (الورد)	الصَّحْرَا تَعْطِيْنَهَا لَيْلَةً خَضْرَا الْخَوَاضُ يُجِي إِيدِجُ مَعَ الْوَيْدَانُ ³ وَتَوَلَّى ذِيكَ الصَّحْرُ وَزَرَةً خَضْرَا وَالنَّوَّارُ اِيْعُوْدُ فِي رُوسِ الْكِيفَانُ ⁴	- بعث الحياة السعيدة من جديد. - الأمل الأمان والاستقرار.
النَّوَّار (الورد الأحمر)	وَلَا أَحْمَرُ مَقْدُودٌ طَايِبٌ لِلْمَشْوَارِ فِي وَسْطُ اعْطِيْلَانُ نَوَّارُ اقْبَالُو ⁵	- الفرس. - الفنطازيا. - الحياة السّعيدة.

1 - مَقْيُومَةٌ: مُجَهَّزَةٌ. النَّوَّارُ: الورد.

2 - صَيْفَةٌ: صفة. شَفْتَاهَا: رَأْيَاهَا: شَاهَدْنَاهَا.

3 - الْخَوَاضُ: ماء المطر الذي يتدفق على الأرض ويختلط بالتربة. يُجِي: يَجِيء: يَأْتِي.

إِيدِجُ مَعَ الْوَيْدَانُ: يَتَدَفَّقُ بِغَزَارَةٍ وَبِقُوَّةٍ عِبْرَ الْوُديَانِ.

4 - وَتَوَلَّى: تَصِيرُ. ذِيكَ: تِلْكَ. الصَّحْرُ: جَمْعُ صَحْرَاءَ. وَزَرَةً خَضْرَا: مَسَاحَةٌ خَضْرَاءَ. رُوسُ الْكِيفَانُ: أَعَالِي الْجِبَالِ.

5 - مَقْدُودٌ: لَهُ قَدٌّ حَسَنٌ. طَايِبٌ لِلْمَشْوَارِ: مُسْتَعِدٌّ لِلرَّحْلَةِ أَوْ النَّزْهَةِ. اعْطِيْلَانُ: مَسَاحَةٌ تَكْثُرُ فِيهَا النَبَاتَاتُ الْخَضْرَاءُ وَالْأَزْهَارُ الْبَرِّيَّةُ. اقْبَالُو: أَمَامَهُ: قَدَامَهُ.

الفصل الثاني:

رمز الثُّراث

1- مفهوم رمز التراث:

إذا أردنا أن ندرج تعريفا لرمز التراث، فيجب أن نعطي مفهومًا للتراث أولاً؛ حيث نعني بالتراث كل ما وصل إلينا منذ أقدم العصور، ممّا جادت به الذهنية العربية - إذا قصدنا التراث العربي - سواء أكان ذلك من خلال الرواية الشفهية أو من خلال ما تضمنته أمهات الكتب منذ أجيال خلت.

وللتراث مضامين مختلفة منها: الدين والأدب والفكر، والأسطورة والثقافة، وكذلك الفن والأخلاق.. والتراث هو المنبع الذي "يشارك في تكوينه وإمداده حاضر أي أمة، في واقعها الاجتماعي والسياسي والفكري والاقتصادي. أما ماضيها فإنه يمدنا بما يكتنزه الرافد التراثي من العصور المتعاقبة، من ضروب المعارف، والأحداث التاريخية، والإشارات الأسطورية والقصص الخرافية والحكايات الشعبية التي تتبع من اللاشعور الجمعي".¹

ومن المتعارف عليه أن كل أمة تستند في حاضرها ومستقبلها على ماضيها وتاريخها، وما يحتوي عليه هذا الماضي وهذا التاريخ من مواقف وأحداث تأخذ حيزاً في ذاكرة الشعوب والمجتمعات، وسواء كانت هذه المحطات مضيئة تستحق التقدير والاعتزاز أو عثرات وسقطات تدعو إلى التأمل والتفكير وأخذ العبر والعظات، كل ذلك يمكن الإنسان من الحصول على كم هائل من التراث والإرث التاريخي والثقافي الذي "يصلح لأن يكون زاد قوته في مراحل حياته المتعاقبة. ومن هنا جاء اهتمام الشعر العربي بالتراث والإرث العظيم الذي لا بدّ من الانتهاز منه قدر المستطاع، للوقوف أمام عاديّات الزمن المرّ الذي يواجهه".²

والتراث هو نبع دائم التدفق ينهل منه الشعراء في كل العصور، وهو الأرض الصلبة التي يبني عليها هؤلاء حاضرهم الشعري، فهم لا يلبثون أن يرتدوا إلى هذا الإرث في كل مرة تتعرض فيها أممهم لخطر معين يهدد كيانها.

1 - عدنان حسين قاسم: التصوير الشعري، ص197.

2 - عمر أحمد الربيعات: الأثر التوراتي في شعر محمود درويش، ص15.

وفي هذه الحالة لا يسع الشعراء إلا العودة إلى الماضي حيث التاريخ الحافل بالأحداث والمواقف والمعطيات والبطولات والشخصيات، وكل هذه العناصر هي جذور قومية يتركز عليها الشعراء في بناء رموزهم التراثية " والتراث واحد من تلك الجذور القومية التي تتركز عليها كل أمة في مواجهة أية رياح تحاول أن تعصف بوجودها القومي، فتمنحها إحساساً قوياً بشخصيتها القومية، ويقينا راسخاً بأصالتها وعراقتها " ¹.

والتراث يمثل امتداد الحاضر بالماضي، لذلك يبدو الرمز التراثي همزة وصل بين زمن الأجداد وحاضر الأجيال اللاحقة، وهو الرابط الذي لا تنفصل عقدة.

وليس للتراث قيمة في ذاته إلا "بقدر ما يعطي من نظرية علمية في تفسير الواقع والعمل على تطويره، فهو ليس متحفاً للأفكار نفخر بها وننظر إليها بإعجاب، ونقف أمامها في انبهار وندعو العالم معنا للمشاهدة و السياحة الفكرية بل هو نظرية للعمل، وموجّه للسلوك، وذخيرة قومية يمكن اكتشافها واستغلالها واستثمارها من أجل إعادة بناء الإنسان وعلاقته بالأرض " ².

والرمز من أهم عناصر هذا التراث، ويكمن تميزه فيما يقدمه من ثراء فنيّ وجمالي للقوائد، حيث يجدد الرمز التراثي بناء التاريخ ويعيد رسم معالمه حتى يتسنى للمتلقي قراءة هذا الماضي بطريقة دقيقة، وينتقده نقداً صريحاً؛ إيجاباً أو سلباً.

ويلجأ الشعراء إلى استخدام الرمز التراثي بهدف استحضار الماضي السحيق، وإحياء جذوره ونشره في ذاكرة الأجيال وإبعاده عن التزييف والتزوير والتحريف، وقد يكون في إحيائه دروساً وعبراً للأفراد والجماعات، فالرمز التراثي

1 - علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997، ص138.

2 - حسن حنفي: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1992، ص13.

إنّما "يحمل إلى جانب دلالاته الرمزية التي يوحي بها إحياء دلالاته الواقعية المادية التي لا يتخلّى عنها كلية، بل التي لا يتخلّى عنها إطلاقاً في بعض الأحيان، والمعنى الرمزي في أي رمز يتولد من خلال التفاعل بين هاتين الدالّتين، وقد لا يتولد المعنى الرمزي إلا من خلال تجرّد الرمز عن جانب كبير من مدلوله الواقعي المادي".¹

فالشاعر بتوظيفه للرمز التراثي يحاول إيصال تجربته الحديثة إلى المتلقي، وفي عملية التوظيف هذه يكسب رموزه غنى وشباباً وجمالاً وتجديداً، وقد يوفق الشاعر في جعل رموزه التراثية صوراً فنية متشعبة بدلالات الحاضر، وقد يخفق في ذلك. ومرد ذلك كله لموهبة الشاعر وقدرته الفنية على خلق صور رمزية ناطقة توحى بثراء صاحبها وبغنى مرجعيته الفكرية والثقافية والتراثية أيضاً.

والرمز التراثي هو "وسيلة إيحائية من أبرز وسائل التصوير الشعرية التي ابتدعها الشاعر المعاصر عبر سعيه الدائب وراء اكتشاف وسائل تعبير لغوية، يثري بها لغته الشعرية، ويجعلها قادرة على الإحياء بما يستعصي على التحديد والوصف من مشاعره وأحاسيسه وأبعاد رؤيته الشعرية المختلفة.. يبدأ من الواقع المادي المحسوس ليحوّل هذا الواقع إلى واقع نفسي وشعوري تجريدي يند عن التحديد الصارم".²

هذا يعني أن الرمز التراثي يجب أن يحمل دلالات الماضي ويقرنها بدلالات الحاضر، فيضيف الشاعر بذلك أغراضاً إنسانية لصوره الشعرية، ويجعلها تتمتع بمسحة فنية إبداعية لها دالتان: الدلالة الأولى هي الدلالة التراثية، والدلالة الثانية هي الدلالة الجديدة التي يشير إليها الشاعر في سياقه الشعري، والتي يلمح فيها المتلقي تجاربه الخاصة مرتبطة بتجارب السلف، وبالتالي يمكننا

1 - علي عشري زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، مصر، ط4، 2002، ص113/114.

2 - المرجع نفسه، ص: 107/104.

القول بأن الرمز التراثي هو عبارة عن خلاصة عامة لتجربة إنسانية جذورها الماضي وأغصانها الحاضر وثمارها المستقبل.

2- الشعراء والتراث:

يستمد الشعراء عناصر رموزهم من الواقع - عادة - ويلتجئون في غالب الأحيان إلى البحث والتنقيب في التراث رغبة منهم في تكثيف الحالة الشعورية لدى المتلقي، وذلك بخلق جوٍّ تراثي/ تاريخي داخل القصيدة يوحى بتجارب السلف ويعزّز في نفس الشاعر والمتلقي - أيضا - حب الاطلاع والرغبة في الاكتشاف، وقد يسعى الشعراء من وراء توظيفهم للتراث إلى التعبير عن معاناة الإنسان وأمله في الحرية والانعقاد من براثن العبودية والجهل والطغيان.

وقد يوظف الشعراء التراث تحقيقا لسعادة البشر من خلال الرجوع إلى الماضي الجميل والاستفادة منه بشتى الطرق وتعبيد أراضيته لتكون صالحة لاستخدامها من طرف جيل جديد يطمح إلى فهم الحياة بطريقة أفضل، وانتقادها بشكل أبلغ، هذا؛ لأن معطيات التراث وعناصره تملك قدرة هائلة على الإحياء بمشاعر وأحاسيس لا تتضب...

ويعمل التراث - أيضا - على "إيقاظ الشعور القومي وإبقائه حيًّا.. فهناك إحساس بأن الاتكاء على هذا التراث، لا يكفل التجاوب الأوسع مع ذلك الشعر وحسب، بل يقدّم أيضا شهادة على الاعتزاز بالموروث المشترك، ويكشف عن خوف دخيل من ضياع رابطة تعدّ مقدسة، حين تتعرض أقلية ما للانصهار في تيار كبير".¹

التراث إذا؛ يجدد الروابط بين الماضي والحاضر، ولا غنى لأي شاعر عن استخدام التراث في قصائده لأنه المصدر الخصب الذي لا ينفد له عطاء، وذلك لغناه بالرموز والأقنعة والأساطير والنصوص، لذلك يجب أن يكون الشاعر محاورًا جيدًا لفكر عصره وملاحظًا ممتازًا لتطوراته وناقداً مميزًا لأحداثه وتقلباته "بل عليه

1 - إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص119.

أن يشمل برعايته تلك الأساطير والرموز والنماذج القدوة أو الضاربة في عالم الشهرة.. القدرة على الجذب والدهشة والانتفاع بها من قبل الشاعر والمثلي¹.

واستخدام الشعراء للتراث - غالبا - ما يكون على شكل رموز موحية، يقتطفها الشاعر اقتطافا، ويجعلها رهن تصرفه، لتمده بطاقات إيحائية؛ وتدرج الشخصيات التراثية ضمن هذا الإرث الحضاري التاريخي، أين ترتبط هذه الشخصيات بقضايا معينة: اجتماعية أو فكرية أو سياسية أو حضارية أو فنية أو عاطفية أو دينية أو ثورية.. وعلى حسب حياة الشخصية يكون عنوان القضية التي يريد الشاعر أن يجعلها رمزا من رموزه التراثية.

والشخصيات والأحداث لا تنتهي - عبر التاريخ - بوجودها الواقعي، بل تحتفظ بدلالاتها الشمولية الممتدة عبر هذا التاريخ، ويتم توظيفها من قبل الشعراء لاستلهم هذا الأخير وتوظيفه للوصول إلى تحقيق غاية شعرية تؤدي دلالة جمالية وفكرية و "هكذا تكتسب تجربة الشاعر المعاصر باستدعاء هذه الشخصيات التراثية غنى وأصالة وشمولا في الوقت ذاته.. وتكتسب أصالة وعراقة باكتسابها هذا البعد الحضاري التاريخي، وأخيرا تكتسب شمولاً وكلية بتحررها من إطار الجزئية والآنية إلى الاندماج في الكلي وفي المطلق"² حيث يتخذ الشاعر من هذه الشخصيات ألقعة معينة ورموزا، وهدفه من خلال ذلك هو التعبير عن موقف يريده أو انتقاد ومحاكمة نقائص عصره من خلالها.

وقد تشمل الشخصيات التراثية/ التاريخية أصنافا من الطبقات البشرية نذكر منها: الفرسان، القادة، الثوار، الملوك، القلاع، الصعاليك، العلماء، المدن، رجال الدين، الأولياء الصالحون، الأئمة، الشعراء والعشاق...

وتوظيف الشخصيات التراثية؛ إنما هو عودة الشاعر إلى التاريخ، وقراءته من زاوية أدبية تبعث الروح في الأحداث والمواقف، وتجعلها نابضة بالحياة، قادرة

1 - عمر أحمد الربيعات: الأثر التوراتي في شعر محمود درويش، ص21.

2 - علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص17.

على استيعاب أبعاد تجربته الشعرية، وأكثر طواعية للشاعر على التعبير عما يكنه من مشاعر وأحاسيس.

3- رموز التراث في الشعر الشعبي:

يستدعي شعراء القصيدة الشعبية الرموز التراثية/ التاريخية بشكل واسع، وتظهر هذه الرموز بشكل جليّ في قصائدهم، وذلك نتيجة تأثرهم بالتراث العربي عامة والتراث المحلي بشكل خاص، وينفرد شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة بتوظيف رموز تراثية معينة، تدل على صدق مشاعرهم، وإخلاصهم للموروث الذي تركه لهم الأجداد عبر مختلف العصور.

وتعدّ الشخصيات التراثية/ التاريخية بالنسبة إلى هؤلاء الشعراء أهدافا للوصول إلى غايات سامية ونماذج أسمى لناشئة وجيل يسير على نهج قويم رسمه أسلاف هذه الأمة، ويجب أن يتبناه الخلف من بعدهم تمثلا واقتداء. والشاعر إنما يفعل ذلك بمدعاة توجب عليه أن يوقظ القلوب النائمة، ويشحذ الهمم الجامدة، فهو يربط الماضي بالحاضر ويجعل من الماضي صورة ناطقة يجب أن تنعكس على الزمن الحاضر بأحداثه وشخصياته وتطوراته وأمكنته.

ويدل استخدام شعراء منطقة بوسعادة للرمز التراثي/ التاريخي في مختلف قصائدهم على عمق ثقافتهم ونضجهم الفكري والثقافي وتجاربهم الواسعة، وتمثل الشخصيات التراثية/ التاريخية أهم هذه الرموز المستخدمة، وهم في استدعائهم لهذه الشخصيات يحاولون إسقاطها على واقعهم المعيش، ورغم ذلك فإنهم يراعون التوظيف الحسن الذي يعطي الدور الأمثل لكل شخصية بما يضيف للقصيدة من الدلالات العميقة الكثير.

ويبدو أن هؤلاء الشعراء لا يهتمون بتصوير الشخصيات التراثية تصويراً فوتوغرافيا، ولا ينقلون ملامحها كما وردت في المصادر التراثية، وإنما همهم

الأكبر هو جعل هذه الشخصيات تتناسب وزمنهم الحالي الراهن (الآني) لتصبح هذه الشخصيات التراثية بذلك رموزاً ناطقة وناقلة لأحداث التاريخ الذي سجله الشعراء وحاولوا استنطاقه باستدعاء أبطاله.

وقد تنوعت رموز هذه الشخصيات، ويمكن تصنيفها على الشكل التالي:

- أولياء صالحون
- بأئمة ورجال دين
- ثوار ومجاهدون
- شعراء وعشاق

ولا بأس، بعد هذا التصنيف من تفصيل كل عنصر على حدا، وتبديد أي غموض يعتري هذه العناصر المندرجة تحت هذه العناوين.

1.3 - أولياء صالحون:

تُعرف منطقة بوسعادة منذ نشأتها باحتوائها على العديد من أولياء الله الصالحين؛ الذين تتسبب إليهم بعض الأماكن، أو تسمى بأسمائهم، أو يكون أحد هؤلاء الأولياء جَدًّا لأفراد ذلك المكان، وقد يعرف بعض هؤلاء الأولياء بكرامات ومعجزات وأساطير؛ وربما يكون لعامل الرواية الشفهية جانب مهم في نقل هذه القصص التي يحتار المتلقي بين تصديقها - كما رويت - وبين تكذيبها أو استخدام العقل والمنطق في اكتشاف الخطأ من الصواب، كما أن هناك أولياء صالحون من خارج المنطقة فرضوا على الشعراء تدوين أسمائهم بحروف من ذهب.

ولكن المهم هنا، أن شعراء منطقة بوسعادة تفتنوا في استدعاء هذه الشخصيات، وجعلوا منها رموزاً بالغة الأثر، موحية بالكثير من الدلالات والمعاني، حاملة للعديد من القيم النبيلة التي يحاول الشعراء زرعها في المتلقين. وهي قيم مبنوثة في قصائدهم، صالحة لأي زمان ومكان، لأنها صفات الإنسان

المسلم التي يجب أن يتحلى بها كل فرد. حيث صارت هذه الشخصيات لازمة من لوازم سكان المنطقة وفخرا وذخرا لهم، وما تركيز الشعراء على التغني بها في قصائدهم إلا لأنها ذات أهمية وتأثير بالغين.

1.1.3 - سيدي محمد نايل:

قبل أن نفصل في حالات هذا الرمز الموجود في قصائد الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة، يجب أن نتعرف أولاً على هذه الشخصية؛ فسيدي "محمد نايل" هو "محمد نايل بن عبد الله بن علال بن موسى بن عبد السلام بن أحمد بن علال بن عبد السلام بن مشيش بن بوبكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن علي حيدرة بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبطي بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -"¹ وهو ولي صالح ينسب إليه أغلب سكان منطقة بوسعادة، وهو الجد الأكبر لهؤلاء السكان وما يجاورهم، حيث يتوزع أحفاده اليوم في المناطق الوسطى من الجزائر، والحديث عن حياته وكراماته وأحفاده يطول بنا، لذلك سنقتصر على حالات الرمز الموجودة في أبيات الشعراء.

في قصيدة من أجمل وأروع قصائد المدح للشاعر المرحوم "محمد الريغي شبيبة"؛ يستجد الشاعر من خلالها بقوم أولاد نايل، ويطلب منهم مآزرتة حتى يُعفى ابنه "شبيبة شبيبة" من التجنيد الإجباري عام 1942. يقول الشاعر في بداية قصيدته:

أَصْلُ الْجَوْدَةِ وَالْحَنَانَةِ غَرْبِيَّةٌ	وَأَضْنَانِيَّةٌ لَشَرَفٍ لَا مَنْ يَصْنَفَاهُمْ
أَهْلُ الْجَوْدَةِ وَالْكَرَمِ وَالزُّمِيَّةِ	يَتَعَيَّنُ حُبُّ الْغَرِيبِ إِلَيَّ جَاهُمْ
أَهْلُ الْجَوْدَةِ وَالصَّبْرِ نَجْعٌ امْخَيَّرُ	اخْلَقْتَهُمْ رَبِّي وَصَوَّرَ وَأَنْشَاهُمْ ²

1 - عامر بن المبروك محفوظي: تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل، مطبعة النعمان - الريدو -

الجزائر، ط1، 2002، ص10.

2 - الأبيات مشروحة سابقاً.

ويضيف الشاعر قوله بعد هذه الافتتاحية المثيرة وقد كشف عن رمزه:

زَيْنٌ حُسْنٌ اقْلُوبُهُمْ مِثَالُ آخِرٍ فِي كُلِّ اطْبِيعَةٍ عُيُونُكَ تَرْضَاهُمْ
أَوَّلُ فَازُوا بِالسَّخَاوَةِ وَالنِّيَّةِ يَرْحَمُ مِنَ الْآبَاءِ مَنْ هُوَ بِآبَاهُمْ¹
سَيِّدِي نَائِلٌ مَا ضُنَاتُو ضُنَائِيَّةِ خَلَّاهَا خَضْرَا أَوْلَادُو سَعَاهُمْ²
اغْرَسَهُمْ بِالْمَالِ شَتَّى مِنْ دُنْيَا حَتَّى مِنْ لَوْلَادِ رَبِّي سَجَّاهُمْ³
سَكَّانُ ابْرِيَجَاتٍ وَابْيُوتِ أَذْرِيَّةِ وَأَمْرَاحَاتٍ امْكَيْلَةَ مَالٍ اخْذَاهُمْ⁴
أَكْثَرَهُمْ مَلُوكُ رَجَالَةٍ غَنِيَّا مِنْ رَحْمَةِ لِقْلُوبِ رَبِّي كَفَاهُمْ⁵

تحمل هذه القصيدة التي خص بها الشاعر الولي الصالح "سيدي محمد نائل" وأحفاده بين ثناياها قيمًا عديدة وصفات حسنة تحلّى بها هذا الولي الصالح وبثت من بعده في أولاده وأحفاده بالسليقة والفطرة وبطريقة عفوية، ومن خلال هذه الصفات يتضح بأن هذه الشخصية التراثية هي رمز لكل القيم المذكورة في الأبيات السابقة؛ فسيدي "محمد نائل" عند شعراء بوسعادة هو رمز للجود والحنان والشرف والنسب الأصيل والكرم والوفاء بالوعد والصبر وجمال الخلق والخلق وصفاء النية وكثرة النسل والثراء والسلطة والملك والرئاسة ورحمة القلب. ولا يكتفي الشاعر بدلالات الرمز السابقة، وإنما يضيف إليها الدلالات

الموجودة في الأبيات التالية:

أَهْلُ امْحَاصِنُ فِي الرُّوَاوَاتِ اتَوْنُونُ مِثْلُ ثَعَابِنُ يَأْكُلُو فِي بَعْضَاهُمْ⁶
وقوله:

1 - السَّخَاوَةُ: السَّخَاءُ.

2 - مَا ضُنَاتُو ضُنَائِيَّة: لم تلده امرأة ولود. خَلَّاهَا خَضْرَا: تركها خضراء.

أَوْلَادُو: أولاده. سَعَاهُمْ: من الفعل: سعى، يسعى، يعني: ترك لهم الكثير من الخيرات.

3 - اغْرَسَهُمْ: غرسهم. سَجَّاهُمْ: أصلحهم (جعلهم صالحين)

4 - ابْرِيَجَاتُ: أبراج، جمع: برج (المسكن العالي). امْرَاحَاتُ: جمع: امْرَاح: مكان واسع تستريح فيه الأنعام كالزريبة وغيرها. امْكَيْلَةَ: مليئة.

5 - رَجَالَةُ غَنِيَّا: رجال أغنياء. كَفَاهُمْ: كافأهم.

6 - امْحَاصِنُ: أحصنة. اتَوْنُونُ: تصدر أصواتا قوية. ثَعَابِنُ: ثعابين.

جَيْتَ امْدَوَّرَ ذَا اقْبَلْنِي لِمَنْوَرٍ نَائِلٌ لَخَضَرَ طَبُّ لَجْرَاحِ ادْوَاهِمُ¹
أَدَا يَقْبَلْنِي يَتَفَكَّرُ وَاشْ حَالُ ابْنِي يَنْعَرُ عَنِّي كَانَهُوَ رَاجِلٌ فَاهِمُ²

المولى الصالح "سيدي نائل" هو رمز - أيضا - للفروسية والفتنطازيا والبطولة، وفيه دلالة على النور والشفاء والنجدة والغوث.

وهناك أبيات أخرى في القصيدة نفسها تحمل معاني النظام والترتيب وتوحي بالانضباط وحسن التنظيم والتخطيط وكثرة السفر ودوام الترحال مما يدل على الجدّ والنشاط بالرغم من صعوبة الحياة وتعقد ظروفها. يقول الشاعر واصفا قوم أولاد نائل:

أَهْلُ الْخَيْلَةِ وَالْمَحَاصِنِ وَالرَّحْلَةِ وَالْمَوَالَةِ فِي النُّسُوطِ تَلْقَاهُمْ³
يَوْمَ الرَّحْلَةِ يَزْفِدُوا قَاعَ الْعَوْلَةِ سَمِيدٌ وَدَقْلَةٌ كُلُّ شَيْءٍ كَانَ مُعَاهِمُ⁴
تَائِي وَفُهْوَةٌ فِي الصَّنَادِقِ وَالْحَلَوَى عَنْهُمْ دَعْوَةٌ ذِي نُخِيرَةٍ بَابَاهُمْ⁵

وكلمة "باباهم" في البيت الأخير تعني جدّهم الأكبر "سيدي محمد نائل" وقد أشار الشاعر من خلال هذه الكلمة إلى دلالات عميقة؛ حيث يرمز الأب إلى الأمان والاستقرار والطمأنينة وإلى الحب والحضن الدافئ والعطف والحنان، وقد نسب الشاعر لفظة الذخيرة لهذا الأب الصالح وجعلها من أهم عاداته وأعماله سواء في الحلّ أو الترحال.

والدلالات نفسها نجدها عند الشاعر "إسماعيل مدّاد" الذي يجعل رمزه ناطقا موحيا بالتقوى وحسن النوايا والزهد والتصوف، حيث يقول:

بِرُّ النِّيَّةِ وَالزُّهْدِيَّةِ وَالْمَقْبُولِ سَيِّدِي نَائِلٌ يَا الْفَاهِمُ مَغْنَايَا⁶

1 - جَيْتَ امْدَوَّرَ: أتيت عائداً. لِمَنْوَرٍ: المنير. ادْوَاهِمُ: دواؤهم.

2 - يَنْعَرُ عَنِّي: يُنْجِدُنِي.

3 - الْمَحَاصِنُ: الأحصنة. الرَّحْلَةُ: الرحلة. الْمَوَالَةُ: جمع: موال.

4 - يَزْفِدُوا قَاعَ الْعَوْلَةِ: يأخذون كل الزّاد.

5 - تَائِي: شاي. الصَّنَادِقُ: الصناديق.

6 - الزُّهْدِيَّةُ: الزُّهَاد. الْمَقْبُولُ: لفظة من ألفاظ المتصوفة، بمعنى: الإنسان الذي جعل المولى عز وجل له القبول في الأرض فأحبّه الناس.

فسيدي نايل عند الشاعر هو رمز للإيمان الصادق وحب الذات الإلهية وحب البشر والقبول في الأرض.

وفي قصيدة "قَبْلُ قَبْلُ" للشاعر ذاته، يفخر فيها بانتسابه لهذا الولي الصالح، ويجعل من هذا الشيخ رمزا للشهرة وكثرة النسل وصفاء العرق ونقاء السريرة والانتشار في الأرض، بالإضافة إلى جمال الوجه والجسم والحياء والحفاظ على الشرف والعقل السليم ونصرة الحق والابتعاد عن الظلم والعمل بنظام الجماعة والمحافظة على هذه العادة العربية الإسلامية الأصيلة، والشاعر من خلال وصفه هذا يحاول تأصيل هذه القيم في المتلقين، حيث يقول في أبياته التالية من دون ترتيب:

سَيِّدِي نَائِلٌ فِي الصَّحْرَا وَلَا فِي التَّلِّ	مَوْلَى الْجَوْدَةِ وَالْكَرَمِ رَبِّي عَاطِيَه
زَيْنُ ابْلَادِي نَائِلِي رَاهُ إِيهَبْلُ	الْحَزْمَةُ وَالْحَشْمَةُ وَالْعَقْلُ امْوَاطِيَه
ارْجَالُ الْمِيْعَادِ عَالِحَقْ اتَعَوْلُ	مَا فِيهِمْ مَظْلُومٌ وَلَا ظَالِمٌ لِيَه

أما الشاعر "السعيد بوعشرين"؛ فيجمع الخصال السابقة ويضيف إليها خصالا أخرى يراها تنطبق على مجتمع أولاد نايل الذين ورثوها عن جدّهم الأكبر "محمد نايل".

والأبيات المختارة التالية تعدد هذه الخصال، حيث يخاطب الشاعر أصحابه طالبا منهم الذهاب معه في نزهة إلى ولاية الجلفة أين يتمركز أولاد نايل ويتخذون مقرّهم:

فِيهَا نَاسٌ اشْرَافُ كُورَامَةٍ وَافْحُولُ	سَيِّدِي نَائِلٌ ثُمَّ دَائِرُ خَصَلَاتُو
بَيْتُ النَعْرَةِ وَاجْدَةٌ فِيهَا لَخْيُولُ	كُلَّ آخَرٍ قَمَقْمُومٌ سَجَلُ شِيْعَاتُو ¹
وَاسْبُوعَةٌ بِالْمَالِ زَاخُو يَا مَهْبُولُ	ثُمَّ حَطُّ الْخَيْرِ دَارُ امْبَاتَاتُو ²
عَرْشُ الْفَخْرَةِ شَاغُ بِيْبَالِ الْمَرْحُولُ	وَارْجَالُ الْبَارُودِ تَحْزُرُ طَلَاتُو ³

1 - النَعْرَةُ: النجدة. قَمَقْمُومٌ: شجاع.

2 - شَرْحُ الْبَيْتِ سَابِقًا.

3 - بِيْبَالُ الْمَرْحُولِ: بِإِبِلِ الرَّاحِلَةِ.

وَهَالَةَ بِالضَّيْفِ مَنْ قَبْلَ النَّزُولِ
لَحْمٌ مُصَوَّرٌ وَاللَّحْمُ مَا هُوَ مَفْصُولٌ
سَيْدِي نَائِلٌ خَيْرَتُو مُحَالٌ اِتْرُولُ
وَوَلَادُو تَبْعُوهُ فَالْخَصَلَاتُ اصُولُ
اِذَا رَكَبُوا يَعْجُبُوكَ اَيَّامُ الْهُـوْلُ
سَعْدُ اِلَيَّ نَعْرُوهُ فَرَسَانُ الْمَقْبُولُ
يَنْدَهُ بِيَهُمْ كُلُّ مَنْ هُوَ مَذْلُولُ
وَقَتَّ الضَّيْمُ اَرْجَالَهُمْ كَانُوا لَفْحُولُ
وَاتَفَرَّقُوا فِي كُلِّ جِيهَةٍ صَالُوا صَوْلُ
عَطَّاءُ الْاَوْعَارُ جَمْلَةٌ وَالسُّهُـوْلُ
اُخْلِبُ وَغُرْجُونُ جَا مَنْ نَخَلَاتُو¹
وَاطْعَامُ الْمَسْفُوفِ فَلَكَ عَطَّاءُو²
دَارُ الْخَيْرِ وَنَالَ كَيْلٌ هَيْلَاتُو³
عَمُو عَلَوَّطَانُ زَادُو فُخْرَاتُو⁴
نَعْرَةُ لِلْمَضْيُومِ فَرَسَانُو جَاتُو⁵
نَحَّاحِينَ الضَّيْمِ وَقَتَّ اِنْهَارَاتُو⁶
يَهْنَى بِأَنْ لَهِىَ تَذَهَبُ شَدَّاتُو⁷
فَالثَّوْرَةُ ذُ الْبَرِّ كَانُوا حُومَاتُو
هَبُّوا لِلْجِهَادِ رَفَعُوا رِيَاتُو
بُجْحَافِلُ لَحْرَازِ ضَحَّاءُ وَمَاتُوا

يعدد الشاعر - في الأبيات السابقة - محاسن الولي الصالح "سيدي محمد نائل" ويتحدث عن أحفاده الذين تبعوه واتبعوا سيرته، ويجعل من الشيخ وأحفاده رمزاً للكرم والإباء والشجاعة والنجدة والغوث والشهرة والغنى والثراء والفخر والفتنطازيا، وهم كذلك يرمزون للجهاد والتضحية من أجل الوطن ومن أجل الدين والحفاظ على الأرض ووجوب فدائها بالنفس والمال والولد. والرموز نفسها أشار إليها الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدته الشهيرة "البيت الحمراء"، حيث يجملها في الأبيات التالية:

- 1 - وَهَالَةَ: من قولهم (أهلاً) ترحيباً بالضيوف: مُرَحَّبِينَ.
- 2 - لَحْمٌ مُصَوَّرٌ: لحم مشوي بطريقة خاصة، حيث توضع الشاة بعد ذبحها وتفتيتها وتتبيلها مرتفعة فوق النار، ويستمر صاحبها في تقليبها حتى تتضج. طَعَامُ الْمَسْفُوفِ: هو الطبق المعروف بالكسكس أو البريوشة. فَلَكَ: جزء من الشاة يطبخ دون أن يفصل عن بعضه البعض.
- 3 - خَيْرَتُو: خيراته. كَيْلٌ هَيْلَاتُو: نال الجزاء والثواب.
- 4 - وَوَلَادُو: وأولاده. عَمُو عَلَوَّطَانُ: انتشروا عبر كل مناطق الوطن.
- 5 - شَرَحَ هذا البيت سابقاً.
- 6 - نَحَّاحِينَ الضَّيْمِ: مُبْعِدِينَ الْحُزْنَ وَالْأَلَمَ وَالظُّلْمَ.
- 7 - يَنْدَهُ بِيَهُمْ: ينادي عليهم ويطلب منهم المساعدة.

وَأَرْفَاقَةً تَفْجِي عَلَى الْقَلْبِ الْكَشْرَةَ
مَرْكُوبُ عَوْدَاتٍ تَعَزَّمُ لِلْخَطَرَةِ
وَزُويْجَةً بِالْمُنْقَلَةِ تَفْجِي الْحَيْرَةَ
وَالسَّيْفَ الثَّمَاعَ حَدٌّ مِنْ الشَّقَرَةِ
وَالْفَرَسَانَ تَخَزُّ بِمَحَاصِنِ حُرَّةٍ
فِي سَاحَتِهِمْ مَا تَحْسُسُ بِالْحُقَرَةِ
مَتَوَجِّدٌ وَخَفِيفٌ شَاطِرٌ لِلنَّعْرِ
هَلْ غَيْرَةٌ وَزُنَادٌ مَا فِيهِمْ عُرَّةٌ
كُرْمًا وَابْطَالًا وَأَمَالِي كَسْرَةٍ
رَحَابَةً بِالضَّيْفِ كُلُّ آخِرٍ تَلْقَاهُ¹
مَتَوَلِّعٌ بِالصَّيْدِ وَمِنْ الصُّغَرِ اشْتَاهُ²
زُبَاعِي مِنْ جَعْبَاتِهَا فَارِسٌ لِقَاهُ³
مُعَلَّقٌ عَلَى لَيْسَرٍ مَطْبُوعٌ جَوَاهُ⁴
مِنْ عَنَدُو مَقْرُوسٍ فِي الطَّرْحَةِ دَنَاهُ⁵
وَلَدُكَ نَائِلٌ سَعْدٌ مِنْ يَنْدَهُ بِسَمَاهُ⁶
نَجْدَةٌ لِلْمَضْيُومِ يَهْرَبُ تَحْتَ حِمَاهُ⁷
يَا سَعْدُ الْيَّ دَارَهُمْ فِي الْجَارِ اخْذَهُ⁸
يَاضِيفُهُمْ ذَا بَيْتِكُمْ وَأَنْتَ مُوَلَاهُ⁹

ويختم الشاعر أبيات المدح هذه ببيت يفخر فيه بانتسابه لهذا الولي الصالح، فيقول:

سَيْدِي نَائِلٌ شَاعَ فِي التَّلِّ وَصَحْرًا حَكْمَةُ رَبِّي كُلُّ مَا يَتَّبِعُ مَجْرَاهُ

تلخّص الأبيات السابقة الذكر رموزاً عديدة توحى بدلالات عميقة تشير كلها إلى الأصل العريق والنسب العربي، من هذه الدلالات التي ذكرها الشاعر في أبياته: المحبة بين الأفراد والاتحاد والترحيب بالضيوف والكرم والفروسية وحب الصيد والتمتع بالحياة والفتنطازيا ونجدة المستغيث ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف

1 - أَرْفَاقَةً: رفاق. تَفْجِي: تفرّج. الْكَشْرَةُ: الحيرة والتعب. رَحَابَةً: مُرَحِّبِينَ.

2 - مَرْكُوبُ: راحلته التي يركبها. تَعَزَّمُ لِلْخَطَرَةِ: تهبّ للسفر وتستعد له. مَتَوَلِّعٌ: محبّ وعاشق. اشْتَاهُ: أحبه وولع به.

3 - زُويْجَةً بِالْمُنْقَلَةِ: نوع من بنادق الصيد.

4 - مَطْبُوعٌ جَوَاهُ: عليه طابع يميزه.

5 - مُحَاصِنٌ: أحصنة. مَقْرُوسٌ: هو الذي وفر له صاحبه الأكل والشرب والراحة.

6 - الْحُقَرَةُ: الظلم.

7 - حِمَاهُ: حمايته.

8 - هَلْ غَيْرَةٌ: أهل نخوة وحماسة.

9 - وَأَمَالِي كَسْرَةٍ: أهل خبز وطعام: صُنَاعٌ معروفٌ وخيرٍ.

والإحسان إلى الجار والجود والبطولة والشهرة والانتشار في الأرض. وفي الشطر الثاني للبيت الأخير (حكمة ربّي كلّ ماء يتبع مجرّاه) صورة بيانية رائعة، هي كناية عن الرجوع إلى الأصل فكل فرع جذر، ووراثه فعل الخير هي صفة متأصلة في هؤلاء الأحفاد إلى يوم الدين.

وهي المعاني والدلالات نفسها التي ذهب إليها الشاعر " أحمد وليد بن القبي " في أبياته التالية:

ادعينا بالخير يا نايل لفخار	وَبُنْ الْقَبِي دَعْوَتُكَ يَتَرَجَّاهَا
رَاهُ ابْنَدَهُ فَيْكُ كُلُّ لَيْلَةٍ وَنَهَارٍ	جَمْعُ الْوُلِيَا خَاطَرُو مَا يَنْسَاهَا ¹
بِلَادُ الْجُودَةِ وَالْكَرَمِ وَاهْلُ الْمَشَوَارِ	سَيْدِي نَائِلُ ذِي قَوَاشِي خَلَاهَا ²
خَلَاهَا مَشْتَّةٌ فِي بَيْتٍ وَدَارٍ	كُلُّ وَاحِدٍ وَبَلَّاسْتُو مَا يَنْسَاهَا ³

الولي الصالح "محمد نايل " في هذه الأبيات هو رمز للتقى والصلاح والإيمان الصادق، وهو رمز للدعاء المستجاب والتوسل إلى المولى عز وجل، والنجدة والكرم والفتنطازيا والفروسية وعمارة الأرض وكثرة النسل وحسن الجوار والنظام والاحترام المتبادل.

وفي اشتياق الشاعر إلى أبناء قومه أولاد نايل عندما لا يجد وسيلة لرؤيتهم لا تسعفه إلا الكلمات يعبر بها عما يختلج في صدره من حنين وألم مرّ جراء فراقهم، حيث تجره دموعه إلى تذكر عهده بهم، فيعدد خصالهم وصفاتهم واحدة واحدة في الأبيات التالية بدون ترتيب لورودها في قصيدته:

أَهْلُ مُحَاصِنٍ يَكْسُبُوهُمْ لَلْمَشَوَارِ	رَكَبِيَّاتٍ مُسَلَّسِينَ وَيُطَوَّالُو
الفرسانُ ايجُوا اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ اَعْبَازِ	البارودُ ايفَزُ حَوَزَاتِ اَكْحَالُو
ذَرِيَّةُ الْمَقْبُولِ وَالشَّرْفَةِ لَحَرَارِ	مَنْ عَادَاهُمْ مَا بَقِيَ حَقٌّ اَيْنَالُو

1 - جَمْعُ الْوُلِيَا: جماعة الأولياء. خَاطَرُو: خاطره.

2 - قَوَاشِي: شعوب؛ والمقصود هنا: مجموعة من الناس.

3 - مَشْتَّةٌ: مُسْتَتَّةٌ. بَلَّاسْتُو: كلمة أجنبية؛ بمعنى: مكانه.

يَتَكَسَّرُ وَيَزِيدُ يَغْمَى فِي لَبْصَارِ يَتْلَهُوثُ وَيَعُودُ مَا يَعْرِفُ وَالْوُ¹
 إِذَا حَضَرُولُكَ فِي نَهَارِ نَتَاعِ انْفَازِ رَجَالَةَ زَيْنَيْنِ لِلرَّيْمِ إِيْوَالُو
 عَلَيْهِمْ دَعْوَةُ جَدُّهُمْ لَدَرَمَ حَيْدَارِ سِيدِي نَائِلِ سَعْدُ مَنْ دَارُو قَالُو²
 وَضَامُنْ فِيهِمْ رَاهُ شَيْخِ انْتَاعِ افْحَارِ سَارْحُ بِيهِمْ كِي الْيِّ سَارْحُ مَالُو³

أولاد ناييل؛ هؤلاء القوم العرب الأقحاح لازالوا يحافظون على العادات والتقاليد، ومن ذلك تربية الخيول والاعتناء بها، وإجراء المباريات في الهواء الطلق أين تُجرى سباقات الخيول ترافقها طلقات البارود وزغاريد النساء والعزف على الآلات الموسيقية كالبندير والفصبة، هؤلاء القوم لا يظلمون أحداً، ولكنهم إذا تعرضوا للظلم لا يغفرون، وليس الأمر بأيديهم، وإنما هي حكمة الخالق عز وجل في أرضه، والمولى سبحانه وتعالى هو الذي يتولى ردّ المظالم عنهم، فهم من شدة تقواهم وطيبة قلوبهم وحسن نواياهم وجمال أخلاقهم وصفاء قلوبهم ورجاحة عقولهم وعفة أنفسهم وخفة أرواحهم لا يرفعون أيديهم إلى المولى تبارك وتعالى بالدعاء إلا استجاب لهم، وصفة الدعاء المستجاب هي من كرامات الشيخ "سيدي محمد ناييل".

الولي الصالح "محمد ناييل" في الأبيات السابقة الذكر هو رمز للحياة السعيدة والأيام الجميلة والرضا والحبور والسرور؛ من مظاهر هذه الفرحة والبهجة ميادين الفروسية والفرنطازيا وسباق الخيل، ومن دلالاته - أيضاً - حب الحياة والرغبة في الاستمتاع بها بكل تفاصيلها. وقد نقرأ في ثنايا الاسم "محمد ناييل" دلالات ومعان لا حصر لها؛ فمحمد هو الاسم الذي أطلق على خاتم الأنبياء والمرسلين وخير البشرية جمعاء رسول الله وحبيبه صلى الله عليه وسلم ومحمد هو صيغة مبالغة من الحمد؛ ومعناه: المحمود الخصال، المثني عليه، المشكور،

1 - يَتْلَهُوثُ: يضطرب ويختلط الأمر عليه. مَا يَعْرِفُ وَالْوُ: لا يعرف أي شيء.

2 - لَدَرَمَ: الشجاع الفطن. حَيْدَارُ: نسبة إلى حيدرة؛ اسم من أسماء الأسد. دَارُو قَالُو: اتَّخَذَهُ فَأَلَّا حَسَنًا.

3 - افْحَارُ: الأيام الصعبة الشديدة. سَارْحُ: من الفعل سَرَحَ يَسْرَحُ بمعنى: رَعَى يَرْعَى، سَارَحَ بمعنى راعٍ.

مَالُو: أنعامه.

المرضيّ الأفعال، المفضل، وبعد هذا، أليست هذه الخصال وغيرها هي صفات الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ومن ثمّ توارثها الأجيال من بعده؟! إنّ اتصاف الولي الصالح "سيدي محمد نايل" بخصال الرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - هي التي جعلت منه رمزاً لشخصية فاضلة مثالية أخذت من اسم "محمد" كل المعاني والدلالات السابقة، وما لقب "نايل"¹ الذي ألحق بهذا الولي الصالح إلا تأكيد على حسن سيرة هذا الشيخ وكثرة علمه وشهرته التي بلغت الآفاق...

2.1.3 - سيدي خالد²:

وليس بعيداً عن الشيخ "سيدي محمد نايل" هناك الولي الصالح "سيدي خالد" الذي أسس البلدة التي سميت باسمه فيما بعد. يُعدّ هذا الولي الصالح رمزاً شامخاً من رموز هذه البلدة، وعنواناً على صلاح أهلها وتقواهم، واعتزازهم وتبجيلهم لهذا الشخص/ الرمز، وقد ورد ذكره في قصائد الشعراء؛ وتغنّوا بأمجاده ومفاخره، وعدّدوا خصاله ومناقبه، وافتتتوا بسكان بلدته المنتسبين إليه. وقد تصدر هؤلاء الشعراء ابن مدينة "بن سرور" الشاعر الفحل "السعيد بوعشرين" الذي أفرد قصيدة في مدح هذا الولي الصالح حيث يقول متمنياً زيارة المكان:

مَتَوَحَّشٌ يَا خَاوَتِي لَيَّا مُدَّةً هَبُّ الْخَاطِرِ بِرُكْمِ شَاتِي نَصْفَاهُ³
جَالِبِنِي رِيحَ الْهَوَى مَابَا يَهْدَا وَاشْ اِيْدِيرِ اَلِّي اسْلَطْ بِيَهْ اِهْوَاهُ⁴

1 - نائل: اسم فاعل من الفعل نَالَ يَنَالُ بمعنى: أعطى أو ضده: أخذ، ونائل تعني: المحظي أو من قُوم له هدية أو عطية، وقد تدل على المُعطي أي المانح.

2 - سيدي خالد: هو خالد بن سنان بن غيث بن مريطة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبيس، مضري عبيسي، وليّ صالح، يتواجد قبره - حسب ما يرويه أهل المنطقة - بالبلدية التي تحمل اسمه (سيدي خالد) الواقعة في ولاية بسكرة. يقال أنه عاش في الفترة ما بين عيسى - عليه السلام - ومحمد - صلى الله عليه وسلم.

3 - مَتَوَحَّشٌ: مشتاق. خَاوَتِي: إخوتي. شَاتِي نَصْفَاهُ: أودّ الذهاب إليه.

4 - مَابَا يَهْدَا: لم يرد أن يهدأ. معنى البيت الثاني: ماذا يفعل وكيف يتصرف من سُلط عليه هواه!؟

لُسَيْدِي خَالِدٌ رَاخَتِي لِأَزْمِ نَقْدًا ذَا قُطْبُ الصُّلَاخِ نَابِي فِي مَبْدَاهُ¹

اشتاق الشاعر إلى مدينة "سيدي خالد" وأخذ الحنين إلى أبنائها فرحل إليهم في نزهة عبر مخيلته في قصيدة تشبه إلى حدٍّ ما معزوفة موسيقية من خلال قافيتها في كلا الشطرين؛ حيث استخدم الشاعر حرف الدال المنصوبة في الأشطر الأولى وحرف الهاء الساكنة التي يسبقها حرف مد ساكن يتمثل في الألف الطويلة الساكنة، إضافة إلى استخدامه الواضح لحروف القلقة وحسن تجاور الكلمات وتناسق أصواتها في عذوبة تجعل المتلقي يشعر بلذة عميقة ولا متناهية. ينتج عن استمتاعه هذا تعلقه بالقصيدة وطربه بها وانجذابه إلى معانيها.

ومن ثم يبدأ الشاعر في كشف دلالات رمزه التي يفتحها بنجدة المظلوم أو المصاب بهمٍّ وغمٍّ وذلك بعد الصلاح والتقوى التي ذكرت في الأبيات السابقة، يلي ذلك دلالات عديدة رتبها الشاعر في الأبيات التالية:

جِيَتْ أَقْبَالُهُ لِلسَّبْعِ زَيْنُ الْهُدَى	نَعَارَ إِلَيَّ جَاءَ قَاصِدٌ وَاتَّعْنَاهُ ²
سُلَالَةُ لُشْرَافٍ عَبْسِي فَالْمَبْدَا	وَالِي قَصْدُو مَا يُخَيِّشُ سَعْدُو جَاهُ ³
يَا سَعْدُ إِلَيَّ زَارَ فَرِيَاكَ الْحَدَّةَ	قَالُوا بِكَرِي رَاخَةَ إِلَيَّ يَتَمَنَّا ⁴
سَيْدِي خَالِدٌ جِيَتْ قَاصِدٌ لِأَجْدَةِ	هَارِبٌ لِيكَ اتَّفَكْتُي جَيْتَكَ نَدَاهُ ⁵

الولي الصالح "سيدي خالد" في الأبيات المذكورة سابقا هو رمز لعراقة النسب والشرف الأصل ونجدة المظلوم والشجاعة والنخوة والإباء والفروسية والحمية والزعامة والقيادة. ويؤكد الشاعر دلالات رموزه هذه بقوله:

1 - لَأَزْمِ نَقْدًا: يجب أن أذهب (أعدو). قُطْبُ الصُّلَاخِ: عبارة عند المتصوفة؛ وهنا يقصد الشاعر

بها مدينة سيدي خالد.

2 - معنى البيت: جئت قاصداً ذلك الأسد (سيدي خالد) جميل الخصال. الذي ينجد من جاءه قاصداً واحتفى بحماه.

3 - معنى البيت: سلالة شريفة من قبيلة بني عبس العربية منذ نشأته. والذي يقصده لا يخيب أمله فيه بل يحصل على منتهى سعادته.

4 - فَرِيَاكَ الْحَدَّةَ: مُحَطَّم الحديد، والمقصود بالعبرة: ملين ومسهل كل صعب.

5 - جَدَّة: خفية. لِيكَ: إليك. اتَّفَكْتُي: تتجذني وتتصرني.

يَسْبَغُ الصُّلَاحَ مَفْتُولَ الزَّنْدَةِ بَنُو عَبَسَ اجْدُودُ ذِ الْقَوْلِ اقْرَيْنَاهُ¹
 النَّعْرَةَ وَالنَّيْفَ لِيَهْمَ ذِ الْمَبْدَا سَلَاحِينَ إِلَيَّ احْصَلْ وَالْدَّهْرُ اجْفَاهُ²
 يَافِرْسَانُ اللُّوْمُ بِالْخَيْلِ وَعُدَّة نَعَارِينَ إِلَيَّ انْدَهَمَ جَاوِ امْعَاهُ³
 يَتَنَدَّهُو فَرَسَانُ يَاتُوا لِلنَّجْدَةِ وَيَغِيثُوا مَضْيُومٌ وَأَزْمَانُو عِيَاهُ⁴

ويضيف الشاعر إلى تلك الدلالات التي يوحي إليها رمز الشخصية "سيدي خالد" دلالات أخرى تشير كلها إلى شهامة الرجل وفحولته وصلاحه وتقواه وكذلك إبحاره في العلوم والشعر. والشاعر إذ يتحدث عن أحفاد الشخصية/الرمز، فإنما هو يقصده بذاته، وكل ما يتصف به هؤلاء الأحفاد في الحقيقة نابع من الأصل. لذلك نجد الشاعر في كل مرة يحاول العودة إلى التاريخ لاستدعاء رمزه ثم لا يلبث أن يحول رمزه/الأصل / الجذع إلى رموز ثانوية / فروع وهي المتمثلة في الأحفاد.

يقول الشاعر في مزيج متناسق يعبر فيه عن مرموزات عديدة:

يَارَكِبُ الصُّلَاحَ مَا فِيكُمْ نَقْدَةً ابْنُ سِنَانٍ اطْبَاعَكُمْ فَرْتُو بَبْهَاهُ⁵
 مَرْكَزٌ لِلْعُلُومِ وَعُسُوءُ الشَّهْدَةِ مَنْ بَكَرِي تَارِيخَكُمْ سَاطِعٌ بَضْيَاهُ⁶
 وَأَنَا بَيْنَ احْضَانِكُمْ حَالِي يَرْدَى نِيفُوا عَنِّي بِالْوَفَا فَيَكُمُ شَفْتَاهُ⁷
 مَنْ فَايْتُ تَوْفَاوَا زَيْنُ الْعَهْدَةِ أُوَيَا سَعْدُ إِلَيَّ زَارِكُمْ يَهْنَى بَهْنَاهُ⁸
 ادْعُولِي بِالْخَيْرِ يَا نَاسَ الْجَوْدَةِ يَسْعُدُ حَالِي وَالْعَذَابُ هُنَا نُنْسَاهُ

1 - اقْرَيْنَاهُ: قرأناه.

2 - النَّعْرَةُ: النخوة والحمية والحماسة. النَّيْفُ: الأنف؛ هو كناية عن العزة والكرامة والنخوة والحفاظ على العرض والشرف، وهو رمز للرجولة والشهامة عند العرب.

3 - شُرْحُ الْبَيْت سابقا.

4 - شُرْحُ الْبَيْت سابقا.

5 - نَقْدَةً: نقد. اطْبَاعَكُمْ: زينتكم وجمالكم. بَبْهَاهُ: ببهائه.

6 - مَنْ بَكَرِي: منذ زمن بعيد. بَضْيَاهُ: بضوئه.

7 - يَرْدَى: يصير رديئاً. نِيفُوا عَنِّي: انصروني وقفوا في صفِّي.

8 - مَنْ فَايْتُ: منذ زمن بعيد. تَوْفَاوَا: توفون. يَهْنَى بَهْنَاهُ: يهنأ بَهْنَاهُ.

جَيْتُكَ خَاضِعٌ يَا وَكَزْ فِيكَ اصْيُودَةُ شُوعَارًا وَافْحُولُ تَزْهَرُ فِي قَدَاهُ¹
مَا نَقْدَرُشْ نَعْدَهُمْ مَا نَتَعَدَّى خَافِ نَنْسَى وَالنَّدَمُ يَأْتِي بِبِلَاةٍ²

يخاطب الشاعر في الأبيات السابقة أحفاد الولي الصالح "سيدي خالد" ويطلب منهم مساندته ومآزرتة والدعاء له بظهور الغيب، ولأنه يحبهم كثيرًا ويقدر فيهم العلم والشعر وكرم الأخلاق فهو بذلك يتوسم فيهم الخير وحصول الاستجابة من المولى عز وجل، ويجعل منهم رمزًا للصلاح والبهاء وطلب العلم والتاريخ المشرق والوفاء بالوعد والحفاظ على العهد وإكرام الضيف والدعاء المستجاب والجود ومساعدة المحتاج وجودة الشعر والمحافظة على نظمه وإلقائه والاستماع إليه والتمتع بقوافيه؛ كيف لا ومنطقة "سيدي خالد" تعج بالشعراء المجيدين الذين فاقت سمعتهم الآفاق وبلغت شهرتهم الحدود!؟

وعبارة الشاعر (مانقدرش نعدهم)؛ فيها دلالة على كثرة شعراء هذه المنطقة وبلاغتهم وفصاحتهم، وقد شبههم الشاعر بالأسود وشبه قوة أصواتهم بزئير الأسود، وفي هذا التشبيه يظهر تميزهم وأصالتهم، ويبدو جليًا وراثتهم لقول الشعر، كما أنهم ينظمونه بالسليقة والفطرة.

1 - اصْيُودَةُ: جمع صيد وهو الأسد. تَزْهَرُ: تزأر. في قَدَاهُ: بأعداد كثيرة.

2 - معنى البيت: لا أستطيع أن أعدهم ولا أن أتعدى حدودي. أخاف أن أنسى أسماءهم والندم لا يفيدني بل يعود عليّ بالبلاء.

3.1.3 - سيدي عيسى¹:

الولي الصالح " سيدي عيسى " هو الذي سميت نسبة إليه منطقة سيدي عيسى، وقد نسجت حوله العديد من الأساطير، فصار رمزا أسطوريا/ دينيا/ تراثيا. ذكر هذا الرمز في بيت للشاعر "أحمد وليد بن القبي " حيث يقول:

عيسى بوقبرين يالدرم حيدار
من عمر ذيك البلاد وخلاها

1 - سيدي عيسى: هو الولي الصالح الذي نسجت حوله العديد من الأساطير، أهمها الأسطورة التي تقول بأنه دفن في قبرين مختلفين، أحدهما بمدينة سيدي عيسى بولاية المسيلة والتي سميت نسبة إليه فيما بعد، والآخر في ولاية تيارت، ويروي سكان المنطقة بأن قبيلتين اختلفتا بعد موته من لها الحق في دفنه في أرضها، ولكن السكان لاحظوا وجود جثتين له في مكان واحد فأخذت كل قبيلة جثة وقامت بدفنها. فأطلق عليه منذ ذلك الحين (عيسى بوقبرين) وهو الولي الصالح سيدي عيسى بن امحمد بن ناصر، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب زوج فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد سنة 910 هجري بمكناس بالمغرب الأقصى. حفظ القرآن الكريم ترتيلا وعمره تسع سنوات، ثم استأذن شيخه كما كانت عادة الأولين في الذهاب إلى الشيخ سيدي عبد العزيز الحاج بناحية يسر الذي تتلمذ على يده ودرس عنده مدة 12 سنة ألم فيها بشتى العلوم الشرعية، ثم سافر معه إلى البقاع المقدسة حاجا وبعد عودته استقر بهذه البلدة الطيبة، وتزوج وعاش مع أولاده وشارك معهم في الجهاد في سبيل الله والذود عن هذه البلاد من الحملات الصليبية الإسبانية في القرن السادس عشر ميلادي، وقد عمّر - رحمه الله - مدة 120 سنة، وتوفي نحو 1030 هجري، وضريحه موجود في ربوة بجنوب المدينة وهي مقبرتها كذلك.

هذه المعلومات التي تخص الشيخ سيدي عيسى تم تدوينها من مطبوعة تعريفية تلخص سيرة الشيخ، قدمت لنا من طرف السيد عبد القادر بوعكاز وهو من مواليد 1967/08/29 بمدينة بوسعادة، التحق بالمدرسة الابتدائية حميدة عبد القادر ثم بمتوسطة موسى بن نصير، وبعدها التحق بثانوية محمد الشريف بن شبيبة ببوسعادة دائما. التحق بالمعهد الوطني للتسيير والتقنيات الإدارية بالبلدية تخصص أملاك الدولة سنة 1991 وتخرج منه بعد عام، وذلك بعد أن قام بأداء واجب الخدمة الوطنية سنة 1989. يشتغل حاليا في قطاع المالية بالمركز المالي ببوسعادة رئيسا لقسم الخبرة والتقييمات منذ تخرجه سنة 1992. متزوج وأب لثلاثة أبناء (فيصل، بدر الدين، محمد المهدي) باحث في التراث، ومهتم بتاريخ المساجد الوطنية والعالمية؛ له صفحة خاصة على موقع التواصل الاجتماعي (فيس بوك) بعنوان " مساجد ومعالم إسلامية عالمية » تتضمن حوالي 3000 عضو يقول السيد عبد القادر بوعكاز حول أبحاثه واهتمامه: " مواضيع التراث تستهويني، أما المساجد فأنا أعشقها حتى النخاع" كما أن له جذور من قبيلة الذواودة الهلالية.

شبه الشاعر هذا الولي الصالح بالأسد في صورة بيانية بديعة رائعة؛ المشبه فيها هو الولي الصالح "سيدي عيسى"، والمشبه به هو الأسد، فشكّلت هذه الصورة الفنية تشبيها بليغا يوحى بالقوة والشجاعة والإقدام والزعامة والقيادة والفتوة، وذلك من خلال إلحاق صفات الأسد بهذا الولي الصالح إضافة إلى ما تحلّى به هذا الشيخ من مناقب جعلت منه شخصية رمزية تراثية لها صدى بالغاً وشهرة محلية ووطنية وسمعة بلغت الآفاق.

لقد اختار الشاعر ألفاظه بعناية فائقة، فوظف الفعل (عَمَرَ) توظيفا سيميائيا له العديد من الدلالات؛ منها: عمارة الأرض وكثرة النسل وحصول الخير وانتشار الأرزاق ونزول رحمة المولى عزّ وجلّ في الأرض، وغشيانها للبشر، ونيل البركة والسعادة وبلوغ المحبة درجتها القصوى في قلوب الناس، وانتصار الحق وإزهاق الباطل، والابتعاد عن الظلم والشحناء والبغضاء والأنانية.

أما الفعل (خَلَّاهَا)؛ فيدل على الاستمرار والدوام والاتباع وعلى ترك الآثار والحفاظ عليها واتباع سيرة السلف وتوارث الحكايا والقصص الممزوجة بالأساطير والكرامات. ويدل - أيضا - على كل ماله ارتباط وثيق بالماضي ويتخلله في نفس الوقت تمسك عميق بالحاضر وتطلع بأمل كبير إلى المستقبل.

الولي الصالح "سيدي عيسى" أو كما يطلق عليه "عيسى بوقبرين" إذا؛ هو أسطورة رمزية ورمز تراثي سواء لدى الشاعر "أحمد بن القبي" أو لدى غيره من شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، وهو رمز لكل ما هو نافع للبشرية، هو رمز للتقوى والصالح والتمسك بتعاليم الدين الإسلامي؛ وهو ما يظهر جليا عند أحفاده (أبناء منطقته) حيث جعل الشاعر من سيدي عيسى المكان عنصرا نابضا في تاريخ المدينة وفي تاريخ الجزائر ككل، كيف لا، والمدينة الرمز "سيدي عيسى" لازالت شاهدة على مآثر السلف الصالح وعلى نبوغ العلماء وعلى

ذلك الصرح الديني التاريخي الاجتماعي المتمثل في زاويتي " سيدي عيسى " ¹ و
"بن لعموري " ²؟!

1 - زاوية سيدي عيسى: سميت بهذا الاسم نسبة للولي الصالح(سيدي عيسى) الذي سميت المدينة باسمه، تقع هذه الزاوية في الجهة الجنوبية للمدينة حيث يقصدها السكان والزوار لإقامة طقوس الوعدات والتبرك بالأضرحة وتقديم الصدقات.

2 - زاوية الشيخ بن لعموري: تقع هذه الزاوية شمال مدينة(سيدي عيسى) أسسها الشيخ(بن لعموري) سنة 1895م، وأخذت اسمه. تقع على هضبة تحيط بها مناظر طبيعية خلابة، لها العديد من المهام الدينية والخيرية...

4.1.3 - سيدي ثامر¹:

يُعدّ الولي الصالح "سيدي ثامر" من المؤسسين الأوائل الذين تركوا بصمات واضحة المعالم في مدينة بوسعادة، حيث أتى على ذكره شعراء المنطقة باعتباره رمزا لأصلهم الأول ومشيداً لأول صرح ديني ألا وهو "جامع النخلة"²

1 - سيدي ثامر: هو سيدي ثامر بن محمد بن عبد الرحمن بن سالم بن يحيى ولقبه مليك بن محمد(سيدي نايل)، ينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه- وفاطمة الزهراء بنت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يقال حسب الرواية أنه في حدود سنة 795هـ الموافق لسنة 1394م قدم على سيدي سليمان الولي الصالح الشيخ سيدي ثامر بن امحمد، وكان قدومه مع رفيقه مولاه ميمون، فتلقاهم بالترحيب والإكرام، وأدخلهما إلى الزاوية فوجدا فيها سيدي دهم وجمعاً من التلاميذ فاستقبلوهم بالترحيب وأقاموا معهم، أقام الشيخ سيدي ثامر عند الولي الصالح سيدي سليمان، ولما كثر أتباع الشيخ وتلامذته اقترح عليهم سيدي ثامر بناء مسجد يجمعهم أثناء أداء الصلوات الخمس ويقومون فيه صلاة الجمعة، وتمّ لهم ذلك على نفقة الشيخ سيدي ثامر، وتولّى عملية البناء الشيخ سيدي دهم لمهارته في مهنة البناء، ويعرف هذا الجامع اليوم بجامع النخلة أو الجامع العتيق. وبعد الفراغ من الحفل والتدشين خطب سيدي ثامر سيدي سليمان في ابنته فزوجه إياها، فرزق منها بأولاد: (احميدة، حركات وعتيق) ومنهم تفرّع أولاده ببوسعادة.

- هذه المعلومات أخذت من مطبوعة شخصية جمعها (بن النوي الشابي) من مجموعة مصادر ومراجع نُكرت في نهاية المطبوعة؛ وهو بن النوي الشابي بن سي النوي من مواليد 1932 بساحة الشرفة ببوسعادة، حفظ القرآن الكريم في سن 13 من عمره عن طريق أبيه سي النوي الحافظ لكتاب الله والمؤنن في ساحة الشرفاء، التحق بصفوف الثورة منذ اندلاعها وبعد الاستقلال اشتغل في التجارة، التحق بسلك التعليم إلى أن تقاعد سنة 1987. توفي يوم 09 مارس 2009، بمستشفى سطيف إثر مرض عضال -رحمه الله-.

- المعلومات رويت لنا من طرف ابن الزاوية توفيق بن النوي بمساعدة السيد: عبد القادر بوعكاز؛ موظف بالمركز المالي لمدينة بوسعادة.

2 - جامع النخلة: هو أول مسجد تم بناؤه في مدينة بوسعادة، حيث يعتبر نواة لنشأة هذه المدينة، كان ذلك منذ ثمانية قرون، بداخله نمت نخلة واشتدّ وقويّ فرعها واستطالت حتى بلغت عنان السماء، فسمي نسبة إليها، ويقال -أيضا- أن التسمية أطلقها عليه الشيخ(سيدي ثامر) تكريماً لزوجته (النخلة) ابنة صديقه ورفيقه (سيدي سليمان). تم بناء المسجد من طرف البناء المثقف الشيخ(سيدي دهم) وبنيت معه زاوية لتعليم القرآن الكريم والعلوم الدينية. تعرض هذا المسجد لكثير من الإضافات أثناء عمليات الترميم، ولكنه لحسن الحظ مازال يحافظ على طابعه المعماري الأول، وقد صنّف كمعلم من معالم التراث الوطنية من طرف وزارة الثقافة الجزائرية، ولا زال لحدّ الآن قبلة للمصلين حيث تقام فيه الصلاة وكل الشعائر الدينية، إضافة إلى استقطابه

الذي بقي صامدا رغم كل الظروف والمؤثرات والتحديات، جامع النخلة؛ هذا المعلم التاريخي الذي يشكل رمزاً من رموز الحضارة العربية الإسلامية، وناطقاً باسمها في كل زمان لا تزال معالمه شاهدة على ذلك الرقي الحضاري والعلمي الذي انتهت إليه المدينة/ الرمز بوسعادة منذ ذلك الحين.

ذكر الولي الصالح " سيدي ثامر " في قصيدة للشاعر " الحمدي بوشنافة"، حيث أراد الشاعر من خلالها التغزل بنخلة وحيدة في بستان.. فخطبها شاكياً إليها عميق حبه وشديد ألمه، وأراد بواسطتها إيصال رسالة عشق وغرام إلى صاحبتة التي اشتاق إليها كثيراً وأخذ الحنين إلى رؤيتها، وكعادة شعراء منطقة بوسعادة لا يختم الشاعر قصيدته إلا إذا اعتز بنسبه وذكر أجداده وافتخر بأولياء بلدته الصالحين. ذكر الشاعر الولي الصالح "سيدي ثامر " الذي يعدّه سكان المنطقة علماً من أعلامها ورمزاً من رموزها البارزين في قصيدة من أجمل قصائده حيث يقول:

وَبُلَادِي فِي بوسعادة الْمَسْعُودَة وَسَيِّدِي ثَامِرٌ رَأَى صَالِحٌ مِنْ لُكْبَارِ

الشيخ "سيدي ثامر " لدى الشاعر " الحمدي بوشنافة " ولدى غيره من الشعراء وسكان المنطقة هو رمز للصلاح والتقوى وطلب العلم ونشره وعمل الخير والحث عليه، والحلم والزهد في الحياة الدنيا، وهو رمز لأصل الإنسان في منطقة بوسعادة وموروثه الديني والثقافي والاجتماعي. يقول الشاعر في قصيدة أخرى:

السّياح من داخل الوطن وخارجه. ومن الآثار التي بقيت بقربه الحي الصغير الذي يسمى (العُشاشَة) جمع عُشّ، وهي البيوت الصغيرة التي كانت مستقرّاً للطلبة ينامون فيها.

- رابطة هذه المعلومات هو السيد (السعيد حبشي)، الباحث المتقّف والإنسان الطيّب؛ الذي ولد يوم 06 أفريل 1952 بحي أولاد احميدة ببوسعادة، زاول تعليمه الابتدائي في مدرسة سيدي ثامر والمتوسط ابتداءً من سنة 1959 باللغة الفرنسية، امتحن مهنة التعليم في نواحي بوسعادة ثم عمل مدير مدرسة وتقاعد بعدها. يتميز بميله إلى البحث والاطلاع ساعده على ذلك تمكنه من اللغة الفرنسية، وبنشاطه في الميدان الثقافي وخاصة مع الجمعيات المتخصصة، يشغل حالياً عضواً نشيطاً في المجلس البلدي لبلدية بوسعادة، متزوج وأب لسبعة أبناء؛ أربع بنات و ثلاثة ذكور، مهتم بتاريخ بوسعادة ومعالمها السياحية، حيث شارك في العديد من المهرجانات والملتقيات والمؤتمرات والحصص التلفزيونية الوطنية والدولية.

وُسَيْدِي ثَامِرٌ رَاهُ قَارِسُهَا لَوْلٌ وَبُنْ رِبِيْعَةٌ رَاهُ غَرْبِيْهَا عُوَانٌ¹

اسم الفاعل (قارِسُها) الذي استخدمه الشاعر في البيت السابق فيه دلالات عميقة على الأصل الثابت؛ كالشجرة التي تمتد جذورها في باطن الأرض متشبثة بالتربة، تمتص مكوناتها من التربة، وتعود مسدلة ظلها على الأرض. بين الشجرة والتربة إذن علاقة تبادل؛ أخذ وعطاء و عطاء وأخذ، وهي نفس العلاقة التي تربط هذا الولي الصالح "سيدي ثامر" بسكان منطقته وأحفاده والمنتسبين إليه فيما بعد.

سيدي ثامر هو رمز للحفاظ على مقومات الدين الإسلامي وثوابت الأمة العربية، هو المؤسس الأول لمدينة السعادة "بوسعادة" هو رمز العطاء والبذل في سبيل الله وفي سبيل تنوير الدرب للأمة العربية الإسلامية وإنارة طريقها بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة - بما في ذلك الحديث النبوي الشريف - وهو رمز السعي للحصول على السعادة الأبدية في الدارين: الدنيا والآخرة. كما أنه يرمز للإنسان المناضل والمجاهد من أجل نصرة الحق وإزهاق الظلم والباطل. والاسم "ثامر"² اسم منتشر بكثرة عند سكان بوسعادة وفي منطقة أولاد نايل ككل، وعند قراءة هذا الاسم قراءة سيميائية نجده يدل على النضج العقلي وعلى بلوغ حدٍّ أقصى من العلوم والآداب، والحصول على نتائج حقيقية لأعمال الخير المثمرة، وعلى السعي الدؤوب لنشر المحبة والتسامح والتعاون والرفقة.

1 - قَارِسُهَا: اسم فاعل من الفعل غرس، يغرس، وأصله: غَارِسُهَا. لَوْلٌ: الأول. عُوَانٌ: مُعِين ومُساعد.

2 - ثامر: ناضج ونامٍ، من الفعل اَثْمَرَ يَثْمُرُ بمعنى نما النبات ونضجت ثماره، أو بمعنى أصبح للنبات ثمار.

5.1.3 - سي بوضياف¹:

هو وليّ صالح من منطقة "سيدي عامر" تميز بميله إلى الزهد والتصوف، و "العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"² واشتهر - رحمه الله - بقوله كلاما مسجوعا يحتوي على العديد من الحكم والوصايا والتنبؤات التي تحقق منها الكثير في زمننا الحالي، وقد انتشرت هذه العبارات المسجوعة انتشار النار في الهشيم، واهتم سكان مدينة سيدي عامر والمناطق المجاورة لها بحفظها وترديدها في أغلب المناسبات ومحاولة فك شفراتها الغامضة والعمل بما تنبئ به وتوحي إليه.

ولقد ظهرت مؤخرًا محاولات جادة لجمع هذه الآثار الفكرية وتحقيقها وتحري صدقها من زيفها ودراستها بطريقة نقدية بناءة، والبحث - أيضا - في سيرة الولي الصالح، والتقيب عن مآثره بصورة تبرز مناقبه وتظهر أجمل صفاته وتكشف الستار عن كراماته وخوارقه العديدة...

من الشعراء الذين اهتموا بتاريخ منطقة بوسعادة من حيث تسجيل الأحداث والتغني بالشخصيات، والتقيب عن الأولياء الصالحين وإبراز دورهم الفعال في

1 - سي بوضياف: هو بوضياف بن محمد بن لخضر بن سالم من عرش أولاد عامر لقبه العائلي حديبي، ولد بمنطقة (محرقة) بلدية امسيف التي تبعد بحوالي 70 كلم عن مدينة بوسعادة، كان ذلك سنة 1850، حيث شب وترعرع فيها إلى غاية الأربعين من عمره، انتقل إلى مدينة سيدي عامر سنة 1890 وعاش فيها زاهدا، وعُدَّ من أبرز أوليائها الصالحين. توفي - رحمه الله - بسيدي عامر سنة 1920، ترك مقاما يقع شمال شرق مدينة سيدي عامر بحوالي 04 كلم يسمى (مقام سي بوضياف) تقام فيه احتفالات سنوية تسمى (وغدة سي بوضياف).

- المعلومات عن الشيخ الراوية بوادي عبد العالي بن بايزيد. رحمه الله. (جَدَّ الباحثة من أمها).

2 - عبد الرحمان بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ط1، 2010، ص:403. وينظر - أيضا - بالنسبة للحركة الصوفية في الجزائر:

- الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين/ 12 و 13 الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص:34 وما بعدها.

المجتمع آنذاك، نجد الشاعر المُجيد " الحمدي بوشنافة " الذي صال وجال في أرجاء بوسعادة عبر قصيدة مطولة تحمل في طياتها أصالة هؤلاء السكان وأصلهم العريق وحفاظهم على التراث والتقاليد والعادات. يقول الشاعر في بيتين منها حول الولي الصالح "سي بوضياف":

وَيَا مَاذَا سِي بَضِيَّافْ انْظَمْ واعْمَلْ
وَكَلَامَاتُـو بِيَقَاوْ ذُرْكَ
بِالْبَيَانِ¹

وَهَازِ الصَّالِحْ فِي كَلَامُو مَا نَجْهَلْ وَكَلَامِ الصُّلَاحْ كِي سَيُّلُ الْوَيْدَانِ²

الولي الصالح "سي بوضياف" حسب بيتي الشاعر - وحسب الشعراء الآخرين والسكان أيضا - هو رمز للزهد والتصوف والتخلي عن زخرف الحياة ومباهجها وما يرغب فيها وهو رمز للصلاح والطهر والتقوى، وكلما ذُكر اسمه في مجلس من المجالس إلا واقترن بشفافية النفس والروح والتنبؤ بالغيب والنطق بحكم وأمثال تعالج الواقع وتحوي بين ثناياها نصائح وإرشادات ثمينة من صميم هذه الحياة الدنيا التي تعبق بنسيم الآخرة، ويفوح من خلالها رحيق تجربة بشرية عميقة ومؤثرة.

هذا الولي الصالح الذي عُرف عنه نطقه بالحكمة والبيان لم يكن من الذين يقولون ما لا يفعلون، ولا من الذين يتباهون بالصنعة اللفظية والجرس الموسيقي، بل كانت أقواله تدل على طيب عنصره وعراقة أصله وجمال أخلاقه وحبه لغيره، وكذلك كانت أفعاله. هذا ما أراد الشاعر إيصاله للمتلقي من خلال توظيفه لطباق الإيجاب (انْظَمْ، اعْمَلْ)، وبضدها تعرف الأشياء، فحرف العطف (الواو) بين الفعلين له دلالة الملازمة والمرافقة والتساوي والمعية في الزمن، وكذلك التشبيه في الشطر (كَلَامِ الصُّلَاحْ كِي سَيُّلُ الْوَيْدَانِ)، شبه فيه الشاعر كلام الأولياء

1- انْظَمْ: نظم شعراً. اعْمَلْ: عمل خيراً. معنى الشطر الثاني: كلماته بقيت حية لحد الآن وهي ذات بيان وبديع.

2- هَازِ: هذا. كَلَامُو: كلامه، ويقصد الشاعر به حكمه المسجوعة. كِي: مثل.

الصالحين من حكم ودُرر وأقوال لها مدلولات عميقة ومؤثرة بسيل الوديان
المجتمعة التي تصب كلها في أرض جافة عطشى فتتقلب مخضرة معشوشبة.

هذا التشبيه من لدن الشاعر يعود بنا إلى ظاهرة التناص؛ وبالضبط إلى
التناص الأدبي، حيث تتقاطع العبارات وتتلاقى وتتماثل مدلولاتها في شكل يثير
المتلقي ويستفز انتباهه ويحرك عواطفه، حيث يظهر التناص بين التشبيه السابق
الذكر وقول الولي الصالح "سي بوضياف" في قصيدة نادرة من قصائده يقول
في مطلعها¹:

إِيلاً قَالُولِي الصُّلَاحِ انْغَنِّي وَيَلَا قَالُولِي انْزِيدِ الْبُسْمَالَةَ²
وَالسَّيْلُ إِيلاً جَاكَ بِالْكَثْرَةِ يَغْنِي وَيَحْمِلُ لَوْطَانُ فِي كُلِّ مَسَالَةَ³
سَيْلُ الشَّعْبَةِ مَا يَرْوِّشُ الْعَطْشَانَ سَيْلُ الْوَادِ يَدُورُ لَأَكَا انْزَالَةَ⁴

فعبارة "سيل الواد" في بيت الشاعر "الحمدى بوشنافة" تعني حكم
الأولياء الصالحين شعراً كانت أو نثراً، وكذلك عبارة الولي الصالح "سي
بوضياف". لقد اتفق الشاعران على أن سيل الوادي هو رمز للكلام الصادق
الموحي بالحكمة والتجربة الإنسانية الراقية وشفافية النفس والروح؛ فالعبارة
الأولى (كلام الصُّلَاحِ كِي سَيْلُ الْوَيْدَانِ) تحمل صورة بيانية هي التشبيه، أما
العبارة الثانية (سَيْلُ الْوَادِ يَدُورُ لَأَكَا انْزَالَةَ) فتحمل صورة بيانية هي الكناية
عن الغناء الذي يقصد الشاعر به الكلام المفيد نثراً أو شعراً، فكل من العبارتين
تحمل في ثناياها وبين طياتها صورة فنية رمزية توحى بالكثرة والغزارة والفصاحة

1 - الأبيات من قصيدة رواها الشيخ (بوعدي عبد العالي بن بايزيد) - رحمه الله -

2 - إِيلاً: إذا الصُّلَاحُ: الأولياء الصالحون. انْغَنِّي: أغنني، والمقصود بذلك أقول نثراً أو شعراً.

البُسْمَالَةَ: قول (بسم الله) والأغلب أنه يقصد قراءته للقرآن الكريم.

3 - جَاكَ: جاءك. يَغْنِي: من الغنى.

4 - الشَّعْبَةُ: جمعها اشُعَابٌ؛ وهي أنهار صغيرة تنشأ بفعل الظروف الطبيعية، تجري فيها المياه عند نزول
المطر لتصب في الوديان. مَا يَرْوِّشُ: لا يروي. لَأَكَا انْزَالَةَ: يشبه غناء السَّيْلِ أو زَيْدَ السَّيْلِ.

والبلاغة والتحكم في قول الشعر والتعبير به عن الواقع المعيش وتضمينه رسائل هامة ذات مدلولات متنوعة.

الولي الصالح "سي بوضياف" إذا، هو رمز لكل ما هو جميل، هو رمز لتاريخ يعبق بالمآثر وأفعال الخير والمواقف الإيجابية، هو رمز للحياة الزاهدة النقية الصافية من الشوائب والخالية من الشرور ومن الدنس، وهو رمز للأصالة ومحبة الآخرين ونشر الأعمال الصالحة والذوبان في الآخر بإنكار الذات، والتركيز على الحياة الآخرة بالعمل والتزود لها ودعوة الناس إلى القيام بذلك.

وليست ظاهرة التناص¹ ظاهرة حديثة أو معاصرة، وإنما هي ظاهرة ذات جذور عند العرب منذ القديم، ولكن الاختلاف المستحدث هو التسميات فقط. ولقد تقاطعت النصوص الأدبية نثرية كانت أو شعرية منذ القديم عند العرب، ووجد التناص في النقد العربي القديم، كما أن نظرية التناص صارت من أهم النظريات التي يعالجها النقد الحديث عند العرب وعند الغرب، وقد لاحظنا وجود التناص في الشعر الشعبي عند شعراء منطقة بوسعادة وعند شعراء الجزائر ككل.

2.3 - فنانون:

أعجب ببوسعادة والمناطق المجاورة لها فنانون من مختلف أنحاء العالم من بينهم رسامون محترفون، عشقوا مناظرها الطبيعية، و أغرموا بجمالها وسحرها، ولم يشغلهم أي شاغل عن تأكيد نظرهم هذه ، فأبدعوا لوحات فنية رائعة الجمال، وتركوا بصماتهم واضحة المعالم فيها، يتصدرهم الرسام العالمي "ناصر الدين دينيه" الذي أبهرته طبيعة المكان وأخذت بلبه طبيعة السكان وحسن أخلاقهم...

1 - ينظر: جمال مبارك: التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر،

2003، ص37، وما بعدها.

1.2.3- ناصر الدين ديني¹:

جاء في كتاب الباحثة "بركاهم فرحاتي" حول هذا الفنان ما يلي: "فنان رسّام تكوّن في باريس، ألفونس إتيان ديني (1861-1929) عاش في الجزائر في أواخر القرن التاسع عشر. وقرّر أن تكون حياته فيها، بعد بعض الجولات في الإقليم، كانت بوسعادة "مدينة السعادة" التي استقرّ فيها.. أين اكتسب صداقة مع سليمان بن إبراهيم باعمر.. استقرّ بمنزل موجود في نهاية المدينة القديمة في حيّ لمّامين.. تعلّق بأهل بوسعادة وقرّر الدخول في الإسلام، وحجّ سنة 1929. بعد موته في 24 ديسمبر 1929 في باريس وسط عائلته. وفّت أخته جان رولانس ديني نذره مع أصدقائه حيث أقاموا الصلاة عليه في المسجد الكبير في باريس ومن ثمّ نقل جثمانه إلى بوسعادة وتمّ دفنه في القبة².

1 - هو ألفونس إتيان ديني ولد بتاريخ 28 مارس 1861 في قصر هيرسي Hiricy المطل على ضفة نهر السّين بفرنسا. والده كان حقوقياً ويشغل رئيس غرفة المحامين بمحكمة السّين. والأم (لويز ماري آل دوشي) وهي ابنة محامي كان صديقاً لزوجها. له أخت هي (جان ديني رولانس) تزوّج ديني محباً للرسم منذ الصغر. زار الجزائر لأول مرة سنة 1884 فأعجب بأهلها وطبيعتها. استقرّ أخيراً ببوسعادة قريباً من صديقه (سليمان بن إبراهيم) اعتنق الإسلام وغيّر اسمه إلى ناصر الدين ديني وقام بفريضة الحج. ترك العديد من المؤلفات المطبوعة واللوحات الفنية المعروضة في المتاحف العالمية. توفي مساء يوم 24 ديسمبر 1929، ونقل جثمانه ليُدفن في قبره ببوسعادة في موكب جنازي مهيب. أقيم بمنزله و منزل صديقه متحفاً يضم أعماله ببوسعادة.

- ينظر: ناصر لمجد: ناصر الدين ديني - حياته وأفكاره- دار الخليل القاسمي، بوسعادة، المسيلة، الجزائر، ط1، 2008، ص18-20.

2- قمنا بانتقاء هذه المعلومات بعد ترجمتها من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية؛ وقد ترجمنا هذا النص من كتاب:

- Barkahoum FERHATI: Le musée national Nasr-Eddine Etienne Dinet de Bou-Saada (1930 - 1993) Genèse, INAS Editions, Alger, 2003, p:19,39.
- op: Fernand ARNAUDIES: Etienne DINET et El-Hadj Sliman ben Ibrahim, L'ditions p. & g. soubiron, Alger, p:21-30.

هذا الفنان العبقري الذي قال عن بوسعادة ذات يوم: "لو كانت الجنة في السماء فهي فوق بوسعادة، ولو كانت تحت الأرض فهي تحت بوسعادة"¹؛ لقد قام هذا الفنان بتخليد بوسعادة في لوحاته التي تنتشر اليوم في مختلف المعارض العالمية، ومقابل ذلك خلد اسمه من طرف كتاب المنطقة ومؤلفيها وشعرائها تكريما وعرفانا له على جهده وعطاءه وتفانيه في خدمة الإسلام والمسلمين، فصار عنوانا بارزا للإبداع والتميز، ورمزا للجمال والأناقة مع بساطة وتواضع؛ يشير إلى ذلك الشاعر "الحمدي بوشنافة" في أبياته التالية:

وُنَصِرَ الدِّينَ الْحَاجُّ مِنْ بَرِّو جَايِلْ وَشَيَّعَهَا عِنْدَ الدُّوْلِ بَيْنَ الْبُلْدَانِ
وُمَسَجَلُ تَارِيخِهَا هُوَ لَوْلُ وَاسْتَسْلَمَ وَاخْطَى الْكَفْرَ وَالْعَصِيَانَ
وَأَرْسَمَ فِي لُلُوحِ تَرَاتُّ مَسَجِلْ وَمَا خَطَى مَاعَالِ كَلَشْ بِالْمِيزَانِ

الحاج "ناصر الدين ديني" حسب هذه الأبيات وحسب ما نقل عنه في الكتب والإصدارات الكثيرة وما نقله عن نفسه يشكل رمزا تراثيا/ شخصية رمزية تراثية؛ يوحي هذا الرمز التراثي بمدلولات ذات أبعاد مختلفة: سياسية، ثقافية، اجتماعية، اقتصادية، دينية، أدبية، فنية وجمالية...

فهو رمز للإنسان العاقل المفكر الذي يحسن إدراك الجيد من الرديء، والصحيح من الخاطئ، ويعرف أين موضع قدمه، هو رمز للمسلم التقى، النقي المولود من جديد كصفحة بيضاء، هو رمز لحضارة عربية إسلامية بأكملها حيث سجل تراثها في لوحاته ومؤلفاته كعربون محبة ووفاء وإخلاص لأناس بسطاء متواضعين احتضنوه بصدر أم تحب ابنها وتخاف عليه وتشجعه على العطاء والبذل وتزرع فيه عشق الجمال والاستمتاع بسحر الطبيعة النابضة بالدفع والحنان والعطف، وتبث فيه روح الإبداع لأنها وإن كانت ملهمته الأولى والأخيرة فهي - أيضا - المتربعة على عرش قلبه، والأسرة لعقله والساحرة لروحه، والمتسلطة على نفسه، والمترجمة لأفكاره.

1 - ناصر لمجد: ناصر الدين ديني - حياته و أفكاره - ص146.

تلكم الأم؛ هي بوسعادة، مدينة السعادة، وذلكم الفرنسي المسلم هو ابنها البار الذي ضحى بكل نفيس وغال من أجل أن يعيش بين أحضانها، وأن ينعم بالدفء والاستقرار والاطمئنان والسكن الروحي وسط أهلها الطيبين المتفائلين، فصار هذا الابن المطيع رمزا للحب والتفائل والوفاء والإخلاص ورمزا للجمال بكل ما يحمل من معان.

الحاج "ناصر الدين ديني" هو رمز للتقوى والإيمان الخالص والصلاح، هو رمز للكفاح والنضال من أجل المبادئ السامية والقيم الراقية، هو رمز للصبر من أجل إعلاء كلمة الحق وإزهاق الظلم والباطل، وهو رمز للسلم والسلام والتسامح والتصالح بين الأديان، أليس هو القائل في أكبر أمنية حلم بها قبل وفاته: "أغلى أمنياتي أن يشكل المسلمون والفرنسيون عائلة واحدة"؟!¹

لقد كان هذا الفنان المبدع يسعى دائما لنشر الابتسامة على وجوه الناس وإسعاد من حوله، ويظهر ذلك جليا من خلال لوحاته التي تبدو شخصياتها - غالبا - بملامح ضاحكة مستبشرة تتوق إلى أمل مشرق وغد سعيد يحمل في طياته حرية وانعتاقا من ثرائن الاستعمار والاستبداد والاستعباد².

آلاف الكلمات والعبارات مهما بلغت قوة صدقها لا نستطيع من خلالها أن ننقل صورة شاملة عن مشاعر الرجل وأحاسيسه وعواطفه الجياشة آنذاك.. فشهرته التي بلغت الآفاق ووصلت إلى أقصى ربوع العالم جعلت منه رمزا ناطقا يوحي بالعديد من الدلالات التي تشير كلها إلى نقاء سريرة الرجل وتفانيه في خدمة الإسلام والمسلمين، وعمله الدؤوب وبحثه المتعمق في التراث العربي بشكل عام

1 - لمجد ناصر: ناصر الدين ديني - حياته وأفكاره - ص144.

2 - الزائر لمتحف ناصر الدين ديني ببوسعادة يشاهد ذلك عياناً، ويلاحظ مدى سعادة هؤلاء الأطفال والكبار أيضاً وبهجتهم المرتسمة على ملامح وجوههم العربية الأصيلة وعلى أجسادهم، سواء كان ذلك من خلال صور اللوحات المبنوثة في الكتب الموجودة في المكتبة التاريخية بذات المتحف أو من خلال اللوحات المعروضة هناك. ولقد استمتعت أنا بذلك مرارا في زياراتي المتكررة لهذا المتحف الذي يستقبل السياح من داخل الوطن وخارجه على مدار السنة.

وفي التراث الإسلامي بشكل خاص، ذلك يتضح من خلال إبداعاته الفنية المختارة بدقة شكلاً ومضموناً، وكذلك من خلال إسهاماته في مجال تأليف الكتب التي تروي سيراً أهمها سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة عنترة بن شداد العبسي؛ وهي السيرة الشعبية المشهورة في منطقة أولاد نايل خاصة.

الحاج ناصر الدين ديني أو "ناصر الدين" كما ينطقها أهالي المنطقة هو رمز للعبقريّة والذكاء والتعلق بالأرض والذوبان في الآخر، وحب الخير للبشرية جمعاء، والحفاظ على الموروث الثقافي.

وبالنظر إلى ما يحمله الاسم الذي اختاره هذا الفنان لنفسه بعد إسلامه وجهره بذلك؛ نجد أن الاسم لم يقع الاختيار عليه بشكل اعتباطي بل لابد لذلك من دراسة سبقتة وتخطيط قبل الوقوع على هذا الاسم بالضبط "ناصر الدين" الذي يوحي بدلالات كثيرة، ففي قراءة سيميائية لهذا الاسم نستطيع تقسيمه إلى شطرين؛ الشطر الأول هو اللفظ "ناصر" والشطر الثاني هو لفظ "الدين" ولا يختلف اثنان في أن المقصود بالدين هو الدين الإسلامي الذي أحبه هذا الفنان وانتمى إليه فصار من أكبر حماته وأنصاره والمدافعين عنه والمحافظين عليه والمتمسكين بأركانه وقيمه وأخلاقه، وهذه الصفات والميزات هي التي تشرح اسم الفاعل ناصر فالناصر هو الحامي والمدافع والمحافظ والمتمسك.

هكذا كان الفنان الحاج "ناصر الدين ديني" رافعا راية النصر وهو الفرنسي الأصل، ولكنه كان كارهاً للظلم ومنكراً على أبناء بلده أفعالهم المشينة لدينهم ولإنسانيتهم، وكان تصرفه آنذاك رغبة صريحة منه في ضرورة العمل بقانون المساواة بين البشر، فلا فرق بين أبيض وأسود ولا بين عربي وعجمي ولا بين امرأة ورجل ولا بين جزائري وفرنسي.. إلا بالتقوى، ولا بين كبير وصغير ولا بين حاكم ومحكوم، فكل هؤلاء سواسية بين يدي المولى عز وجل، وليس لأي إنسان الحق في إيذاء أخيه الإنسان، وكل إنسان على أرض هذه المعمورة له الحق في الحرية والعيش الكريم والحياة الهادئة المستقرة.

لقد عمل "ناصر الدين ديني " على إرساء هذه القواعد في الجزائر عامة، وفي بوسعادة بشكل خاص، فنال بحق وجدارة واستحقاق وسام الفنان المبدع والرسام المتميز والرجل الطيب المحب والمحبوب والمؤلف الذي فاقت شهرته الآفاق، فصار اسمه في بوسعادة والجزائر وفي العالم ككل مقرونا بالحس المرهف وتناغم الألوان وتقاطعها في تجانس وانسجام، إذا أن ريشته لطالما غازلت الألوان وداعبت اللوحات الراقصة على أوتار لمسته الحنون وصبره على محن الحياة وتقلبات الأيام...

كان ولا يزال ذكراً هذا الرجل العظيم يوحى على مدار الأيام بدلالات الحب؛ وللحب في قاموس هذا الفنان تجليات واقتباسات.. الحب هو المرأة، الحب هو الطبيعة، الحب هو بوسعادة، الحب هو اللوحة الفنية، الحب هو الريشة، الحب هو الجزائر، الحب هو الأرض، الحب هو السماء، الحب هو الصلاة، والحب هو الأنثى ككل في أعماق تجلياتها الكونية، ومن صلب هذه التجليات الأنثوية كانت تلك الاقتباسات الفنية لهذا الفنان العاشق الذي أغرم ببوسعادة فسحرته طبيعته الخلابة الخضراء وأبهره جمال أهلها وطيبة قلوبهم، فاشتد ولعه وهيامه، ونما في قلبه حب كبير للناس أجمعين، وفاض ذلك الحب كالبحر الغامق لا تحده حدود ولا تعرف له نهاية، يحمل في أحشائه أصداف وكنوز الأرض...

3.3 - أئمة ورجال دين:

اهتم شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة كغيرهم من الشعراء في الجزائر بالحياة الدينية التي لا تقوم في بقعة من بقاع الأرض إلا وكان لرجال الدين الدور الأكبر في ازدهارها وانتشارها، وبالتالي فهم يشكلون شخصيات رمزية تراثية من جانب أنهم يتركون إرثا تاريخيا مفيدا للأجيال اللاحقة كما أنهم يساهمون في تنوير الطاقات البشرية بالعلوم والمعارف في مختلف مجالات الحياة.

رجال الدين هؤلاء؛ لهم مهام متعددة في المجتمع تجعل منهم رموزا تاريخية تراثية نابضة بالعطاء والود والحب والتسامح والدفاع عن الأرض والعرض ونصرة الحق وإزهاق الظلم وإعانة المحتاج وإغاثة الملهوف وتقديم يد المساعدة لكل من يحتاجها وإيواء الأرملة واليتيم والضعيف والتكفل بهم، إضافة إلى الحفاظ على المؤلفات والمخطوطات التي تخص مختلف مجالات الحياة والعناية بها في أمكنة تعرف بالزوايا، أو في مكتبات المساجد والجوامع.

رجال الدين أنواع حسب تخصصات أعمالهم؛ فمنهم الإمام الذي يؤم المصلين، ومنهم الإمام الخطيب الذي يؤدي الخطب، ومنهم معلم القرآن الذي يتركز محور عمله على تعليم الصبية وتحفيظهم كلام المولى عز وجل بأحكام الترتيل والتجويد، ومنهم شيوخ الزوايا الذين يظلمعون بمهام متنوعة: سياسية، اجتماعية، دينية، ثقافية، اقتصادية¹، وتعليمية².. وهناك الفقيه والمفتي والداعية والمؤذن أيضا ومنهم المتصوفة الذين اعتزلوا الحياة الدنيا واشتروا الدار الآخرة، وكان لهم "تأثير كبير على الثقافة الشعبية والفنون في الجزائر والمنطقة المغاربية عموما، وقد توسلت المرجعيات الصوفية من الزهاد والعارفين وشيوخ الطرق، منذ

1 - ينظر: منير القاسمي الحسني: زاوية الهامل -التاريخ المصور - دار الخليل القاسمي، بوسعادة، المسيلة، الجزائر، ط1، 2007، ص36.

2 - ينظر: الحاج مزارى: الهامل - مركز إشعاع ثقافي وقلعة للجهاد والثورة - المطبعة العصرية بلوزداد، بلكور، الجزائر، ص40.

وقت مبكر بالفنون والثقافة الشعبية لتقوم بوظيفتها في نشر وتجذير خطابها الديني والروحي والاجتماعي وحتى السياسي أحيانا في الطبقات السفلى من المجتمع (البسطاء والفقراء) التي شكلت الخزان الذي لا ينضب والمحرك الأقوى لدواليب الحركة الصوفية من خلال تركيز شيوخ الطرق عليها والتصاقهم بها في اليومي المعيش وحتى في الشعار الذي اختاروه لأنفسهم وتسموا به (الفقراء)¹.

والشعر الشعبي هو من أهم الوسائل التي استعملها هؤلاء المتصوفة عند نشرهم لتعاليم طرقهم الدينية، إذا لم نقل بأن جميع شعراء القصيدة الشعبية كانوا صوفية أو ينتمون إلى طرق صوفية، فإنه يمكننا القول بأنهم تعرضوا كلهم بشكل أو بآخر لتأثير التصوف والطرق الصوفية.

وهذا ما يظهر جليا لدى شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة وضواحيها، والذين تتصدرهم الشاعرة "الزهرة اشويحة" التي نشأت وترعرعت في جو روحاني يسوده القرآن الكريم وحب المولى عز وجل والعمل بشريعته وطلب العلم والمساهمة في نشره وتلقيه لطالبيه وطلابه والتمسك بالسنة النبوية الشريفة، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحلي بأنبل الأخلاق وأجمل الصفات.

1 - سعيد جاب الخير: العلاقة بين التصوف وشعراء الملحون في الجزائر - محمد بن مسايب نموذجاً - الملتقى الوطني الأول حول التصوف في الأدب الشعبي - دورة الشاعر الشيخ أحمد بن معطار - التصوف في الأدب الشعبي الجزائري، الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، دار أسامة، الجزائر، 2007، ص 34/33.

1.3.3 - الشيخ محمد بن أبي القاسم¹:

شخصية تاريخية تراثية كان لها دور كبير في بعث الوعي القومي والديني والثقافي وحتى السياسي في أوساط الشعب الجزائري بصفة شاملة وداخل المجتمع في منطقة بوسعادة وضواحيها بشكل خاص. هو الشيخ "محمد بن أبي القاسم" مؤسس زاوية الهامل؛ هذه الزاوية التي لعبت دورًا بالغ الأهمية في عهد الاستعمار الفرنسي للجزائر، حين كان الشعب الجزائري يتخبط في ظلمات الجهل الحالكة وقيود العبودية المضنية ويئن من ويلات الفقر والجوع والحرمان...

كانت الزاوية عبارة عن صرح ديني، ثقافي، سياسي، اقتصادي، وتاريخي، ومنارة للعلم تزدهر بالطلاب من مختلف جهات الوطن؛ يؤمنونها رغبة في تحصيل المعارف المتنوعة وتثوير العقول وحفظ القرآن الكريم والأخذ بمجامع السنة النبوية الشريفة، ويقصدها الفقراء والمساكين واليتامى والأرامل.. فكانت بحق قبلة يحج إليها كل محتاج أو مريض أو مظلوم، وصارت اليوم رمزًا من رموز الإسلام

1 - ولد الشيخ محمد في أول محرم سنة 1240 هـ الموافق لـ 26 جويلية 1824م ببادية (الحامدية) في ناحية جبل تاسطارة، بين بلديتي دار الشيوخ و حاسي بحبح بولاية الجلفة، ولما بلغ سن التعلم أرسله والده إلى الكتاب، حفظ القرآن الكريم على يد ابن عم له يدعى (محمد بن عبد القادر) انتقل سنة 1837م إلى زاوية (علي الطيار) بمنطقة البيبان قرب برج بوعريرج، فأثقن القراءات السبع وفن التجويد على يد أحد شيوخ الزاوية المسمى (سي الصادق) أقام هناك عامين عاد بعدها إلى بلده (الهامل). في سنة 1844م نزل بزاوية (سيدي السعيد بن أبي داود) بأقبو ولاية بجاية، درس بها الفقه والنحو وعلم الكلام والفرائض والمنطق.. ثم درس بها، وعاد إلى بلده (الهامل) سنة 1848م، أخذ أوراد الطريقة الرحمانية عن الشيخ (المختار بن خليفة) شيخ زاوية أولاد جلال بولاية بسكرة، ولازمه حتى وفاته، منذ سنة 1862م شرع في بناء زاويته في بلدته (الهامل) حيث حققت الزاوية سمعة واسعة وقصدها الطلبة من كل الأنحاء وازدادت شهرة في عصرنا الحالي - وقد لاحظت أنا شخصياً التطور الذي شهدته الزاوية وتوسع مسجدها واثراء مكتبتها التاريخية والحركة الذووية الواسعة للسياح الأجانب والزوار والطلبة في زيارتي إليها - توفي الشيخ يوم الأربعاء أول محرم سنة 1315 هـ الموافق لـ 02 جوان 1897م، ودفن بزاويته، وتولت ابنته (لالا زينب) إدارة الزاوية من بعده. قدّمت زاوية الهامل خدمات جليلة للإسلام والمسلمين ولا زالت...

- وينظر: منير القاسمي الحسني: زاوية الهامل - التاريخ المصور - ص22 وما بعدها.

- وينظر: الحاج مزاري: الهامل - مركز إشعاع ثقافي وقلعة للجهاد والثورة - ص21 وما بعدها.

ومقصداً للباحثين والمؤلفين، ووجهة لكل غيور على دين الإسلام، ومستقرا لكل عاشق للتراث ومحب للتاريخ، ومنبرا من أقوى منابر الثقافة العربية الإسلامية.

أما مؤسسها الشيخ "محمد بن أبي القاسم" - رحمه الله وطيب ثراه - فَيَعْدُ عِلْمًا من أبرز الأعلام الذين اشتهروا في الجزائر وفي الوطن العربي آنذاك، حيث نال بحق وجادة لقب "إمام النحويين" لتفوقه الواضح في علم النحو، إضافة إلى إتقانه مواد أخرى - كانت مقررة في نظام التدريس في الزاوية - هي: القرآن الكريم، الحديث الشريف، الفقه، اللغة العربية، التصوف، الكيمياء، الرياضيات، الفلك والبلاغة.

لقد كان هذا الشيخ موضع اهتمام الشعراء لحنكته وذكائه؛ حيث كثر الذين مدحوه ومدحوا ابنته "لالا زينب" من بعده، وما كان حبه لهم إلا لقبول جعله المولى عز وجل له في الأرض، ومناقب تحلّى بها دون غيره من رجال الدين الذين عاصروه وحتى الذين مروا بعده، وأكبر دليل على ذلك تأسيسه للزاوية في ظروف صعبة وقاسية.

وهذا ما جعل الشاعرة "الزهرة اشويحة" ابنة بلده تخلص اسمه في إحدى قصائدها وتشدو قائلة:

يَحْكُوْلُكَ عَنَّا وَعَنْ كَامِلٍ لُوصَافٍ قَسُوْمُ الْمَغْلُوْمِ ضَاوِي مَنَارُو

اختارت الشاعرة عند حديثها عن الشيخ اسما مرخما مصغرا هو "قَسُوْمُ"¹ عوضا عن اسمه الحقيقي "محمد بن أبي القاسم" وذلك لأسباب كثيرة منها: الحب الشديد الذي تكنه له، وتعلق قلبها به؛ ألا ترى أن القلب إذا تعلق بشخص

1 - قَسُوْمُ: اسم مشتق من قاسم، كما هو الحال في قَدُوْر من قَادِر وعُمُوْر من عَامِر، وهي صيغة مشهورة في المجتمع الجزائري، حيث شاع استخدامها كأسماء علم للذكور، مع أن وزن الصيغة غير وارد في صيغ التصغير والترخيم حسب قواعد النحو والصرف في اللغة العربية الفصحى، ولكن يمكن أن تكون مشتقة على طريقة الاشتقاق في اللهجة العامية.

- ينظر: مصطفى الغلاييني: جامع الدروس العربية، مراجعة وتنقيح: سالم شمس الدين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2005، ص231 وما بعدها، ص519-520.

ناداه اللسان بأحب الأسماء إليه؟! كيف وإن كان هذا الشخص رمزا للحب وصورة للذات الإنسانية في أبهى صفاتها وأجمل سلوكاتها (كامل لوصاف) وقد شعت الأنوار من منبره (ضاوي منارو) وبلغت شهرته الآفاق (قسوم المعلوم).

والمطلع على تاريخ هذه الشخصية الرمزية/ التراثية/ الدينية يشعر بأنه يكتشف تاريخ أمة بأكملها؛ لقد جمع هذا العالم النابغة صلاح الدين مع التقى والعفاف والأصل الشريف، وامتاز بالذكاء وقوة الذاكرة، وهذا ما أشارت إليه الشاعرة أثناء حديثها عن تاريخ المدينة والأصل الشريف للسكان وجذور الدين الإسلامي المتجذرة عبر حقب طويلة من الزمن في هذا المكان الرمزي:

أحنا نسبة عالية والأصل اشراف	ووطننا معزوف تتعاذ اخبارو ¹
بز الهامل زين واتجيه بالالاف	وأعبادو صلاح ناسو يتزارو ²
متملك بالدين وغاني بالعفاف	موجود البرهان في ساس احجارو ³
أحنا شجرة طيبة واتمد اعراف	كل عارف ايمد بنة بثمارو ⁴

الهامل، المكان والزاوية والشيخ "محمد بن أبي قاسم" كل هؤلاء يشكلون رموزا تراثية تاريخية تفوح بعطر الأصالة والعراقة وقداسة الأرض وعنفوان الإنسان، وتسمو إلى أعلى قمم الحضارة البشرية، من صلاح الدين وكرم الأخلاق وعمل الخير وتقديم المساعدة والدفاع عن الوطن والعرض ونصرة الحق وإزهاق الباطل والدعوة إلى حفظ القرآن الكريم ونشره والعمل بما جاء فيه والمحافظة على السنة النبوية الشريفة.

وخلاصة الأمر أن الشيخ "محمد بن أبي القاسم" مؤسس زاوية الهامل هو من أهم الرموز التاريخية التراثية في الجزائر عامة، وفي مدينة الهامل بشكل خاص، حيث اقترن اسمه بوجود هذا الصرح الديني التراثي الثقافي، مما زان

1 - احتا: نحن. تتعاذ اخبارو: يعاد نقل أخباره ونشرها تارة بعد تارة.

2 - زين: جميل. اتجيه: تجيء إليه.

3 - غاني: غني. ساس: أساس، قاعدة.

4 - اعراف: أغصان (مفرد: عُرف). ايمد: يعطي. يمنح. بنة: ذوق.

منطقة بوسعادة ومنحها مكانة خاصة في قلوب السكان والزائرين والسياح الأجانب، وبلغ صدى هذه المدينة الآفاق، وارتبط اسمها بالطهر والتقوى والعفاف والغنى، وليس ذلك بالغريب على منطقة اشتهرت باحتوائها على عباقره ونوابغ في مختلف المجالات والتخصصات منذ عهود خلت!

الشيخ "محمد بن أبي القاسم" إذا يُعدّ رمزا للعلم والصلاح والعفاف والإيمان الصادق والعطاء والجود والكرم وحسن الخلق والصبر والتفاؤل والجد والاجتهاد، وهو رمز للشجاعة وقوة التحمل والصمود والقيادة واتباع الحق والابتعاد عن الظلم، وهو رمز للصفاء والنقاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو رمز للأمن والاستقرار والسلام والطمأنينة والصلح بين المتخاصمين، وهو رمز للجهاد والدفاع عن الأرض والدين بالدعوة إلى التشبث بكتاب الله واتباع سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو رمز - أيضا - للزهد والتصوف والنسك والحلم والذكاء والفطنة.

وأخيرا، من لم يزر منطقة بوسعادة ولم يحصل له التعرف على زاوية الهامل وعلى مؤسسها الشيخ "محمد بن أبي القاسم" فإن الشاعرة "الزهرة اشويحة" تتصحّه وترشده إلى مايلي:

سأل عثينا في النمدنّ مع لزياف سأل عثينا كل عرش ودوارو

2.3.3 - الشيخ عبد الحميد بن باديس¹:

في قصيدة تاريخية طويلة لخص الشاعر "البشير قذيفة" جل الأحداث التي مرت بالجزائر؛ منذ تنافر وتنافس الدول الغربية على احتلالها واستنزاف ثرواتها وتعبيد شعبها واستغلال طاقاته، وصولاً إلى دخول الاستعمار الفرنسي وقيام الثورات الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر وأحمد باي وبوزيان وبومعزة ولالة فاطمة نسومر وبوبغلة والمقراني وبومرزاق وأولاد سيدي الشيخ وبوعمامة، ومروراً بأحداث الثامن ماي عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين، إلى قيام الثورة التحريرية الكبرى في الفاتح من نوفمبر عام ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين، وما وقع أثناءها من أحداث ومجازر وحشية سجلها التاريخ بحروف من دماء الشهداء الذين لم

1 - ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس بمدينة قسنطينة يوم 4 ديسمبر 1889م، نشأ في بيئة علمية، حفظ القرآن الكريم في صغره، ثم تتلمذ على يد شيوخ عصره آنذاك، تخرج من جامع الزيتونة عام 1912م، قام بعدها بأداء فريضة الحج حيث التقى برفيق دربه ونضاله فيما بعد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي أثناء إلقائه للدروس في المسجد النبوي، بعد مغادرته الحجاز زار بلاد الشام ومصر، واجتمع برجال العلم والأدب. عاد إلى الجزائر عام 1913م، واستقر في مدينة قسنطينة، واتجه إلى التدريس والصحافة حيث أصدر العديد من المجلات والجرائد منها: جريدة المنتقد والشهاب والبصائر والسنة والشرعية والصراط، وقام بتأسيس جمعية العلماء المسلمين رفقة زملائه. يعد الشيخ عبد الحميد بن باديس من السياسيين والمرتبين المصلحين والعلماء المفسرين حيث فسر القرآن الكريم خلال خمس وعشرين سنة في دروسه اليومية، توفي الشيخ عبد الحميد بن باديس - رحمه الله - يوم الثلاثاء 16 أبريل 1940م، وقد كوّن ورّى أجيالاً أشعلت فتيل الثورة التحريرية في الفاتح من نوفمبر عام 1954م، كما ترك آثاراً منها ما تم تحقيقه. تم تدوين هذه المعلومات بالاطلاع على الكتب التالية:

- عمار الطالبي: آثار ابن باديس، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، المجلد 01، ط3، 1997، ص72 وما بعدها.

- محمد الملي: ابن باديس وعروبة الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش، 2007، ص09 وما بعدها.

- عبد الحميد بن محمد ابن باديس الصنهاجي: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2003، ص06 وما بعدها.

يترددوا لحظة في التضحية بالنفس والمال والولد في سبيل الدين والحرية والكرامة والوطن والأرض والعرض.

وقد كانت نهاية هذه الأحداث حصول الشعب الجزائري على استقلاله في الخامس من شهر جويلية عام اثنين وستين تسعمائة وألف. لقد جعل الشاعر "البشير قذيفة" قصيدته قصة كاملة لتاريخ أرض ارتوت تربتها بدماء أبنائها واعتزت وافتخرت بشهامتهم وبطولاتهم التي اختلفت أشكالها وتتنوعت طرقها، فمن هؤلاء الأبطال من ضحى بالسلاح ومنهم من ضحى بالقلم، ومنهم من جمع الاثنين معاً.

ويعد الشيخ "عبد الحميد بن باديس" بطلاً من أبطال الجزائر الذين اتخذوا من القلم سلاحاً ضد الطغيان والظلم والاستبداد والاستعمار، عملاً بقوله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ} (01) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (02) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (03) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (04) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (05) ¹

والقلم؛ هو رمز للعلم والنور والحرية والانطلاق والتعبير عن الذات البشرية وعن المشاعر الدفينة في الضمير الإنساني، وقد امتزج القلم بالشيخ وتعلق الشيخ بالقلم، كيف لا، وقد أقسم المولى عز وجل بالقلم فقال تبارك وتعالى في محكم تنزيله: {ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} (01) ²، ألا يدل ذلك على المكانة المرموقة التي منحها المولى عز وجل للقلم؟! لقد سميت سورة في القرآن الكريم بسورة القلم تعظيماً للقلم الذي هو أداة للكتابة، وهذا؛ أكبر دليل على الأهمية العظمى التي أولاها الله سبحانه وتعالى للعلم والمعرفة ودور ذلك في حياة البشرية جمعاء.

1 - سورة العلق، الآيات من (01) إلى (05).

2 - سورة القلم، الآية (01)

والشاعر "البشير قذيفة" في قصيدته التاريخية الطويلة حول الأحداث السياسية التي عاشتها الجزائر قبل دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر وأثناء ذلك وبعد الاستقلال، حاول رغم معلوماته البسيطة أن يخلد أسماء المجاهدين والسياسيين والزعماء والأبطال والمتقنين ورجال الدين الذين كان لهم دور كبير وهام في تنوير دروب الناشئة، وذكر من بين هؤلاء الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس، فقال متحدثاً عن فرنسا الاستعمارية، مردفا حديثه بالشيخ العلامة موضحاً ردة فعله اتجاه ما فعله الاستعمار الفرنسي:

افرنسا في شعبنا راها تسلب	حسبتنا عبيد لئها طعنناها
ادأت الأرض وناوية فيها تكنسب	واتحارب باؤلادنا كل عداها ¹
على تاريخ بلادنا حبّت تشطب	اتحولنا على ديننا كيمما هواها ²
احتنا مسلمين لأمة لعرب	الشيخ ابن باديس كلمة خلاها ³

وظف الشاعر "البشير قذيفة" في أبياته استعارات مكنية تضمنتها العبارات (راها تسلب، حسبتنا عبيد، ادأت الأرض، اتحارب باؤلادنا، حبّت تشطب، اتحولنا على ديننا)؛ المشبه فيها مذكور هو فرنسا، والمشبه به محذوف هو الإنسانة الشريرة أو المرأة المغتصبة لحقوق غيرها، والقرائن اللفظية الدالة على العلاقة الموجودة بين المشبه والمشبه به هي الأفعال التي وردت في العبارات. هذا الاستخدام من طرف الشاعر للفظ (فرنسا) يدل على الوحشية والظلم والقهر والنهب والاستعباد والتكيل والتدمير والقتل والاستغلال بأبشع صفاته وأقبح مظاهره وأنذل

1 - ادأت: أخذت. باؤلادنا: بأولادنا. عداها: أعداءها.

2 - ديننا: ديننا.

3 - احتنا: نحن. لعرب: العرب. كلمة: المقصود بالكلمة عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة وضواحيها هو القصيدة من الشعر، وجمعها كلام يعني قصائد وأشعار، أما لفظ (كلمة) في بيت الشاعر (البشير قذيفة) فالمقصود به هو قصيدة الشيخ ابن باديس الشهيرة والتي يقول في مطلعها:

- شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

طرقه ووسائله، لذلك كان تركيز الشاعر على المشبه أكثر من تركيزه على المشبه به لبيان وجه الهمجية والندالة والخصاسة والسذاجة والحمافة والوقاحة ونزعة الشر.

أما الشيخ "عبد الحميد بن باديس" فقد وظفه الشاعر على العكس من توظيفه كلمة فرنسا تماما، حيث جعله رمزاً لنور العلم وطلبه ونشره ورمزا دالا على الانبراء تحت جناح الإسلام وبالتالي الاتصاف بالعروبة والانتساب إليها، حيث يظهر التناص الأدبي في بيت الشاعر:

احنّا مسلمين لأمة لعرب¹ الشيخ ابن باديس كلمة خلاها¹

وبالضبط في الشطر الأول منه، وهو تذكير من الشاعر بقصيدة الشيخ العلامة التي يقول في مطلعها:

شعبُ الجزائرِ مُسلمٌ وإلى العروبة يُنسبُ

لقد استعار الشاعر "البشير قذيفة" الشطر الأول من بيت الشيخ "عبد الحميد بن باديس" ووظفه بلهجة قريبة من اللغة العربية الفصحى، واستخدم في تعبيره عن معانيه الضمير "نحن" بدلا عن الضمير "هو" فجاء خطابة تعبيراً عن روح الجماعة، وتجلّى من خلال ذلك إحساسه المرهف بالغير، وقصد إيصال رسالته السامية للمتلقي ومحاولة التأثير فيه لجأ الشاعر إلى الاستشهاد بشخصية من أبرز الشخصيات الدينية في الجزائر؛ عبد الحميد بن باديس، الذي يعد علما من أهم الأعلام في الوطن العربي؛ ساهم في بعث النهضة الدينية والأخلاقية والثقافية والسياسية داخل الجزائر وخارجها في فترة من أشد الفترات الحرجة التي مرت بها البلاد، فصار بحق رمزا للنهضة والتجديد والإصلاح والأمن والاستقرار، ورمزا لبعث الأمل في نفوس الخلائق من أجل حياة أجمل وغد أفضل، ورمزا للاستمرار وحب الحياة وضرورة البحث عن حلول سلمية لعيش حياة عزيزة كريمة.

لقد أنشأ الشيخ العلامة أجيالا على طاعة المولى عز وجل وحب رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وعلى اتباع الدين الإسلامي وتطبيق أركانه والمحافظة على الأخلاق الحسنة وضرورة الدفاع عن الأرض والعرض بالرجوع

1 - خلاها: تركها

إلى تعاليم الشريعة الإسلامية، ورباهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فعد رمزا من رموز الإسلام وصار اسمه مقتربا بالعلم والدين والخلق النبيل وحب الخير ونشر الإسلام والدعوة إليه.

ورغبة منه في تحرير الشعب الجزائري من براثن الاستعمار الفرنسي عمل الشيخ العلامة على تطوير الصحافة المكتوبة بإنشاء جرائد ومجلات تخدم الفرد الجزائري والأمة الإسلامية جمعا، وهذا من أجل نشر الوعي داخل المجتمع الذي كان يعاني ويئن تحت وطأة الظلم والاستعباد.

وكان لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي ترأسها الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس، وانظم إليها رجال من خيرة ما أنجب هذا الوطن من أئمة ودعاة ومصلحين منهم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والشيخ محمد العيد آل خليفة وغيرهم كثيرون دور هام في بعث حركة التجديد والنهضة والإصلاح، ومن خلال هذه الأعمال التي بادر إليها الشيخ وساهم فيها وسعى إلى تحقيقها يتضح جليا عمق ثقافته وسعة مداركه وقوة صبره. إنها صفات تحمل في ثناياها دلالات عميقة لهذه الشخصية التاريخية التراثية التي صارت رمزا لكل ماله علاقة بالوطنية والإسلام وكرم الأخلاق وفعل الخيرات وحب الآخرين.

عبد الحميد بن باديس إدا؛ هو رمز تراثي تاريخي يوحى بالنهضة والصالح والتجديد وقوة الإيمان بالله ومحبة رسوله، يدل على العمل المنظم والتمسك بالجماعة والشراكة والشورى والتفكير بجدية وعزم في مصير البلاد والنهوض لجلب المصلحة ودفع المضرّة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتدبير في أمر المستعمر وضرورة محاربتة والقضاء عليه وعلى أساليبه القمعية الهمجية الوحشية، وهو رمز للمواطن الصالح الذي يراعي شؤون وطنه، والإنسان المسلم الذي يهتم لأمر دينه ويعالج قضايا بلاده وأفراد مجتمعه، ويناضل من أجل الحرية وفرض الذات الإنسانية وإبراز مكانة الفرد البشري كعنصر مستقل بشخصيته ومنفرد بآرائه وأفكاره وطموحاته وأهدافه وأحلامه في عالم تعددت أجناسه وجنسياته وأشكاله وألوانه ولغاته ولهجاته وعاداته وتقاليده.

وهو رمز للوطنية الحقّة، ورمز للعلم والفكر والتشبّث بالقيم الأصيلة والمبادئ السامية، فلا يأتي على ذكر اسمه إلا وتبادر إلى أذهاننا "يوم العلم" هذا اليوم الذي يصادف تاريخ السادس عشر آفريل من كل عام، يتذكر فيه الجزائريون تاريخ هذا الرجل العظيم ويطالعون سيرته العطرة ويكرمونه في قبره بخلق جوّ علمي يقوم به تلاميذ المدارس وطلاب الجامعات، فيحيون بذلك أمجاد الرجل بإقامة معارض علمية تتخللها عروض للكتب والإصدارات والمؤلفات القديمة والحديثة ونشاطات ثقافية تتنوع بين المحاضرات - بمختلف مواضيعها - والأمسيات الشعرية والحلقات والخطب التذكيرية في المساجد ومنابر العلم المتعددة، إضافة إلى الأيام التحسيسية والندوات والملتقيات والوقفات التضامنية بشتى صورها وأشكالها.

لقد كان الشيخ ولا يزال رمزا من رموز الوطن التي تدعو إلى بناء الفرد الإسلامي والشخصية الإسلامية من جميع النواحي سواء من الناحية الأخلاقية أو من الناحية المعرفية أو من الناحية الدينية أو من الناحية الثقافية أو الاجتماعية أو السياسية أو حتى الاقتصادية وكذلك الأدبية والفنية؛ "إنّه شخصية عجيبة، مجددة للنفوس البالية وباعث للضمائر الخاملة، والقلوب الهامدة، باث للعلم، محرك للعقول، مرجع الثقة للناس، زارع بذور الثورة، مشيع فكرة الحرية، مبين المحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، فأنكشفت به الغياهب الدكناء وانجابت الغيوم الكثيفة، والضباب العاتم من سماء الجزائر واستمر يواصل النضال العلمي والاجتماعي والسياسي يعلم ويرشد ويعظ ويحرر وينتقل ويتعبّد ويتأمل ويحقق، لا يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار، لم يشفق على نفسه ولا على جسمه، ولم يبالي بصحته في سبيل مبدأ أعظم، وأمة يسوءه حالها، ويدمي نفسه احتلالها، ويدفعه للبذل والسهو مآلها، وآماله وآمالها، أفنى ذاته في سبيل عقيدة، وقضى من أجل رسالة¹.

1 - عمار الطالبي: آثار ابن باديس، ص: 94، 95.

هذا باختصار شديد، هو الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس رائد النهضة والتجديد ومؤسس حركة الإصلاح في الجزائر، شعوره المتدفق بالقومية غدا لديه فيضاً شعرياً لما نظم قصائده التي أعادت للشعب الجزائري أبعاده الحقيقية وأمجاده المبعثرة في أغوار التاريخ الإسلامي. إنه صاحب النشيد المشهور الذي طالما تغنى به أبناء الجزائر، وحفظته الذاكرة الشعبية ورددته الكبار والصغار في مختلف المحافل والتجمعات، بالإضافة إلى نظمه لقصائد أخرى. يقول العلامة عبد الحميد بن باديس في المقطع الأول منه:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ	وَالِى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبُ ¹
مَنْ قَالَ حَادٌّ عَنْ أَصْلِهِ	أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ
أَوْ رَامَ إِدْمَاجًا لَهُ	رَامَ الْمُحَالَ مِنْ الطَّلَبِ

4.3 - ثوار ومجاهدون:

تعتز الجزائر منذ قيام ثوراتها الشعبية إلى اندلاع ثورة التحرير المضفرة بثوارها ومجاهديها، وتفخر ببطولاتهم ونضالهم وجهادهم في سبيل حريتها واستقلالها. لقد ولد هؤلاء من رحم الثورة، واحتضنهم الشعب، ولبى نداءهم الكبار والصغار، النساء والرجال، فكانوا رموزاً للنضال الجزائري ومشاعل للإشعاع الحضاري، واستمر عطاؤهم إلى ما بعد الاستقلال، ومنهم من قضى نحبه شهيداً، ومنهم من عاش واستمتع بأيام الحرية حتى آخر قطرة من عمره.

ومهما كان من أحداث دامية عاشتها الجزائر ودمار وقتل ونهب واستعباد، إلا أن رجالها الأبطال كانوا صامدين صمود الجبال في وجه العواطف الضارية وحذرين ومنتهيين وأقوياء في مواجهة دبابات القوات الفرنسية وأسلحتها الفتاكة، ولم يقتصر الأمر على الذكور منهم، بل تعدى ذلك ليشمل الإناث أيضاً.

1 - القصيدة كاملة مطبوعة، ومرفقة بالنوطات والعلامات الموسيقية، وهي من تلحين (الأمين بشيشي).

- ينظر: المتحف الوطني للمجاهد: أناشيد وطنية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة، روية، الجزائر، 2002، ص15، 16.

لقد كانت النساء الجزائريات من أشد نساء العرب شجاعة وبطولة، حيث خلدهن التاريخ بأحرف من ذهب، وتناقلت الألسن والروايات ما قمن به من تضحيات أثناء الثورة التحريرية الكبرى وقبلها - أيضا - عند قيام الثورات الشعبية، بل هناك منهن من قامت بقيادة ثورة شعبية بأكملها من أمثال "لالة فاطمة نسومر".

وحسب قصائد الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة، فإن هؤلاء الأبطال لم يغيب ذكرهم عن شعراء هذه المنطقة؛ بل ظلوا رموزا حية ناطقة تشع بأسمى صور الكفاح والنضال والمقاومة والجهاد والدفاع عن الأرض والإخلاص للوطن والصبر والشجاعة والحمية والحماسة، ولا زالت أمجادهم ومفاخرهم شاهدة عليهم كلما ذكرت أسمائهم أو تعاقبت المناسبات الوطنية التاريخية التي لا غنى للشعب الجزائري عن الاحتفاء بها باستعادة أحداث التاريخ وسير العظماء والأبطال.

1.4.3 - الأمير عبد القادر¹:

قائد جزائري، وعسكري محنك، وفقه عارف بأحكام الشرع، وملتزم بتطبيق الشريعة، وعالم واسع الفكر، متسامح مع الآخر، ومتفتح على واقع مجتمعه ومقتضيات عصره، كلما ذكر اسمه وقع في الأذهان تأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة على قواعد من العدل والنظام، أنشأها على التنظيم الحديث المدروس، ووضع لها دستوراً كأحسن الدساتير، كما ضرب النقود باسمها من الفضة والنحاس وافتتح معامل الأسلحة والألبسة وعين رجال الدولة ومجالس الحكم وعبأ جيشه تعبئة مثالية.

لقد هابه الفرنسيون وحسبوا له ألف حساب، واضطروا أن يعقدوا معه معاهدة أقروا له بموجبها بالسلطة، واعترفوا بدولته؛ ولم تكن مبايعة الناس له إلا لخصال جمعها الله في شخصيته من سعة العلم والصلاح والأدب والخيرية وسعة

1 - هو الأمير عبد القادر بن محي الدين، ولد عام 1807 بالقيطنة غرب مدينة معسكر، نشأ وترى في محيط ديني وعلمي وثقافي وترعرع في كنف والديه حيث حضى بالعناية والرعاية، حفظ القرآن الكريم في صغره وتلمذ على يد عدد من شيوخ المنطقة. في سن السادسة عشرة من عمره زوجه والده بابنة عمه (لالا خيرة)، أدى فريضة الحج مع أبيه وزار دولا عربية منها : مصر ، سوريا ، العراق ، تونس .. وغيرها وتعرف على كبرائها وأعيانها وجالس علماءها. تمت مبايعته تحت شجرة الدرارة في عام 1832 ولقبه والده بناصر الدين وكانت المبايعة الثانية في عام 1833 م . أسس دولته الحديثة بالعدل والنظام، ولكنه نفى إلى دمشق من طرف الاستعمار الفرنسي بعد نضال طويل فاستقر هناك إلى أن توفي في عام 1883 م، ترك مؤلفات منها كتاب "المواقف" و "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل"، نقل جثمانه بعد الاستقلال ليعاد دفنه في الجزائر.

للاطلاع أكثر ينظر:

- نزار أباضة : الأمير عبد القادر الجزائري - العالم المجاهد - دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1994، ص:09، وما بعدها.

- ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000، ص:155، وما بعدها

- عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط1، 2000، ص:11، وما بعدها.

الفضل والكرم وكرم النفس والشجاعة ورغد العيش وطول اليد ونفوذ الكلمة وحسن الأخلاق، حيث تولى الصدارة بين أهله في جميع الأمور.

كان الأمير عبد القادر ولا يزال شخصية رمزية تراثية خلدها التاريخ وحفظتها ذاكرة الشعوب، واستعان بها الشعراء لبث الحماسة في الأجيال وتربية النشء على فضائل القيم وجميل الأخلاق. وجاء شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة في طليعة الشعراء الذين تغنوا بهذا البطل وعددوا خصاله، أبرزهم - حسب المدونة الشعرية التي بين أيدينا - الشاعر "البشير قذيفة" والشاعر "السعيد بوعشرين".

يقول الشاعر "البشير قذيفة" في قصيدته التاريخية الطويلة، مفتخرا بالأمير عبد القادر خاصة وبالشعب الجزائري بشكل عام:

عَبْدُ الْقَادِرِ ثَارَ فِي شَعْبُو وَاخْطَبُ رَايَةَ الْجِهَادِ فَيَدُوْ عَلاَهَا
نَاضَ مَعَاهُ الشَّعْبُ بِكَلَامُو رَحَبَ الْبَيْعَةِ لِلْأَمِيرِ صَرَّحَ وَأَعْطَاهَا

ويقول الشاعر "السعيد بوعشرين" في نفس السياق:

سَأَلَ أَعْلَى التَّارِيخِ تَلَقَّى كُلَّ احْتِلَالٍ مِنْ عَهْدِ الْأَمِيرِ فِي ثَوَرَاتُو
مَا نَقْدَرُشْ نَعْبِدُكَ ذَا الْوَصْفِ اِيْطُولُ نَعْجَزُ عَنْهُ مَا نَوْفِي صِيْفَاتُو

رفع الأمير عبد القادر راية الجهاد مدعوما من طرف شعبه ومواطنيه، حيث بايعوه وكلهم ثقة في قوته وشجاعته وحسن تدبيره وحنكته وصبره وجلده، حتى أصبح في الذاكرة التاريخية للأمة العربية الإسلامية "رمزا لكل مجاهد محتسب ولكل مضطهد معذب، ولعل هذا ما استقر في الذاكرة الشعبية التي رفضت التسليم بتغلب القوي على الحق والجمود على التطور، ولم تقوَ على احتمال تخلي الأمير عبد القادر عن الجهاد¹ خاصة أثناء وجوده بين يدي الاستعمار الفرنسي، وبعد نفيه إلى دمشق.

الأمير عبد القادر عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة إذاً؛ هو رمز للإنسان الثائر المجاهد المدافع عن أرضه وعرضه، هو رمز للقائد المخلص

1 - ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، ص244.

الوفي الصادق المناضل، هو رمز للبطل الشجاع القوي، هو رمز للمواطن الصالح الصابر، وهو رمز للرجل التقى النقي المؤمن الذي رفع راية الحق والعدل في أصعب الظروف التي كانت تمر بها الجزائر، حيث كان "بتصرفه وزهده وأريحيته ولين عريكته وتسامحه مثال الإنسان المتسامح ونموذج المثقف المتفتح على أفكار الآخرين وعقائدهم، فكان بحق متقدما على عصره مؤمنا بضرورة الأخوة والتعايش بين مختلف العناصر والأديان، والثقافات والأفكار".¹

إنه حقا، رمز للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار والاضطهاد الفرنسي، فضلا على أنه كان من أفضل الفرسان وأبرع المحاربين وأفقه العلماء وأذكى السياسيين وأفصح الخطباء وأتقى المسلمين، وقد اهتم كثيرا بالتصوف دراسة وتأليفا، فجمع بهذه الخصال والصفات والمزايا بين السيف والقلم؛ ذلك بأنه كان شاعرا فحلا مجيدا، برع في مختلف الأغراض الشعرية، وهذه أبيات مختارة بدون ترتيب من إحدى قصائده. يقول الأمير عبد القادر متغزلاً:

أَوْقَاتٌ وَصَلِكُمْ عِيْدٌ وَأَفْرَاحٌ	يَا مَنْ هُمْ الرُّوحُ لِي وَالرُّوحُ وَالزَّاحُ
فَمَا نَظَرْتُ إِلَى شَيْءٍ بَدَأَ أَبَدًا	إِلَّا وَأَحْبَابُ قَلْبِي دُونَهُ لَاحُوا
لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجَبَنِي	صَبْرُ الْمُحِبِّينَ مَا نَاحُوا وَلَا بَاحُوا
أَرِيدُ كَتَمَ الْهَوَى حِينًا فَيَمْنَعَنِي	تَهْتَكِي، كَيْفَ لَا وَالْحَبُّ فَضَاحُ!
لَا شَيْءَ يَثْنِي عَنَانِي عَنْ مُحِبَّتِهِمْ	وَلَا الصَّوَارِمُ فِي صَدْرِي وَأَرْمَاحُ ²

من خلال هذه الأبيات الشعرية وغيرها، يتضح جليا للمتلقي براعة هذا الشاعر المتمكن وعبقريته ونفسه الشعري اللطيف وحساسيته الشعرية الفياضة وشعوره المرهف وانسيابية كلماته وعباراته وغازاتها وجودة انتقائها وحسن تركيبها وبلاغة بنيتها الفنية. لقد كان الشعر لسانه الصادق الذي عبر به عن مآثره،

1 - المرجع نفسه، ص187.

2 - الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تحقيق وتقديم: بكري علاء الدين، دار نينوى، دمشق، سوريا، ج1، 2014، ص19.

ومراته العاكسة لبطولاته وملاحمه وطريقه المُعبّد الذي أوصل صرخته إلى قلوب الآلاف من البشر على سطح هذه المعمورة.

ويبقى الأمير عبد القادر في الذاكرة الشعبية رمزا للرقّة وطيب العنصر ونقاء السريرة وعفة النفس وطهارتها ونقاء الجوهر، وفصاحة اللسان وبلاغة الخطاب وسمو الأخلاق ورفعة القدر، وشدة الإيمان والتقوى، ورمزا للصلاية والقوة والشجاعة، ورمزا للحماسة والحمية ونصرة الحق وإزهاق الظلم والباطل، ورمزا للحب والسلم والتسامح الديني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعمل الخير والحث على القيام به مهما تعكرت الأجواء وساءت الظروف.

هو رمز للصبر والصلاح والفضل والجهاد والزعامة والقيادة، وهو رمز للعلم وطلبه ونشره والبحث عنه أينما كان وحيثما وجد، هو رمز للزهد والتصوف والبعد عن ملذات الحياة وتطبيقاتها بالثلاث والعمل بجد واجتهاد لنيل مقعد في جنة الرحمن مع الأنبياء والصديقين، هو رمز للمواقف الشهمة والأخلاق السمحة والماضي المشرق، وهو رمز للفروسية والفتنازي وحياة البادية الجميلة السعيدة الرحبة، هذه الحياة التي عشقها الشاعر وقد عاش فيها مرحلة صباه، وترعرع في أحضانها وطبيعتها الزاهية الخلابة بمختلف مناظرها المثيرة الساحرة.

لقد تغنى الأمير عبد القادر بالبادية الجزائرية وتغزل بطبيعتها وسكانها وطريقة العيش فيها قائلا في قصيدة من أجمل وأبدع القصائد التي نظمت في المقارنة والمقابلة بين البدو والحضر:

يَا عَادِرًا لَامِرِيٍّ قَدْ هَامَ فِي الْحَضَرِ	وَعَادِلًا لِمُحِبِّ الْبَدْوِ وَالْقَفَرِ
لَا تَذْمَنَنَّ بِيُوتًا خَفَّ مَحْمَلُهَا	وَتَمْدَحَنَّ بِيُوتَ الطَّيْنِ وَالْحَجَرِ
لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي الْبَدْوِ تَعَذَّرَنِي	لَكِنْ جَهَلْتُ وَكَمْ فِي الْجَهْلِ مِنْ ضَرَرٍ ¹

جمع الأمير عبد القادر بين السيف والعلم؛ ومنح كلا منهما حقه، فكان مثالا للفارس المغوار من جهة ومثالا للشاعر الفحل من جهة ثانية، وبذلك رُصّع

1 - الأمير عبد القادر: الديوان الشعري، جمع - تحقيق - شرح وتقديم: العربي دحو، دار ثالثة، الأبيار، الجزائر، ط3، 2007، ص50.

اسمه بحروف من ذهب في الذاكرة الشعبية ولدى شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة بشكل خاص، ورغبة في توضيح هذه النتيجة بعمق ودقة أكثر ورد البيت الشعري للشاعر "السعيد بوعشرين" الذي يتضمن مفهوم المعنى السابق وكأن الشاعر أراد أن يختصر على المتلقي عناء البحث والتنقيب ومحاولة فك شفرات هذا الرمز التراثي وهذه الشخصية التاريخية العظيمة؛ حينما قال:

مَا نَقْدَرُشْ نَعِيدُكَ ذَا الْوَصْفِ اِيْطُوْلُ نَعْجَزْ عَنْوَا مَا نُوْفِي صِيْفَاتُو

حقيقة؛ لا يستطيع أي شاعر أن يَفِيَهُ حقّه، كما لا تستطيع أي دراسة نقدية أدبية كانت أو نفسية أو اجتماعية.. أو غيرها أن تنقل صفات هذا الرجل وأخلاقه وأفكاره وطموحاته، ونواياه وشموخه وشهامته وبطولاته، وسيظل رمزا تراثيا يحمل أهم المعاني التي تدل على الإسلام والوطنية والأخوة والإنسانية والأرض والعرض والشرف والتسامح الديني والعروبة والمصير المشترك والتاريخ الموحد؛ وباختصار شديد هو رمز لدولة جزائرية حديثة وبشكل أوسع هو رمز لحضارة عربية إسلامية قائمة بذاتها.

5.3 - شعراء وعشاق:

الشخصيات الأدبية تمثل عناصر هامة من عناصر الموروث الثقافي الذي تزخر به المدونة الشعرية الشعبية، والأهم عند شعراء منطقة بوسعادة هو الحضور القوي لشخصيات الشعراء منذ العصر الجاهلي إلى الفترة المعاصرة، وكأنهم في استدعائهم لهؤلاء الشعراء يحاولون تنبيه المتلقي إلى أمور جد هامة تتمثل في امتلاكهم لثقافة واسعة وحصولهم على خلفية معرفية تعود إلى العصور الأدبية الأولى، أي منذ العصر الجاهلي، وأيضاً رغبة منهم في المحافظة على مكانة هؤلاء الشعراء في الوسط الشعبي.

ولاشك أبداً في أن توظيف الشخصيات الشعرية التراثية من طرف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة قد أضفى على الشعر الشعبي فيها طابع الجدية والبساطة في الوقت ذاته، ومنحه أهمية خاصة جعلت منه ميدانا فسيحا

وفضاء رحبا يفيض بالرموز والدلالات التي توحى بالزاد المعلوماتي والتراثي الذي يملكه هؤلاء الشعراء.

وفي المدونة الشعرية التي بين أيدينا نلاحظ توظيف نوعين من الشخصيات التراثية الشعرية، أولها شعراء الفصيح وثانيها شعراء الملحون. من أبرز شعراء الفصيح الذين تمت الإشارة إليهم نجد في مقدمتهم الشاعر الجاهلي عنترة بن شداد، يليه بصفة أقل الشعراء: قيس ليلى، وجميل بثينة، وكعب وليبد، أما شعراء الملحون فقد ورد ذكر الشعراء: الشيخ السّماتي وابن كرّيو وابن بلخير بصفة مجملّة، وكانت قصة الحب البدوي (قصة حيزية واسعيّد) من أهم الرموز الشعبية التراثية التي تغنّت بها الذاكرة الشعبية ولا زالت...

1.5.3 - شعراء الفصيح:

لم يغب عن أذهان شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة ما يحمله توظيف الشخصيات التراثية الشعرية من دلالات ومعان، فهي بالنسبة إليهم تعتبر رموزا تاريخية تفيض بالإحياءات المختلفة، وقد يختصرون من خلالها الكثير من المواقف والأحداث التي يتطلب الحديث عنها كتباً ومجلدات، حيث أنهم وبمجرد الإشارة إلى اسم الشاعر سيتبادر إلى ذهن المتلقي أمور عديدة منها: حياة الشاعر وموطنه وعصره وبطولاته وقصصه المثيرة ومغامراته وعشيقاته وقصائده في الحب والغزل...

1.1.5.3 - عنتر بن شداد العبسي¹:

يعتبر الشاعر الجاهلي عنتر بن شداد من أبرز الشعراء الذين كثر توظيفهم من قبل شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة - حسب المدونة الشعرية التي بين أيدينا - كيف لا؟! وهو الشاعر الذي فاقت شهرته الحدود، وبلغت سمعته الآفاق، وضرب به المثل في الشجاعة والبطولة والفتوة والقوة، وليس هذا فقط، بل صارت قصة حبه لابنة عمه عبله من أجمل وأروع قصص العشق التي تفيض عذوبة، وتتجلى من خلالها قيم هامة تدل على الرجولة والأنوثة في أبلغ صفاتهما وأبهى أشكالهما.

لقد وظف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة الشاعر الجاهلي عنتر بن شداد في قصائدهم توظيفاً يبعث على الفخر والحماسة والنخوة، ويبرز مكانة هذا الفارس المغوار في قلب كل إنسان عربي، حتى صار بالنسبة إليهم رمزا لكل بطل ثائر، وصورة لكل شجاع مقدام، ونموذجاً لكل مقاوم ومدافع عن الأرض والعرض.

وفي استدعاء شعراء منطقة بوسعادة للشاعر الجاهلي عنتر بن شداد، وتوظيفهم له كشخصية تراثية رمزية، فإنهم من خلال ذلك يحاولون تجاوز طبقة اللون والانتماء القبلي وكذلك الاجتماعي إلى رمز تتعدّد فيه الكثير من الدلالات...

1 - عنتر بن شداد هو شاعر فحل وفارس بطل، من قبيلة بني عبس، أمه زبيبة، وهي حبشية سوداء سباها أبوه في إحدى غزواته وكان لها أولاد من غير عنتر، وقد كان عنتر أسود اللون، فلم يعترف به أبوه إلا بعد أن ظهرت شجاعته وفروسيته عندما طلب منه أن يقاتل بقوله (كُرِّ يا عنتر). أحب عنتر عبله ابنة عمه، وأحبته بدورها، وتغزل بها كثيراً في شعره، وهو شاعر من العصر الجاهلي، من شعراء المعلقات. قيل أنه توفي مقتولاً بسهم رُمي به.

- ينظر: الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر، تقديم مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص07 وما بعدها.

- ينظر: أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، تقديم: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004، ص197، 198.

في قصيدة بعنوان "سيدي خالد" يتغنى الشاعر "السعيد بوعشرين" بالولي الصالح "خالد بن سنان" الذي ينتمي بدوره إلى قبيلة "بني عبس" العربية، والذي يُعدّ شخصية تراثية رمزية عند شعراء بوسعادة - وقد سبق الإشارة إلى ذلك - حيث يفخر الشاعر بأحفاد هذا الولي الصالح، ومن فرط إعجابه بشجاعتهم وبسالته وطيب أخلاقهم يشبه كلاً منهم بعنتر بن شداد في فروسيته وبطولته واندفاعه، وفي إنسانيته رغم سواد بشرته. وقد مزج الشاعر "السعيد بوعشرين" في أبياته التالية تشبيهات جميلة أظهرت براعته الفنية في اختيار صورته البيانية، يقول الشاعر:

يَا فرسانَ اللّوْمِ بالخيلِ وعدّة نَعَارِينَ الّٰي انْدَهَمَ جَاؤْ امْنَعَا¹
يَتَدَهُوْ فرسانَ يَاتُوا للنّجْدَةِ وَيَغِيثُوا مَضَى يَوْمٌ وَأُزْمَانُو عِيَا²
رَكْبَةُ عَنترِ كِي ايعوْلُ يتحدّى يَا ضِيْمِي سَبْعَ العَرَبِ لَا مِنْ يَصْفَا³

هؤلاء القوم هم فرسان أبطال من خيرة فرسان العرب وأبطالهم، ينجدون من استتجد بهم ويساعدون من طلب منهم المساعدة، فكل واحد منهم يشبه الشاعر الجاهلي عنتر بن شداد في صفاته وتصرفاته، يشبهه في قوته وشجاعته وبطولته وفروسيته، وعنتر بن شداد بدوره يشبه الأسد الذي يعتبر ملك الغابة، وعبارة (سبع العرب) هي كناية عن عنتر. فعنتر بن شداد هنا، هو رمز للشجاعة والفروسية والزعامة والقيادة وهو رمز للنجدة والتحدي والقتال في سبيل الدفاع عن القبيلة وشرفها، وهي صفات متأصلة في العرب الأقحاح.

وقد وظّف الشاعر "عبد القادر العطوي" عنتر كرمز لكل مجاهد، ومناضل ومدافع عن أرضه وعرضه ودينه وكل شهيد رفع راية الجهاد غير آبه

1 - فرسانَ اللّوْمِ: فرسان القتال والنجدة والفظازيا. نَعَارِينَ: مُنْجِدِينَ. الّٰي: الذي. انْدَهَمَ: ناداهم واستتجد بهم. جَاؤْ امْنَعَا: جاؤوا معه.

2 - مَضَى يَوْمٌ: مظلوم، حزين، متألم. عِيَا: أتعبه.

3 - يَا ضِيْمِي: صيغة يستخدمها أهل المنطقة للتعبير عن كثرة الأحزان وتراكم الأشجان. وهي شبيهة بالصيغة الفصيحة (واحسرتاه) ولكن الشاعر هنا؛ استخدمها للتعبير عن الإعجاب الشديد والشعور بالفخر.

بقوة خصمه. ومنتهى أمله هو حصول شعبه على حريته وكرامته وعيشه الكريم. فالشاعر في قصيدة رثائه للمجاهد "الشريف شنوفي" يفخر بقوم المجاهد - الذين هم فرع من فروع أولاد نايل - ويعتز بعروبته ونسبهم الشريف، ويعدد خصالهم ومناقبهم محاولاً خلق جو من الالتحام العضوي الأصيل بين كل فرد من أفراد هؤلاء القوم وبين عنتره بن شداد، ليصبح كل ملمح من تجربة عنتره ملمحاً من تجربة كل فرد من هؤلاء الأفراد. يقول الشاعر:

لَوْحُ الْعَيْطَةِ يَغْصُبُوكَ فِي الْمَوْعَدِ لَا تَخَذَلْ لَا تَقُولْ عَنِّي جَاؤُ ابْعَادُ¹
 اَيْنُتُوا مِنْ كَـأَنَّ عَنْكَ يَتَهَدَّدُ ذِي مِيزَةٍ فِي خَاوَتِكَ يَشْتَتُوا لِعَتَادُ²
 الْمَظْلُومُ إِذَا هَرَبَ لِيَهُمْ وَقَصْدُ وَاهُ اِيْعُودُوا فَاغْ عَنْتَرُ بِنُ شَدَادُ!³
 يَتَمَنَّى بِنَاتَهُمْ ثُمَّ يَقْعُدُ وَيَخُولُ لَوْلَادَتُو مِنْهُمْ لَوْلَادُ⁴

في استدعاء الشاعر "عبد القادر العطوي" لعنتره بن شداد، وتوظيفه له في قصيدته هذه، وفي أبياته هذه بالضبط، يحاول الشاعر أن يعدد أوجه التشابه المتعلقة بالشخصية التي يملكها كل فرد من أفراد هؤلاء القوم "أولاد نايل"، والتي امتلكها الشاعر الجاهلي عنتره بن شداد من قبل.

عنتره بن شداد لدى الشاعر "عبد القادر العطوي" هو رمز لكل بطل شهم، شجاع، مناضل، مقاتل، مدافع، يحب مساعدة الآخرين، ويسعى إلى عمل الخير ويحث على نشره، لدرجة جعلت الشاعر يقدم نصيحة ثمينة لكل طالب زواج أن يختار أم أولاده من بنات هؤلاء القوم (ويخول لَوْلَادَتُو مِنْهُمْ لَوْلَادُ)، والذين هم في حقيقة الأمر صور حية عن هذا الشاعر الرمز الذي لم تكن بشرته

1 - لَوْحُ الْعَيْطَةِ: ارفع صوتك في الاستجداء بهم. يَغْصُبُوكَ: يُسْرِعُونَ إِلَيْكَ.

2 - معنى الشطر الأول: يجعلون من هَدَّكَ أنثى؛ بمعنى: يجعلونه ضعيفاً ذليلاً حقيراً. وفي الشطر كناية عن الذل والمهانة. يَشْتَتُوا لِعَتَادُ: يحبون العناد (عنيدون عند الدفاع عن الحق).

3 - اِيْعُودُوا فَاغْ: يصيرون كلهم.

4 - يَخُولُ لَوْلَادَتُو: يختار لأولاده أخوالاً.

السوداء حاجزا في طريق نشره للخير وبحثه عن الحب، وفروسيته وبطولته في سبيل حمايته لقومه.

هذه البشرة السوداء التي ميزت عنصرة بن شداد عن غيره من الشعراء، ميزته عنهم - أيضا - من حيث جودة الشعر وكثافته وكثرته وتعدد أغراضه. لقد أحب عنصرة بشرته السوداء، وأعجبه ذلك، كيف لا؟! وقد عشقت البشرية السواد منذ الأزل؛ أليس الليل الذي أرق الشعراء والعشاق أسوداً؟! وهل كان غير الشعر الأسود الفاحم ملهما للشعراء العشاق، وغير العيون السود باعثا على التغني بالمحبة؟! ثم أليس مصدر أزكى الروائح وأعذبها مسكا أسوداً؟! لقد عرف عنصرة ذلك، فانطلق يشدو:

لَيْتَنُ أَكَّ أَسْوَدًا، فَالْمِسْكَ لَوْنِي وَمَا لِسَوَادٍ جَلْدِي مِنْ دَوَاءٍ
وَلَكِنْ تَبْعُدُ الْفَحْشَاءُ عَنِّي كَبُعْدِ الْأَرْضِ عَنْ جَوِّ السَّمَاءِ¹

هكذا كان عنصرة بن شداد بعيداً عن الفواحش، فصار عند الشعراء رمزا للطهارة والعفة، ومصدرا للثقة والإرادة، وصورة من صور الدفاع عن الحق والعدل، ونموذجا للحب الإنساني الخالد، حب الإنسان لأخيه الإنسان. وبدفاعه عن قومه وقبيلته صار رمزا لكل شهيد قضى نحبه في سبيل عشقه للأرض. يقول الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدته "قصة شهيد" يصف أحد الشهداء ويشبهه بعنصرة في قوته وشجاعته وإقدامه واستماتته:

أَحْمِيْدَةٌ صَنْدِيْدٌ حَرْبِي مَتَقَتْلُ يَفْجِي أَلْهَمٌ إِذَا تَلْتَمَّ دَارُ نَقَابٍ²
مَتَبَصَّرٌ عَنِّيْرٌ فَالْهَدَّةُ يَخْصَلُ مُؤَلَى حَكْمَةٍ حِينَ تَضَايِقُ تَصْعَابٍ³

عنصرة بن شداد في هذين البيتين هو رمز لكل شهيد قدم حياته هدية لوطنه وشعبه، وقد تميز هذا الشهيد بصفات أهله لهذه الدرجة وهذه المرتبة؛ إنه صنديد،

1 - الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنصرة، ص22.

2 - أحميْدَةٌ: اسم الشهيد، من خيال الشاعر. حَرْبِي: نسبة إلى كلمة حرب.

مَتَقَتْلُ: مُقَاتِل. دَارُ: وَضَعَ (بترقيق الدال والراء)

3 - مَتَبَصَّرٌ: ذو بصيرة. عَنِّيْرٌ: نسبة إلى عنصرة بن شداد.

معتاد على خوض الحروب، مقاتل شرس، ذو بصر وبصيرة، حكيم عند الشدائد وله خصال حميدة. فالشاعر جعل الشهيد "احميدة" رمزا لكل جزائري غيور على وطنه وأرضه وعرضه وحرية وكرامته.

وجعل عنتره - في الوقت ذاته - رمزا لكل شهيد دفع حياته ثمنا لحرية أرضه ودينه وأبناء أمته، و "إلى جانب شجاعته حاول عنتره أن يظهر متحليا بكل الأخلاق الحميدة والصفات الكريمة التي يتصف بها خيار الناس والفرسان. وكانت غايته من حديثه عن الأخلاق رسم صورة خلقية كاملة تغطي بإشراقها نشأته في ظل العبودية والرق. فكانت البطولة جزءا من الفروسية والرجولة الحقّة تزينها الأخلاق العربية الأصيلة من صبر ونجدة وكرم وعفة ورقة وقسوة"¹.

وإضافة إلى فروسيته وبطولته، ظهر عنتره بن شداد في قصائد الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة رمزا للحب العذري الذي يقتضي الارتباط بفتاة واحدة والإخلاص والوفاء لها وإطلاعها على مكانتها في نفس عاشقها. لقد عرف عنتره ذلك، وكان قد أحب ابنة عمه عبلة، وأخلص في حبه لها، وتغنى في قصائده بجميل صفاتها، وكرم أخلاقها. حيث أشار الشاعر "البشير قذيفة" إلى هذا الحب الخالد في قصيدة من أجمل قصائد الغزل في الشعر العربي، يخاطب فيها محبوبته ويلومها على هجرها له ويعاتبها بلهجة رقيقة على نسيانها إياه، ويذكرها بكل ما اعترضه في سبيل محبتها من مصاعب تدعو إلى الألم والحزن والإحساس بالظلم والقهر. يقول الشاعر:

1 - الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتره، ص 10 - 11.

لا عَنترَ لا حُبَّ عَبلَةٍ فيكَ النَفيثُ لا بَئِثَنةَ بِحُبِّها تَقُتِلُ جَميلٌ¹

عنتر بن شداد في البيت السابق هو رمز للحب العذري الذي لا يشوبه نفاق ولا خداع ولا كذب ولا زور ولا فجور، والشاعر من خلال استخدامه لرمزه هذا - ربما - يؤكد لنا كمتلقين على أن مشاعر الحب لدى الشعراء العشاق تكون أقوى من مشاعر الحب لدى غيرهم، أما عن درجة صدق هذه المشاعر عند أغلب الشعراء، فالدليل على ذلك هو اختيارهم لفتاة واحدة والتغزل بها، فلا نكاد نعثر في دواوين الشعراء - منذ العصر الجاهلي - على أكثر من أنثى بالنسبة لكل شاعر، حتى وإن ذكر الشاعر أكثر من اسم، فإنه في أغلب الحالات - حسب النقاد المعاصرين - يقصد امرأة واحدة بذاتها، ويتغزل بفتاة واحدة بعينها، ولكنه - ربما - اختار لها اسماً آخر كناية عنها.

1 - جميل بن معمر: هو شاعر من شعراء العصر الأموي، من عشاق العرب المشهورين، كان جميل حسن الخلق، كريم النفس، باسلاً، جواداً، مرهف الحس، رقيق المشاعر، افتتن ببئثنة من فتيات قومه وهو غلام صغير، فلما كبر خطبها من أبيها فردّه وزوّجها من رجل آخر، فازداد هياماً بها، وهما من قبيلة (عذرة) ومسكنها في واد القرى، أحب جميل بئثنة وقال فيها شعرَ غزلٍ كثير، مات بمصر، ولمّا بلغ بئثنة خبر موته حزنت عليه حزناً شديداً.

- ينظر: جميل بن معمر: ديوان جميل بئثنة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1982، ص 05 وما بعدها.

2.1.5.3 - قيس بن الملوّح¹:

لقد كثرت القصص حول هذا الشاعر الذي لقب بالمجنون أو مجنون ليلي، واستدعاه شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة كشخصية رمزية تراثية، ووظفوه توظيفاً يحمل العديد من الدلالات الجمالية، وصار بالنسبة إليهم صورة لكل إنسان اكتوى بنار الحب، وعذبت مشاعر العشق، فهام في القفار. ونموذجاً لكل رجل تيمته أنثى، وأخذت عقله، فجعل يتغزل بها ولا يرى غيرها.

الشاعر الأموي قيس بن الملوّح عند هؤلاء الشعراء هو رمز للجمال والحب العذري الروحي، هو رمز للوفاء والإخلاص للمحبة، وهو رمز للتفاني وبذل أقصى الجهود في سبيل إرضاء العشيقة والفوز بقلبها. ويمكن للمتلقي استنتاج دلالات عديدة من قصة الحب التي جمعت بين الشاعر المجنون قيس بن الملوّح وليلي العامرية؛ أهم هذه الدلالات تتمثل في العطاء اللامحدود الذي يتجلى في شعر الغزل الغزير الذي نظمه مجنون بني عامر في ليلاه. والدلالة الثانية تظهر من خلال العاطفة الإنسانية المتدفقة التي ربطت بين قلبين عاشقين متيمين لا يستطيعان إلى الوصال سبيلاً. تلك العاطفة التي بثها المولى عز وجل في مخلوقاته حتى يسود السلام والأمن بينهم، وحتى تحافظ الكائنات البشرية على دوام واستمرار النوع البشري إلى أن يرث الله سبحانه وتعالى الأرض وما عليها.

1 - قيس بن الملوّح: من شعراء العصر الأموي، هو شاعر غزل عربي، وهو من المتيمين من أهل نجد، عاش في بادية العرب، لم يكن مجنوناً وإنما لُقّب بذلك لهيامه في حبّ ليلي العامرية التي نشأ معها وعشقها فرفض أهلها أن يزوّجوها به، فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش ويتغنى بحبه العذري، فيُرى حيناً في الشام وحيناً في نجد وحيناً في الحجاز، وقد وُجد ملقى بين أحجار وهو ميت، فحُمِل إلى أهله.

- ينظر: يسري عبد الغني: ديوان قيس بن الملوّح - مجنون ليلي - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999، ص07 وما بعدها.

- ينظر: عبد الستار أحمد فراج: ديوان مجنون ليلي، دار مصر للطباعة، مصر، 1979، ص08 وما بعدها.

وهناك دلالات أخرى يمكن الإشارة إليها من خلال توظيف شعراء منطقة بوسعادة لهذه الشخصية الرمزية التراثية؛ فهذا الشاعر "البشير قذيفة" حين يعاتب محبوبته ويلومها على هجرتها إياه لا يريد أن يقسو عليها بقدر ما يريد أن يحيي فيها مشاعر الحب من جديد، لذلك نجده - في قصيدته - يخاطبها بلهجة رقيقة تفيض حبا وعطفا وحنانا وكأنه يغيرها بضرورة البقاء إلى جانبه، ولكنه يفعل ذلك بطريقة غير مباشرة، ولا يفصح عن مراده الحقيقي، فيقول:

لاني قيسٌ ولا هبلت ولا دليتُ وما كائنٌ ليلى تهبلٌ في ذ الجيل¹

أراد الشاعر من خلال بيته الشعري هذا أن يقنع محبوبته على أن تحبه على حقيقته وأن تنظر إليه نظرة واقعية، فهو لن يكون أبداً قيس بن الملوح، وهي ليست ليلى العامرية، وعلى أية حال، هو يحبها حبا شديداً، ولكنه لن يصل إلى حد الجنون والمذلة والهوان، ولن يفقد كرامته وعزة نفسه، وستبقى شخصيته كما هي، ولن يحطّ هذا الحب من قيمته وقدره.

لقد وظف الشاعر "البشير قذيفة" في بيته الشعري هذا رمزه التراثي المتمثل في الشاعر قيس بن الملوح للدلالة على صفاء القلوب ونقاء السرائر والإخلاص والوفاء والفصاحة والطلاقة وسخاء الكلمة المعبرة المؤثرة بالإضافة إلى المعاني المثيرة الناطقة بلسان الحال. وقد تضمّن الشطر الثاني من البيت (وما كائنٌ ليلى تهبلٌ في ذ الجيل) تورية جميلة مصدرها الفعل (تهبل) الذي يحتمل معنيين أحدهما قريب وهو إصابة العاشق من هذا الجيل أو سابقه بالجنون، والثاني بعيد وهو شدة جمال المعشوقة.

ومع أنّ الشاعر ينكر وجود هذين الصفتين في حبيبته أو يكاد، إلا أنه في قرارة نفسه يقرّ بجمالها الساحر، ويعترف بأنها أصابته بالجنون، وأنه لم يجد إليها سبيلا بعدما هجرته وتخلّت عنه ونسيت أنه أحبها وأخلص إليها في يوم ما.

1 - هبلت: فقدت عقلي. ما كائن: لا يوجد. تهبل: فعل مضارع بلهجة سكان المنطقة، قد يعني فائقة الجمال، وقد يعني: تصيب صاحبها بالجنون فيفقد عقله بسبب حبه الشديد لها.

ويظهر اهتمام الشاعر بحبيبه من خلال الأبيات التالية التي يعدّد فيها الشاعر ما اعترضه من صعوبات ومشاكل في سبيل إرضاء حبيبه والفوز بقلبها:

عَنْ جَالِكَ صَبَرْتُ قَلْبِي وَاسْتَنْتَيْتُ وَعَدَيْتُ نَجُومَ السَّمَاءِ وَسَهَرْتُ اللَّيْلَ¹
وَعَنْ جَالِكَ مَنْ فَوْقَ لُوعَازٍ اتَّزَيْتُ وَعَنْ جَالِكَ فَوْقَ لِكَتَافٍ حُمَلْتُ ثَقِيلَ²
وَعَنْ جَالِكَ بَسْنِينَ مِنْ عُمْرِي ضَحَيْتُ وَعَنْ جَالِكَ مَشَيْتُ الطَّرِيقَ بِنَا دَلِيلَ
وَعَنْ جَالِكَ سَلَيْتُ سَيْفِي وَاتَّهَيْتُ وَعَنْ جَالِكَ حَطَّيْتُ عَوْدِي بَيْنَ الْخَيْلِ³
وَعَنْ جَالِكَ خُضْتُ الْمَعَارِكُ وَتَحَدَيْتُ وَعَنْ جَالِكَ دَرْتُ النِّعَجَ وَالْمُسْتَحِيلَ
وَعَنْ جَالِكَ مَنْ بَيْنَ لُخْيَازٍ تَعَدَيْتُ وَعَنْ جَالِكَ عَشَقْتُ الْقَمَرَ وَصَحَبْتُ سَهْلَ⁴
وَعَنْ جَالِكَ جَبْتُ الْقَصَايِدَ بَيْتَ بَيْتٍ وَعَنْ جَالِكَ جَبْتُ الْمَعَانِي وَالتَّفْصِيلَ

حدث هذا مع الشاعر "البشير قذيفة"، أما الشاعر "عبد القادر العطوي" فقد كان أكثر جرأة، حيث جمع من التراث العربي قصصاً تدور أحداث كل قصة منها حول عاشقين لعب بهما الهوى شوطاً، ولم ينجُ من سلطانه أحد من أبطال هذه القصص، وكانت أغلب النهايات حزينة.

لقد وظف الشاعر "عبد القادر العطوي" الرمز التراثي "قيس بن الملوح" في صورة فنية رائعة ظهر فيها إبداعه وذوقه الأدبي المميز، وبرع في تصوير قصة حبه لفتاته "سلوى" التي استحوذت على مجامع قلبه وشغلت فكره، وجعلت عقله أسيراً لجمالها وسحرها، تعلقه هذا وشغفه بها جعله يصورها ويجسمها تجسيماً وكأنما هي تمثال أمامه، ولإقناع المتلقي لجأ الشاعر "عبد القادر العطوي" إلى استدعاء الشخصية الرمزية التراثية الشعرية قيس بن الملوح للدلالة على شدة الحب وبلوغه ذروته القصوى، هذا الحب الذي يحمل معاني الإخلاص والوفاء والطيبة، ويبعد كل البعد عن الخيانة الزيف والأنانية. يقول الشاعر:

1 - عَنْ جَالِكَ: مَنْ أَجَلَكَ. اسْتَنْتَيْتُ: انتظرت.

2- لُوعَازُ: الأماكن الصعبة. اتَّزَيْتُ: انحدرت.

3 - سَلَيْتُ: سَلَّطْتُ. اتَّهَيْتُ: تَهَيَّأْتُ. حَطَّيْتُ عَوْدِي: وضعت فرسي(حصاني)

4 - لُخْيَازُ: الأخبار.تَعَدَيْتُ: مررت.

بْنُ الْمَلُوحِ دَارٌ مِنْ لَيْلَى نَكْوَى جَنُّ جُنُونُو فِيهِ لِنَتَّاجِ اشْشَقَاو¹

يبدو الشاعر - من خلال بيته السابق - ذا نفس شفافة، يملك قدرة هائلة على قراءة الآخرين وما يخبئونه من مكبوتات سواء في ذواتهم أو ضمن قصائدهم، فالشاعر متعلم ومتقف ولا بدّ أنه مطلع على دواوين شعراء العرب وله دراية بقصصهم الغرامية، لذلك لن يكون من الصعب عليه معرفة ما يكابده هؤلاء الشعراء العشاق من آلام وجروح وأشواق ومحن.

الشاعر "قيس بن الملوح" عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة هو رمز تراثي/ تاريخي يوحي بالعديد من الدلالات؛ إنه رمز للحب العذري الروحي الذي يجمع بين القلوب المغرمة المتئمة، وهو رمز للرجولة في أتم صفاتها وأجمل معانيها، كما أن ليلى العامرية عند شعراء بوسعادة هي رمز للأنوثة في أسمى قيمها ودرجاتها، وهي رمز للجمال الأنثوي العربي الساحر.

ليلى العامرية وعبله وغيرها من العشيقات اللواتي تغزل بهن الشعراء عبر مختلف العصور الزمنية والأدبية تمّ استدعاؤهن - أيضا - من طرف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، ولكن هذا الاستدعاء لم يكن بطريقة فردية، وإنما كان بطريقة ثنائية ازدواجية، حيث قرنت كل واحدة منهن بعاشقها الذي تغزل بها وذكرها في قصائده الشعرية، فصارت كل صبية منهن - حسب الأبيات التي تم توظيفها سابقا - رمزا للجمال العربي الساحر، ورمزا للأنوثة الصارخة والخصوبة المتشبعة بعبق الأرض العذراء والمتغذية من عناصر الطبيعة الحية، ورمزا للمرأة المعطاء المخلصة الوفية.

وقد تكون الفتاة منهن رمزا للعذاب النفسي الذي تعانيه النفس البشرية في أصعب فترات حياتها وأزهاها، إنها مرحلة الشباب التي تتأجج فيها مشاعر الحب بين الذكر والأنثى، ولا تقتصر مشاعر الألم والشوق على الأنثى دون الذكر، بل يشترك الاثنان في نفس المشاعر، وربما كانت عند الرجل أقوى، وذلك بدليل

1 - نكوى: لقب (في لهجة سكان المنطقة). لنتتاج: الأقران، الأتراب. اششقاو: فرحوا لما أصابه.

الدواوين الشعرية التي وصلت إلينا منذ العصر الجاهلي، ولنا في عنتره بن شداد وقيس بن الملوح عبر لا تنتهي وحكايات لا تنقضي...

لقد قام شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة باستدعاء الشخصيات الشعرية التي من بينها شعراء الفصحى الذين تم توظيفهم في قصائد هؤلاء الشعراء، واقترن توظيفهم بمحوباتهم، فكان الشاعر الجاهلي عنتره بن شداد في طليعتهم والشاعر الأموي قيس بن الملوح، وبعض الشعراء الآخرين الذين لم يسعنا المجال للتطرق إليهم في هذه الفسحة.

شعراء بوسعادة جعلوا من شعراء الفصحى هؤلاء صورا لأنفسهم ونماذج لبقية شعراء الملحون، فشعراء الفصحى في استخدام شعراء المنطقة هم رموز لشعراء القصيدة الشعبية عند قوم أولاد نايل، وذلك لعلاقة التشابه بين هؤلاء الشعراء رغم اختلاف العصور الزمنية، واختلاف اللغة بين الفصحى والعامية، وكذلك اختلاف الظروف والعادات والتقاليد وطرق العيش وأساليبه.

ولا بدّ أن يلعب التناسل دوره المهم في عملية النظم هذه بالرغم من الاختلافات الموجودة. وعلى كل حال فإن شعراء الفصحى هم رموز لشعراء قوم أولاد نايل؛ رموز تحمل دلالات الحب والتضحية والإيثار والفصاحة والبلاغة والجرأة الأدبية والطلاقة، وتدلل على الشجاعة والقوة والكرم والجود والنخوة والبطولة والحيلة والذكاء والنباهة والفروسية والفظازيا. وباختصار شديد يمكننا القول بأن هذه الرموز تدل على كل ما تحمله كلمة عروبة من معان وإرشادات وإيماءات.

2.5.3 - شعراء الملحون:

يمتلك شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة موسوعة ثقافية أهلّتهم للوصول إلى قلوب المتلقين، وظهر جليا تأثر هؤلاء الشعراء بالموروث الأدبي الشعري، فكان نتيجة لذلك أن فاضت قصائدهم برموز شعرية تراثية؛ تم استدعاؤها من داخل الوسط الشعبي، حيث جاء الشيخ السّماتي وعبد الله بن كزيو وبن

بلخير (محمد بلخير) في طليعة الشخصيات الرمزية الشعرية التي وظفها شعراء منطقة بوسعادة.

1.2.5.3 - الشيخ السّماتي¹:

يُعدّ الشيخ السّماتي من أبرز الشعراء الذين أنجبتهم مدينة بسكرة، اشتهر بقصائده الكثيرة في مختلف الأغراض الشعرية، وخاصة منها في موضوع الغزل، عاش في أصعب الفترات التي مرت بها الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، وانتشرت أشعاره انتشارا واسعا عبر ربوع الجزائر، فصار من خلال شهرته رمزا من الرموز الوطنية العربية الإسلامية، وتم استدعاؤه كشخصية رمزية تراثية من طرف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة للدلالة على الحب والوفاء والإخلاص وصدق المشاعر والفصاحة والبلاغة وفيض الكلام الموزون المعبر الموحى، فما أشبه شعراء قوم أولاد نايل بهذا الفنان المبدع!

وظف الشاعر "السعيد بوعشرين" في قصيدة "الجلفة" الشيخ السّماتي توظيفا يوحى بدلالات الحب والعشق والتغزل بالأنثى الجميلة، حيث يقول:

1 - الشيخ السّماتي: هو الشيخ السّماتي بن بوهالي بن عبد الرحمن من عرش أولاد ساسي بأولاد جلال بولاية بسكرة، يرجع مولده بين سنتي (1868-1872) زار أغلب المدن الجزائرية، والتقى بالشاعر عبد الله بن كزيو في مدينة الأغواط، يقال أنه أصيب بمرض السلّ وزوجته وابنه ومات صغيرا، تلقى الشيخ السّماتي ثقافة دينية في الزاوية المختارية، ويقال -أيضا- أن أباه قام بحرق ما كتبه الابن بعد وفاته.

وينظر (الترجمة والشعر)

- أحمد قنشوبة: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، ص 584 وما بعدها.

- العربي دحو: معجم شعراء الشعر الشعبي في الجزائر - من القرن 16 إلى أواخر العقد الأول من القرن 21م - دار الألفية، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2011، ص 64 وما بعدها.

بالإضافة إلى الاستفادة من:

- معلومات شخصية عن حياة الشاعر الشيخ السّماتي رواها الشيخ بوعدي عبد العالي بن بايزيد - رحمه الله - مع مجموعة من قصائد الشاعر (المعلومات والقصائد مدونة ومحفوظة في إرشيف الباحثة).

تَتَفَكَّرُ قَوْلَ السَّمَاتِي شَاوْ أَرْمُولُ كِي يَشْرَحْ لَغَزَامْ فِي جَوَالَاتُو¹

تغزل الشاعر السماتي كثيراً في قصائده التي تناقلتها الألسن عبر الرواية الشفوية²، ووصف جمال النساء وجسدهن تجسيدا مستخدما في ذلك عناصر الطبيعة للإشارة إلى كل عضو من أعضاء المرأة، وقد لُحنت قصائده وقام بأدائها كأغانٍ كبار المطربين في فن الغناء الصحراوي من أمثال: "خليفة أحمد" و"العيشي البشير" و"البار عمر" وغيرهم.

لقد وُظّف الشيخ السماتي رمزا للحب والعشق في بيت الشاعر "السعيد بوعشرين" "كيف لا؟! وهو القائل في قصيدة من أروع وأجمل ما نظم، وأبدع وأعذب ما غنى المطرب الصحراوي "خليفة أحمد":

اتَحَوَّلْ يَا كَافْ كَرْدَادَة وَارْحَلْ	دَرَقْتُ عَلِيَّ جِبَالِ الطَّوَايَة ³
دُونْ غَزَالِي مَا لَقَيْتُ مَتِينْ نَظْلُ	غَيْمُكَ طَاخْ أَرْوَافْ خَبَلْتُ اسْدَايَا ⁴
يَا شَامُخْ لَطَوَاذْ خَايْفْ لَا نَخْتَلْ	فِي وَطْنِكَ وَنَعُودْ لِلنَّاسِ شَفَايَة ⁵
يَتَخَلَّلْ عَقْلِي مِنَ الْفِرَاقِ وَنَهَبْ	يَتَخَذُوا فِي جَمْعِ الْغَايَا ⁶
وَحْشُ الْعَطْرَة خَفْتُ لَا يَرْجَعْلِي سَلْ	وَيَرْمُونِي لِيَعَاتَهَا طُولُ الرَّايَة ⁷

1 - شاو: بداية: أول. أرمول: قديماً. لغزام: الغرام. جوالاثو: جولاته.

2 - بعض القصائد المخطوطة للشيخ السماتي قَدَّمَهَا لَنَا الدكتور (أحمد قنشوبة) أستاذ محاضر بجامعة زيان عاشور بولاية الجلفة، والذي أخذها بدوره عن الرواية الشاعر (أحمد سعدون) في بيته بسيدي خالد ولاية بسكرة، يوم: 20.04.2004.

3 - اتَحَوَّلْ: فعل أمر بمعنى: ابْتَدِعْ وَغَيَّرْ مكانك. كَرْدَادَة: جبل مشهور بمنطقة بوسعادة. دَرَقْتُ: أَخْفَيْتُ. الطَّوَايَة: المرأة الجميلة.

4 - معنى الشطر الثاني: أَتَعَبْتَنِي الْغَيْومُ الَّتِي حَجَبَتْ عَنِّي رُؤْيَيْكَ وَبَعَثَتْ أَفْكَارِي فَاخْتَلَطَتْ أُمُورِي.

5 - شَامُخْ لَطَوَاذْ: الجبل العظيم الشامخ. نَخْتَلْ: أَصَابَ بِاخْتِلَالٍ عَقْلِي. شَفَايَة: نكايَة وموضوع استهزاء وسخرية.

6 - نَهَبْ: أُجَنِّ. معنى الشطر الثاني: يَفْتَقِدُنِي جَمِيعُ الْمَغْنَيْنِ الَّذِينَ تَعُودُوا عَلَى أَشْعَارِي.

7 - وَحْشْ: شوق وحنين. سَلْ: مرض السَل. طُولُ الرَّايَة: طويلة القامة.

خَفْتُ يَطْوُلُ النَحْلُ تَنْسَانِي لَجْدَلْ وَلَا يَرُدُّوْهَا النَّاسُ الْفَرَايَةَ¹

هذه القصيدة للشيخ السماتي هي نسج على منوال قصائد الجاهلية من حيث تركيب الأحداث وتسلسلها وحبكتها الفنية، وصورها ولغتها وموسيقاها الشعرية. تظهر من خلالها البراعة الفنية للشاعر وصدق مشاعره وعواطفه الفياضة ونواياه الخالصة، وحبه الصادق. والعارف بالقصيدة مكتوبة أو مغناة يدرك تمام الإدراك مدى معاناة الشاعر من شعور يختلج بداخله يسمى "الحُبَّ " هذا الحب الفاضل داخل قلب الشاعر ارتوت منه حتى الكائنات الحية كفرس الشاعر وطائر القمري من حوله، هذا الطائر الذي خاطبه الشاعر شاكيا إليه أزمته مخاطبا إياه بلغة تعج حسرة وألماً وحزنا:

يَا قُمْرِي حَيَّرْتِي وَأَنَا مُحْتَارٌ مِنْ قَدَامِ الْيَوْمِ قَلْبِي بِهِبَالُو²
هَمْ النَّحْبُسِ وَرَادَ لِي بِالتَّفْكَارِ وَأَنْتَ زِدْتَ لِحَاظِرِي بَعْدَ اعْتِلَالُو
حَقُّ أَنْتَ مُوَلَى الْفَرَايَا فِي لَطْيَارِ وَإِذَا دَرْتُ الْخَيْرَ لَابُدُّ تَنَالُو

الشاعر السماتي عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة إذاً؛ هو رمز للحب والسلام والأمن والحياة الهادئة، وهو رمز لكل شاعر في منطقة بوسعادة عنوان حياته هو الحب وخطر حياته الثاني هو الأنثى. والشطر الثاني في بيت الشاعر "السعيد بوعشرين " (كي يَشْرَحَ لَغْرَامَ فِي جَوَالَاتُو) فيه دلالة كبرى على كثرة تنقل الشاعر عبر ربوع الوطن وكثرة جولاته وإبداعه الفني في موضوع الغزل وجودة إنتاجه في هذا الغرض بالذات.

لقد صار الشيخ السماتي عند شعراء بوسعادة نموذجاً للإنسان الحرّ، الطيب، المتسامح، المحب لغيره بشغف، الباحث عن الحرية، والعاشق للطبيعة. يتذكره شعراء بوسعادة وشعراء الجزائر ككل في كل المحافل وفي مختلف المناسبات الدينية والوطنية، وحتى الجماهير الشعبية يعني طبقة الشعب البسيط

1 - لَجْدَلْ: الغزال، كناية عن المحبوبة. وَلَا: أو. الْفَرَايَةَ: المتطفلون والمتدخلون فيما لا يعنيهم.

2 - القصيدة رواها الشيخ بوعدي عبد العالي بن بايزيد - رحمه الله - وقد نقلها - أيضاً - الباحث الدكتور أحمد قنشوبة في كتابه: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، ص585.

يتغنون بأشعاره، ويستشهدون بقصائده وأبياته في أحاديثهم اليومية. وهذا ما قصده الشاعر "السعيد بوعشرين" بقوله: (تَتَقَكَّرُ قَوْلُ السَّمَاتِي شَاوُ اَرْمُولُ...).

2.2.5.3 - محمد بلخير¹:

كان للشاعر "محمد بلخير" تأثير كبير في الوسط الشعبي الجزائري عامة، وفي وسط سكان بوسعادة وشعرائها بشكل خاص، لقد ترجم الشاعر آلامه وأحزانه ومعاناته وآهاته في قصائده التي جاءت ناقلة لعذابه، وهذا ما أشار إليه الشاعر "السعيد بوعشرين" في شطر من قصيدة "الجلفة" التي قام فيها باستدعاء شخصيات شعرية تراثية من الوسط الشعبي، من أمثال الشيخ السماتي ومحمد بلخير وعبد الله بن كريو. أشار الشاعر في هذا الشطر إلى الحياة الأليمة التي عاشها "محمد بلخير" بين جدران السجن، والأيام التعيسة التي قضاها هناك، والتي نظم أثناءها أجمل قصائده وأشدها تأثيرا في قلوب المتلقين. يقول "السعيد بوعشرين":

هذا بِنْ بلخير في سجنو مغلُول² ...

مات الشاعر "محمد بلخير" سقيماً منهك القوى بعد إطلاق سراحه وخروجه من السجن، فصار عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة رمزا دالا على العذاب النفسي والألم والمعاناة، واقترن ذكر اسمه بالقيود والأغلال والأسر والسجن والنفي والغربة، لقد عاش الشاعر غربة حقيقية بعيدا عن الوطن

1 - الشاعر محمد بلخير: ولد هذا الشاعر سنة 1806م تقريبا، وتوفي سنة 1896م، ألقت به السلطات الفرنسية وهو في سن الثمانين في سجن كالفي بكورسيكا، قضى فيه أكثر من سبع سنوات، وعاد منه في حالة تعب شديد، توفي بعد عام من إطلاق سراحه، ولد في منطقة بين عين تموشنت ووهران، واكب مقاومة بوعمامة وسجل كل معاناته في شعره الذي ترجم بعضه إلى الفرنسية.

- ينظر: أحمد قنشوية: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، ص531.

- ينظر: العربي دحو: معجم شعراء الشعر الشعبي في الجزائر، ص538.

2 - مغلُول: اسم فاعل حسب لهجة المنطقة، مشتق من كلمة الغلُّ: وهو طوق من حديد أو جلد يُجعل في عنق الأسير أو في يديه، جمعه: الأغلال، ومغلُول بمعنى: مسجون ومقيد بالأغلال.

والأهل، وغربة ثانية هي غربة ذاتية تمخضت عنها قصائده أثناء وجوده في السجن، حيث انفجر متوسلا شاكيا في إحدى قصائده¹:

سَلَاكَ الْمَغْبُوءُ مِنْ أَرْضِ الْقَفَا
قَادِرُ كُلِّ غَرِيبٍ لِبِلَادُو تَدْيَهْ
فَرَجْ يَا رَبِّي عَلَيَّ مِنْ ضَاقَتِ بَيْهْ

ويعصف ضعفه وقلّة حياته مقارنة بالمستعمر الفرنسي، وحالته المأساوية داخل السجن، فيقول:

مَا عِنْدِي طَاقَةٌ وَلَا بِيَدِي مَقْدَارُ
هَمُّ الْحَبْسِ وَزَادَ هَمُّ الضَّرِّ عَلَيْهِ
ثُمَّ يَنَاجِي الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ طَالِبًا مِنْهُ أَنْ يَنْجِيهِ وَيَفْكَ أَسْرَهُ، فيقول:
سَلَكْنِي يَا خَالِقِي مِنْ هَذَا الْجَارِ
حَبْسُ الرُّومِي لَا تَخْلِيْ مُسَلِّمٌ فِيْهِ

لقد اختصر الشاعر "السعيد بوعشرين" رمزه الشعري التراثي في عبارته السابقة (هذا بن بلخير في سجن مغلول)؛ حيث تتضمن العبارة تشبيه أي شاعر من قوم أولاد نايل يحمل هموم شعبه ووطنه ودينه وأصالته ومبادئه بالشاعر "محمد بلخير" الذي صار عند شعراء بوسعادة رمزا للإنسان الشاعر الحائر المناضل الحامل لقضية وطنية قومية، وهو - أيضا - رمز لكل إنسان صابر مخلص وفيّ لقيم دينه وأرضه، يحمل أرقّ المشاعر وأصدق الأحاسيس ويدرك تمام الإدراك بأن ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة.

1- القصيدة نقلها الدكتور أحمد قنشوبة في كتابه: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، ص532.

3.2.5.3 - عبد الله بن كزيو¹:

يُعدّ من فحول الشعراء الذين أنجبتهم مدينة الأغواط، كان مثقفاً، له دراية بعلم الفلك، تعلم اللغة الفرنسية التي ساعدته في مهنة القضاء، انتشرت قصائده انتشاراً واسعاً، تداولها الفرنسيون وسجلوها، كما حفظها الجزائريون ورووها أباً عن جدّ، وتغنّى بها الفنانون على غرار مطرب الأغنية الصحراوية "خليفة أحمد" اهتم شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة بالشاعر "ابن كزيو" ووظفوه توظيفاً رمزياً يوحى بالعديد من الدلالات، فصار بالنسبة إليهم رمزاً للحب وفلسفة الحياة، وعنواناً للثقافة والتميز. وهذا ما أشار إليه الشاعر "السعيد بوعشرين" عندما قال:

هذا بن بلخير في سجنو مغلول ولا بن كزيو في خيالاتو

واللفظ (خيالاتو) يوحى بالكثرة والتنوع، واستخدامه من طرف الشاعر يدل على دقة الشاعر وتركيزه عند اختيار ألفاظه، وحسن تجاورها وجودة بنياتها وبلاغتها وفصاحتها ومناسبتها للمعاني المراد الوصول إليها.

لقد أراد الشاعر أن يجعل من عبد الله بن كزيو الشخصية الرمزية/ التراثية نموذجاً حياً، ناطقاً، معبراً وموحياً بالعديد من الدلائل التي يمكن استنتاجها من خلال العودة إلى ماضي الشاعر وقراءة حياته قراءة سيميائية؛ حيث تغزل الشاعر وأحب الأنثى بكل جوارحه، ولكن هذا الحب لم يصل به إلى درجة الوصف المادي للمرأة التي يحبها ويعشقها، وإنما جاءت قصائده - إن لم نقل كلها -

1 - هو عبد الله بن القاضي الحاج محمد بن الطاهر، ولقب عائلته هو (التّخي)، اشتهر بلقب (بن كزيو) اختلفت المصادر في تاريخ ميلاده (1869 أو 1871). وتاريخ وفاته كان يوم 1921/10/27، ولكن المهم أنه ولد في مدينة الأغواط، عاش في أسرة أغلب أفرادها شعراء، تزوج ابنة عمّه (بدرة) أنجبت له بنتين: فاطمة الزهراء وخيرة، نال في صغره ثقافة دينية، وزاول مهنة القضاء في مدينة غرداية.

- ينظر: إبراهيم شعيب: ديوان عبد الله بن كزيو، مطبعة رويغي، الأغواط، الجزائر، ط2، 2004، ص20 وما بعدها.

خالية من وصف جسد المرأة وتصوير أعضاء جسمها وملامحها وإبراز مفاتها ومواطن جمالها.

وتظهر عفة الشاعر ونزعته الدينية في مواطن عديدة من قصائده التي تفيض بالدلالات الرمزية، ويبدو من خلالها تأثر الشاعر بالفلسفة وعلم الفلك.

فهذه قصيدة "قَمَرُ اللَّيْلِ"¹ التي غناها الفنان "خلفي أحمد"، وفيها يناجي القمر ويشكو إليه شدة ألمه وحزنه وطول سهره، حيث يقول في مطلعها:

قَمَرُ اللَّيْلِ خَوَاطِرِي تَتَوَسَّسُ بِيهِ نَلْقَى فِيهِ أَوْصَافَ يَرْضَاهُمْ بَالِي²
يَاطَالِبُ عِنْدِي حُبِّبَةً لِيهِ شَبِيهٌ مِنْ مَرْغُوبِي فِيهِ صَهْرِي يَخْلَالِي³

ومن قصائد الديوان هناك قصيدة "جيتْ نَوْسَعْ خَاطِرِي"⁴، هذه القصيدة التي تفيض بالمصطلحات الفلكية، وذكر طبائع النجوم أو ما يسمى بالطابع، والحضور القوي لعلم التنجيم من خلال المصطلحات والمعاني التي تشع داخلها. يقول الشاعر في بداية هذه القصيدة:

جيتْ انْوَصَّعْ خَاطِرِي ضَيْقُ اغْشِيَّةٍ زِدْتُ عَلَيْهِ هُمُومٌ مِنْ نَظَرَاتِ اصْغَابِ

"عبد الله بن كزيو" إذا؛ تم استدعاؤه من قبل شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة كشخصية رمزية تراثية تدل على المحبة العميقة للبشر والإخلاص للوطن والأرض، وتدل على حب الأنثى سواء أكانت أرضاً أم أمّاً أم أختاً أم ابنة أم زوجة أم حبيبة، ويدخل ضمن هذا الشأن كل ماله علاقة بالجنس الأنثوي.

ويحمل ابن كزيو/ الرمز التراثي - أيضاً - دلالة توحى بالعدالة الإنسانية والمساواة بين البشر، وتقديس العلم والمعرفة، وهناك إشارة قوية تدل على

1 - ينظر: وزارة الاتصال والثقافة، مجلة آمال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، العدد 68، ط2، 2000، (عدد خاص بالشعر الشعبي الملحون)، ص75.

- ينظر: إبراهيم شعيب: ديوان عبد الله بن كزيو، ص110.

2 - تَتَوَسَّسُ بِيهِ: تَأْنَسُ بِهِ.

3 - شَبِيهٌ: مَثِيل. مَرْغُوبِي: رَغْبَتِي. صَهْرِي: سَهْرِي.

4 - ينظر: إبراهيم شعيب: ديوان عبد الله بن كزيو، ص71.

الفصاحة والبلاغة وغازة الشعر وجودته، فالشاعر "عبد الله بن كزّيو" شاعر مثقف ومتعلم، متمكن من علم الفلسفة وعارف بالشعر العربي، لذلك لم يكن صعبا عليه أن يؤلّف هذه الجواهر والنفائس، ليصير بعد ذلك رمزا تراثيا مشهورا اهتم به شعراء منطقة بوسعادة ووظفوه للدلالة على الحب والعطاء والذكاء وسعة الخيال والغوص في بحار العلوم والثقافات المختلفة والمتنوعة، واحترام المرأة والحفاظ على شرفها وسمعتها، والسير على المنهاج القويم الذي دعا إليه المولى عزوجل ورسوله صلى الله عليه وسلم وبهذا يصبح الشاعر "ابن كزّيو" صورة مشابهة وتكاد تكون مطابقة لأي شاعر من شعراء أولاد نايل.

لقد لعب شعراء القصيدة الشعبية دورا كبيرا وهاما في كشف النقاب عن زملائهم الذين سبقوهم بالقول في هذا النوع من الشعر، وقد تم لهم ذلك من خلال استدعائهم كشخصيات رمزية تراثية توحى بالعديد من الدلالات والمعاني والمفاهيم، وكل رمز من هذه الرموز يحمل قصة صاحبها ويشير بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى ذكريات وحكايات ربما يكون المتلقي على دراية بها واطّلاع عليها، وربما لا، وربما يعرف المتلقي بعضها منها فقط.

وعلى العموم، فإن شعراء الملحنون الذين وظفهم شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة أضافوا إلى قصائدهم من خلال هذا التوظيف نوعا من التشويق والإثارة والمتعة حيث استعاروا من الزمن الماضي أسماء لامعة صارت بالنسبة إليهم رموزا تراثية تدل على الحب العفيف العذري الصادق، وعلى مكارم الأخلاق، وعلى العطاء، وعلى الفصاحة والبلاغة وسخاء الكلمة، وعلى النبيل والكرم وقوة العواطف وصدقها وإخلاصها، وعلى المشاعر الفياضة والأحاسيس النابعة من القلوب الصافية النقية المحبة.

والتأمل لقصائد الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة سيلاحظ من خلال تدقيقه في الشخصيات التراثية - شعراء الملحنون خاصة - وجود دلالات عديدة ومتنوعة تتضمنها هذه الشخصيات الرمزية. وهذا ما قصده الشاعر "السعيد بوعشرين" عندما قال:

تَتَوَسَّنْ بِحَدِيثْهُمْ صَافِي مَعْسُولُ بِمَعَانِي وَحَدِيثُ فَازُوا دُوَهَاتُو¹

فكلمة "مَعَانِي" في بيت الشاعر لها العديد من الدلالات؛ فقد تدل على وجود أسرار خفية مكنونة في قلوب أصحابها شعراء كانوا أو مثلقين، وقد تدل على القصائد الشعرية التي يتم إلقاؤها من طرف شعراء بوسعادة - وربما هو الرأي الذي يقارب الحقيقة - حيث أن سكان هذه المنطقة وشعراءها يطلقون تسميات عديدة يقصدون بها الشعر الشعبي؛ منها : الشعر الملحون، النظم، القصيدة، الكلام، التعبير (التعبّر)، الميزان، القول، الموزون، المعاني...

وقد تدل كلمة "مَعَانِي" على الحكم والأمثال وكذلك قد تدل على الكلام الذي يحمل قيما اجتماعية ودينية وأخلاقية.. وهو الكلام والحديث الذي يتم تداوله في مجلس القوم واجتماعهم أثناء عقدتهم جلسات السمر، وهي لقاءات دورية ينظمها قوم أولاد نايل يتبادلون أثناءها نقاشاتهم حول أمور الحياة ويقوم خلالها الشعراء بإلقاء قصائدهم، حيث يتخلل ذلك مسابقات ومساجلات ومناظرات شعرية تعبّر عن مدى فصاحة هؤلاء الشعراء وبلاغتهم وتمكنهم من علمي البيان والبديع. وهكذا، فإن أي كلمة يوظفها شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، فإنهم يقصدونها قصداً، ويوحون من خلالها بدلالات ومفاهيم ومعاني، ومن هذه الألفاظ ما يجعلونه رمزاً كالرمز التراثي/ التاريخي مثلاً.

1 - تَتَوَسَّنْ: تأنس. دُوَهَاتُو: دُهَاتُهُ؛ جمع: دَاهِيَة.

3.5.3 - قصة عاشقين:

من القصص التراثية المشهورة في الأدب الجزائري؛ "قصة حيزية"¹، هذه الفتاة العاشقة المعشوقة التي حملت صفات المرأة العربية من بطولة وشرف وعفة، حيث يتجلى من خلالها واقع البدو وتقاليدهم، إننا نستشعر عند قراءتنا لقصيدة "ابن قيطون"² مدى الحزن والألم الذي كابده "سعيد"³ عند وفاة "حيزية"، هذه القصيدة التي نالت شهرة وطنية وعالمية، حيث ذكرها كتّاب

1 - حيزية: هي فتاة جميلة تنحدر من منطقة سيدي خالد جنوب مدينة بسكرة، اسمها الحقيقي؛ حيزية بوعكاز بنت أحمد بن الباوي، عاشت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كان أبوها صاحب مكانة ونفوذ، وهو أحد أعيان عرش الذواودة الذين هم بطن من بطون بني هلال وقد ذكرهم ابن خلدون، أحبها ابن عمها سعيد وأحبته، ولكن هذه العلاقة اصطدمت بأعراف القبيلة وقوانين المجتمع. وقد تضاربت الروايات بشأن وفاة حيزية، والمهم أنها توفيت عن عمر يقارب 23 عامًا، ودفنت في مقبرة الذواودة بسيدي خالد، ولا زال قبرها مزاراً لكل عاشق وشاعر وباحث...

- ينظر: حفناوي بعلي: قصيدة حيزية.. قراءة سيميائية في شعرية العشق والموت، محاضرات الملتقى الثالث - السيميائية والنص الأدبي - 20/19 أبريل 2004، الكتاب الثالث، منشورات قسم الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مطبعة شركة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص 145 وما بعدها.

2 - ابن قيطون: اسمه الحقيقي محمد بن قيطون، أصله من قرية سيدي خالد ببسكرة، كان معاصراً للشيخ السماتي وابن يوسف، لم يعرف تاريخ مولده، توفي في أواخر القرن التاسع عشر، نظم بن قيطون قصيدة (حيزية) بطلب من صديقه سعيد، كان ذلك بتاريخ 1295 هـ.

- وينظر: عبد الحميد حاجيات: حيزية لابن قيطون، مجلة آمال، العدد 68، ط2، 2000، ص 109.

3 - سعيد: هو ابن عم حيزية، فتى من فتيان منطقة سيدي خالد وفارس من فرسانها، أحب حيزية وأحبته ونمت مشاعر الحب في قلوبهما منذ كانا صبيين، وتضاربت الروايات بين مؤيد لزواجهما، وبين نافي لذلك، وبين قائل بأنه هام على وجهه في القفار يبكي موت حيزية. يُقال أنه طلب من صديقه ابن قيطون الشاعر أن يرثي حيزية في قصيدة، فأنشده محمد بن قيطون يقول:

عزني يا ملاح في رأس لبنات
سكنت تحت اللخود ناري مقيدة

ومؤلفون من داخل وخارج الوطن¹، ولحنها وغناها فنانون جزائريون وشيوخ الأغنية الصحراوية البدوية من أمثال الشيخ عبد الحميد عابسة - رحمه الله - والبار عمر - رحمه الله - وشيخ الشيوخ خليف أحمد - رحمه الله - والحاج رابح درياسة...

حيزية وسعيد بطلا قصة الحب الواقعية التي جرت أحداثها في صحراء الجنوب الجزائري رمزان تراثيان/ تاريخيان حاضران بكثافة رمزية وفنية وجمالية في المتن الشعري لدى شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة.

وهذا الشاعر "عبد القادر العطوي" يذكرنا - أثناء حديثه عن تجربته في الحب - بالشعراء العشاق وعشيقاتهم، ويشير إلى كل قصة من هذه القصص الغرامية بألفاظ وعبارات مفتاحية تذكر بمضمون القصة وتعطي تفسيراً تقريبياً لمحتواها، وكانت قصة حيزية وسعيد من بين أجمل وأروع قصص الحب العربية التي ذكرها الشاعر، ولخص أحداثها في بيتين من قصيدته التي تحمل عنوان "سلوى" هذه الفتاة الجميلة التي أثارت انتباه الشاعر لشدة جمالها وفتنتها، فصارت رمزا للجمال والعشق، وهي امرأة، والمرأة رمز للحياة والخصب والعطاء. يقول الشاعر "عبد القادر العطوي" عن حيزية وسعيد الرمزيتين:

دَخَلْتُ حَيَازَةَ التَّارِيخِ بِقُوَّةٍ أَزَلِيَّةَ شُيُوخٍ بِبِيَمَانٍ يَتَغَنَّوْا
اسْعَيْدُ مَقَوَاهُ بِيهَا يَتَكَوَّى بَنَتْ النِّعَمُ إِلَيَّ عَشَقٌ لَسَعٍ فَالْشَّائِوْ

فحيزية لدى الشاعر "عبد القادر العطوي" ولدى غيره من شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة هي رمز للحب العذري العفيف، إنها شهيدة العشق الصحراوي البدوي، وهي رمز للحب المستحيل والألم والعذاب النفسي وصرخة الأنا الضائعة النائية بين السلطة الأبوية الجائرة المتسلطة وبين نداء القلب وغريزة

1 - وصلت شهرة (قصة حيزية) إلى الحدود العربية والعالمية من خلال قصيدة الشاعر الفلسطيني؛ عز الدين المناصرة، وهي قصيدة من نوع الشعر الحر (شعر التفعيلة الحديث) باللغة العربية الفصحى عام 1986، وعنوانها: (حيزية عاشقة من رذاذ الواحات)، وكذلك من خلال الكاتب الجزائري عز الدين ميهوبي في: (حيزية) وهي أوبيرات غنائية صدرت عن دار أصالة بسطيف سنة 1997.

الأنثى ومشاعرها المتناقضة التي تترجم "رغبة الأنا في الخروج من الفضاء النفسي المأزوم، فضاء سلبي وجامد، امتلأت أجواؤه باليأس والإحباط والغربة والتساؤل"¹ إلى فضاء كله سكونية وطمأنينة وسعادة وحبور.

حيزية/ الفتاة العفيفة هي الثورة، هي الملحمة، هي النضال، هي الأسيرة والمقيدة، هي الأرض، هي الوطن، وهي المطالبة بالحرية والتحرر، وهي الأنثى التي سلبت أنوثتها وصودرت مشاعرها وأحاسيسها، لقد وُدت قبل أن تعرف معنى الحياة.

حيزية هي الصحراء الشاسعة التي قلّ مأوها واشتأقت مطرا يروي جفافها ولكنها دُفنت قبل أن تخضرّ جوانبها وتزدهر ورودها وتغني طيورها وعصافيرها، أسكنت تهديدتها وسُلبت منها آخر ابتسامة، كم كانت ستعيش يا ترى!؟

ومع ذلك فقد خلّدتها قصيدة "ابن قيطون" وستعيش حيزية الفتاة/القصيدة/الرمز ما عاش الأدب وما عاش الشعر. إنها أسطورة الحب الخالد والعشق الأزلي؛ وهذا ما قصده الشاعر "عبد القادر العطوي" باللفظ (أزلية) يعني علاقة أو قصة حب أزلية بسبب شهرتها واختراقها الآداب العالمية والعربية.

حيزية الفتاة العذراء البريئة كانت زينتها الوحيدة ظفائرها وكحل عينيها ووشم الحناء في راحة يديها ورجليها ولكنها كانت جميلة جمال طبيعة صحراء مدينتها "سيدي خالد" في فصل الربيع، وبسيطة بساطة أهلها وتواضعهم وحبهم للحياة ومناضلة نضال أهلها من أجل العيش. كانت حيزية الفتاة الأجل بين فتيات القبيلة ولكنها لم تكن الأطول عمرا بينهن لقدرة أرادها المولى عز وجل في خلقه.

أما سعيّد حبيب حيزية فقد كان رمزا للشجاعة والبطولة والشهامة والإباء، كان رمزا للشرف والعفة وحسن الخلق والصفاء والنقاء، كان رمزا للجمال والحب.

1 - حفاوي بعلي: قصيدة "حيزية" .. قراءة سيميائية في شعرية العشق والموت، مقال في مجلة السيمياء والنص الأدبي، محاضرات الملتقى الثالث، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ص155.

إنّه من ضحايا العشق المستحيل الذين تقف أعراف القبيلة ومعتقدات المجتمع لهم بالمرصاد، وتعرقل دروب أملهم وتقتل فيهم الحلم. لم يفرح سعيدٌ بوصول محبوبته حيزية لأنّ الموت فاجأه بختفها منه والهروب بها بعيداً إلى حيث لا عودة ولا رجوع.

إنه رمز للإنسان المغلوب على أمره، الإنسان المستعمر، المسلوقة حرّيته، المتعطش للحرية والاستقلال، المقهور، المظلوم، المغتصبة حقوقه، المفجوع بفقد أحبّ وأعزّ الناس إلى قلبه. لقد اكتوى سعيد بنار الحب ولم يزل يافعاً (بُنْتُ الْعَمُّ الِّي عَشَقَ لَسَعُ فَالشَّأْوُ)، والفعل (يتكوّى) في الشطر الأول من البيت الثاني (اسعيد مَفْوَاهُ بيها يتكوّى)؛ يدل على استعار لهيب الحب في قلب سعيد العاشق واكتوائه بناره حتى بعد مفارقتها للحياة.

إنّه رمز للإنسان الذي يشعر بغربته وضياعه ويبحث عن انتمائه وهويته، ويرى في حيزية: الوطن، والأرض، والأمّ الحنون. إنها الحبّ المفقود، والحزن الدافئ، والسكينة المبتغاة، والعاطفة المنشودة، والحنان المقصود، والسعادة المرجوة. حيزية بكل اختصار هي الحياة.

كان أبو حيزية شخصية هامة في قبيلاته، له مكانة ونفوذ، ولم يكن يسمح بأن يطعن في شرفه أو يחדش في حيائه، وهو ما دفع به - كما تذكر بعض الروايات - إلى الحيلولة دون تواصل هذا الحب الصادق الطاهر، وإذا أخذنا بالرواية السابقة؛ فإن هذا الأب معذور لأن السنة الناس لن ترحمه وستلاحقه بالغمز والأذى.

والد حيزية هو رمز للسلطة الأبوية، رمز للسيطرة والتحكم، رمز للاستعمار والقساوة وتقييد الحريات، ورمز للمتحكم في مشاعر غيره، الداعي إلى إسكات صوت الحب، وقمع العواطف والأحاسيس وانتزاعها من قلوب المحبين، واغتصاب حقوق الآخرين ومنعهم من العيش والاستمتاع بحياة سعيدة وهادئة ومستقرة.

إنّه يشبه المستعمر الفرنسي إلى حدّ ما في بشاعة تصرفاته وشناعة أفعاله وظلمه وجوره وتعديه على الحرمات والمشاعر.

وبهذا التعريف تصبح حيزية هي الجزائر/ الوطن/ الأرض، وما ينطق على الجزائر في زمن الاستعمار الفرنسي ينطق بالطبع على حيزية/ المرأة/ الأنثى. أما سعيّد فهو صاحب هذه الأرض وساكن هذا الوطن؛ المواطن الفقير الذليل المرهق الضعيف الذي ضاع بين حبه لأرضه وتمسكه بوطنه وبين سيطرة المستعمر الفرنسي عليه وسلبه إياه جميع حقوقه.

أما "ابن قيطون" الشاعر الذي ترك رائعة حيزية فإنه يمثل صرخة الحق في وجه الباطل، ونداء الذات الإنسانية المعذّبة، إنّه صوت الأنا اليائس الحزين، أنا حيزية ضحية العشق، وأنا سعيّد المغلوب على أمره، وأنا والد حيزية النادم، وأنا "ابن قيطون" الشاعر الحساس، والأنا الجماعي للقبيلة والمدينة والوطن والأمة العربية والعالم أجمع.

الفصل الثالث:

رمز الدين

1 - مفهوم رمز الدين:

الرمز الديني هو الرمز الذي يعود بنا إلى جذور دينية؛ وهو استخدام ألفاظ معينة حقلها المعجمي الدلالي ينتمي إلى حدث ديني معين، وقد يكون الرمز الديني هو استخدام شخصية دينية معينة لها صدى واسع عبر التاريخ وانتشار ممتد في وسط الشعراء والمتلقين؛ وذلك بتوظيف لفظة تحمل اسم شخصية دينية، وبمجرد نطق هذا الاسم أو سماع لفظه يتبادر إلى ذهن المتلقي حادثة دينية معينة، كانت قد التقطتها الذاكرة يوما ما أو عايشها الشاعر والمتلقي معا.

وقد نعني بالرموز الدينية تلك الرموز المستقاة من القرآن الكريم أو من السنة النبوية الشريفة بما في ذلك حديث الرسول μ ومن الرموز الدينية هناك الرسل والأنبياء والصالحون والملائكة والأمكنة التي تحمل إشارات دينية، وكذلك الشيطان -أيضا- يعتبر رمزا دينيا.

ولا تظهر مدلولات الرموز الدينية في النصوص الأدبية نثرية كانت أو شعرية إلا بعد قراءة سيميائية لهذه النصوص وفهم مرجعياتها فهما مستفيضا، إضافة إلى ضرورة الإحاطة بظروف الشاعر إحاطة تامة والتحري عن مناسبة القصيدة والأسباب التي دفعت بالشاعر إلى نظمها وإخراجها إلى النور بشكل محدد دون غيره سواء كان ذلك من خلال بنيتها الفنية أو من خلال موضوعها المتطرق إليه.

وتعود أصول الرموز الدينية عادة إلى الدين الإسلامي، إضافة إلى الأديان الأخرى كالمسيحية مثلا، وقد تكون هذه الرموز كلمات أو شخصيات أو صور، حيث تحتوي هذه الرموز على دلالات تتطرق من مستويين: ظاهر وباطن، ويعود فك شفرات هذه الرموز من خلال دلالاتها إلى قدرة المتلقي على قراءتها قراءة سيميائية واستخلاص الإشارات التي دعت إلى استخدامها دوافع الشاعر المختلفة.

وقد يكون الرمز عامة، والرمز الديني خاصة أقدر وسيلة على نقل الحالات النفسية والشعورية التي لا يصرح بها الشاعر لسبب من الأسباب أهمها: أسباب استعمارية تجعل الشاعر يخفي المرموز إليه لينوب عنه الرمز من خلال دلالاته السطحية الظاهرة، فيلجأ الشاعر إلى استدعاء شخصيات دينية وتوظيفها كرموز يدعو من خلالها إلى الجهاد في سبيل الله وتحقيق النصر وضرورة التغلب على العدو والعمل على إرجاع مجد اللغة العربية وإرساء قواعد الدين الإسلامي، ولكنه لا يدعو إلى ذلك صراحة، وإنما يلجأ إلى بعض الرموز الدينية التي يختارها بعناية فائقة - وقد تأتي هذه الرموز بطريقة عفوية حسب السياق الشعري لصاحبها - فيوحي من خلالها بمقاصده ومبتغياته، ويلقي بها إلى الشعب ليحتضنها.

فالرمز الديني ينبع من إبداع ذاتي للشاعر؛ ومصدر هذا الإبداع هو انفعالات الشاعر وأحاسيسه، وقد يكون إبداعه بسبب صراعه مع واقعه، حيث ينوب الشاعر عن غيره في صراعه وفي إبداعه، وينوب عن الآخرين - أيضا - في تصويره الفني لهذه المشاعر والانفعالات وإحكام بنيتها ودقة رموزها.

ويشارك الشاعر والمتلقي في خلق الرمز الديني وتفسير ماهيته، أو تحويل ما سخر لأجله، وربما هذا ما رجح كثرة الآراء النقدية حول القصيدة الواحدة، وربما حول البيت الواحد في حد ذاته، وهناك أمور عديدة تتحكم في ذلك منها: مستويات الفهم ودرجات التفاعل والانفعال، أو التأثير والتأثر وقد يبني الشاعر والمتلقي قراءتهما وتأويلهما على الحدس، وهذا لا يعني أبدا أن يجنح الشاعر والمتلقي إلى الغموض أو المغالاة.

إن استلهام الرموز الدينية من قبل الشعراء يؤكد البعد الديني لديهم، ويظهر تأثر هؤلاء الشعراء بلغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والقضايا والوقائع

والأحداث ذات الطابع الديني، حيث تختصر هذه الرموز الدينية جميع ما سبق دون أن تفقد التجربة الشعورية كثافتها التأثيرية، ومن خلال هذه الرموز ذات العلاقة بالمعتقد الديني يؤكد الشعراء توجههم العقدي والنفسي؛ فعملية "توظيف الرموز الدينية في الخطاب الشعري تعطي للنص دلالات خصبة، وتحيله على موروث حضاري زاخر، واستدعاؤها في اللحظة الراهنة يمثل التمسك بالماضي المليء بالصور المشرقة لأمتنا من أجل معالجة الحاضر وانكساراته ومحاولة إقناع المتلقي بدلالة هذه الرموز سواء كانت شخصيات أنبياء ورسول، أم صحابة، أم شخصيات دينية عرفت بمواقفها عبر الحقب الزمانية المتعاقبة".¹

ومهما قيل أو كتب حول الرمز الديني فإنه يبقى ملكا خاصة وإبداعا فرديا، وقد يختلف الرمز الواحد من نص إلى آخر ومن شاعر إلى آخر، ومن سياق إلى آخر، ومن لحظة إلى أخرى، ومن خلال الاختلاف يكتسب الرمز الديني قيمته الفنية التي لا يعيش خارجها.

1- السحدي بركاتي: الرمز التاريخي ودلالاته في شعر عز الدين ميهوبي، مذكرة ماجستير، إشراف: معمر حجيج، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية: 2008/2009، ص: 102.

2- الشعراء والدّين:

الشعر ومضات سريعة وخلجات عابرة يعبر الشاعر من خلالها عن مشاعر مبهمّة وحالات نفسية غير محدّدة؛ وفي لحظات الإبداع هذه يحاول الشاعر أن يغوص في أعماق الشرائع والأديان غوصاً يمنحه ثقافة دينية خاصّة، ويكسبه سلاسة وليونة وقدرة مميزة على خلق رموز دينية.

فالشاعر في إبداعه أو في حياته منسجم مع الدين وتعاليمه، حيث لا ينبغي للشاعر أن يخرج عن الفضائل الأخلاقية؛ فالدين هو أكبر مهذب للنفوس وأحسن منور للعقول، وأفضل ملين للألسن ومؤدب لها، وأبرز مقوم للأقوال والأفعال، والخارج عن تعاليم الدين ومبادئه سواء كان شاعراً أو غير شاعر سينبذ من طرف المجتمع لا محالة، وسيعاقب عقابين؛ عقاب في الأرض من طرف السلطة البشرية، وعقاب من رب السماء والأرض.

لقد كان للدين دور بارز ومكانة كبيرة في عملية الإبداع الشعري بوصفه منهاجاً حيويّاً دافعاً للتعبير الجميل عن الشاعر والأحاسيس التي تجتاح النفس البشرية في زمن المخاض الشعري القويم السليم.

ويعتبر الدين الإسلامي من بين أهم الأديان السماوية تأثيراً على قلوب وعقول الشعراء العرب المسلمين خاصّة، وهذا لا ينفي أن للأديان الأخرى كالمسيحية مثلاً تأثير على الشعراء، ويظهر هذا التأثير بشكل خاص - لدى شعراء الفصحى؛ لأن معارفهم عميقة وقراءاتهم كثيرة واطلاعهم واسع.

وإذا جئنا للحديث عن الدّين عند العرب فيجب أن نعرف أولاً أن للإنسان رغبة أزلية - منذ بداية الخلق - هي البحث عن حقيقة وجوده؛ أي البحث عن الله ومحاولة فهم النفس البشرية، ويتمخض عن هذا البحث ومحاولة الفهم علاقات

متعددة، منها علاقة الإنسان بالله وعلاقته بالكون وعلاقته بالإنسان الآخر وعلاقته بنفسه.

ويترتب على هذه العلاقات أفكار كثيرة في ذهن الإنسان؛ تتعلق بالأخلاق والمثل العليا وفلسفة الموت والحياة والخصب والجذب وغير ذلك مما يخص الحياة البشرية على سطح الأرض وفي القبر بعد مغادرة الحياة. هذا ما يفسره لجوء الإنسان -غالبا- إلى اتباع عقيدة بعينها أو دين بذاته.

لقد كان العرب يؤمنون بالله إلى جانب اعتقادهم بالأوثان، ويرون أنه خالق الكون ومصرف الأمور، ولم تكن ممارسة الإنسان العربي لبعض الطقوس الوثنية إلا امتثالا وانسياقا لأحكام الأعراف والتقاليد والعادات التي فرضوها على أنفسهم أبا عن جدّ، لذلك جعلوا لأنفسهم أصناما يتضرعون ويتوسلون إليها في كل أوقاتهم ومناسباتهم، ومن هذه الأصنام التي أطلقوا عليها تسميات نذكر: اللات، العزى، مناة، ودّ، سواع، يغوث، يعوق، نسر، إساف، هبل، ذو الخلصة، جهار، شمس، الفلّس، السعيدة، ذو اللبأ، المحرقّ، ذريح، مزحّب، المنطيق (من نحاس)، ذو الكفين، سعد، ربّام، رضى، ذو الكعبات.¹

ومع انتشار الدعوة الإسلامية عبر الأقطار العربية وغير العربية توحّدت نظرة الناس واستقرت رؤاهم حول خالقهم، وشاعت الطرق الصوفية، وتأثر الشعراء بتعاليم الدين الجديد، وتجلّى ذلك بوضوح في تجاربهم الشعرية، وزال ذلك الاضطراب الروحي الذي كان سائدا بين القبائل وعالقا بالذهنية العربية أين كان الناس عامة والشعراء خاصة يريدون الوصول إلى حقيقة دينية يطمئنون إليها، فكان الإسلام نفسه هذه الحقيقة.

1- ينظر: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1982، ص: 491-494.

وكان القرآن الكريم آخر الكتب السماوية وأدقها وأبعدها عن التحريف، وأكثرها ثراء من حيث المعجم اللغوي. لقد صار مصدرا لا غنى عنه للشعراء، ورافدا من الروافد الهامة التي ينهل منها كل شاعر يريد أن يمنح أفكاره صدقا وسموا ونزاهة وتأثيرا في الآخرين، ويجعل منها خالدة عبر الزمن ومثيرة لعقول البشر وقلوبهم.

وظّف الشعراء المعاصرون القرآن الكريم توظيفا يوحى بتأثيرهم وإعجابهم وافتتانهم بلغته، ويدل دلالة عميقة على تصوف البعض منهم وزهدهم في الحياة الدنيا، وليس المقصود من هذا الزهد والتصوف النواحي المادية والاجتماعية، ولكنه التصوف الروحي الذي يتجلى في اعتقاد الشاعر وتوجهه من خلال أفكاره وآرائه التي يبنّتها في قصائده وأشعاره؛ "ومع أن بعض الشعراء أحيانا يمرون بتجارب شبه صوفية فإنها تظل متميزة عن التجربة الصوفية الصرفة في أن موضوع الرؤية والتأمل يظل قائما وواضحا ومحددا ومن هنا كان الرمز الشعري نابعا من موضوع بعينه ومرتبطا به".¹

هذا الكلام لا يعني بالضرورة أن كل شاعر متصوّف أو شبه متصوّف، ولكن على العموم، فإن لكل شاعر مشاعر روحية إيمانية وإن اختلفت الديانات والعقائد، لأن الشعر في جوهره قول وتعبير جمالي عن مشاعر إنسانية صادقة في أغلبها لأنها نابعة من قلب مرهف حسّاس.

وتأتي السُّنة النبوية الشريفة في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم من حيث توظيفها من طرف الشعراء المعاصرين، حيث استمد الشعراء ألفاظهم وأفكارهم ومعانيهم من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وتقاريره، وصارت القصائد تفيض بالإيمان

1- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر - قضايا وظواهره الفنية والمعنوية -، دار الفكر العربي، ط3، ص: 197.

والطهر والتقوى، وظهر تأثر الشعراء بالدين الإسلامي جليا واضحا، وكثر الحديث عن الرسول محمد μ وزوجاته وبناته وغزواته وصحابته رضوان الله عليهم - وذكر من خلاله أنبياء الله ورسله السابقين وقصصهم وأقوامهم.

واستطاع الشعراء أن يؤرّخوا لرحلة الصّراع بين الخير والشرّ؛ صراع الإنسان ضد الشيطان منذ الأزل، منذ عهد آدم وحواء -عليهما السلام- وكذلك قاموا بتوظيف الجنة والنار والعقاب والثواب والحياة الدنيا والآخرة والقبر والسحر والعصا والشيب.. إلى غير ذلك من الألفاظ الرمزية التي تحمل في طياتها خلفيات دينية وتوحي إلى إشارات عقائدية، إضافة إلى الشخصيات الدينية المتنوعة التي تعود بذاكرة المتلقي إلى زمن قديم وحقب تاريخية ماضية.

3- رموز الدين في الشعر الشعبي:

يشكل الموروث الديني مصدرا أساسيا من المصادر التي عكف على توظيفها شعراء القصيدة الشعبية في الجزائر ككل، وفي منطقة بوسعادة بشكل خاص. لقد استمدوا من هذا الموروث الديني رموزهم الدينية التي عبّروا من خلالها عن جوانب من تجاربهم الخاصة.

استطاع شعراء القصيدة الشعبية بحكم ثقافتهم الدينية الواسعة -قراءة وسماعا- وإطلاعهم بالمتشعب واحتكاكهم بالوسط الشعبي حيث يعدّون من أبرز عناصره، وبحكم اتصالهم بالمراكز الدينية كالمساجد والجوامع والزوايا والكتاتيب، وتعاملهم الدائم مع الأئمة والخطباء ورجال الدين بشكل عام أن يبنوا من أنفسهم الشفافة أهراما ترقى إلى مصاف الزهاد والمتصوفة، حيث أن أغلبهم -حسب المدونة الشعرية التي بين أيدينا- كان قد بدأ طفولته في حفظ القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ودراسة كل ما يتعلق بالدين.

هذا يعني أن أغلب الشعراء -إن لم نقل كلهم- تلقوا تعليما دينيا في صغرهم، وعرفوا مبادئ الدين منذ الطفولة، لذلك نجد أشعارهم تفيض بالأخلاق والتوحيد والعبادات، وقصائدهم تسمو إلى طبقة عليا من التهذيب والنقاء والصفاء، وستتضح لنا نزعتهم الدينية بشكل جلي من خلال قراءتنا للرموز الدينية التي وظفها هؤلاء الشعراء في قصائدهم، وذلك في نقطة بوسعادة.

1.3 - الدّنيا:

وظف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة لفظة "الدنيا" كرمز دينيّ يحمل العديد من المدلولات التي تشير إلى ضرورة التعامل مع الحياة الدنيا كمتاع زائل، والاستعداد للآخرة لأنها هي دار القرار، والتزوّد بها، واعتبارها بمثابة النهاية الحتمية للإنسان، لأنها كذلك في حقيقة الأمر، حيث جعلوا منها محطة للعبور إلى الآخرة، وخاطبوها على أنها إنسان يسمع ويبصر ويعي.

فهذا الشاعر "إسماعيل مدّاد" في حديثه عن الحياة الدنيا؛ يشبهها بالدار التي لا أساس لها ولا قاعدة ترتكز عليها. يقول:

وَالدُّنْيَا بُنْيَانُهَا دَارٌ بَلَا سَاسٍ	فَتَّانَةٌ تَدِّي الْغَافِلُ وَامْتَالُو ¹
عَشَقُوهَا مُلُوكٌ عَشَقُوهَا حُرَّاسٌ	عَشَقُوهَا رِيَّاسٌ مِنْهَا وَشٌ نَالُوا
وَبُنَاوُ الْقُصُورِ مَلَكُوا كُلُّ ابِلَاصٍ	رَخَلُوا مِنْهَا كُلُّ وَاحِدٌ وَافْعَالُو ²
الِّي يَامِنْ فِي الدُّنْيَا مَا عَنَدُو رَاسٍ	حَتَّى عِنْدَ اللَّهِ مَا يَسْنَوَا وَالْوُ
يَعِي زَاهِي لَأَبَدٌ زَهُوٌ يَخْلَاصُ	يَلْقَى الصَّحَّ امْقَابِلُو يُدْخِلُ بَالُو
يَاوِيلُو مَنْ وَيْلٌ مَا عِنْدُوشِ آسَاسٍ	مَهْمَا طَالَتْ بِيَهُ لَازِمٌ يُقْدَالُو ³

الدنيا في نظر الشاعر "بن مداد" تشبه المرأة الفاتنة الجميلة؛ يعشقها الرجال ويسحرون بجاذبيتها، ولا يستطيعون الاستغناء أو التخلي عنها إلا عند مغادرتهم للحياة. إنها امرأة غنية فاحشة الثراء تمارس إغراءها بكل شغف على الرجال بمختلف أعمارهم وطبقاتهم الاجتماعية (ملوك، حُرَّاس، رِيَّاس...)، ولكنها تخذعهم في آخر المطاف (لأبدٌ زَهُوٌ يَخْلَاصُ)، وتتركهم لمصيرهم المحتوم.

1- تَدِّي: تأخذ وتسلب.

2- ابِلَاص: كلمة أجنبية تعني: مكان.

3- يُقْدَالُو: يذهب إليه (يقصد القبر).

الدنيا عند الشاعر "بن مداد" في الأبيات السابقة هي رمز للحياة الفانية الزائلة التي لا طائل من مسايرة العيش فيها، لذلك يحاول الشاعر ذاته أن يبين عيوبها، ويتمنى في لحظة من لحظات ضعفه أن الله لم يخلقه منذ البداية على هذه الأرض، لأنه في لحظة حزنه تلك لا يستطيع مواجهة مصاعب الحياة لوحده.

وفي زوبعة ألمه يعترف الشاعر قائلاً:

يَا لَيْتَنِي مَاخُلُقْتُشْ فِي الدُّنْيَا مَا جَرَّبْتُشْ هَمُّهَا مَا دَرْتُ ذُنُوبَ

ويعود الشاعر "بن مداد" إلى تشبيه الحياة الدنيا بالسفينة التي تمخر عباب البحر معتمدة على قوة الرياح وسرعتها، ولكن ركبها لا يأمنون خطر البحر وتقلبات أمواجه. يقول الشاعر:

وَالدُّنْيَا قَالُوا عَلَيْهَا مُوَدِّيَّةٌ بَعْدَ الرَّاحَةِ وَالصَّحَّةِ تَرْجَعُ مَنْكُوبٌ
رَاهَا بَيْنَا كِي السُّفِينَةِ الْبَحْرِيَّةِ مَرْفُوعَةٌ بِشْرَاعِهَا دِيمَا مَنصُوبٌ
تَحْرَكُ بِالرَّيْحِ صَبْحَةً وَعُشِيَّةً تَمْشِي حُرَّةً مِنْ رَبِّي وَالنَّاسُ زُكُوبٌ

الدُّنْيَا تشبه السفينة حسب أبيات الشاعر؛ فكلاهما يسيرها المولى عز وجل، وكلاهما تحمل في طياتها أخطارا. من هنا يتضح جليا بأن الدنيا في نظر الشاعر هي عبارة عن مغامرة مثيرة، لا تعرف لها نهاية، وهي كما وصفها المولى عز وجل في قوله سبحانه وتعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} ¹.

وليس بعيدا عن الشاعر "إسماعيل مداد"، هناك الشاعر "أحمد وليد بن القبي"، حيث اشترك الشاعران في مدلول لفظة "الدنيا" وما توجي إليه، وأبدع الشاعر "بن القبي" حين نظم قصيدته حول الحياة الدنيا، وجعلها معبرة عن ضياعه النفسي وغربته الذاتية، ورسم من خلالها معالم حياته وشقائه فيها أحيانا وسعادته

1- سورة الأنعام، الآية (32).

أحيانا أخرى، ورغبة منه في إيقاظ وعي الآخرين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه هو من قبل. الدنيا عنده هي رمز للزهد والتصوف. يقول الشاعر مخاطبا كل إنسان غافل:

يَا غَافِلُ بَالَاكَ تَمَلُّ فَالدُّنْيَا لِي يَمَلُّ فِيهَا يِرَاعِي لَحْوَالي
ما نَسَوْتُ سُوقَهَا عَازٍ عَلَيَّ نَخْطِي قَاعَ عَنَّا زِ السُّوقِ الْخَالِي
بِهَذَالَةِ طِيَاحَةِ اسْوَاقٍ قُوِيَّةٍ لِي يَكْذِبُ فِيهَا يَشُوفُ لَمِثَالِي

ويختتم الشاعر قصيدته بالبيت التالي:

وَالدُّنْيَا مِنْ شَاوَهَا هَازِي هِيَّ سَاعَةٌ يَغْمَرُ سُوقَهَا سَاعَةٌ خَالِي

شبه الشاعر "أحمد وليد بن القبي" الدنيا بالسوق؛ يمتلأ ساعة ويعج بالسلع والناس ثم يخلو وكأن الأرض ابتلعت ما فوقها، يحدث ذلك في عملية متتالية قد تكون سنوية كسوق عكاظ في العصر الجاهلي وقد تكون موسمية أو شهرية أو أسبوعية أو حتى يومية.

الدنيا في توظيف الشاعر "ابن القبي" هي رمز لتغير المراحل العمرية للإنسان وتغير أحواله وظروفه وحالاته النفسية وطبيعته الجسدية وحاجته الدائمة والمستمرة إلى غيره من بني البشر، وميله العفوي الطبيعي إلى التصوف والزهد في حياته، من طفولته إلى هرمه؛ إنها الحكمة الإلهية التي تقتضي أن يعبد المخلوق خالقه دون أن يراه ويقدهسه ويطيعه بالسليقة والفترة.

يحاول الشاعر "عبد القادر العطوي" أن يفسر هذه المراحل؛ مراحل خلق الإنسان، فيستشهد بمثال حي؛ هذا المثال هو جدته التي حدثته عن التطورات التي رافقت نموها الجسماني والعقلي والفكري، وكان نتيجة هذا الحوار أن أبدع الشاعر قصيدته التي تحمل عنوان "الجدّة"، وسبب ذلك هو سؤاله الذي وجهه إليها قائلاً:

يَا جَدَّةَ عَيْدِي عَلَيَّ قَصِيَّةٌ كَيْفَ الدُّنْيَا تَفُوتُ عَالِرَاسَ الْيَّ شَابٍ

وهي تجيبه بكل حنان ورقة وعطف مختصرة مراحل حياتها بكل دقة وبراعة من حيث التصوير الفني:

حَالَةُ الدُّنْيَا يَا ابْنِي هَازِي هِيَ	كُلُّ دَقِيقَةٍ تَفُوتُ تُنْقُصُ مِنْ لِحْسَابِ
فَاتَتْ عَنِّي كَيْي الْيَّ شَافَ ارْوِيَّة	رَاهُ صَبَحَ مِنْ حَالِهَا عَطْشَانُ وَغَابُ ¹
تَمْشِي عَلَى رِبْعَةٍ فِي شَاوِ الْبُدْيَةِ	تُوقِفُ عَنْ رَجْلَيْكَ بَعْدَ الْعَامِ حُسَابُ ²
لَا بِالْأَكِ الْعَامِ وَتَزِيدُ شَوِيَّة	تَتَمْشَى عَلَى اثْنَيْنِ هَذَاكَ الصَّوَابُ ³
تَمْشِي عَلَى ثَلَاثَ ذِيكَ النِّهَآيَةِ	وَالْيَّ شُرْفَتْ مَا تُولِي لِلشَّابَابِ ⁴
كُنْتُ نَشُوفٌ بَعِيدُ مَمْضَى عَيْنِيَا	وَلُبَسْتُ النَّاطِلُورَ لِلنَّظَرَةِ قَرَابُ ⁵
انْقُصْ لِي سَمْعِي وَثَقُلُوْ دُنْيَا	امْدَوْخَنِي زَفُ فِي رَاسِي طَبْطَابُ ⁶
لَا بَنَّةَ لَا ذَوْقَ طَاحُو سَنِيَا	حَتَّى الْفَمِّ مَا فِيهِ لَا ضَرْسَةَ لَا نَابُ ⁷
شُوفُ لَجَسْدِي مَا تَهْزُو رَجْلِي	اتَّعَوَّقْتُ وَعَدْتُ فِي صَفِّ الْعِيَابِ ⁸
وَالشَّعْرَ الْيَّ كَانَ فِتْنَةً وَبُلِيَّة	وَلَا شَائِبَ زَيْدٍ لِحَوَاجِبٍ وَاهْدَابُ
وَيَا حَسْرَاهُ عَلَى الْخُدُودِ الْوَرْدِيَّة	ذَاكَ اللَّحْمَ الْيَّ كَسَاهَا جِلْدُ ذَابُ ⁹
فَكَرِي شَارِدُ مَا نَشَدُ الْوَصِيَّة	سَكَرَانَةً وَأَنَا الْيَّ مَا ذَقْتُ شَرَابُ.

1- فاتت: مرت. اروية: رؤيا: منام: حلم. غاب: عطشان.

2- البدية: البداية. توقف: تقف.

3- بالاك: ربما. تشوية: قليلا.

4- شرفت: كبرت وهرمت.

5- ممضى: ما أحد، وما أدق

6- وذنيا: أذناي. زف: طنين. طبطاب: يصدر أصواتا مزعجة.

7- بنة: ذوق. طاحوا سنيا: سقطت أسناني.

8- تهزو: تحمله. اتعوقت: صرت معاقا. العياب: جمع: عايب: المعاق من رجله.

9- جلد: أصبحت فيه تجاعيد الشيخوخة.

"الدنيا" في مفهوم الشاعر "عبد القادر العطوي" ليست إلا فسحة قصيرة من الأحلام والطموحات لها فترة زمنية محددة بانتهاء الأجل، إنها باختصار؛ حلم وهدف وطموح معين في زمن ومكان معينين، لهذا الحلم بداية وله نهاية، حيث يقوم بمحاولة تحقيقه شخص معين، يستعين في ذلك بغيره من الشخصيات الثانوية التي يقوم معها بتحريك الأحداث وخلق جو من الإثارة داخل هذه الفسحة، ومن ثم ترك آثار واضحة المعالم تدل على مرور صاحبها.

فالدنيا عنده إذاً؛ هي رمز للحلم والانطلاق في الحياة والبحث عن السعادة والراحة والطمأنينة والهدوء وهي رمز لاستمرار الجنس البشري، ودوام العنصر الإنساني.

ونفس المعنى - تقريباً - نجده عند الشاعرة "الزهرة اشويحة" حين تخاطب أحد أبناء بلدتها، وتذكره بالسلف الصالح؛ بمؤسس زاوية الهامل الشيخ "محمد بن أبي القاسم" قصد تشجيعه وتحفيزه على المواصلة، فتقول مخاطبة المتلقي في قصيدة "الشرفة الكرام":

سَالْ غَلِينَا فِي الْمَدَنُ مَعْ لَزِيَاْفْ	سَالْ غَلِينَا كُلُّ عَرْشُ وَدُوَارُوْ
يَخْكُوْلُكَ عَنَّا وَعَنْ كَامَلْ لَوْصَاْفْ	قَسُوْمُ الْمَغْلُوْمُ ضَاوِي مَنَاْرُوْ ¹
يَا إِلِّيْ قَصْدَتْكَ فِي كَلَامِي قَلْبِي نَاْفْ	وَأَتَمْنَيْتْ إِيْفُوْزْ عَنْ كُلِّ انْصَاْرُوْ ²
ابْنُ الْهَامَلْ فَالشَّدَايْدُ لَا يَضْعَاْفْ	وُرْجَالُوْ شُجْعَانْ مَهْمَا يَنْهَارُوْ
أَزْوَاوِي مَغْلُوْمُ امَّاْلِيْهْ انْصَاْفْ	مَا يَفْعَلْ حَاْجَةْ انْطَيِّحْ مِنْ كَاْرُوْ ³
مَا يَبْغِي رَشُوْةْ وَلَا حَاْجَةْ اَكْتَاْفْ	يَدِّيْهَا بِالْحَقِّ يَغْلَى مَقْدَاْرُوْ

1- قسوم: هو الشيخ محمد بن أبي القاسم.

2- قلبي ناف: شعر بالغيرة والحماسة والحمية.

3- كارو: قيمته وكرامته وعزة نفسه.

الدّنيا نَفَحَاتٌ وَالشَّاطِرُ هَدَافٌ وَيُدُورُ لِيَّامٍ يَرْبِحُ مَشَوَارُ

وظفت الشاعرة لفظة "الدنيا" على أنها نفحات للأمل والانتصار؛ وهي ميدان فسيح وملعب تقام فيه مباريات السباق والرماية، واللاعب الماهر هو الذي يستطيع أن يسجل أهدافا متتالية، وبالتالي يفوز بالمباريات كلها. إنه الفارس المغوار الذي يهزم منافسيه ويفرح أنصاره ويسعدهم.

الدنيا عند الشاعرة "الزهرة اشويحة" هي رمز للمنافسات الدنيوية في عمل الخير والحث عليه ونشوة السعادة والفرح التي تصاحب القيام بالأعمال الخيرية وما يرافق ذلك من ردود أفعال تدل على الرضا والحبور. إنها سعادة قصيرة محدودة المدة الزمنية. الدنيا إذاً، هي رمز للفرحة التي تحمل في طياتها أخطارا، وتبذل لأجلها الجهود، حيث تمارس هذه الفرحة في زمان ومكان معينين ولها أبطال وأحداث وبداية ونهاية.

وعن هذه النهاية يتحدث الشاعر "الحمدى بوشنافة" قائلا:

يا سائلي سألني عن كاشٍ جديدٍ	نُعْطِيكَ أَعْلَامَ عِنْدَ الْعِيَا ¹
نَحْكِيكَ تَارِيخَ عَنْهَا بِالتَّكْيِيدِ	رَاهَا تَرْدَى دَائِمًا فِي النَّهْيَا ²
ما عِنْدِي مَا كَانَ عَنْهَا وَاشْ نُعِيدْ	مَنْ أَوَّلَ أَرْمَانٍ رَاهَا عِيَا ³
تُطْفَحُكَ وَتَعُودُ كُلَّ يَوْمٍ تَزِيدُ	تَجْعَلُكَ خُدَّامَ مَنْ كُلُّ أَرْعَايَا ⁴
وَتُقَالُكَ مَا كَانَ غَيْرُكَ حَتَّى سِيدِ	تَبْنِيكَ قُصُورَ زِينَةِ عَالِغَايَا ⁵
وَتُتَرَدَّى وَتُعُودُ سَاهِلٌ لِلتَّهْوِيدِ	وَتُتَرَدَّمُ قُدَّامَ لَرْدَالٍ شَفَايَا ¹

1- اعلام: أخبار

2- التأكيد: تردى: نزول وتنتهي.

3- عيايا: متعبة ومرهقة.

4- تطفحك: تغنيك.

5- سيد: سيد، والمقصود: شخصية مشهورة وغنية. زينة: جميلة.

وَأَسْمَهَا مَعْرُوفٌ عِنْدَ النَّاسِ أَكِيدُ ثَلْثَ حُرُوفٍ مَخْرَجِينَهِمْ مِنْ الْآيَةِ

ولكن الشاعر لا يفتأ أن يكشف رمزه بعد بيته الذي يشير في شطره الثاني إلى حروف ثلاثة، فيقول مفسرا هذه الحروف الثلاثة:

دَالٌ وَنُونٌ وَيَا حَذَاهُمْ لَا تَزِيدُ وَأَفْهَمُ قَوْلِي كُونٌ عَارِفٌ مَعْنَايَا.²

فإذا جمعنا الحروف السابقة نجد أنها تعني كلمة: "دنيا"، وكلمة "الدنيا" عند الشاعر "الحمدي بوشنافة" هي عبارة عن مرحلة زمنية يقضيها الإنسان بين أحضانها مستمتعا بخيرات المولى عز وجل؛ في القصور وبين الخدم والأموال ولكنها (تردى دائما في النهاية).

وهذا ما وضحه الشاعر - أيضا - في قصيدة غزلية، على لسان النخلة الغربية الوحيدة التي أجابته:

قَالَتِلِي هَآذِي الدُّنْيَا تَتَرَدَّى وَمَاذَا مِنْ أَجْيَالٍ فَاتَتْ شَاؤُ نَهَارٍ³

لقد عرفت هذه النخلة أن الحياة الدنيا زائلة، وأكبر دليل على ذلك هو زوال البشر من جيل إلى جيل، أي أن الدنيا هي فرص متتالية متعاقبة، وكل إنسان ينال من هذه الفرص حقه، وإن طال ذلك أو قصر، لذلك حاول الشاعر "الحمدي بوشنافة" أن يقنع محبوبته بضرورة الاهتمام به والحرص على عدم هجره، والتفاني في محبته، وحاول التأثير فيها بتذكيرها بالموت والقبر، فجعل يقول:

وُنْسَافِرْ نُرُوحٌ نَمْشِي وَنُخَلِّكُ نَدِّي حُرْقَةً لِلْقَبْرِ وَسَطُ أَكْفَانِي⁴
وَحَتَّى أَنْتِ تَنْسَايْنِي وَنَطُولُ عَلَيْكَ هَآذِ الدُّنْيَا رَاحِلَةٌ كُلُّشْ فَانِي⁵

1- تتردى: تسوء حالتك. التهويد: السقوط وسوء الحال.

2- حذاهم: وراءهم: بعدهم، تليهم.

3- تتردى: تزول، وتنتهي.

4- نخليك: أتركك. ندي: آخذ.

5- كلش: كل شيء.

ولكنه لا يلبث أن يصحو ويستيقظ من حيرته تلك، ليعرف أن الحياة الدنيا لها نهاية أكيدة، والبقاء لله عز وجل، لذلك يحاول الشاعر أن يعرف الحياة الدنيا ضمن قصيدة رثاء أخته "قوتة"، فتصير الدنيا بالنسبة إليه رمزا لمرحلة زمنية، وهي تشبه الطريق الذي يسير فيه الإنسان، له بداية، ينطلق منها الإنسان، ويواجه أثناء سيره صعوبات وعراقيل، إذا تغلب عليها فإنه سيصل حتما إلى نهاية جميلة، أما إذا لم يتغلب عليها فإنه سيتعب ويحزن ويبكي. يقول الشاعر:

الدُّنْيَا طَرِيقًا وَأَخْنًا خُطًّا
بِالسَّاعَةِ نَمَشُو مَعَهَا كُلَّ يَوْمٍ¹
وَكُنَّا نَفْنَأُ لَوْ طَالَتْ لَعَمَارُ
وَيَتَبَقَّى سِوَى الْمَلِكِ الْفَيُّومُ

ولا يبتعد الشاعر عن تشبيه الدنيا بالطريق، فيعود مرة أخرى ليشبه الدنيا بالأفعى. يقول واصفا مرارة الحياة وتقلباتها وتغير ظروفها وأحوالها:

الدُّنْيَا مَرَّةٌ وَدَهْرُهَا غَدَا
مِثْلُ اللَّفْعَةِ خَيْرُهَا يَرْجَعُ بِنَمُومٍ

الحياة الدنيا -حسب الشاعر- تشبه الأفعى؛ تبت سمومها، وتقذف بها إذا اقتضى الأمر، تغدر بضحيتها متى حان لها ذلك، وتهجم على فريستها في أي زمان ومكان. إنه نوع من الظلم والقساوة والعدائية.

الأفعى إذا؛ هي رمز للحياة الدنيا، في حقدتها وظلمها وتسلطها وجورها وأذاها، لا يسلم من جبروتها أحد، ولا ينجو من طغيانها بشر. إنها رمز للشر والحزن والألم والغضب والاستغلال والسيطرة والكره والبغض.

وهناك شاعر آخر هو "البشير قذيفة"؛ يصف الحياة الدنيا بالمرارة، ويشبها بأنثى الحوت، فهي تسبح في البحر وتغوص في أعماقه دون خوف أو تردد؛ تجدها عند شاطئ البحر تارة، وفي قاعه تارة أخرى، وتطفو على سطحه في غالب الأحيان.

1- خطار: جمع خاطر: مار: عابر: مجتاز: سائر.

يقول الشاعر "البشير قذيفة" في قصيدة تجمع بين مشاعر الحب والعتاب، ويمتزج فيها الألم والحزن بالأمل ورجاء اللقاء والوصال:

دُنْيَا مَرَّةً كَاسَهَا مَلِيَانٌ اَمْلَاحٌ	خَذَّاعَةٌ مِنْ شَاوْهَا تَعْطِي وَتُنَحُّ ¹
تَتَغَيَّرُ مَا بَيْنَ عَشْوَةٍ وَلَا صَبَاحٍ	مِثْلُ الْحَوْتَةِ فِي بَحَرٍ لُجِّي تَسْبَحُ ²
تَجْمَعُ بَيْنَ اثْنَيْنِ بِالْحُبِّ وَلَفْرَاحٍ	وَتُفَرِّقُهُمْ وَتُسَيِّبُ لَغْيُونُ اَتَنَوَّحُ ³
مَرَّةً تَأْتِي بِالْمَطَرِ مَرَّةً بِزِيَاخٍ	مَرَّةً هَايِضٌ وَأَذْهَابٌ مَرَّةً نَازِحُ ⁴
مَرَّةً تَأْتِي بِالْهِنَا مَرَّةً بِفَرَاخٍ	مَرَّةً تَعْطِي بِالْوُفَا مَرَّاتٍ اَتَشْخُ ⁵
رَجَعْتُ اَمْعَدَمٌ رَاشِقَةٌ فِي لَرْمَاحٍ	وَأُنْدَارِي عَالِنَاسٌ وَعَيُونِي تَفْضَحُ ⁶
لَوْ لَقِيتُ نَظِيرَ لِيكَ بَغَيْرِ جَنَاحٍ	وَنُشُوفُكَ يَا حَبِيبَ قَلْبِي وَنُرُوحُ ⁷

في البيت الأول يشبه الشاعر الدنيا بالمرأة الشريرة التي تخدع صاحبها وتسقيه كأساً من السموم والأمل؛ تمنحه الحب والعطف والحنان والدفء، ثم لا تلبث أن تسلب منه ذلك، وتغير مزاجها معه حسب حالاتها النفسية وحسب تعاقب الليل والنهار والصبح والمساء، فمرة تعطي بقوة، ومرة تأخذ بعنف، وتارة تأتي بالأفراد والمسرات، وتأتي بالأحزان والمصائب تارة أخرى، تجمع بين كل حبيبين في سعادة وهناء أبديين، ولكنها تفاجأهما بالفراق والبعد، وتفريق قلوبهما قبل جسديهما، وتترك العيون باكية دامعة، والقلوب دامية صارخة نائحة.

1- كاسها: كأسها. مليان: مليء. شاوها: بدايتها: أولها. تنح: تأخذ وتسلب.

2- عشوة: عشية. الحوتة: أنثى الحوت. لجي: عميق كثير الماء.

3- اتسيب: تترك. انتوح: تنوح؛ وهنا بمعنى: تبكي بشدة.

4- هايض: فائض. نازح: جاف.

5- اقراح: أقراح: أحزان.

6- امعدم: منتكس. راشقة: مغروسة. لرماح: جمع رمح. انداري: أخفي.

7- لقيت: وجدت. نشوفك: أراك. انروح: أغادر وأذهب.

إنها مثل أنثى الحوت التي تعيش في عرض البحر، وتتغذى على صغار الأسماك، تتمتع بقوتها، وتغوص إلى أعماق المحيطات وتطفو لتعلو فوق سطح الماء، تلد وترضع صغارها، وهي سريعة الانتقال من مكان إلى مكان آخر، بمعنى أنها كثيرة الحركة والتنقل، متغيرة المزاج والأحوال والظروف، لا تستقر بمكان ولا تعترف بزمان.

وكذلك الحياة الدنيا بالنسبة إلى الشاعر "البشير قذيفة"؛ مرّة، خادعة، معطاة ولكنها سالية، متغيرة، جامعة بين كل اثنين بالحب والفرح ولكنها مفرقة، تأتي بالهناء، ولكنها تعقبه بالحن، وفيّة في العطاء ولكنها شحيحة في غالب الأحيان...

وزاد الشاعر على براعته الفنية أن استخدم في قصيدته السابقة حرفاً واحداً هو حرف الحاء كحرف روي للشطرين: الصدر والعجز، وهو حرف حلقي، استخدمه الشاعر في حالة السكون في كلا الشطرين، للتعبير عن شدة الألم والحن وطول فترة العذاب النفسي، واشتعال مشاعر الشوق والحب والحنين، وهو حرف تصدر الآهات مرافقة لنطقه للدلالة على جراح القلب وشدة حزنه وتعبه.. حيث يعبر الشاعر عن ذلك في افتتاحية قصيدته بقوله:

جَيْتُكَ وَاجِي خَاطِرِي مَلِيَانُ جِرَاحُ وَقَلْبِي مِنْ كُثْرِ الْمَحَايِنِ مَثْمَحٌ¹

ويظهر تأثير حرف الحاء في باقي أبيات القصيدة بشكل واضح، وفي ذلك إشارة إلى معاناة الشاعر النفسية وغربته الذاتية وحيرته الروحية وحاجته العاطفية الدائمة والمستمرة.

2.3 - القبر:

1- جيتك: جيتك. واجي: حزين ومهموم. المحايين: المحن. مثمح: حزين ومتألم.

يعد القبر من بين أهم الرموز التي تدل على الموت والرحيل والفرار والبعاد، وهو المقر الحتمي لكل من قضى نحبه، ووفاه أجله، وهو الدار الثانية التي يسكنها الميت تحت سطح الأرض بعد أن كان يتنعم وسط عائلته في بيته فوق سطح الأرض.

والقبور تضم في ثناياها الأجداد والأصول، والإناث والذكور والصغير والكبير والكافر والمسلم، وهي دليل على قوة الأجيال الماضية وصمودهم في الحياة الدنيا وحتى بعد الممات.

والقبر "يعطي شعورا بالرهبة، وصورته قابضة للنفس، ولقد ظلت صورة القبر حركة للصراع.. وعكست القبور إحساسا بالعجز، والحاجة إلى الانبعاث والحياة"¹؛ وهذا ما جسده قصيدة الشاعر "الحمدى بوشنافة" في رثائه لأخته "قوته"، حيث وظف الشاعر القبر رمزا للمأساة والحزن والبكاء والدموع والإحساس بالضعف والشعور بالألم واعتصار مرارته. يقول الشاعر في نبذة مثيرة للشجن باعثة على اليأس والإحباط:

رُحْتُ انْحَوَسْ ذَاهِبَةً عَنِّي لَشَوَاوْ	وَأُنْفَاجِي فِي هَمٍّ عَن ذَاتِي مَحْتُوْمْ
مَشَطَّنْ مَهْمُوْمْ مِنْ كَثْرَةِ لَفْكَارْ	مِنْ ضَيْقَةِ رُوحِي مَعَ الْبُلْدَانِ انْهُوْمْ ²
وَأَرْجَعْتُ لَقَيْتُ خَبْرَكَ وَسَطُ الدَّارِ	قَالُولِي قَا دِيرْ صَبْرَكَ لِلْقَيُّوْمِ ³
يَعْظَمُ أَجْرُكَ فِي اخْتِكَ سَابِغْ لَشَفَاوْ	لَا تَلِيْتُ اتَشَوْفَهَا مِنْ هَاذِ الْيَوْمِ ¹

1- حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر - أحمد عبد المعطي نموذجاً-، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006، ص: 104.

2- مشطن: مشغول العقل.

3- لقيت: وجدت. قا: لفظة يستخدمها سكان منطقة بوسعادة للدلالة على عدة أمور منها: الطلب، الشرح، التفسير، الترجي.. حيث تستخدم قبل الأفعال وقد تستخدم قبل الأسماء في الاستفهام مثلاً كقولنا: قا الخير؟ دير: اجعل.

انْمَشَى مَرْحُولَهَا عَلَى الْوَحْدَةِ سَارَ قَصَدُوا بِيهَا شُورَ ذِ الشَّرْقِ الْمَعْلُومِ²
 فِي عَيْنِ اغْرَابٍ اِدَاوُ رَدْمُوهَا بِحَجَارٍ هَذَا حُكْمُ اللَّهِ الْمَلِكِ الْقَيُّومِ³
 امْشَاتْ مَعَهَا اَكُلْ اَهْلُ الدُّوَارِ غَيْرَ اَنْتَ بَعْدَتْتَنَا مَا عَنْكَ لَوْمٌ

ويعصف الشاعر حرقه قلبه وحزنه العميق وألمه الشديد عند سماعه خبر وفاة أخته وقيام أهلها بعملية الدفن. لقد كان هذا الخبر فاجعة كبرى ومأساة حقيقية بالنسبة للشاعر الغائب الحاضر. يحكي الشاعر معاناته فيقول:

الْهَبْنِي مَشْعَالٌ شَغَلْتُ فِيهِ النَّارَ مَا نَدْرِي كَيْفَاهُ ذِ الْقَدْرِ الْمُخْتَوِمْ
 عَيْنِي يَتَهَاطَلُو مِنْ نَعْتِ امْطَارٍ وَالْخَاطِرُ هَوْدَاسٌ عَنِّي حَزْمُ النَّوْمِ⁴

ويرسم الشاعر لوحة فنية مثيرة للموت والميت داخل القبر؛ في شكل حوار دار بينه وبين أخته "قوته"، ويعبر عن ذلك قائلاً:

وُرُحْتُ شَوَارِ اخْتِي وَنَلَقَى غَيْرَ احْجَارٍ مَرْدُومَةٍ فِي دَاخِلِ الْقَبْرِ الْمَغْمُومِ
 قُلْتُهَا وَاشْ بِيكَ وَرَيْنِي مَا صَارَ وَشْ جَابِكُ حَتَّى سَكَنْتِي ذِ الْمَرْدُومِ
 قَالَتْ لِيَا بَيْنَا حَالُو لَقْدَارٍ مَا نَقْدَرُشْ نَحْدَتُكَ ذِ الشَّيِّ مَقْسُومِ
 أَمْ لَسَبَابِ إِلَيَّ وَصَلْتُ لِهَازِ الدَّارِ ذِي النَّهْيَةِ وَذَا الْمَكَانِ الْمَعْلُومِ
 هَانِي فِيهَا رَايْحَةٌ مِنْ كُلِّ اضْرَارٍ أَمَّا لَعْمَالُ مَسْجَلَةٍ كُلُّشْ مَرْسُومِ⁵

القبر في توظيف الشاعر "الحمدى بوشنافة" وحسب الأبيات السابقة يحمل دلالات متنوعة: اجتماعية ونفسية ودينية وروحية.. إنه رمز لمأساة الإنسان

1- معنى الشطر الثاني: لن تراها بعد اليوم.

2- شور: نحو، باتجاه.

3- اداو: أخذوا، وهنا؛ بمعنى: أخذوها، وأصله اداوها؛ وحذف الشاعر الهاء في آخر الفعل لضرورة شعرية.

4- هوداس: مصاب بالوسوسة والهوس والأرق والسهر.

5- هاني: مركبة من: هاوأي؛ بمعنى: هأنذا. رايحة: مرتاحة؛ بتخفيف الراء عند النطق. كلش: مركبة من:

كل وشيء؛ بمعنى: كل شيء.

وأحزانه ومصائبه، وهو رمز للبكاء والبعد والفرق؛ إنه يمثل "حقيقة الوجود الوحيدة، وحقيقة الخلق التي لا تقبل فتنة الشك، ألا وهي: حقيقة الموت والرحيل والفرق، فنحن وإن كنا أهل منازل وديار في دنيا الوجود إلا أنها في الحقيقة ديار فراق ورحيل وفناء وموت".¹

ويلعب خيال الشاعر دورا هاما في تصوير حالة أخته النفسية، وهي الميتة في الواقع، الحية في ذهن الشاعر، حيث تبدو مرتاحة في قبرها، راضية بقدرها، معترفة بوصولها إلى نهاية حتمية لا رجوع عنها ولا عودة منها، وهي التي أجابته بقولها: (هاني فيها رايحة من كل اضرار)، واختصرت له تجربة حياة شخصية انتهت إلى حفرة (مردوم)، وكانت نهاية مؤكدة وحتمية لهذه الحياة: (ذي النهاية وذا المكان المعلوم)، وقولها: (أما لعمال مسجلة كلش مرسوم).

ومن خلال إجابات هذه الأخت الرمز نلاحظ أن القبر هنا هو رمز للراحة الأبدية والبعد عن الشرور والأتعاب وتعقيدات الحياة، وهو رمز للسكون والرهبة والهدوء المطلق بالنسبة للميت الذي عمل خيرا في دنياه، وقد يتراءى ذلك أيضا للمازّ بالمقبرة من غير أهل الميت، إذ لا بدّ أن يشعر بذلك الصمت الذي يسود أجواء القبور والسكينة التي تغشى تلك البقعة المقدسة الطاهرة من الأرض، ولكنهما صمت وسكينة يبعثان على القلق والحيرة والاستغراب وقد يدلان أيضا على الرعب والإحباط والجذب وانتهاء الأشياء الجميلة وانقضاء الساعات السعيدة.

لقد وظف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة القبر في قصائدهم كنتيجة حتمية لارتباطهم الروحي بالحياة الآخرة وتأثرهم الواضح بالدين الإسلامي والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؛ ويبرز هذا التأثير بشكل جلي عند الشاعر

1- بهاء حسب الله: ظواهر أدبية في الشعر العربي القديم والمعاصر، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، 2004، ص: 96.

النابعة "محمد الريغي شبيرة" - رحمه الله - في قصيدته التي وصف من خلال أبياتها أحداث التجنيد الإجباري للشباب الجزائري من قبل الاستعمار الفرنسي، حيث حاول الشاعر أن يوصل هذا الظلم وهذا العذاب لكل الموتى داخل قبورهم، لأن الأحياء لم يعد بوسعهم أن يستوعبوا ما يحدث معهم من شدة قساوة الأفعال والأقوال التي مورست ضد الشعب الجزائري. يقول الشاعر في مطلع قصيدته:

حَقُّ الْمَوْتَى فِي الْقَبْرِ يَبْكِيُوا الدَّمَ وَذُ الضَّرُّ إِلَيَّ صَابِنًا تَتَحَاجَى بِيهِ¹
اَكْبُودُ الْأُمَّةَ سَايِرَةَ جَمِيعِ أَفْحَمَ كَمَنْ وَاحِدٌ قَيْدُوهُ اَعْلَى وَالِيهِ²

يبدو أن القبر في توظيف الشاعر "محمد الريغي شبيرة" هو رمز للحاجز الذي يفصل بين الأحياء والأموات، فلا يستطيع هؤلاء مشاركة الأحياء مآسيهم ومصائبهم وآلامهم، والشاعر يدعوهم للبكاء دما بدل الدموع، أليس من حق الشعب الجزائري آنذاك أن يعبر عن شعوره الحقيقي؟! ألا يحق له أن ترفع قضيته لتصل إلى الرأي العام العالمي؟!

القبر لدى الشاعر "محمد الريغي شبيرة" - في هذه الأبيات - هو رمز للظلم والاستبداد والاستعباد والاحتلال والقيود والحواجز وهو رمز للرحيل عن الحياة الدنيا ومفارقة الأهل والأقارب والخلان والانقطاع عن العالم وعن البشر إلى الأبد، القبر هنا هو العدو الغاشم المتجرد من الصفات الإنسانية، الباحث عن سعادته والساعي إلى مصالحه الشخصية على حساب تعاسة الآخرين وآلامهم وأحزانهم وشقائهم وبكائهم.

1- يبكيوا: يكون. صابنا: أصابنا. تتحاجى بيه: من الأحجية، بمعنى: تحكي عنه.

2- اكبود: أكباد. سايرة: اسم فاعل على صيغة المؤنث من الفعل سار؛ وأصله حسب المعنى هنا: صار: أصبح. كمن: أصلها: كم من. واليه: أهله.

ويسترسل الشاعر في التعبير عن تدفق أفكاره، فيصف هؤلاء الشباب المجندين وحالتهم النفسية عند مفارقة أهاليهم. إنها أجواء تدمع العين وتدمي القلب وتفجر الصخر الصامد الجامد.

يوصل الشاعر نقل تلك الأجواء الضبابية الحزينة المليئة بالأسى ومرارة البعد والاعتراب قائلاً:

وَحَقُّوْ يَهْبِلْ ذ الصَّبْرُ مِنْينْ إِيحِيَهٗ ¹	آخِرَ خَلَا بُوَهٗ وَأُمُوْ وَدَاعُهُمْ
وَأَشْ يَبْرَدُ فَاهَقْ أَلِي دَارِ الْهِيَهٗ	وَأَخِرَ تَرَكَ أَوْلَادُتُوْ صَدُّ امْحَيَطَمْ
نَقْمَهٗ عَدِيَهٗ قَاضُهُمْ يَبْكِيُوْا غَلِيَهٗ	وَأَخِرَ خَلَفَ خَاوُتُوْ وَابْنَايِ الْعَمِّ
حَمَلُوْ جَايزِ فِي الشَّدَايِدْ مَا تَضْنِيَهٗ	إِذَا ضَاقَ الْحَالُ عَنْهُمْ يَتَحَزَّمْ
لَا عَنَدُوْ دَلَالْ لَا وَالِي يُوْصِيَهٗ ²	وَأَخِرَ مَالُوْ تَاكِيَهٗ لَا بُوْ لَا عَمِّ
جَرَّ الْمُرُوْدُ بِالْبَيَاضِ أَعْلَى عَيْنِيَهٗ	يَوْمَ إِيْفَارَقْ بَيْتَهُمْ يَغْشَاهُ السَّمُّ
وَيَبْقَى بَاحِرْ تَتَقَبَّضْ لِرَوَاحِ أَعْلِيَهٗ ³	يَوْمَ اتْجِيَهٗ الْكَارِطَهٗ يَغْدَى مِنْ ثَمَّ

سَأَقُوْهُمْ سَوَقُ الْجَلْبِ مِنْ وَسْطِ اغْنَمِ وَالِي لِيَهٗ أَحْبِيْبْ دَارِ إِيْوَادِعْ فِيَهٗ⁴

إنه منظر مثير للشفقة، منظر مهول، يوحي بالظلم والجور وقسوة العدو وجبروته، ويعصف بمشاعر المودّع والمودّع معا. لقد أدرك هؤلاء الشباب مصيرهم المحتوم رغم أنه مصير مجهول لا تعرف له نهاية.

1- بُوَهٗ: أبوه. حقو: من حقه.

2- تَاكِيَهٗ: دعم ومساعدة.

3- الكارطة: كلمة أجنبية؛ تعني: البطاقة.

4- الجلب: القطيع من الخرفان، يُسَاق لبيع. در: من الدوران؛ التفت واستدار. إيوداع: يودّع.

إن هؤلاء الشبان المجندون هم رمز للحق الضائع والمصير المجهول، إنهم رمز للفرق والنأي والبعد والشوق الممزوج بالخوف والألم والحزن، هم رمز للحياة المجهولة والشقاء والرحيل. لقد شبههم بمجموعة خرفان وكباش أبعدت وحجبت عن بقية الغنم قصد بيعها، وسيقت بقوة فلا يحق لها حتى وداع أمهاتها إلا من خلال نظراتها البريئة التي تشع حيرة وحبا وحنانا وشوقا وحنينا.

أما الشاعر فإنه خاف أن يياغته الموت، ولن يستطيع بعدها رؤية وطنه وأهله، ولن يتمكن من العودة إلى أرضه الأم والتمتع بخيراتها والاستمتاع بجمال طبيعتها وأجوائها والنظر والتأمل في وجوه أحبائه وأهله وجيرانه. لقد شبه الشاعر فرنسا بالأفعى التي تلدغ صاحبها بكل مكر وخبت فتريده سقيما. يقول الشاعر في هذا المعنى:

خَفْتُ الْمَوْتَ أَتَفَوْتُ لِيَا تَغْرَمُ نَدِّي حَرْقَةً لِلْقَبْرِ وَأَسَافِرُ لِيَهْ
وَاشْ إِبْرَدْ لَدَعَةِ اللَّفْعَى بِالسَّمِّ بَعْدَ أَنْ يَبْرَى جُرْحَهَا وَأَتَخَافُ أَغْلِيَهْ

لم يخف الشاعر من الموت، لأن الموت حق؛ بل خاف من الذهاب إلى قبره دون أن يرى نور الحرية والاستقلال ودون أن ينعم بالسلام والهدوء والاطمئنان؛ ومرد ذلك إلى الأسباب التي ذكرها الشاعر في القصيدة ذاتها بعد أن أشار إلى حالته النفسية التعيسة:

أَلِي جَابَ الْقَوْلُ مَسْكِينُ امْحَيِّطْ وَأُنُورِيكَ سَبَائِبُ تَعْرِفُ مَا بِيَهْ

مَنْ جِيهَةٌ لَسَلَامٍ يَبْكِي وَيَخْمَمُ قَلْبُ سَافِرٍ رَاهُ مِنْ لَبْحُورِ الْهِيَهْ¹

ويختتم الشاعر قصيدته بدعائه للمولى عز وجل أن يعود كل غريب إلى دياره وأهله، ويتوسل إليه بالنبي محمد p وآله قائلا:

1- جبهة: جهة: ناحية. لسلام: الإسلام. يخمم: يفكر بحيرة.

يا ربّي يا خالقي وأنت ترحم
غيث الرّيعي وأرحموا واستجيب ليه¹
وأستودعتك مانتّي يا من ترحم
كلّ غريب ترجعو يغدى لأهليه²
وأجمعنا في يوم مبروك امعاهم
بجاء اسمك والنّبي الطّاهر وآليه

لقد وظف الشاعر رمز القبر في موضوع التجنيد الإجباري للشباب الجزائري من طرف الاستعمار الفرنسي للدلالة على المصير المجهول والحياة الغامضة القاسية والعدو الشرير الظالم الذي يسرق الفرحة من قلوب الخلائق ويزرع الحزن والألم بدلا عنها...

وفي لوحة رثائية مثيرة للشجن والحزن، يبكي الشاعر "عبد القادر العطوي" أحد كبار المجاهدين؛ إنه البطل "الشريف شنّوفي" الذي توفي بعد أن تتسم هواء الحرية والاستقلال. لقد أبكت موته ملايين الجزائريين، حيث ترك وراءه فراغا كبيرا بعد أن كان كالجبل الصامد في وجه الظلم؛ نصر الحق وأقام العدل، وكان قائدا من المستوى العالي؛ فصاحة وبلاغة وهنداما.

يقول الشاعر:

يا ضيمي فحلّ الفحولة عنا صدّ
خلانا عام السنّة نبكي تغراد³
نبكو بكي إيتيم باباه مسند
كي هزوه مرابعة قصدو للحاد⁴
بكي الزاهد كان في الخلوة يغبد
متمني لو كان فالدنيا ما زاد
بكي الحرة خايقة لا تتمرمد
من عينيها طالقة ربعة تعداد⁵
خلى ناسو فالمراسم تنفق
سجرة طاحت تيبس وراها لغضاد¹

1- غيث: غث؛ انصر وأعن.

2- مانتّي: أمانتي.

3- يا ضيمي: يا حزني: يا حسرتي.

4- بكي: بكاء. مسند: نائم. هزوه: حملوه. رفعوه. مرابعة: أربعة أشخاص. للحاد: جمع: لحد.

5- تتمرمد: تذلل وتهان. ربعة تعداد: أربعة دموع، والعبارة فيها مبالغة تدل على كثرة البكاء وشدة الحزن.

لَقَوْ يَلْعَلُ حَامِلِينَ مُتَقَيِّدًا	بَعْدَ أَمَاتُو عَادَ سَارِخٌ وَسَطُ أَجْلَادٍ ²
تَحْنُ عَلَيْهِ وَكَانَ سَاحَتَهَا يَرْقَدُ	يَتَنَطَّطُ تَلْقَاهُ زَاهِي فِي لَرْفَادٍ ³
بَيْنَ انْتَاوُ طَالِقُ الصَّوْتِ يَغَرَّدُ	يَتَسَابِقُ بِمَوَاجٍ مَا شَدُو شَدَادٍ ⁴
كِي جَاهُ التَّيْجَالِ سَاقُوهُ مَلَمَدٌ	قَدَّامُو وَ وِرَاهُ وَالسَّائِقُ جَلَادٌ ⁵
وَعَلَى أَفْرَاقٍ أُمُو تَنْفَذُ فِيهِ الْحَدُّ	حُكْمُ الْغَالِبِ مَا يَجِي فِيهِ اجْتِهَادٌ

لقد اهتم الشاعر كثيرا بمراسيم الجنازة وطقوسها، وضرب لذلك أمثلة مختلفة، وأعطى تشبيهات متنوعة، حيث سار الموكب الجنائزي نحو المثلوى الأخير لهذا البطل الفحل، وشيعت جنازته في مشهد مهيب، واستخدم الشاعر لفظة اللحد في صيغة الجمع (للحاد) للدلالة على عمق المأساة وشدة تأثيرها وسرعة انتشار خبر الوفاة وقوة الصدمة التي تلقاها الشعب عامة والشاعر بشكل خاص.

وزاد على ذلك أن استخدم الشاعر حرف الدال في كلا الشطرين كحرف رويٍّ للقصيدة، وهو حرف حلقي من حروف القلقلة، مما أضفى على القصيدة جواً من الجنائزية والمأساوية، ونقل بصدق مشهد العزاء والنّذب والتأبين، وذلك من خلال الصدى الذي يحدثه هذا الحرف عند النطق به وعند تكراره داخل الأبيات الشعرية وفي نهايات الأشرطة، ونلاحظ ذلك خاصة في هذه الأبيات المختارة من القصيدة، وهي الأبيات التي تشتد فيها الأزمة النفسية لدى الشاعر وتتعقد أكثر

1- سجرة: شجرة، يكثر سكان منطقة بوسعادة من قلب الحروف عند النطق بالكلمات. طاحت: عربية فصيحة؛ بمعنى: سقطت.

2- لقو: خرقان. يلعلع: يصدر أصواتا.

3- لرفاد: الأماكن المرتفعة.

4- انتاجو: أقرانه الذين هم في مثل سنه.

5- جاء: جاءه. التيجال: الأجل. ملمد: ملتف ومغطى بكفنه.

فأكثر لتصل إلى ذروتها فيحدث هناك صراع في ذهن الشاعر يجعله يطرح العديد من الأسئلة والتساؤلات على نفسه، ويحتد الصراع وتقوى شدته ويبلغ مداه الأقصى:

محتاجينك بيك عرشك متوحد	اترد الي راسهم يخطي لوساد ¹
كتب ربي دازها لغماز اتحد	والي لحتت ساعتو عنها ما زاد
ما جاتش بالجاء لينها نتودد	نمسد عنها كي العود الي شراد ²
ولا هي بالحرب نوقف لينها ند	انردوها غابة عدة وعتاد ³
ولا هي شازدة تهدا فاليذ	شاو الوهلة تعرف البطل الصياد ⁴
ولا هي بدموع نملا لينها سد	دموع العين نولدوها من لخباد
ولا هي بالمال نعطيهها وازيد	مهما تسوى نضاعفوها فالمزاد
لا هي فالدستور عنها نتمرذ	انحوها كيما تنحو بعض امواد
لا هي جات ثموت نوضع لينها حد	نحيي ذكرى كل عام مع لغياد

ولكن الشاعر لا يلبث أن يستيقظ من سباته ليدرك مدى غفلته وعمق حيرته، وسوء تفكيره، فيستغفر المولى عز وجل، ويعترف بالمصير المحتوم الذي ينتظر الإنسان مهما طال عمره وبلغ من القوة والسلطان.. ويحاول الشاعر -دائما- أن يستشهد بحجج لإقناع المتلقي. يقول الشاعر:

لكن هذي جات من عند المجهد	داز الموت ثموت بيها كل عباد
بونا آدم مات بغدو محمد	يا مفرزها قالها سيد لسياد

1- متوحد: موحد ومتماسك. شرح الشطر الثاني: عبارة تعني: يعيد الذين خالفوا الطريق الصحيح إلى طريق الحق والصواب.

2- ماجاتش: لم تأت. العود: الحصان.

3- نوقف: أقف. غابة: عطشى.

4- شاو: بداية: أول.

لا مخلوق يعيش فالدنّيا يخلد كلّ النّاس تموت تطلبها للحاد
اغفر ذنبي يا الله لا فتّ الحدّ طالب عفوك يا الكريم الجواد
القول الزّين يعيش من بعدي لأبد ويقولوها قال بن شراب الواد
والصّلاة على المكنّى بأحمد قدّ الدّم اليّ ففدنا فالجهاد

لم يصرح الشاعر بلفظ القبر؛ وإنما كنى عنه بعبارة (دار الموت)، واستعار - أيضا - لفظة (للحاد)، ورغم أن الشاعر يدرك وقع كلمة القبر وتأثيرها على جمهور المتلقين إلا أنه استخدم مرادفاتهما وما يدل عليها؛ ربما لأنه أدرك بفطرته أنها أشد وقعا وتأثيرا وأقوى دلالة من غيرها، فعبارة (دار الموت) تحمل في طياتها دلالات تؤكد بما لا يدع مجالا للشك حتمية الرحيل من دار الحياة الدنّيا والاستقرار في دار جديدة هي القبر، ويستشهد على ذلك بحجج عميقة الدلالة قوية التأثير؛ منها ذكره لسيدنا آدم - عليه السلام - باعتباره أول الأنبياء، وكذلك سيدنا محمد p آخر الأنبياء والرسل، حيث يذكّرنا الشاعر بوفاتهم، فإذا كان الرسل والأنبياء يموتون لا محاولة، فكيف بالبشر العاديين، لأنه وبكل بساطة:

لا مخلوق يعيش فالدنّيا يخلد كلّ النّاس تموت تطلبها للحاد

وفي سابقة من نوعها؛ يبكي الشاعر العاشق محبوبته ويرثيها كأنه يرثي أمه التي رآها تهوي في قبرها أمام عينيه لأول مرة. إنها لوحة رثائية مثيرة للشجن وصورة فنية بديعة أن يشبه الشاعر حالة هيامه وغرامه وولعه الشديد وشوقه العنيف وبكائه الدائم من أجل محبوبته بحالة من ماتت أمه وهوت في قبرها بين يديه. لقد بكأها بكاء شديدا ولا صبر له على فراقها. يقول الشاعر معبرا عن هذا المشهد المحرك للعواطف، المثير للأسى والحزن واليأس:

يبكي بكّي ايتيم شاف أمّو تهوى ردموها فدّام عينيّه ومشاو

لَا بَا يَصْبِرُ كِي تَفَكَّرَهَا غَدْوَةً شَطْنُ حَالَةٍ خَاوَتُو مِنْ بَعْدِ نَسَاوٍ¹

توحي الأفعال التي وظفها الشاعر في البيتين (بيكي، شاف، تهوى، ردموها، مشاو، لا با يصبر، تفكرها، شطن، نساو) بالحالة النفسية السيئة للشاعر؛ حيث شبه وضعه هذا بوضع من فقد أمه فصار يتيما بين ليلة وضحاها. إنها أفعال تدل على النهاية المأساوية والمصير الأخير لهذه الأم ولغيرها من بني البشر، وترتب أحداث هذا الطقس الجنائزي حسب ما هو متعارف عليه منذ خلق الإنسان ونزول آدم وحواء -عليهما السلام- إلى الأرض، وقتل قابيل لأخيه هابيل وحيرة قابيل بعد ذلك وندمه وبكائه ثم قيامه بدفن أخيه هابيل، وهذا ما ورد في قوله تعالى: {وَإِثْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ {27} لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ {28} إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ {29} فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ {30} فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ {31}}².

لقد لعب حرف الواو كحرف روي للقصيدة دورا هاما؛ حيث أعطى نفسا طويلا للشاعر للتعبير عن حزنه العميق وألمه الشديد، وآهاته وزفراته التي أطلقها بحرارة العاشق الولهان المتيم، ومن جهة ثانية تحمل الواو كحرف مدّ وروي في البيتين السابقين دلالة الهبوط والانحدار والانزلاق نحو القاع والابتعاد والفرق

1- معنى الشعر الثاني: جعل إخوته يتذكرون فيضطربون ويحزنون بعدما نسوا الأمر.

2- سورة المائدة: الآيات (27، 28، 29، 30، 31).

الأبدي والنأي طويل الأمد، وما ينجرّ عن ذلك من شوق وحنين ولوعات متواصلة.

وعلى خلاف الدلالات السابقة للموت والقبر واللحد، نجد جده الشاعر تتمنى زيارة قريبة للمنية، وتدعو المولى عز وجل في وحدتها المؤلمة أن يغفر لها ذنوبها التي تابت منها وأن يرحمها برحمته الواسعة ويسكنها فسيح جناته وأن يجعلها بجوار سيدنا محمد p وكأن القبر بالنسبة للجدة هو بيتها الثاني، وكأنها تعلم بمصيرها، وهي متأكدة بأن حياتها الثانية ستكون أجمل وأهدأ. يقول الشاعر على لسان الجدة:

وَيَكْتُ يَا رَبِّي نَشُوفُ الْمَنِيَّةِ
لَيْلَةُ قَبْرِي تَكُونُ كَحَلَّةِ ظَلْمِيَّةِ
ذِيكَ اللَّحْظَةِ يَا اللَّهُ لَطْفُكَ بَيَّا
تَابَ

سَهْلٌ يَا مُجِيبُ عَنِّي بِالْجَوَابِ¹
مَلِيكَ السَّوَالِ مَا يَغْرِفُ تَرْطَابِ²
يَسَّرَ عَن ضَعِيفٍ مِّنْ ذُنُوبِ

اجْعَلْنِي بِجَوَار سَيِّدِ الْأَنْبِيَا
يَا وَيْحَ الْيِّ دَارِ شَرِّ وَخَطِيَّةِ
وَيَا سَعْدَ الْيِّ دَارِ وَعَمَلِ بِالنِّيَّةِ
يَرْبِخُ مَوْلَ الْخَيْرِ فِي ذِيكَ وَذِيَّةِ

مَحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ زَيْنُ الْمَحْرَابِ
لَا فَكَّاكَ يَفْكَ مِّنْ ذَاكَ الزَّرْدَابِ³
حَيَاتُو تَرْيَانِ عَنْ آخِرِ وَاعْقَابِ
يَلْقَى الْجَنَّةَ مُفْتَحَةً فِيهَا لِبَوَابِ

الجدة - حسب الأبيات السابقة - تعرف بأن القبر (زرداب) مظلّم، موحش، مخيف، ضيق ولا عودة منه، ولكنها كانت تدرك تمام الإدراك بأنه

1- ويكت: متى. نشوف: أرى.

2- ترطاب: غش وتزييف وخداع بكلام حسن ونفاق.

3- الزرداب: الحفرة العميقة.

سيتحول إلى جنة مضيئة، مؤنسة، مريحة وواسعة عند دخولها إليه ووضعتها فيه لأول مرة حيث ستقضي هناك ليلتها الأولى في حياتها الثانية.

القبر حسب هذه الجدة إذاً؛ هو رمز للسعادة في الحياة الآخرة؛ حيث يعد القبر هو المستقر الأول الذي يستقبل الميت عند دفنه ويضمه ويحتويه. إنه مكان للراحة الأبدية بعد أن يعيش الإنسان حياة دنيوية مليئة بالخير والعمل الصالح وعبادة المولى عز وجل وحسن التعامل مع عباده، لأنه سيفوز بالجنة في آخر المطاف.

القبر بالنسبة لهذه الجدة التي عاشت حياتها وأفنت عمرها في طاعة المولى سبحانه وتعالى وخدمة عباده هو الملاذ الأخير وهو الملجأ المبتغى وهو الهدف المنشود لأنه في نظرها يحمل دلالات الراحة والسعادة والهدوء والسكينة والدفء والاطمئنان والبعد عن ضوضاء المدينة وشرور البشر وأحقادهم وخبثهم وزيفهم ونفاقهم وظلمهم.

وهذه الدلالات نفسها أشار إليها الشاعر "أحمد وليد بن القبي" في قصيدة زيارته إلى فرنسا؛ حيث عبّر الشاعر عن شوقه وحنينه لأبناء قومه وأهله، وأراد في آخر قصيدته أن يودّعنا ويودّع المتلقين وداعاً أخيراً وأن يطلب المغفرة من المولى عز وجل لنفسه وللأمة الإسلامية جمعاء. يقول الشاعر في نبرة حزينة خاشعة متوسّلة:

سَعْدَ الْيَ زِينَةُ أَقْوَالُو وَأَفْعَالُو

وَلَيْدُ أَحْمَدُ جَابُ ذِ النَّشْدُ وَقَالُو

حُضَّارُ وَغِيَابُ وَالْيَ مَزَالُو

وَإِذَا مَتْنًا رَائِحِينَ لَذِيكَ الدَّارُ

وَاعْفُرْ يَا رَبِّي لَلِّي نَازِمٌ لَشُعَارُ

وَاعْفُرْ يَا رَبِّي لِأُمَّةِ الْمُخْتَارُ

رمز الشاعر "أحمد وليد بن القبي" للقبر بكلمة "الدار" باعتبار القبر داراً ثانية للإنسان، لا بد له من الاستقرار فيه إلى قيام الساعة؛ إنه يدرك تمام الإدراك بأن

راحته لن تكون سوى داخل ذلك القبر (ذيك الدار)، ولا فرق عند الشاعر بين الدارين؛ دار الدنيا ودار الآخرة، لأنه سيكون حيا في كلتا الدارين، لذلك لا يخاف الشاعر من الموت ولا يعتبرها عقدة حياته كما يفعل بعض البشر الذين تخونهم قوة إيمانهم، وتعصف بهم رياح الشهوات فيعشقون الحياة الدنيا حتى النخاع، بل يحاول الشاعر أن يتعايش مع غربته وأن يجد لحزنه ويأسه وشوقه واعتصار قلبه مهريا يوهم به نفسه، ويفتح لها من خلاله أبوابا من الأمل والرجاء:

إِذَا كَتَبَ رَبِّي طَوْلَ فِي لَعْمَارٍ نَعْيًا فِي وَطَنِي وَلاَزِمَ نَعْنَالُو¹

والم تأمل في الأبيات السابقة التي تخص القبر كرمز ديني يلاحظ أن شعراء منطقة بوسعادة في توظيفهم لهذا الرمز يجعلون له دالتين: الدالة الأولى تتمثل في مظاهر الحزن والتشاؤم والألم والبكاء وباختصار شديد؛ إنها تضم كل مظاهر الطقوس الجنائزية، وذلك حينما يتعلق الأمر بوجود ميت يرثيه الشاعر.

أما الدالة الثانية فتتمثل في مظاهر الراحة والاطمئنان والهدوء والسكينة والإنابة والرجوع، وذلك عندما يتعلق بالأمر بمن يتمنى الموت لنفسه حتى ولو كان الشاعر ذاته. إنها مفارقات الموت والحياة.

هذه المفارقات هي نفسها التي جعلت الشاعر "أحمد وليد بن القبي" يرتاح راحة نفسية عميقة عندما يتحدث عن الموت والقبر ويخص نفسه بذلك، ولكنه يستاء ويحزن عندما يكون الميت شخصا معروفا فنجد أنه يبكي فقد والده بكاء شديدا، ويجزع بعد دفنه جزعا عميقا، كيف لا وقد كان هذا الأب يضيء ليل الشاعر، وبعد رحيله صار الكون مظلمًا كئيبًا، وصارت الحياة موحشة قاحلة!؟

1- نعيًا: أصلها: أن أعيًا، وهي عبارة تفاؤل تعني: مهما طال الزمن سأحقق ما حلمت به وطمحت إليه. نعنالو: أقصده وأذهب إليه.

يحاول الشاعر "أحمد وليد بن القبي" أن يوصل إلينا مشاعره الحزينة وأن يقنعنا بصعوبة الظروف بعد وفاة أحد الوالدين أو كليهما.. وبعد أن كان الشاعر ينعم بخنان والده وعطفه وحبه ويشعر بالدفء بين أحضانه هاهو اليوم يبكي وحيدا غريبا حتى عن نفسه:

عَلَى قَيْلَةٍ حَسَيْتُ كَافٌ عَلَيَّ رَابٌ	وَأَتَزَلُّزُ حَجْرُو بِشَجْرُو غَطَّانِي ¹
ذَاكَ السُّورَ الِّي مَقْدَرٌ صَارَ تَرَابٌ	وَأَعْقَبُ مَنُو رِيحٌ كَاسِحٌ قَوَّانِي ²
نَلْقَى رُوحِي فِي قُلَالَةٍ يَا لِحُبَابِ	عَرِيَانُ مِنَ الثَّوْبِ لَا مِنْ غَطَّانِي ³
الْيَوْمَ الِّي صَدَّ عَنِّي فِيهِ الْآبُ	وَأَسْكُنُ فِي دَارِ الظُّلَامِ وَخِلَائِي ⁴
وَأَزْدَمْنَاهُ وَدَرْتُ عَنْهُ طَرْفُ تَرَابٍ	وَأَتَفَرَّقُو لِحُبَابٍ وَاحِدٌ مَا جَانِي ⁵

1- على قيلة: فجأة. كاف: جبل. راب: تساقط وانحدر.

2- مقدر: متين. اعقب: مرّ. كاسح: قوي وقارس. قواني: أشعرتني بالبرد.

3- قلالة: خلاء وقفار.

4- خلاني: تركني.

5- درت: وضعت. طرف: قليل. بعض: جاني: جاءني.

بَقِيْتُ أَنَا وَخَدِي نَقَاسِي فَالْعَذَابُ وَأُذْمَعِي مِنْ كُلِّ جِيهَةٍ وَيَدَانِي¹
وَأَتَمَسَّى ذَاكَ الْقَمَرَ غَطَّاهُ سَحَابٌ وَظَلَمْتُ عَنِّي الدُّنْيَا مَقُونِي²

القبر في توظيف الشاعر "أحمد وليد بن القبي" - حسب الأبيات السابقة - هو رمز ديني يحمل دلالات متنوعة وعديدة ولكنها تصب كلها في منحى واحد؛ هو النهاية الحتمية للإنسان، وهو الدار الثانية للميت، دار ظلام أو دار نور حسب عمل الإنسان في دنياه، وباختصار شديد؛ القبر هو النار أو الجنة.

3.3 - الجنة:

تعدّ الجنة مكانا مثاليا، وهي النهاية الجميلة لكل إنسان صالح قضى عمره كله في انتظار دخولها والتمتع بخيراتها، والاستقرار بها. إنها رمز للحياة السعيدة التي ما انفك الإنسان يرجو الوصول إليها، ويتلهف إلى بلوغ درجاتها، وقد وظف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة الجنة بشكل مميز يوحي بنزعتهم الدينية الواضحة ويؤكد ميلهم الدائم إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ويبدو أن هؤلاء الشعراء يملكون ثقافة واسعة وعميقة فيما يخص المجال الديني، كما أنهم يرتبطون تلقائيا بأصل نشأتهم من حيث المكان.

لقد عاش آدم وحواء - عليهما السلام - في الجنة، حيث كانا ينعمان بخيراتها؛ ولكن المولى عز وجل أراد لحكمة ما أن يهبطا إلى الأرض بعدما أقنعهما الشيطان بالأكل من الشجرة التي منعهما الله أن يقتربا منها، حيث قال المولى تبارك وتعالى: {وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا

1- ويداني: وديان.

2- اتمسى: غاب في زمن المساء. مقواني: أصلها: ما أقواني! وهي عبارة تطلق عند سكان منطقة بوسعادة لإظهار الصبر.

رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ {35}
فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ {36} فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ
رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {37} قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا
جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ {38}.

فالجنة في أصل الكون هي المقر الأول للإنسان ومستودعه، لذلك لن
يكون غريباً أن يقدها الإنسان ويوظفها الشعراء في قصائدهم متخذين منها
مرجعاً يعودون إليه كلما ضاقت بهم السبل وأغلقت في وجوههم الأبواب.
لقد أشار الشاعر "عبد القادر العطوي" إلى الدلالات السابقة في آخر بيت
من قصيدته التي عالج فيها موضوع كبر السن ونتائجه وأتعبه وعواقب ذلك على
الفرد المسن ومن حوله.

يقول الشاعر على لسان جدته التي تختم القصيدة قائلة:

يَرْبُحُ مَوْلَى الْخَيْرِ فِي ذِيكَ وَدِيَّةٍ يَلْقَى الْجَنَّةَ مُفْتَحَةً فِيهَا لِبُوابٍ²

ثم يصف الشاعر الجنة ومغرياتها في قصيدة "قصة شهيد"، محاولة منه
لإيجاد مقابل موضوعي للعمل في الحياة الدنيا وجزأؤه في الآخرة. يقول الشاعر
متحدثاً عن "احميدة" البطل الشهيد:

آمَرْنَا نَنْسَاخِبُو نَفْسُو سَبَلٍ الْمَوْتُ فَرِيدٌ وَفِيهِ تَتَعَدَّدُ لِسَبَابِ
الطَّيْرِ الْحَرِّ إِذَا قُبِضَ مَا يَتَذَلَّلُ مَوْتُ الْعِزَّةِ خَيْرٌ مِنْ عَيْشَةِ الْكَلَابِ

1- سورة البقرة، الآيات (35، 36، 37، 38).

2- مول: أصلها: مولى: صاحب. ذية: هذه.

كُلُّ النَّاسِ تَمُوتُ مَحْدُودُ الْأَجَلِ وَأُحْمَدُ تَمُتُ سَاعَتُو صَكَّرَ لِكُتَابٍ¹
 جَنَّةُ الْفَرْدُوسِ فِيهَا يَسْتَاهِلُ حَوْرِيَّاتٍ مَعْرُوسَةٌ فَتَحَتْ لِبَوَابٍ²
 وَقُرَابُو سَبْعِينَ ضَمَنُوا ذَ الْمَنْزِلِ مَا تَحْرَمُنَا يَا اللَّهُ مِنْ ذِ النَّصَابِ³

جنة الفردوس هي الحياة الثانية للشهيد "احميدة"، وهي أجمل مكان يجازى به كل شهيد قضى نحبه في سبيل الدفاع عن الدين الإسلامي والأرض والوطن والعرض. إنها المكان الأسمى الذي يمكن أن يتصوره خيال أي بشر، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال أحد، وفيها حور العين اللواتي ينتظرن هؤلاء الشهداء.

ونفس الدلالات نجدها عند الشاعر "السعيد بوعشرين" الذي فجر حزام الشهيد (محزمة الشهيد) ما بداخله من عواطف الحزن والألم والندم والأسى، فجعل يخاطبه ويبعث من خلاله رسائل وتحايا تحمل الكثير من الفخر والاعتزاز والاحترام لهذا الشهيد الممدد داخل ضريح في جبل زاره الشاعر فجر يوم من الأيام:

بَدَيْتُو بِالسَّلَامِ، وَنَهَلْتُ كَبَّارَ نَدْعِي لِلْإِلَهِ فَالْجَنَّةِ يَخْضِيهِ
 نَطْلُبُو فِي رَحْمَةِ الرَّبِّ الْغَفَّارِ يَسْكُنُ فِي فِسْحِ فَرْدُوسٍ إِيْعَلِيهِ

ورغم أن الشاعر لا يعرف صاحب هذا الضريح إلا أنه تواصل معه كمواطن جزائري صالح باع الدنيا واشترى الآخرة، وضحى بحياته من أجل وطنه ودينه وشرفه وعرضه، فبالجنة الفردوس رفقة الأنبياء والرسل والصديقين والصالحين.

1- صكر: أغلق.

2- معرسة: اسم فاعل بصيغة المؤنث من الفعل عَرَسَ بمعنى أقام عرسا.

3- قرابو: قرابته.

لذلك خاطبه الشاعر بشكل يوحي بالطمأنينة والراحة والثقة الشديدة
بالمصير الجميل، السعيد والمريح الذي سيناله هذا الشهيد وغيره من أبناء هذا
الوطن:

أزقذ يا شهيدنا ناسك ثوّار
واتّعم في جنّتك قلبك هنيئ¹
وآرحم يا ربّي الشّهدا لحرار
منّ خلاؤ لجيلنا فخر امزهيئ²

الجنة حسب الأبيات السابقة هي رمز للحياة السعيدة، حياة النعيم التي
تنتج عن أجر الجهاد وثوابه وجزاء الدفاع عن الدين والأرض والعرض والأخلاق
والمبادئ. إنها المكان/الحلم والطموح والهدف المنتظر.

وقد تكون هذه الجنة/الرمز في الحياة الدنيا؛ وذلك من خلال السفر إلى
موطن الرسول محمد P والوقوف على مآثره وتذكر أمجاده وإحياء سنته بالقيام
بمناسك الحج أو العمرة. ويعتبر هذا المطلب من أهم المطالب التي يرغب كل
إنسان مسلم أن ينالها في حياته ولو مرة واحدة في العمر.

وهذا ما نلمسه في آهات الشاعرة "الزهرة اشويحة" التي لطالما رغبت في
تحقيق حلمها وزيارة ذلك المكان المقدس ورؤية ذلك النور الذي يعم أرجاء الحرم
المكي ويشعّ بفيض من الخشوع والخضوع والإيمان. إنه جو روحاني يتسم الحاج
أو المعتمر عطره بمجرد عقد السفر للتوجه إليه. تبكي الشاعر حظّها التاعس
وشوقها المضني وقرها الشديد قائلة:

قلبي اهبل ما هنائي
وعلى الرسول الشوق افناني³

1- هنيئ: فعل أمر؛ ماضيه: هني، بمعنى: أسعد؛ أراح

2- امزهيئ: مفرحة.

3- ماهناني: لم يرحني.

يا لِيَعْتِي وَكُثُرْ امْحَانِي وَمُشْنَهَابٌ خَاطِرِي مَشْعُولٌ¹

قَلْبِي أَهْبِيلُ

مَصَابٌ حَالَتِي تَتَّيَسَّرُ وَأُنْسِيرُ وَلَا نُزِيدُ انْفَكَّرُ²

رَبْحِي بَزُورَةِ الْمَنُورِ جَنَّةٌ وَبَابُهَا مَخْلُولٌ³

الجنة التي تتمناها الشاعرة "الزهرة اشويحة" هي زيادة مقام الرسول محمد p واستنشاق سيرته العطرة، ورؤية قبره الكريم والصلاة عليه عند الوقوف بجواره. إنها أهم أمنية حضنها قلب الشاعرة، وهي حسب الشاعرة جنة الله فوق أرضه، وبابها مفتوح على مصراعيه فلا حدود لداخلها ولا عدّ لهم.

الجنة إذا؛ جنتان؛ جنة فوق سطح الأرض، يعيش الإنسان مراحلها في دنياه، ولكل إنسان تصورا معيناً عن جنة حياته الدنيا التي حلم بها وأراد تحقيقها وعيش تفاصيلها بكل صبر وأمل وترقب وانتظار. وجنة يرسم الإنسان معالمها في ذهنه ويتصور محتواها عبر ذاكرته ويعمل الصالحات من أجل الفوز بها في آخرته. وقد عرف الإنسان المسلم ذلك من خلال القرآن الكريم، حيث ذكر المولى عز وجل ذلك في الكثير من الآيات والسور، منها قوله تعالى: {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}.⁴

وللجنة درجات جعلها المولى عز وجل لعباده الصالحين، وذلك حسب أعمالهم في الحياة الدنيا وحسب تقواهم وعباداتهم وأخلاقهم. وشعراء القصيدة

1- ليعتي: لوعتي.

2- مصاب: عبارة يطلقها سكان منطقة بوسعادة للدلالة على التمني؛ وهي تعني تقريبا: ليت. وأصلها: ما صاب، ويتم تصريفها حسب الحاجة.

3- زورة: زيارة.

4- سورة مريم: الآية (63).

الشعبية في منطقة بوسعادة يعرفون بأن الجنة هي دار السعادة والأمان والراحة والرضا والقناعة والسلام.

وهذا الشاعر "محمد الريغي شبيبة" رحمه الله يرثي صاحبه الشيخ الذواذي بعلي رحمه الله -ويدعو رافعا يديه إلى المولى عز وجل بأن يسكنه فسيح جناته ويجعله جارا للرسول محمد ρ في قصر مشيد، فهو يعتبره من عباد الله الصالحين الذين {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ}.¹

يقول الشاعر "محمد الريغي شبيبة" في ختام قصيدته:

يا ربّي جور ذ السيّد واجعله جاز مُحَمّد

في قصر ايكون مشيد بقُرب اجَنّانِ رضوان²

ومن شدة حبّ الشاعر لصاحبه يتمنى له الأفضل. إنه يتمنى له الاستقرار في أحد قصور الجنة، وهي أقصى أمنية يتصوّرها الإنسان ويحاول الوصول إليها ويتمناها لغيره ممن يحبهم.

وتبقى الجنة رمزا لحياة غيبية سعيدة، جميلة، مريحة، هادئة، مستقرة، منظمة ومثيرة بما تتوفر عليه من خيرات وأرزاق حضرها المولى تبارك وتعالى هدية لعباده الصالحين المتّقين. ومهما قيل في وصف الجنة وأبوابها ومراتبها ودرجاتها ونعيمها فلا بد أن هذا الوصف سيبقى مجرد تصورات رسمها الإنسان في خياله من خلال ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولكن الجنة في واقع الأمر لا يعلم حقيقتها إلا الله الواحد الأحد.

1- سورة التوبة: الآية (21).

2- جور: أجر. رضوان: اسم خادم الجنة. الرضا الكثير والقناعة.

4.3 - الكتاب:

استخدم شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة لفظة الكتاب بشكل واسع يوحي بامتلاكهم ثقافة دينية عميقة لا تقتصر على المعاملات والعبادات بل تتعدى ذلك لتغوص داخل ثنايا القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

لقد وظف هؤلاء الشعراء لفظة الكتاب للدلالة على القرآن الكريم تارة أو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف تارة أخرى، وقد يدل على الكتب المؤلفة من طرف أصحابها مثل كتب السحر والشعوذة أو الدواوين الشعرية والكتب الأدبية والمصادر والمراجع، وقد يدل على حياة النساء المعقدة وعلاقة ذلك بتجارب الشاعر معهن، ويمكن أن يدل على كتاب الإنسان الذي تجمع فيه حسناته وسيئاته يوم تقوم الساعة، وقد يدل عند بعض الشعراء على أجل الإنسان ونهاية حياته بغلق الكتاب عند إنهاء القراءة.

وهذا الشاعر "عبد القادر العطوي" في قصيدة "الجدة" يعطي نموذجا عن الفتاة الصالحة التي تطيع ربها وتحاول إرضاء والديها وأهلها وكسب ثقة زوجها بعد ذلك. إنها المرأة المثال والنموذج الرائع للأنوثة في أجمل معانيها وأنقى صفحاتها وأسمى صورها.

يقول الشاعر معبرا عما سبق:

كِي بَانَ كَبْرِي فِي الْجَسَدِ وَالْعَقْلِيَّةِ	اتَّحَبَّبْتُ وَخَاوْتِي عَنِّي رُقَابُ
سُبْحَانَ اللَّهِ خَالِقِي عَالِ الْعُلْيَا	حُكْمَةُ رَبِّي بَاهُ تَتَخَالَطُ لِنَسَابِ
الزَّوْجَةِ لِلزَّوْجِ سُنَّةَ لَنَبِيٍّ	اِثْنَوْرُ يَا بَيْتَنَا جَاكَ الْخُطَابُ ¹
قَرَأُوا الْفَاتِحَةَ وَجَابُوا هَدِيَّةَ	إِذَا خَرَجْتَ لِبُسُوها ذِ الْحَبَابِ

1 - لنبيا: الأنبياء. جاك: جاءك.

ليلة عرسي جات بمرار عليّ خلّيت وكري زايد الخاوة والآب¹
 ليلة عرسي جات بالفرحة ليّا يحمل دينك كي تفوت مع ذ الباب
 امعاشرة لغباد ما هم غاشيا مكتوب الله سافني هاكذ لسباب²
 وليت ضيفة في ديار اماليه اتحببت على الجيران ولحاب
 حتى اهلي ولأولي برانيّة يا بني عمي بينا سنة وكتاب³
 وتمنيت تكون عندي ذرية فرج يا ربي ونبدا بالانجاب

وظف الشاعر لفظة "كتاب" في الأبيات السابقة على لسان هذه الفتاة/الجدة للدلالة على القرآن الكريم الذي يحرم فيه المولى عز وجل على المرأة الاختلاء بالأجانب ومنهم أبناء العم وشباب العائلة الذين ليسوا من محارم المرأة ولا يجب أن تختلط بهم لأن في اختلاطها بهم من غير حضور محرم يشكل خطرا عليها.

لقد عرفت هذه الفتاة منذ وصولها إلى سن البلوغ أنها لؤلؤة لا يجب أن تمس بأذى، لذلك حافظت على شرفها وشرف والديها وأهلها ولم ترض إلا بالزواج في الحلال وقد قرن الشاعر لفظة "كتاب" بلفظة قريبة هي "السنة" التي هي أقوال الرسول p وأفعاله وتقاريره.

السنة والكتاب حسب توظيف الشاعر هما رمز للحياء والعفة والستر والحجاب وصفاء السريرة ونقاء القلوب واحترام الأنثى للذكر وتقديس الذكر للأنثى وحفاظه عليها وحمايته لها. إنهما رمز للطهارة والحب واستمرار الجنس البشري وتواصل الحياة على هذه الأرض. إنها الحكمة الإلهية التي تقتضي أن لا تختلط

1- بمرار: بمرارة. الخاوة: الإخوة.

2- غاشيا: أهلي.

3- ولأولي: صاروا بالنسبة إليّ. برانية: أجنب.

الأنساب، وحتى يحافظ الإنسان على نقاء العرق البشري وعلى الأصل الإنساني الصافي من الشوائب والأخطاء والأمراض.

وفي قصيدة رثاء للشاعرة "الزهرة اشويحة"، قامت فيها بتوظيف رمز الكتاب للدلالة على القرآن الكريم وكلام المولى عز وجل. تقول الشاعرة:

يا مولى الكتاب وَاللَّفْظُ الْمُقْبُولُ فَكَّرْنَا بِأَمُورِ كَدْنَا نَنْسَاهَا

لقد رثت الشاعرة أبناء بلدتها الذين اغتالتهم يد الإرهاب، فدعت المولى سبحانه وتعالى أن يخفف وطأة الحزن والألم عنها وعن أهالي هؤلاء المغتالين وأن يرفع هذا البلاء عن الجزائر وعن أبنائها المخلصين البررة. والكتاب في بيت الشاعرة هو المصحف الشريف وهو رمز للإخلاص والوفاء وحب الله وحب الوطن والتضحية بالنفس من أجل العيش الكريم والحفاظ على الدين الإسلامي وعلى المسلمين وعلى الأرض والعرض والوطن والحياة الكريمة.

أما الشاعر "محمد الريغي شبيبة" - رحمه الله - فقد وظف لفظة "الكتب" بالجمع للدلالة على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، بالإضافة إلى بعض الكتب التي جاء فيها وصف الجنة التي استعارها الشاعر ليشير بها إلى حياة "أولاد نايل" وصفاتهم وأخلاقهم وطريقة عيشهم في حلهم وترحالهم. يقول الشاعر واصفا هؤلاء القوم:

الْقَوْمُ اتَّزَقَبُوا وَالْمَرَا حُلُّ اتَّعَقَبُوا
خَرَّ إِشْيَبُ شَانُ رَبِّي غَلَّاهُمْ¹
نَجْعُ امْعَمَّرَ فَازَ بِالنِّيَّةِ وَالسَّرِّ
عَزَّ الْبَايِرُ خَا طَرِي مَا يَنْسَاهُمْ²
فَالُ الْمَرْضَى خَا طَرِي بِيَهُمْ يَرْضَى
نَوْمِي يَقْظَةُ نَيْتِي فِي رِضَاهُمْ³

1- المراحل: جمع المرحول: القافلة. اتعقب: تمر متعاقبة. خر: البشر والأنعام.

2- السر: الجمال والجاذبية.

3- فال: فأل.

الّي صابح نجعهم لأبد يربح قلبو يفرح كي يتفاول بسماهم¹
وصف الجنة هاندا كيما شفنا وانتظرنا في الكتب وأقريناهم²

شبه الشاعر "محمد الريغي شبيبة" قوم أولاد نايل (نجع أولاد نايل) بالجنة من حيث صفاهم وعاداتهم وأخلاقهم ولباسهم ودوابهم وعباداتهم ودينهم وألعابهم وهواياتهم وحياتهم وجمال نسائهم وحسن أخلاقهن وعفتن وطهارتن وطاعتن لأزواجهن وقيامهن بكل ما يرضي الآباء والأمهات والأزواج والأبناء والبنات والمجتمع ككل.

والمأمل في قصيدة الشاعر سيفاجاً ويعجب بذلك الوصف البديع، الجميل والدقيق لهؤلاء القوم. إنهم أهل الجنة فوق سطح الأرض، كيف لا؟! وقد انتشرت سيرتهم في كل الآفاق وجالت شهرتهم في كل الأقطار، وهذا ما وضحته الكتب التاريخية التي تعرف بهؤلاء القوم وبجدهم الأول "سيدي محمد نايل".

هذه الكتب إذاً؛ وحسب توظيفها من طرف الشاعر هي رمز للتاريخ العريق الذي يفوح بعطر الكرم والجود والخلق النبيل، ويفيض بالجمال والحب والأمن والسلام والحياة السعيدة الهادئة الهانئة.

ويعاتب الشاعر "السعيد بوعشرين" المتلقين ويدعوهم إلى طاعة الوالدين، ويذكرهم بضرورة احترام الآباء والأمهات وتقدير تعبهم وشقائهم، كل ذلك في قصيدة رائعة جمعت بين الرثاء والوصف والعتاب والحزن والألم والأمل والذكرى. يقول الشاعر:

عزّ الوالدين ما عندوش احساب في الدنيا مفقود مطوي كتابو
أرحمهم يا خالق الكون الوهاب بين المرحومين والي هم تابو

1- نجعهم: النجع هو القبيلة. يتفاول: يتفاعل.

2- انتظرنا: نظرنا ودققنا وتفحصنا.

"الكتاب" لدى الشاعر "السعيد بوعشرين" هو رمز للحب الذي يجب أن يكتّنه الأبناء لأبائهم وأمّهاتهم، وهو رمز للطاعة التي صارت نادرة الوجود في عصرنا هذا -حسب الشاعر- ورغم ذلك فمحبة الأبناء لوالديهم وطاعتهم هي فطرة في الإنسان منذ ولادته، حيث ينشأ الطفل على هذا الحب والاحترام والتقدير والعرفان منذ صغره، وهي صفة بثها المولى عز وجل في الإنسان لحكمة إلهية تتمثل في دوام الجنس البشري واستمرار التواصل بين أفراد هذا الجنس، وحصول الألفة بينهم من خلال التقارب والتلاحم والتواد، ولكن الشاعر يرى أن حب الوالدين في زمننا هذا هو عملة نادرة وصفة مندثرة، فلا أحد يحسب له حساباً. فقد طُوِيَ كتابه.

لقد شبه الشاعر علاقة الحب المقطوعة بين الأبناء وآبائهم وأمّهاتهم بالكتاب الذي طويت صفحاته، فلم يعلم ما هو مضمونه ولا ما هو محتواه. الحب إذاً؛ كتاب مفتوح لا يغلق إلا إذا فقد هذا الحب وتلاشى الإحساس به.

والحياة - أيضاً - كتاب مفتوح لدى الشاعر "البشير قذيفة" حيث يدل عنده على أحوال البشر وظروفهم وتقلبات شخصياتهم وخاصة شخصيات النساء منهم. يصف الشاعر النساء على اختلاف أشكالهن وأصنافهن وأنواعهن وشخصياتهن وتصرفاتهن وأقوالهن وأفعالهن في قصيدته "الساعة" التي ضمّنها صرخة محبّ عاشق يتلوع من شوقه وحنينه للفتاة التي أحبها حبا مجنوناً ولكنها هجرته، فراح يصنّف النساء ويصفهن وصفاً دقيقاً.

وَتَخْتَلِفُ حَتَّى النِّسَاءِ رَيْمٌ وَبُقْرَةٌ	بَحْرَهُمْ غَامِقٌ كُلُّ مَنْ طَعَنُوا يَدِيَهُ ¹
وَحَدَّةٌ بَنَتْ أَصُولَ تَحْشَمٍ مِنْ خَزَرَةٍ	وَحَدَّةٌ بَاعَتْ أَصْلَهَا مَا سَالَتْ فِيهِ
وَحَدَّةٌ مِثْلُ اغْزَالٍ تَسْلُبُ مِنْ نَظَرَةٍ	بَشَوْفَةٍ مِنْهَا كُلُّ مَجْرُوحٍ اتِّدَاوِيَهُ

1- ريم: نوع من الغزلان.

وَخَدَةَ عَابِرٍ سَابِقَةَ مِثْلِ الْمُهْرَةِ	رَاكِبَهَا مَا تَهْرَبُ الْفَرَسَانِ اَعْلِيَهُ ¹
وَخَدَةَ بَغْلَةٍ تَكْرَهُكَ فِي كُلِّ امْرَا	يَخْصَلُ مُوَلَّاهَا الْحَالُ اِيْرُوْخَ عَلَيْهِ
وَخَدَةَ عَارِمٍ غَالِيَةٍ مِثْلِ الدَّرَةِ	وَخَدَةَ عَقْرَبٍ كُلِّ مَنْ جَاَهَا تَاذِيَهُ ²
وَخَدَةَ تَخْدَعُ كَيْفَ تَظْهَرُ مِنْ بَرٍّ	وَهِيَ لَفْعَةٍ سَمَّهَا لِيكَ اِتْوَالِيَهُ ³
وَخَدَةَ فِي عَيْنِكَ تَشْبَهُ لِلزَّهْرَةِ	رِيحَتْهَا مِنْ مَسْنُكَ وَالْعَنْبَرُ تَغْطِيَهُ
وَوَخَدَةَ كُلِّ اَلِيٍّ عَشْفَهَا يَتَعَرَّى	وَيُعْذُ تَوَلَّى تَكْرَهُهُ كَامِلٌ تَنْسِيَهُ ⁴
وَخَدَةَ وَسْطَ الْبَيْتِ دِيمَا مَسْتُوْرَةٍ	تَعْرِفُ حَقَّ اللهِ وَالزَّوْجَ اِتْرَضِيَهُ
وَكَمْ مِنْ وَخَدَةٍ فِي عَمْرُهَا مَقْهُوْرَةٍ	مَدُوْهَا بِالسَّيْفِ لَلِّي مَا تَبْغِيَهُ ⁵
مَا لِيْهَاشُ الرَّايِ عَاشَتْ مَحْقُوْرَةٍ	حَتَّى يَوْمٍ اَزْوَاجُهَا مَا عَلِمَتْ بِيَهُ ⁶

وبعد تعداد الشاعر لأصناف النساء يكشف لنا عن المصدر أو المرجع الذي استقى منه هذه المعلومات الدقيقة والتفاصيل المبهرة. إنه كتاب النساء الذي قرأه الشاعر وتمعن في صفحاته واكتشف أسرارهن من خلال حروفه وجمله. يصل الشاعر في نهاية وصفه للنساء إلى هذا المصدر الذي كشف عنه قائلا:

فِيْهِمْ تَلْقَى اَنْوَاعَ وَاَصْنَافَ كَثِيْرَةٍ	وَتُصَفِّحُنَا كُتَابَهُمْ وَقُرَيْنَا فِيْهِ
اَشْرَبْنَا مِنْ سَمِّهِمْ يَا مَنْ تَقْرَأُ	عَسَلُ النَّحْلَةِ وَالْحَدَجُ اَرْوَيْنَا بِيَهُ ⁷

1- عابر: شجاعة وقوية.

2- عارم: أنثى الطير؛ يقال أنها أنثى العقاب. جاها: جاءها. تاذيه: تؤذيه

3- برا: (بتضخيم حرفي الباء والراء): من الخارج.

4- يتعرى: يتجرد من ثيابه: يصير عاريا. تولي: تصير.

5- مدوها: منحوها. للي ما تبغيه: إلى الذي لا تحبه.

6- ماليهاش الراي: ليس لديها رأي أو حرية في التعبير عن رأيها الخاص.

7- الحدج: نبات صحراوي بذوره تشبه حبات البطيخ الصغير، خضراء اللون، طعمها شديد المرارة، سامة وقاتلة إذا أكلها الإنسان، ورغم ذلك فهي تستخدم في الطب البديل كعلاج لبعض الأمراض.

تَقَلَّبَ لِحَوَالِ بَاحْكَامِ الْقُدْرَةِ لِلْعَبْدِ الْي كَاتِبَةِ تَلْحُقْ وَأُنْجِيهِ
تَتَبَدَّلُ لِيَّامٌ مَرَّةً عَن مَرَّةٍ وَمَا يَقْدَرُشِي حَدُّ يَفْعَلُ مَا يَرْضِيهِ¹

الكتاب عند الشاعر "البشير قذيفة"-حسب الأبيات السابقة-هو رمز للحياة المعقدة التي تعيشها النساء في كل مكان وزمان؛ وبالنظر إلى الأصناف السابقة نستنتج أن كل أنثى هي في حد ذاتها كتاب سواء كان مطويا أو منشورا، وحياتها هي ما جاء في صفحات هذا الكتاب.

المرأة إذا؛ هي كتاب بكل ما ورد في هذا الكتاب من أسرار وخبايا، وبكل ما تضمنه هذا الكتاب من عجائب وغرائب. إنها تشبه الكتاب في تقلباتها اليومية وصعوبة فهم تصرفاتها وما تفكر فيه، وغموض شخصيتها يشبه غموض الكتاب المطوي أو الذي نشر ولكنه لم يقرأ ولم تقلب صفحاته.

وإذا أردنا الحديث عن المرأة بصفة خاصة؛ فإن علاقة الشاعر "عبد القادر العطوي" بالفتاة التي أحبها تبدو من أجمل حكايات الحب والعشق، ومع ذلك فهي تبقى مجرد علاقة بريئة، فاضت من خلالها مشاعر الشاعر وطففت إلى السطح وظهرت بشكل جلي في قصيدته التي عبّر من خلالها عن حبه وشوقه وكذلك صرح بمكبوتات قلبه فأذاع قصّته عبر قصيدته، وإن كان قد أخفى اسم هذه المحبوبة، ولكنه ذكر عنوانها وأصلها:

بُنْتُ الصَّخْرَا صِيْلَهَا خَيْرُ النَّسَبِ تَتَمَنَّى لَوْ كَانَ تَدِيْهَا كَسَّابُ²

لقد هام الشاعر بفتاته، ولم يجد وسيلة لوصالها، فندم ندما شديدا على أنه دق باب منزلها في يوم من الأيام، وسمع صوتها ورآها عن قرب، وقد عشقتها أذنه قبل أن تعشقها عينه:

1- ليام: الأيام. ما يقدرش حد: لا يستطيع أحد.

2- تديها: تأخذها. كساب: صيغة مبالغة من الفعل كسب؛ و هنا بمعنى مالك و حائز

وَاشْ ادَّانِي رُحْتُ لِلْبَابِ نَطْبَطَبْ¹ وَاشْ ادَّاهَا جَايَّةً تَفْتَحْ فَاَلْبَابِ¹
صَوْتُ امْرَحْمَ حَاسُو مَنِّي قَرَبْ رَعْرَعْنِي وَالْقَلْبُ سَلُو مِنْ لَجْدَابِ²
بَانَتْ لِيَا وَصَفْهَا لَيْكَمْ يَصْعَبْ شَغَلْتُ لِي مَشْعَالٌ فِي جَوْفِي لَهَابِ³
رَسَلْتُ بِسْمَةِ شَوَاتِ قَلْبِي فِي مَلْهَبْ آمَجَفَاها قَاسِيَةً خَلَّاتُو طَابِ
ضَرْبَةً جَاهِلٌ عَلَى الْبَلَاوِي يَتَسَبَّبْ يُخْزِرُ عَنَدُو مَا يَسْأَلُ عَلَى لَعْقَابِ⁴

سهر الشاعر ليلته، وقد عذبتَه نظرة هذه الفتاة، وأخذ صوتها بلبه، ولم يعرف له داء واضح؛ لقد عجز الطبيب عن شفائه كما عجز عن شفائه السّاحر (الطالب). يعبر الشاعر عن ذلك فيقول:

بَايْتُ طُولَ اللَّيْلِ سَاهُرٌ نَتْعَذَّبْ سَلَبْتُني مَا شَفْتُ فِيهَا مَا يَتْعَابْ
مَا فَاذُ الْحَكِيمِ مَا يَعْرِفُ مِنْ طُبْ مَا شَخَّصَ مَرْضِي وَجَا عَنُو يَصْعَابْ
حَتَّى الطَّالِبُ حَارَ فِيٍّ وَتَعَجَّبْ أَمْرٌ لِي عَزَّامٌ مِّنْ وَجْدَةٍ يَزْرَابُ⁵
حَلَّ كِتَابُو مَا لَقَى لَا مَا يَكْتَبْ وَتُخَبِّلُو مَا قَرَأَ وَذَهَبَ لِحَسَابِ⁶

الكتاب في أبيات الشاعر "عبد القادر العطوي" هو رمز للسحر والشعوذة، ورمز لهذه الخزعات والطلاسم التي تفيض بها كتب السحر والشعوذة التي

1- واش اداني: ما الذي أدّى بي؟ نطبطب: أدق الباب.

2- لجداب: الجذور: الأعماق.

3- لهاب: صيغة مبالغة بمعنى: ملتهب بشدة.

4- يخزر: ينظر. ما يسأل على لعقاب: لا يسأل عن النتيجة.

5- الطالب: لفظة يطلقها سكان منطقة بوسعادة على كل ذي علم كالمعلم والإمام وحافظ القرآن الكريم بصفة عامة؛ ولأن السحرة قديما هم حفظة للقرآن الكريم في بداية مشوراهم، فقد لجأ الناس إليهم خاصة في أيام الاستعمار الفرنسي في الجزائر بحثا عن علاج أمراض مختلفة كالعين والمس والسحر.

6- حل كتابو: فتح كتابه. مالمقى: لم يلق: لم يجد. لحساب: شكل من أشكال الشعوذة والسحر، يقوم من خلاله الساحر بإعطاء الحروف الأبجدية أرقاما خاصة؛ ثم يجمع الأرقام ويرى نتيجتها، وحسب هذه النتيجة تكون حالة الشخص المريض أو السائل.

يعتني بها السحرة ويوظفون محتوياتها في تمائمهم وطقوسهم. لقد أفرغوا الكتاب من معناه المقدس الذي يدل على القرآن الكريم مثلما ورد في قوله تعالى: {حم {1} وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ {2} إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {3}}¹. إلى معنى مغاير تماما يدل على الكذب والفجور وتحريف الحقائق واستخدام الجن في الكشف عن الغيب وتغيير مشاعر الخلق والتأثير على عقولهم وقلوبهم.

ولكن الشاعر كان ذا إيمان قوي وعزيمة وإرادة ونية صافية، فهو لم يعط لموضوع السحر أي أهمية لعلمه بعدم جدوى هذا النوع من الطب:

حَلْ كُتَابُ مَا لَقَى لَا مَا يَكْتُبُ وَتُخَبِّلُو مَا قَرَأَ وَذُهِبَ لِحَسَابِ

لقد اختلطت الأمور على الساحر؛ لأنه في حقيقة الأمر لا علاقة له بعلم الغيب، ولو كان يعلم الغيب لعرف أن سبب علة الشاعر هي الحب، ولا شيء غيره.

ويختتم الشاعر "عبد القادر العطوي" قصيدته في التغزل بهذه الفتاة بتوظيفه لكلمة "كتاب"، ولكن لفظة "كتاب" في هذه المرة لا تدل على القرآن الكريم ولا على طلاس السحرة وشعوذاتهم، بل تدل على خلاصة تجربة عاطفية، أراد الشاعر أن يجمعها في كتاب مؤلف تكون فيها بعض العبر والنتائج التي سيستفيد منها كل المتلقين والعشاق منهم خاصة. يقول الشاعر "عبد القادر العطوي" الذي يطلق على نفسه اسم "بن شراب الواد":

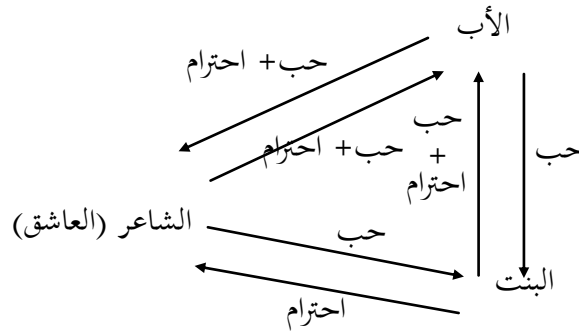
بْنُ شَرَّابِ الْوَادِ ذَا الْمَطْلَعِ رَكَّبَ لَوْ طَوَّلْتُ مَعَاكَ لَا أَلْفَتْ كُتَابَ²

1- سورة الزخرف: الآيات (01، 02، 03).

2- المطلع: القصيدة الشعرية. طولت: أطلت: بقيت معك مدة طويلة. لا ألفت: لأفت.

الكتاب في بيت الشاعر هو رمز لتجربة إنسانية وعاطفية وخلاصة لعلاقة جمعت بين ذكر وأنثى في زمان ما وفي مكان ما من هذه المعمورة، حيث التقى الشاعر بفتاته وعلقها قلبه وهام بحبها، ولكنها -حسب قصيدته- لم تبادله نفس المشاعر، وبقيت خاتمة القصة مفتوحة لا يعرف نهايتها إلا الشاعر...

ورغم هذه المشاعر التي كتها الشاعر في قلبه ولم تظهر إلا من خلال سياق القصيدة إلا أنه كان صادقاً في عاطفته؛ ودليل صدقه هو اعترافه للفتاة بتقدمه لخطبتها إذا كان يعجبها ذلك ويرضيها، وفي هذا الاعتراف الممزوج بالحب لها والاحترام والتقدير لأبيها دلالات شتى توحى بتعلق الشاعر بتعاليم الشريعة الإسلامية ومعرفته بأحكامها واطلاعه على شروط الزواج، وتوحى -أيضاً- باحترام الرجل للمرأة، وفي احترام الذكر للأنثى علاقة احترام ثلاثية الأبعاد متبادلة المشاعر، نستطيع أن نلخصها في المخطط التالي:



يقول الشاعر "عبد القادر العطوي" في معنى خطبته للفتاة من أبيها:

قُلْتُ لَهَا يَا زَيْنَةَ النَّابِ مَذْهَبٌ مَتَوَحَّشٌ بِأَبَاكَ نَاوِيَاهُ اصْحَابٌ¹
 مَا رَأَيْكَ لَوْ كَانَ نَرْجَعُ لَوْ نُخْطَبُ نَتَنَاسَبُ وَنُعَوِّدُ نَاوِيَاكَ قُرَابٌ²

1- زينة الناب: جميلة الناب، مذهب: مغلف بالذهب. متوحَّش: مشتاق.

2- مارايك: ما رأيك. ناوياك: أنا وإياك (أنا وأنت). قراب: قريبان من بعضنا البعض.

قَالَتْ لِي يَا ضَيْفُنَا بِيكَ نَرْحَبُ وَاعْذِرْنِي ذَ الْيَوْمَ بَابَا عَنَّا غَابُ
نَسْتَسْمَحُ لَكَ جَيْتَ عَلَى الْمَشْرَبِ كَايْنُ يَاسِرُ كِي أَنْتَ رَجَعُوا غُؤَابُ¹
حَالُ الْحَايِلُ بَيْنًا وَاللَّيْلُ ضُرِبَ هِيَّ رَاحَتْ سَالِمَةً وَأَنَا مُصَابُ

لقد عرض الشاعر الزواج على الفتاة التي أحبها، ولكنها رفضته -حسب القصيدة- رفضاً قاطعاً كما رفضت غيره من قبل؛ ربما لأنها حسبت تصرفه ذاك نزوة عابرة منه، فهي عاجزة عن تفسير فيض مشاعر الحب المفاجئة لديه.

ومهما يكن؛ فإن لفظة الكتاب في آخر بيت من قصيدة الشاعر:

بْنُ شَرَّابِ الْوَادِ ذَ الْمَطْلَعُ رَكَّبُ لَوْ طَوَّلْتُ مَعَاكَ لَا أَلْفْتُ كُتَّابُ²

تحمل دلالات ذات كثافة من حيث المعاني؛ فهي تدل على سيرة ذاتية، وقد تدل على كتاب أدبي، وقد تدل - أيضاً - على ديوان شعري، وقد يجوز لنا إذا اختصرنا ذلك كله أن نضيف إلى الدلالات السابقة دلالة هامة أيضاً؛ تتمثل هذه الدلالة الأخيرة في قدرة الشاعر على النظم في موضوع الغزل ووصف جمال النساء عموماً والنساء العربيات؛ نساء أولاد نايل بشكل خاص، واتساع خياله أثناء هذا الوصف باستخدام الطبيعة والدين.

إنه سحر النساء في كل مكان وزمان يجعل من الحياة جنة فوق سطح الأرض، ويجعل من الألم أملاً، ومن الحزن سعادة وفرحاً، ومن السكون حركة ونشاطاً، ومن الموت حياة وبعثاً واستمراراً...

1- جيت على المشرب: كناية عن الرغبة في الزواج وطلب القرب من الأنثى. جيت: جئت. المشرب: الشرب. كايين ياسر: هناك الكثير. كي: مثل. رجعوا غواب: كناية عن عدم حصولهم على مطلبهم. غواب: عطاشى.

2- ركب: نظم وألف.

وهناك من شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة من وظف لفظة "كتاب" بمعنى أَجَلَ الإنسان، وكأنني بهم يشبهون حياة الإنسان بمضمون كتاب ما، وغلق الكتاب ووصول القارئ إلى الصفحة الأخيرة منه هو بمثابة نهاية حياة الإنسان. وقد عبر شعراء بوسعادة عن هذه الحالة في قصائدهم، وحاولوا الربط بين الكتاب والأجل، فكانت عباراتهم وأبياتهم هادفة موحية بمعنى الموت والحزن والانقطاع عن الحياة الدنيا.

ويمكننا تلخيص هذه الدلالات في الجدول التالي:

الشاعر	الصورة الشعرية (المقطع الشعري)	الرمز	الرموز إليه
عبد القادر العطوي	كُلُّ النَّاسِ تَمُوتُ مَحْدُودُ الْأَجَلِ وَاحْمَدُ تَمَتَّ سَاعَتُهُ صَكَرَ لُكْتُابٌ ¹	الكتاب	استشهاد البطل أحمد (احميدة)
الزهرة اشويحة	يَا جَاعِلُ لِكُلِّ وَاحِدٍ لِيهِ كُتَابٌ لَا خُلُودَ لِحَدِّ بَاقِي فِي ذَاتِكَ ²	الكتاب	أجل الإنسان ونهاية حياته بموته
الحمدي بوشافة	تَنْظُرُوا كِتَابَكُمْ وَإِيَّانَ الْعَارِ وَتَقْرَؤُهُ بِنَفْسِكُمْ يَا جُوهَالَا	الكتاب	حسنات الإنسان وسيئاته التي يحصيها المولى عز وجل لكل إنسان في كتاب

1- صكر: أغلق

2- لحد: لأحد.

5.3 - السّحر:

تعرف القواميس والمعاجم العربية القديمة السحر على أنه: «كل ما كان من الشيطان فيه معونة. والسحر: الأخذة التي تأخذ العين. والسحر: البيان في الفطنة. والسحر: فعل السحر»¹، وقد اتفق أصحابها على أن السحر هو الخديعة؛ فجاء في "مختار الصحاح" قوله عن السحر أنه: «الأخذة وكل ما لطف مأخذه ودق فهو سحر.. (وسحره) أيضا خدعه»².

وأضاف "الفيروزآبادي" في معجمه حول معاني لفظة السحر قوله: «والسحر: كل ما لطف مأخذه ودق.. و"إن من البيان لسحرا" معناه - والله أعلم - أنه: يمدح الإنسان فيصدق فيه حتى يصرف قلوب السامعين إليه. ويذمه فيصدق فيه حتى يصرف قلوبهم أيضا عنه»³، وهو نفس المعنى الذي أشار إليه صاحب "المصباح المنير"؛ حيث توسع في شرح لفظة السحر، وأعطاهها معان أخرى إضافة إلى المعاني السابقة، وأسهب في شرح اللفظ وتحليله وتفصيله قائلًا: «والسحر.. إخراج الباطل في صورة الحق ويقال هو الخديعة وسحره بكلامه

1- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2003، ص: 220.

2- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1986، ص: 122.

3- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تعليق: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، مراجعة: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008، ص: 751؛ باب [سحر]

وينظر: الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الفكر، ج2، ط3، ص: 528.

استماله برقته وحسن تركيبه.. ولفظ السحر في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجري مجرى التمويه والخداع»¹.

السحر إذًا؛ حسب المعاجم العربية القديمة من حيث المعنى اللغوي يدل على الخداع وما يلحق ذلك من استمالة القلب والتأثير عليه إيجاباً أو سلباً، وكأن الأمر يخص القلب وما يحيط به من مشاعر وأحاسيس وعواطف، وقد يكون للعقل دخل في ذلك، وربما تظهر العلاقة بين العقل والقلب في كون كل منهما يقع تحت تأثير السحر لا بد له بعد ذلك من التأثير في الثاني بطريقة عكسية.

هذا إن تحدثنا عن السحر الحقيقي؛ الذي عرفه بعضهم على أنه: «عقد ورقى وكلام يتكلم به أو يكتبه، أو يعمل شيئاً يؤثر في بدن المسحور أو قلبه أو عقله من غير مباشرة له، وله حقيقة فمنه ما يقتل، وما يمرض، وما يأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما يبغض أحدهما إلى الآخر أو يحبب بين اثنين»².

أما عن سحر النساء الذي يمارسنه على الرجال، فالحديث في ذلك يطول لأنهن - بفطرتهن التي فطرهن الله عليها - ساحرات؛ بحركاتهن وسكناتهن، بأقوالهن وأفعالهن، بنظراتهن وضحكاتهن وهمساتهن، بعيونهن وشفاهن وأجسادهن، بغموضهن وبراءتهن، بلباسهن وزينتتهن.. وبكل ما أوتينه من جمال ودلال، وما جبلن عليه من حب وعطف وحنان.

1- أحمد بن محمد بن علي الفيّومي المقرئ: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987، ص: 102.

2- التعريف لابن قدامة المقدسي؛ عن: وحيد عبد السلام بالي: الصارم البتار في التصدي للسرقة الأشرار، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، ط10، 1998، ص: 14.

ومن هذه العبارات الأخيرة، ننطلق معا في رحلة قصيرة، نجول من خلالها عبر دروب الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة، لنرى كيف استخدم شعراء هذه المنطقة لفظة "السحر" وبأية معانٍ؟ وإلى أي مدى يظهر تأثرهم من خلال استخدامهم لهذه اللفظة - بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف؟

الشاعر الشعبي "أحمد وليد بن القبي" في قصيدته "زيارة إلى فرنسا" يحاول أن ينقل إلينا حالته النفسية الصعبة أثناء مغادرته أرض الوطن (الجزائر) مرتحلا إلى فرنسا، وكأن هذه الرحلة/الزيارة كانت مقدرة من لدن المولى عز وجل، ولن يستطيع الشاعر أن يلغيها أو يستغني عنها.

حيث يقول في افتتاح قصيدته:

يا خوتي نَحْكِيكُم بَيَّا ما صَارَ	لي مَكْتُوبَة كُلُّ وَاحِدٍ تَجَرَّالُوا ¹
فَالْمَكْتُوبَة ما يَفِيدُوشِ النُّضَّارَ	لَا طَالِبٌ لَا طَبِيبٌ يَحْكَمُ بِشَغَالُوا ²
مَا تَنْفَعُ فِيهَا غَزِيمَة لَا عَقَّارَ	كُلُّ آخِرٍ خَيْرٌ بِلَاصَة تَخْلَلُوا ³
مَقْيُومَة مِنْ كُلِّ جِهَة قَاعُ اخْيَارَ	وَالْمُنْتَوِرُ اجْدِيدُ زَايَخُ بِشَغَالُوا ⁴

المتلقي لهذه الأبيات منذ أول وهلة لا يستطيع أن يميز مقصود الشاعر من خلالها، ولكنه بعد تنالي الأبيات سينكشف له الرمز الذي وظفه الشاعر، وسيعرف أنه يقصد الطائفة، حيث يتضح له ذلك من خلال القرائن اللفظية الموظفة في الأبيات (بلاصة، مقيومة، المتور...) بشكل جزئي، ثم يزاح الغطاء

1- خوتي: إخوتي. نَحْكِيكُم: أحكي لكم. لي مكتوبة: ما كتبه الله من قضاء وقدر. تجرّالو: أصلها: تجري له، بمعنى: تحدث له.

2- النضار: الذين يملكون بعد نظر وحكمة ودهاء. طالب: المقصود به في لهجة منطقة بوسعادة هو العراف أو الساحر، وقد تعني الراقي الشرعي. اشغالو: علومه ومعارفه.

3- بلاصة: كلمة أجنبية بمعنى مكان.

4- مقيومة: مجهزة. زايخ: مفتخر.

تدرجيا حتى يدرك المتلقي رمز الشاعر والمرموز إليه؛ الذي يدل على مناشدة الحرية، وطلب التخلص من قيود المجتمع وعقد النفس وصعوبة الحياة.

يسترسّل الشاعر تدرجيا أثناء الكشف عن رمزه، فيتابع قائلا:

حِينَ أَطْلَقْتُ قَا فَرَحَ انْتَاغِ احْبَارَ	كِي شَقَّتْ جَوْفَ السَّمَاءِ دَرَقْتُ وَالْوُ ¹
عَطَاهَا ذَاكَ الْقَمَامَ الِّي يَخْضَارَ	خَلَفُو رَبِّي فَالْهُوَا وَغَلَى حَالُو ²
اتْعَلَّاتْ مَعَاهُ سَكْنْتُ فِي لَوْعَارَ	مَثَلُ الرِّيشَةِ هَا زَهَا رِيحَ الْعَالُو ³
وَحَتَّى الشِّيفُورَاتِ عَجْبُونِي نُضَارَ	يَسَقَمُ فِيهَا وَالْبَلَا رَاهُ اقْبَالُو ⁴
حَتَّى مِنْ الشَّوْاشِ عَجْبُونِي شُطَارَ	لِي يُطْلَبَ حَاجَةُ أَكْلٍ يَقْضُوهُالُو ⁵
مِيزُ السَّاعَةِ فَالْهُوَا وَلِتَحْتَ بَحَارَ	وَاحْفَظْنَا رَبِّي وَعَقَبْتُ كِي وَالْوُ ⁶
فِي سَاعَاتٍ قَلَالٍ كَانَتْ فَالْمَطَارَ	وَالِّي عَنَدُو خَبِيبٌ تَمَّ يَغْنَالُو ⁷

الرمز الذي قصده الشاعر من خلال أبياته السابقة هو "الطائرة"؛ حيث اتخذها مطية للبحث عن الحرية والانطلاق والتحرر والسمو والتعالي عن كل ما يجعل النفس البشرية دنيئة ذليلة ومهانة.

أما ما يهمننا من بين الأبيات السابقة، فهو قول الشاعر في مطلع القصيدة:

1- اطلقت: انطلقت. قا: حرف ممدود؛ يستخدم في لهجة منطقة بوسعادة بمعنى: مثل.

2- القمام: الغمام.

3- اتعلات: صارت عالية. لوعار: الأماكن الوعرة. والمقصود هنا: الأماكن الشاهقة شديدة الارتفاع والعلو.

هازها: هاز: اسم فاعل من الفعل هَزَّ؛ بمعنى: حامل (حاملها)

4- الشيفورات: كلمة أجنبية مفردا شيفور، بمعنى: سائق. البلا: الخطر.

5- الشواش: القائمون على خدمة الركاب داخل الطائرة كالمضيفات.

6- ميز: قرابة

7- قلال: قليلة. يعنالو: يقصده.

يَا خُوتِي نَحْكِيكُمْ بَيًّا مَا صَارَ
فَالْمَكْتُوبَةُ مَا يُفِيدُوشُ النُّضَارُ
لِي مَكْتُوبَةٌ كُلُّ وَاحِدٍ تَجْرَأُ
لَا طَالِبٌ لَا طَبِيبٌ يَحْكَمُ بِشَغَالُو
كُلُّ آخِرٍ خَيْرٌ بِلَاصَةِ تَخْلَاوُ
مَا تَنْفَعُ فِيهَا غَزِيمَةٌ لَا عَقَارُ

أشار الشاعر في الأبيات السابقة إلى السحر من خلال مفردات الحقل الدلالي لكلمة "سحر" فذكر: (طالب، غزيمة، عقار)؛ حيث تشير هذه الألفاظ إلى فعل السّحر، ولو لم يقصد الشاعر ذلك صراحة، ورغم ذلك فإنه يدرك -بفعل ثقافته الدينية- بأن أعمال السحر هذه لن تنفع صاحبها مع وجود القضاء والقدر (المكتوبة)، وذلك حسب ما ورد في قول المولى عز وجل: {... فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ...} ¹؛ أي « من شاء الله سلطهم عليه، ومن لم يشأ الله لم يسلط، ولا يستطيعون ضرر أحد إلا بإذن الله». ²

لقد أدرك الشاعر بفطرته ومن خلال ثقافته الدينية البسيطة - فهو لم يحظ بتعليم لا في الكتاب ولا في المدرسة - أن قضاء الله وقدره وما كتبه للإنسان في حياته لن تغيره التمام والعزائم والعقاير والطلاسم السحرية التي يمارسها البشر بالاستعانة بالجن والشياطين؛ لأن السحر في جوهره هو «ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان» ³، والسحر عند الشاعر هو رمز للباطل والشر والأذى، حيث يدل على تزييف الحقائق وتغيير صورها، وهو يدل

1- سورة البقرة، الآية (102).

2- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، السعودية، ج1، ط2، 1999، ص: 364.

3- المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987، ص: 400.

كذلك على «إخراج الباطل في صورة الحق، وهو في أصل اللغة الصرف. وسُمِّي سحرا لأنه يصرف الشيء عن جهته».¹

وليس بعيدا عن الدلالات التي جاء بها رمز السحر عند الشاعر "أحمد وليد بن القبي" نجد شاعرا آخر هو "إسماعيل مداد" الذي أراد من خلال قصيدته "ياليتني" - أن يذكر قلبه بمآل الحضارات السابقة، وأن يقنعه بضرورة الانتباه أكثر لدينه. يقول الشاعر مخاطبا قلبه:

أَحْزُرُ دِينَكَ يَا قَلْبِي دِيرَ مَزِيَّةٍ مَا تَلْعَبُشْ فَالدُّنْيَا لَعْبُكَ مَلْعُوبٌ
قَبْلُكَ لَعْبُو بِالْعُقَارِبِ وَالْحَيَّةِ قَبْلُكَ كَانَ سَحُورُهُمْ لَجِبَالٍ تَذُوبُ

القلب في توظيف الشاعر "إسماعيل مداد" هو رمز للضمير الحي، وهو رمز لليقظة والذكاء. إنه سلطان البدن، المتحكم في مشاعر النفس وأحاسيسها وعواطفها، وهو ربان السفينة الذي يقودها ويوجهها أينما يريد.

يذكرنا الشاعر في البيت الثاني - السابق - بأن هناك من الحضارات الماضية من استخدموا العقارب والأفاعي في عملية السحر والتمويه وخداع البصر، وكأنني به يتقاطع في دلالاته مع قصة سيدنا موسى -عليه السلام- وسحرة فرعون، ذلك أن موسى - عليه السلام - حين ألقى عصاه، «صارت حية عظيمة ذات قوائم.. وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعا، وتأخروا عن مكانها وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي، فجعلت تلتفه واحدا واحدا في أسرع ما يكون من الحركة...».²

1- نفسه، ص: 400.

2- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر، ط5، 1997، ص: 411.

وقد شاع السحر عند بني إسرائيل في عهد سيدنا موسى -عليه السلام- حيث أكد المولى عز وجل وجود السحرة في ذلك الزمان ووضح ما يقومون به من أعمال وطقوس تثير الرهبة والهلع في النفوس وتفتن الأعين والقلوب. قال الله سبحانه وتعالى: {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرَهُبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ} ¹، أما قول الشاعر: (قبلك كان سحورهم لجبال تذوب)؛ ففيه إشارة إلى هاروت وماروت ببابل وسحرهما العظيم. قال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ} ².

الشاعر "إسماعيل مداد" يحاكي ما ورد من قصص في القرآن الكريم ويشير إليها في أبياته. هذا ما يجعل عنصر التناس واضح المعالم عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة. ولعل هذا ما جعلهم يوظفون لفظة "السحر" للدلالة على السحر الحقيقي تارة، وتارة أخرى يوظفونه في شكل دلالة رمزية توحى بالجمال والفتنة والإثارة. والجمال عند هؤلاء الشعراء متعدد، ولكن مصدره الأول دائما هو الأنثى، والأنثى وحدها هي دائما من يصنع الجمال، ويخلق الإثارة، ويجلب الفتنة، ويصنع الدهشة، ويسعد القلب، ويرضي العين. إنها السحر بذاته.

يصف الشاعر "إسماعيل مداد" حالته بعد عودة رسوله إليه فارغ الدين؛

حيث دار بينهما الحوار التالي:

سَامَخْنِي يَهْدِيكَ رَبِّي مَوْلَايَا ³

جَانِي يَلْهَثُ قَالِي وَشَ هَآذُ الْقَوْلُ

1- سورة الأعراف، الآية (116).

2- سورة البقرة، الآية (102).

3- جاني: جاعني.

حَوَسْتُ عَلَيْهَا الدُّنْيَا عَرْضُ وَطُولُ	سَقَسَيْتُ عَلَيْهَا أَحْبَابِي وَأَعْدَايَا ¹
جَيْتُ مَوْلِي كِي الْمَهْزُومِ الْمَذْلُومِ	مَا شَكَيْتُشْ لِلْوَكْرِ جَاتِ اهْنَايَا ²
قُتْلُو رَاكُ صَحِيحُ وَكَلَامُكَ مَغْفُولُ	مَا تَتَعَذَّرُ مَا تَعَاوُدُ لِحَكَايَا ³
اسْحَرْنِي جَمَالُهَا زَانِي مَشْغُولُ	مَا نِي لَاهِي بِيكَ لَاهِي بِنَلَايَا ⁴
رَوْحُ يَا مَرْسُولُ مَا دَامَكَ مَغْدُولُ	أَمْرُ الْحُبِّ اصْغَيْبُ نَارُو قَدَايَا ⁵
وَادُّو وَاعِرُ بِالْمَوْجَةِ دِيمَا مَحْمُولُ	شَفْنَا فِيهِ أَرْجَالُ وَلَاؤُ اشْفَايَا ⁶

لم يوضح الشاعر "إسماعيل مداد" تفاصيل هذا الجمال الساحر؛ ولكنه أشار إلى ذلك بشكل مجمل، فصارت لفظة السحر بالنسبة إليه دالة على الجمال والفتنة والإثارة وهي رمز - أيضا - للحب والعشق وتميّز الأنثى ونقاء العنصر وصفاء السريرة. لقد اقترن جمال الأنثى وسحرها بالحب والعشق، إذ لا يختلف اثنان بأن الجمال والحب مرتبطان ارتباطا وثيقا، ولا نكاد نعثر على أحدهما إلا وعثرنا على الآخر، وارتباط هذين العنصرين ببعضهما البعض يولّد عنصرا ثالثا يجعل هذه العلاقة جذابة ومثيرة. إنه السحر: سحر الأشكال البشرية الجميلة، وسحر العواطف الإنسانية الفياضة.

1- حوست: بحثت. سقسيت: سألت.

2- جيت: جئت. مولي: اسم فاعل من الفعل (ولّى)؛ بمعنى عائد وراجع في لهجة سكان منطقة بوسعادة. كي: مثل. ماشكيتش: لم أشك. اهنايا: هنا.

3- تتعذر: تعتذر. تعاود: تعيد.

4- معنى الشطر الثاني: أنا لا أهتم لأمرك، فأنا مشغول بمصيبتني.

5- رَوْحُ: فعل أمر؛ بمعنى: رُحْ: اذهب. مرسول: رسول. قدايا: مشتتة وملتهبة.

6- واعر: صعب. وادو محمول: يحمل مياه الأمطار التي تجري داخله؛ يقول سكان منطقة بوسعادة: الواد حامل أو الواد جايب؛ بمعنى ينقل مياه الأمطار من مكان إلى آخر. شفنا: رأينا. ولاو اشفايا: صاروا نكاية.

استخدم الشاعر الاستعارة المكنية في عبارته (اسحرنى جمالها)، حيث شبه الجمال بالإنسان، فذكر المشبه (الجمال)، وحذف المشبه به (الإنسان)، وترك قرينة لفظية دالة على المشبه به المحذوف، وهي الفعل (اسحرنى)، فصار الجمال إنسانا حيا باستطاعته أن يسحر الشاعر ويؤثر في كل حواسه، ويجعله غير منتبه لمن حوله (مانى لاهي بيك لاهي ببلايا).

وفي مثل هذه الحالة لا يسع الشاعر إلا أن يستعين بساحر (طالب) يفك له غموض حالته، ولكن هيهات، هيهات، وقد استفحل الداء، وعظم البلاء، والسبب هو نظرة قاتلة من فتاة سمراء. وهذا الشاعر "البشير قذيفة" يختصر لنا تجربته في قصيدته "الساعة" قائلا في نبرة تفيض بالأسى والحزن والألم:

بَعْدَ أَنْ قُلْتُ خُلَاصَ مَنْ هَازُ الْخَطَرَةِ	مَا نَدْخُلُشِي بَخَزَمِ شَطُو نَخْطِيَةٍ ¹
أَرْمَانِي مَكْتُوبٌ يَا هَازُ الْحُضْرَةِ	رَانِي فِي زِيَّارٍ وَخَدِي حَاصِلٌ فِيهِ ²
أَرْمَانَتِي بَسْنَهَامَهَا طُفْلَةٌ سَمْرَةٌ	تُودَّرُ عَقْلِي حِينَ رَبِّي رَادٌ عَلَيْهِ ³
لَا طَالِبٌ لَا طَبِيبٌ يَنْفَعُ ذَا الْمَرَّةِ	وَأُجْرَحُ إِذَا طَالَ وَشْنُ اتْدَاوِي فِيهِ
عَنِّي مِيشٌ بَعِيدٌ وَأَنَا فِي حَيْرَةٍ	أَتُخَبِّلُ غَزْلِي وَمَا صُبَّتْ أُنْسَدِيَّةٌ ⁴
رَاهَا تَسْهَرُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي دَشْرَةٍ	وُسَمَحَتْ فِي الْيَّ حَبَّهَا مَا بَاتَتْ أَتْجِيهِ ⁵
مَا اسْتَأْقَنْشُ لَوْكَرْهَا تَعْمَلُ دَوْرَةَ	وَمَا قَالَتْ كَيْفَ آهَ مَسْكِينِ نَخْلِيَّةٍ ⁶

1- الخطرة: المرة. ما ندخلشي: لا أدخل. نخطيه: أهجره وأبتعد عنه وأتركه.

2- رمانى: رمانى. الحضرة: الحضور. زيار: أزمة وضيق صدر. حاصل فيه: لا أستطيع منه خلاصا

3- طفلة: يطلق هذا اللفظ في لهجة سكان بوسعادة على الفتاة اليافعة.

4- ميش بعيد: ليست بعيدة. الشطر الثاني: تحمل عبارته كناية عن اختلاط الأمور وصعوبة فرزها.

5- دشرة: قرية. الي: الذي. ما بات أتجيه: أبت أن تجيئ إليه

6- ما استأقنش: لم تشعر بالاشتياق. تعمل دورة: تقوم بزيارتنا. نخليه: أتركه.

بَعْدَ أَنْ وَالْفَنَّاكَ يَا كَحْلَ الشَّفَرَةِ كَيْفَ اتَّخَلَّيْنَا وَالْغَيْرِ اتَّزَهِيَهُ¹
حَبِّينَاكَ خُلَاصَ وَالْوَجْهَ اتَّعَرَّى وَظَهَرَ بَايُنَ عَيْنِنَا وَاشْ نَسْتَرُ فِيهِ
حَيَاةً بُلَا بِيكَ تَسْمَى صَحْرًا إِذَا رُحْتَ ذِ الْعُمُرِ وَشْ نَعْمَلْ بِيهِ

هذه تجربة الشاعر "البشير قذيفة" في حب فتاته السمرء، أوردناها في بعض الأبيات التي انتقيناها من قصيدته "الساعة"، حيث يظهر فيها وجعه وألمه، ويبدو الشاعر من خلالها مشتاقا إليها ومعاتبا إياها على هجرانه، ولكنها لا تأبه بعذابه، لذلك يتوسل الشاعر إلى المولى عز وجل أن يشفي جرحه وأن ينسيه إياها. يقول الشاعر:

اشْفِينِي يَا خَالِقِي جُرْحِي يَبْرَا يَا عَالَمَ بِهِمُومٍ قَلْبِي وَآلِي فِيهِ
نَسَاهَا وَنُعُودُ كِي أَوَّلَ مَرَّةٍ هَمُّ الْوَحْدَةِ وَالسَّهْرِ مَا طُقَّتْ عَلَيْهِ

أشار الشاعر "البشير قذيفة" في أبياته السابقة إلى السحر، ولكن من خلال المسؤول عن القيام به (الطالب)، عندما قال:

لَا طَالِبَ لَا طَبِيبَ يَنْفَعُ ذِ الْمَرَّةِ وَأُلْجُرْخَ إِذَا طَالَ وَشْ اتَّداوي فِيهِ

إنه يعتقد - ولكنه لا يجزم تماما - بأن "الطالب" يستطيع أن يداوي جرحه، وأن يخلصه من جراح الحب والعشق التي أصيب بها بسبب محبوبته السمرء، وكأن هذا الساحر بيده الحل والخلاص. لقد صار "الطالب" في الذهنية الشعبية عند الشعراء وغيرهم من طبقات المجتمع وخاصة في سنوات مضت - رمزا للخلاص والانفراج ونيل المطالب بسرعة وسهولة، ويحمل دلالة تتمثل في طلب المساعدة عند الوصول إلى نقطة اللأرجوع واللاعودة. إنها محاولة لتغيير الأوضاع إلى الأحسن وذلك بالاستعانة بمن يدعي كشف المجهول ومعرفة الغيبيات.

1- والفنَّاك: ألفنَّاك. كحل الشفرة: ذات العيون الكحيلة (صفة محبوبة في النساء؛ وهي من علامات الجمال لدى المرأة والرجل على حدّ سواء).

ولكن هذا الاعتقاد بالنسبة لشعراء منطقة بوسعادة تشوبه الرّيبة والشك في صحة هذا الادعاء، فهم وإن صرحوا بحقيقة السحر والسحرة، إلا أنهم في نهاية الخطاب - ضمن قصائدهم - يؤكدون عدم جدية ذلك وأن الأمر كله لا يعدو كونه خزعبلات وشعوذات وطقوس لا فائدة ترجى من ورائها، وإنما السحر الحقيقي - كما هو في تعريفه اللغوي - هو سحر الجمال وسحر البيان، وسحر العواطف والمشاعر والأحاسيس.

هذا الموقف من السحر اتخذته العديد من شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة، ولنا في قولنا هذا أدلة تعتبر الأقرب إلى الصواب، والأرجح إذا عدنا إلى المصدر الصريح؛ وهو القرآن الكريم، ويظهر ذلك جليا عند الشاعر "عبد القادر العطوي" الذي أبدع في قصيدته "نظرة"؛ حيث جال في نقل مشاعره ووصف جمال محبوبته، واستخدم لفظ "الطالب" كغيره من شعراء المنطقة للدلالة على تأزم وضعه وصعوبة حالته النفسية وبحثه عن العلاج والدواء. إنه مرض الحب الذي أتعب هؤلاء الشعراء وأزقهم وأسهر ليلهم، وجعلهم يستتجدون بمن يطلقون عليه اسم "الطالب". إنهم بحاجة دائمة إلى الأنثى؛ حيث الحب والحنان والعطف والأمان والحنن الدافئ والصدر الرحب.

يفتتح الشاعر قصيدته بقوله:

وَإِشْ إِدَانِي رُحْتُ لِلْبَابِ نَطْبَطُ ¹	وَإِشْ إِدَاهَا جَايَّة تَفْتَحُ فَالْبَابِ ¹
صَوْتُ أَمْرَحَمَ حَاسُو مَنِّي قَرَبُ	زَعَزَعَنِي وَالْقَلْبُ سَلُو مِنْ لَجْدَابِ ²
بَانَتْ لِيَا وَصَفْهَا لِيَكْمَ يَصْنَعُ	شَغَلْتُ لِي مَشْعَالُ فِي جَوْفِي لِهَابِ ³

1- وإش اداني: ما الذي أدى بي. نطبطب: أدق الباب.

2- امرخم: رخم. الشطر الثاني: يتضمن هذا الشطر كناية عن الشغف وشدة العشق.

3- مشعال: نار مشتعلة. لهاب: ملتهب: يحرق أحشائي.

رَسَلْتُ بِسَمَةِ شَوَاتٍ قَلْبِي فِي مَلْهَبٍ آمَجَفَاها قَاسِيَةً خَلَّاتُو طَابٌ¹

أليس هذا الوصف هو السحر بذاته؛ سحر البيان، وسحر الجمال، سحران يمتزجان، ويذوبان في براعة الشاعر، «.. والسحر الكلامي غرابته ولطافته المؤثرة في القلوب المحولة إياها من حال إلى حال كالسحر»²، وكصوت هذه الفتاة المحبوبة الرخيم الذي أخذ بلبّ الشاعر وزعزع كيانه. لقد عشقها قبل أن يراها، وعشق صوتها قبل أن يرى صورتها، وصدق رسول الله ﷺ حينما قال: «إن من البيان لسحرا» أي «أن بعض البيان سحر لأن صاحبه يوضح الشيء المشكل ويكشف عن حقيقته بحسن بيانه فيستميل القلوب كما تستمال بالسحر وقال بعضهم لما كان في البيان من إبداع التركيب وغرابة التأليف ما يجذب السامع ويخرجه إلى حد يكاد يشغله عن غيره شبه بالسحر الحقيقي وقيل هو السحر الحلال»³.

سحر البيان والتركيب هو ما تمثل في رد الفتاة على طلب الشاعر حينما خطبها لنفسه بطريقة مباشرة بقوله:

قُلْتُ لَهَا يَا زِينَةَ النَّابِ مَذْهَبٌ مَتَوَحَّشٌ بَابَاكَ نَاوِيَاهُ اصْصَابٌ⁴
مَا رَأَيْكَ لَوْ كَانَ نَرْجَعُلُو نُحْطَبُ نَنْتَاسِبُ وَنُعُوذُ نَاوِيَاهُ قَرَابٌ⁵

فما كان منها إلا أن تظهر الأدب واللفظ والبشاشة في موقف كهذا:

1- شوات: شوت: أحرقت. خلّاتو: تركته. طاب: احترق: التهب: اكتوى.

2- المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، ص: 400.

3- أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ: المصباح المنير، ص: 102.

4- زينة الناب: جميلة الناب. مذهب: مغلف بطبقة من الذهب. متوحش: مشتاق.

5- قراب: قريبين.

قَالَتْ لِي يَا ضَيْفَنَا بَيْكَ نَرْحَبُ وَأُعْذِرُنِي ذَا الْيَوْمِ بَابَا عَنَّا غَابَ
وَنُسْتَسْمَحْ لَكَانَ جَيْتَ عَلَى الْمَشْرَبِ كَايْنُ يَاسِرْ كِي أَنْتَ رَجَعُوا غَوَابٌ¹

لقد رحبت به، واعتذرت عن غياب أبيها، ثم استسمحته، وأخبرته برفضها له، ولكنه رفض بطريقة غير مباشرة، وإنما شبهته بغيره من الخطاب الذين توافدوا عليها يطلبون ودها، وفي البيت الثاني كناية عن الخطبة والرفض؛ حيث تحمل عبارة (جيت على المشرب) كناية عن الخطبة والطمع في القرب، وتحمل عبارة (رجعوا غواب) كناية عن خيبة الأمل وعدم الحصول على المراد والعودة دون تحقيق المطلوب، وباختصار شديد فهي كناية عن رفض المحبوبة.

صوت الفتاة المحبوبة سحر الشاعر العاشق، أما صورتها فقد جعلته يستتجد - كعادة الشعراء الذين سبق ذكرهم - بالحكيم (الطبيب) والطالب الذي استتجد هو الآخر بساحر من وجدة بالمغرب الأقصى²، ولكن لا هذا ولا ذاك، لا الطبيب استطاع أن يكتشف الداء الذي ألم بالشاعر، ولا هذين الساحرين استطاعا أن يحلا لغز هذا التغير المفاجئ الذي طرأ على الشاعر الذي يصف حالته بعدما تركته الفتاة وانسحبت إلى داخل البيت حيث الأمان والدفاء والسعادة والحنان والراحة. يقول:

1- جيت على المشرب: جئت تريد شربا (كناية عن الخطبة). كايين ياسر: هناك الكثير. كي: مثل. غواب: عطاشى.

2- يشيع في الأوساط الشعبية أن المغرب الأقصى هو أكثر الدول استقطابا للسحرة الذين يمارسون السحر بكل طرقه وأنواعه وأشكاله.

هِيَ رَاحَتْ سَالِمَةً وَأَنَا مُصَابٌ ¹	حَالُ الْحَائِلِ بَيْنًا وَاللَّيْلِ ضَرْبٌ
نَعْتُ مَقِيدَدُ سَائِقِينُ عَاطِشٌ غَابٌ ²	تَرَكْتَنِي وَمَشَاتِ خَلَاتِ الْمَضْرِبِ
سَلَبْتَنِي مَا شَفْتُ فِيهَا مَا يَتَعَابُ ³	بَايْتُ طُولَ اللَّيْلِ سَاهِرٌ نَتَعَذَّبُ
مَا شَخَّصَ مَرَضِي وَجَا عَنُو يَصْنَعَابُ ⁴	مَا فَادُ الْحَكِيمِ مَا يَعْرِفُ مَنْ طُبُّ
آمَرَ لِي عَزَامٌ مِنْ وَجْدَةٍ يَزْرَابُ ⁵	حَتَّى الطَّالِبِ حَازَ فِيَّ وَتَعَجَّبُ
وَتُخَبِّلُو مَا قَرَأَ وَذَهَبَ لِحَسَابِ ⁶	حَلُّ كِتَابُو مَا لَقِيَ لَا مَا يَكْتَبُ

لقد كان الشاعر يعرف منذ البداية بأن الأمر ليس بيد أحد من البشر، فهم خلق الله الضعفاء، وليس باستطاعتهم تشخيص مرضه أو توفير الدواء المناسب لحالته، والسحرة ما هم إلا فتنة في الأرض، وذلك بدليل اعترافه الموالي:

لَا هَذَا لَا ذَاكَ خُلُونِي نَزَبْتُ طَبِّي فِيدُ الزَّايخَةِ مَا لَوْ طَبَّابٌ⁷

1- الحائل: الحائل. الليل ضرب: كناية عن هبوط الظلام.

2- خلّات: تركت. المضرب: المكان. نعت: مثل. مقيدد: صفة تطلق على الحروف الذي يتم إبعاده عن أمه.

3- بايت: اسم فاعل من الفعل بات. شفت: رأيت. يتعاب: يعاب.

4- ما فاد: لم يفد. يصعاب: يصعب.

5- عزام: العزّام هو الشخص الذي يقوم بطقوس سحرية تسمى العزائم. يزراب: يسرع.

6- تخبلو: اختلط عليه الأمر. لحساب: عملية يستخدمها السحرة لكشف الغيب، وتعتمد على حروف مرقمة يوظفها السحرة في عمليات حسابية معينة.

7- طبي: دوائي: علاجي. فيد: يد. الزايخة: المرأة ذات الحسب والنسب. طباب: معالج: مداو.

ربما تساءل المثقفي، أو قد يتساءل عن الظروف التي جعلت الشاعر يطلب المساعدة من الساحر، والإجابة موجودة في ثنايا البيت السابق، حيث يعلل هذا الأخير أسباب ضعفه وتعبه وعذابه وسهره بحبه وتعلقه بالفتاة التي جاء يطلب أباهما سليما فعاد سقيما، جاء لحاجة فعاد وحاجته إلى الفتاة أهم من أي حاجة أخرى.

إنه سحر الأنثى؛ سحر جمالها المادي وجمالها المعنوي اللذان يجسدهما الشاعر في اللوحة الفنية التالية؛ حيث أبدعت ريشته في رسم أجمل امرأة على سطح الأرض. إنها فتاته التي أحبها فجأة من أول نظرة، وهي رمز لكل أنثى خلقها المولى عز وجل للمتعة واللذة والاستقرار والراحة والسعادة.

يستعرض الشاعر هذا الجمال الساحر في الأبيات الموالية:

- أَسْبَحَ—انَّ الِّي خَلَقَ الْعَزِيزُ الرَّبُّ مَكَّنَ فِي حُبِّهَا ضَرْبَةَ نَشَابٍ¹
 طَلَقْتُ سَالِفَ عَلَى الصَّدْرِ طَاحُ مَلُولِبَ دَامَسَ لَامَعُ عَابَ عَنْ رِيْشَةَ لُغْرَابٍ²
 وَالْقَشْوَةُ ضَيَّ الْقَمَرِ فِيهَا يُغْرِبُ أَرْبَعَطَاشُ فَالشُّهْرُ جَمَعْتُ لَصُنَابٍ³
 فَوْقَ الْعَيْنِ هَلَالٌ مَلْقُوطٌ مَنَشَبٌ آخِرَ لَيْلَةٍ فِي الشُّهْرِ وَقُضِيَ لِحَسَابٍ⁴
 الْمَقْلَةُ حُوتَةٌ وَالْبَحْرُ بِيْهَا يَلْعَبُ مَحْبُوسَةٌ مَا بَيْنَ لَجْفَانٍ وَلِهْدَابٍ⁵
 عَيْنَيْنِ عَلَيْهَا زِبَاعِي وَسَطٌ جَعَبٌ مَتَوَجِّدٌ لِلْحَرْبِ مَشْعَالُو شِلْهَابٍ⁶
 مَنِيْشَنُ مَغْدُولٌ نَخْوِي مَصَوَّبٌ نَحْسٌ بَصْهَدَةٍ قَادِيْتَلِي فِي لَجْنَابٍ⁷
 خَذُ مَزْعَرَرٍ كِي النَّوَّارِ مَرْتَبٌ خَوْخٌ مَلَقَمٌ بَانَ فِي سَجْرَاتُو طَابٍ⁸
 شَفَّةٌ حَمْرًا كَانْهِي دَمٌ مُخَضَّبٌ وَلَا بَنُ نَعْمَانُ تَرْهَضِي بِيْهِ اِعْلَابٍ⁹
 سَنُ يَلْعَجُ ثُلُجٌ عَن قَمَّةِ رَسَبٍ صَحَكْتُ لِيَا كَاشِفَةً عَن ذَاكَ النَّابِ¹⁰
 وَالرَّقْبَةُ بَلَارٌ فِيْهِ الرِّيْقُ اِعْقَبَ وَلَا ثَرِيَّةٌ طَالَةٌ مِّنْ فَوْقِ سَحَابٍ

1- نشاب: قوي وجاهل.

2- طَلَقْتُ: أَطْلَقْتُ. سَالِف: خَصَلَاتٌ مِنَ الشَّعْرِ. طَاح: سَقَطَ. مَلُولِب: يَشْبَهُ اللَّوْلِبَ يَعْنِي أَنَّ هَذِهِ الْخَصَلَاتُ تَشْبَهُ اللَّوْلِبَ فِي اسْتِدَارَتِهَا وَاعْتِدَالِهَا.

3- الْقَشْوَةُ: الْجَبْهَةُ. ضَيَّ: ضَوْءٌ. أَرْبَعَطَاشُ: أَرْبَعَةُ عَشَرَ. يَتَضَمَّنُ الشَّطْرُ الثَّانِي كُنَايَةً عَنْ شِدَّةِ نَوْرِ الْقَمَرِ.

4- مَلْقُوطٌ: قَامَتْ صَاحِبُهُ بِنَمِصِّهِ؛ أَيْ شَعْرَ حَاجِبِيْهَا. مَنَشَبٌ: مَرْتَفَعٌ فَوْقَ الْعَيْنِ فِي شَكْلِ هَلَالٍ.

5- الْمَقْلَةُ: الْعَيْنُ.

6- رِبَاعِي وَسَطٌ جَعَبٌ: الْجَعْبَةُ: وَعَاءٌ مِنَ الْجِلْدِ، وَمِنْهُ جَعْبَةُ النَّبَالِ وَجَعْبَةُ الْمَسَدِ. وَالْجَمْعُ: جَعَبَاتٌ وَجَعَبَاتٌ وَجَعَابٌ. الْجَعْبَةُ فِي عَصْرِنَا: وَعَاءُ الرِّصَاصِ الَّذِي يَسْتَخْدِمُهُ الْجَنْدِيُّ (عَرَبِي فِضَّةٌ).

7- مَنِيْشَنُ: أَنْفٌ. صَهْدَةٌ: الصَّهْدُ هُوَ الْحَرُّ الشَّدِيدُ؛ وَصَهْدَةُ الْحَرِّ: اشْتَدَّ وَحْمِي عَلَيْهِ أَيْ أَصَابَهُ وَأَحْرَقَهُ، وَمِنْهُ: صَهْدَتُهُ الشَّمْسُ. قَادِيْتَلِي: مُتَقَدَّةٌ وَمَشْعَلَةٌ فِيَّ.

8- مَزْعَرَرٌ: شَدِيدُ الْحُمْرَةِ. مَلَقَمٌ: (فَصِيحٌ)؛ لَقَمَ الشَّجَرَةَ: لَقَحَهَا لِتَتَمَثَّرَ ثَمَرًا آخَرَ مِنْ جِنْسٍ فَصِيلَتِهَا. طَابٌ:

نَضِجَ

9- اِعْلَابٌ: أَمَاكِنُ مَخْضَرَةٍ.

10- يَلْعَجُ: يَلْمَعُ وَيَبْرِقُ.

خَاوُ الْمَحْزَمَ كِي الْمُهْرَةَ تَنْجَلِبُ¹ مَا شَدْتُ مَشَوَارَ مَا شَافْتُ رُكَّابَ¹
رُكْبِيَّةَ فِي الشَّائِوِ لَسَّعَ تَدَّرَبُ² عَرَبِيَّةَ مِنْ صِيلِهَا هَاكُذْ هَيَّابَ²
مَرْشُوقَةَ لَقْدَامَ تَمْشِي تَسْرَسِبُ³ تَتَمَائِلُ فِي مَشْيِهَا وَالْخَطُوفُ حَسَابَ³

أليس هذا هو الإبداع بذاته؟! إنها صورة تشكيلية من فنان عبقرى، انتقل فيها من شعر رأس محبوبته إلى أسفل قدميها مروراً بكل تفاصيل جسدها الجميل. لقد صورها تصويراً مادياً يشبه إلى حد كبير تمثال دمية منحوتة من المرمر. هذا هو السحر الذي مارسه الفتاة المحبوبة على الشاعر، بالإضافة إلى أنها:

بُنْتُ الصَّخْرَا صِيلِهَا خَيْرَ النَّسَبِ⁴ تَتَمَنَّى لَوْ كَانَ تَدْيِهَا كَسَّابَ⁴

ونفس الصور الحسان سحرت الشاعر "السعيد بوعشرين". إنهن بنات قومه أولاد نايل ذوات الملامح العربية الأصيلة، وعيونهن التي فاقت جاذبيتها جاذبية المغناطيس. يصف الشاعر هذه العيون الساحرة بقوله:

ذَبَّالَةَ بَغْيُونَهَا تَسْبِي لِعَقُولِ⁵ يَا وَيْحَ الْيَّ صَيْدَاثُو مُكَاثُو⁵
سُبْحَانَكَ يَا خَالِقَ الطَّرْفِ الْمَذْبُولِ⁶ فَاقِ الْمَغْنَاطِيْسُ وَالسَّخْرُ وَفَاتُو⁶

السحر في استخدام الشاعر هو رمز للجاذبية والجمال والإثارة؛ حيث استعار هذا الأخير لفظة السحر وجردّها من معناها الاصطلاحي، وألبسها ثوباً جديداً يحمل دلالات الجمال والحب والعشق. لقد صار لهذه اللفظة دلالات لا تكاد تخرج عن دائرة الحقل الدلالي لكلمتي الحب والجمال، ولا بد أن الشعراء في

1- خاو المحزم: دقيقة الخصر. تتجلب: تدك الأرض بقوة وتسهل. مشوار: سباق.

2- الشاو: البداية. صيلها: أصلها. هياب: صيغة مبالغة من الفعل هاب (عربية فصحى).

3- تسرسب: تمشي بخفة وهدوء.

4- صيلها: أصلها. تديها: تأخذها. كساب: من الفعل كسب بمعنى امتلك.

5- ذبالة بغيونها: نظراتها ذابلة؛ وهي صفة تزيد من جمال المرأة. تسبي: تسلب.

6- فاتو: فاقه.

منطقة بوسعادة قد تعارفوا على استخدام لفظة السحر بطريقة أكثر تهذيباً وأبلغ وأفصح، فأصبحت متعلقة عندهم وعند المتقنين بالوسامة والأناقة مع البساطة والأصالة، ودالة على التميز والتألق.

وكان السحر - في قاموس الشاعر - يشبه المغناطيس، له خاصية الجذب التي تميز السحر أيضاً؛ ومنه قولهم: سحر فلان فلانا "بكلامه وألحظه استماله وسلب لبه. قال الشاعر:

السَّحْرُ فِي أَلْفَاظِهِ وَلِحَازِهِ وَالْخَمْرُ فِي وَجَنَاتِهِ وَرِضَابِهِ

ويقال السحر إخراج الشيء في أحسن معارضه حتى يفتن. ولذلك قيل للرائق المعجب هو الحسر الحلال.. وقيل السحر والتمويه يجريان مجرى واحداً".¹
وسحر الألفاظ واللحاز والوجنات والرضاب هو ما أسر الشعراء، وجعلهم يقعون فريسة هذا الحسن والجمال الأنثوي.

فهذا الشاعر "السعيد بوعشرين" يتغزل بفتيات قومه أولاد نايل، ويصفهم بأبداع الصفات وأجملها ولا ينسى رجالهم وأعراسهم حيث الفنتازيا والفروسية. يقول:

مَا نَقْدَرُشْ نُعِيدُكَ ذَا الْوَصْفِ إِيْطُولُ	نَعَجَزْ عَنْوَمَا نُؤْفِي صِيْفَاتُو ²
وَإِذَا رَكَبُوا يَلْعَبُوا فَرَسَانْ أَتَجُولُ	تَسْمَعُ لَزْرَقْ كِي إِيْعَلِّيْ صِهْلَاتُو ³
وَالْفَارِسْ نَعْتِ الْعَقَابِ إِيْجِي مَعْدُولُ	يَزْرُشْ نَعْتِ السَّافِ هَبُوا رِيْشَاتُو ⁴
هَزُّوْا رِيْحَ غَرَامٍ بِالسَّمَرَةِ مَخْتُولُ	سَبْعَ مَكَاحِلْ مَا تُبْرَدُ مَخْنَاتُو ⁵

1- المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، ص: 399.

2- ما نقدرش: لا أقدر.

3- لزرق: الحصان الأزرق.

4- نعت: مثل. يزرش: ينقض ويصدر أصواتاً قوية. الساف: الطير الجارح.

5- مكاحل: بنادق.

يَنْظُمُ بِالْبَارُودِ وَالسَّيْفِ الْمَسْـلُولِ	مَتَنَقَّبَ مَحْزُومٌ تَقْتُلُ نَظْرَاتُـو
كَارِمْ لَزَرْقٍ عَالِفُو فِي وَقْتِ اسْبُـوَل	يَشْبُهُ لَزَوِي زَيْنٌ فِي تَقْفَاطَاتُ ¹
وَتَشِيرَلُو زِينَةُ التَّحْفَةِ وَالسُّـطُونِ	وَتَزْغَرْتُ وَغَرَامُهَا مَا خَفَّـاتُ ²
الْمُهْرَةُ الْحُرَّةُ كِي اتَشُوفُ الْفَحْلُ اتَّصُولُ	وَيَا حَسْرَاهُ عَلَى الْحُبِّ وَلَيَعَاتُ ³
وُسُلَاخٌ مِنَ الدَّارِ يَلْمَعُ عِنْدَ افْحُولِ	وَعَلَى رُوسٍ ابْنَاتٌ كَبَتْ جَعْبَاتُ ⁴
وَيُولِي مِنْ شَافٍ ذَا الْمَشْهَدِ مَذْهُوَلِ	وَيَسْلَمُ لَوْلَادُ نَائِلٍ مِنْ دَاتُـو ⁵

ومن ثم يسترسل الشاعر في ذكر صفات نساء أولاد ناييل، لذلك اختار فتاة

منهن لتمثل غيرها من الجميلات، وراح يعدّد مواطن جمالها قائلاً:

مَاذَا مَلَكُوا مِنْ أَحْرَائِرٍ عَنْهُمْ قَوْلُ	اغْزَالَةُ لَغْزَالٍ جَاتِ وَسَامَاتُ ⁶
يَنْشَفُ رَيْقُو تَخْطُفُو بِنْتُ الْمَرْحُولِ	بِالْبَسْمَةِ وَالْعَيْنِ تَقْدِي جَمْرَاتُ ⁷
يَتَلَوّعُ كِي تَصْهَدُو وَيَشُوفُ الْهُولُ	فَوْقَ الْخَدِّ اتْسِيلُ دِيْمَا دَمْعَاتُ ⁸
كِي يُنْظَرُ لَوْصَافُهَا يَبْقَى مَخْتُوَلِ	وِيَهَاتِي بَغْرَامُ تُصْعَبُ كَيَّـاتُ ⁹
شَعْرُ امْعَطَّرَ طَائِحٍ عَلَيْهَا مَسْبُـوَلِ	أَسْوَدُ نَعْتِ اللَّيْلِ جَا فِي شَتَوَاتُ ¹⁰

1- كارم: اسم فاعل من الفعل أكرم. عالفو: وفر له العلف. اسبول: سنابل. لروي: الغزال.

زين في تقفاطاتو: جميل في قفزاته.

2- تشيرلو: تشير إليه. زينة التحفة: جميلة من حيث اعتدال القدّ وأناقة المظهر واللباس. تزغرت: تزغرد.

3- كي اتشوف: عندما ترى.

4- روس: رؤوس. كبت: أفرغت وأطلقت. جعباتو: جمع جعبة وهي وعاء الرصاص.

5- يولي: يصير. شاف: رأى. يسلم: ينظم تحت لوائهم.

6- احراير: جمع حرة. جات وساماتو: جاءت وجلست بجانبه.

7- ينشف: يجف. ريقو: ريقه.

8- معنى الشطر الثاني: يصاب بلوعة الحب ويكتوي بناره.

9- مختول: مختل. يهاتي: يهذي.

10- طايح: مرسل. نعت: مثل.

- عَطَى الْحُرَّةَ كَامِلَةً مِنْ عَرْضٍ وَطُولٍ فَوْقَ الْجَبْهَةِ طَابِعَاتُو جَمَّاتُو¹
 الْعَيْنَ الْكَحْلَةَ فَوْقَهَا حَاجِبٌ مَكْحُولٌ وَالْيَ تَنْظُرُ لِيَهْ فَالْحَيْنَ ادَّاتُو²
 يَبْقَى خَاضِعٌ عَدَّهَا طَايِحٌ مَسْبُولٌ سَبَعُ الْهَدَّةِ طَوَّعَاتُو لَبَّاتُو³
 دَبَّالَةٌ بَغْيُونُهَا تَسْبِي لِعُقُولٍ يَا وَيْحَ الْيَ صَيِّدَاتُو مَلَكَاتُو⁴
- ثم يكمل الشاعر وصفه لهذه الفتاة الجميلة من قوم أولاد نايل؛ فيقول:
- سُبْحَانَكَ يَا خَالِقَ الطَّرْفِ الْمَذْبُولِ فَاقِ الْمَغْنَاطِيْسَ وَالسَّحَرِ وَفَاتُو⁵
 الْخَذِ النَّائِرِ وَالْعُطُورَةَ وَرَدِ اتْلُوُلُ يَلْمَعُ بْنُ نَعْمَانَ جَا فِي مِيقَاتُو⁶
 وَشَفَايِفِ خَلَاوُ ذِ الْعَاقِلِ مَهْبُولِ سُبْحَانَ الْبَدِيعِ بَيْنَ آيَاتُو⁷
 وَاسْنَانَ التَّبَرُّورِ تَلْمَعُ شَاوُ اطْلُوُلُ وَالْمَسْنَوَاكِ اِيْجُولُ دَاخِلُ فَلْجَاتُو⁸
 الْيَ ذَاقُو كُلَّ هَمٍّ عَلَيْهِ اِيْزُولُ طَبُّ امْخَيَّرَ كَانَ جَادَتْ وَاَعْطَاتُو⁹
 وَالرَّقْبَةَ بِسَخَابِهَا حَبُو مَكْحُولِ مَسْكُ وَعَنْبَرُ عَطْرَاتُو مُوَلَاتُو¹⁰
 بِرَوَايِحِ وَاَعْطُورُ تَكْسِفُ نَعْتُ اهْطُولِ اَنْحَيَّرَ مَنْ كَانَ نَايِمٌ وَصَفَاتُو¹¹

- 1- طابعاتو جمَّاتو: زادته خصل الشعر المتدلّية على جبهتها جمالا.
- 2- الكحلة: السوداء. الي: الذي. ادَّاتو: أخذت عقله وقلبه بنظراتها.
- 3- عدَّها: عندها. طايح مسبول: للكلمتين هنا نفس المعنى أي مجنون بحبها لدرجة الإغماء وفقدان العقل. الهدّة: الخصلة الجميلة؛ والجمع: هدّات. لباتو: لبؤاته.
- 4- سبق شرحها.
- 5- سبق شرحها.
- 6- النائر: المنير. اتلول: تلال. جا في ميقاتو: جاء في وقته.
- 7- شفايف: شفاء. خلاو: تركوا. مهبول: مختل ومجنون.
- 8- التبرور: البرد. شاو اطلول: في بداية طلاته (أول سقوطه). فلجاتو: مفردها فلجة وهي فراغ بين السنتين الأماميتين العلويتين (علامة من علامات الجمال لدى المرأة والرجل).
- 9- الي ذاقو: الذي ذاقه (من ذاقه). طب: دواء.
- 10- سخابها: السخاب هو عقد طويل يصنع في المنقطة من مواد عطرية كالمسك والعنبر، لونه أسود.
- 11- تكسف نعت اهطول: تفوح بشدة مثل الأمطار الغزيرة. نايم: نائم. صفاتو: وصلت إليه.

صَدْرُ امْرِفَعٍ وَالنَّهْودُ اضْرَافُ امْثُولُ ¹	مَنْ تَفَاحَ اخْيَارُ مَعْلَى سَجَرَاتُوه ¹
سَاقُ امْبَرَمَ رَادِمُ الْكَعْبَةِ مَعْدُولُ ²	وَيَا لَطِيفَ إِذَا أَنْ هِيَ عَرَاتُوه ²
رَجُلُ اصْغِيرَةٍ وَالْخَوَى قَوْسُ مَهْلُولُ ³	وَاعْظَرَ بِالْحَنَّةِ الْحَرَّةَ حَنَاتُوه ³
مَرْبُوعَةٌ فَالْقَدْ لَا قَصْرَ وَلَا طَوْلُ ⁴	وَتُسَاعِدُ خَطِيبَهَا مَا عَيَّاتُوه ⁴
اجْدِيَّةٌ فَشْتَالُ فِي لَعَطَافِ اتْجُولُ ⁵	تَلْعَبُ فَالنَّوَارُ تَشْتِي نَطَّاتُوه ⁵
تَرْوَجُ بِنُ عَمَّهَا مُحَالُ اتْحُولُ ⁶	عَرَبِيَّةٌ فَالْدَمَّ عَاهِدُ وَفَاتُوه ⁶
الْي شَافُ اغْرَاسُهُمْ يَتَخَمَّرُ طَوْلُ ⁷	يَنْفَخُ فَالْحَيَاةُ تَحْيَا نَخَوَاتُوه ⁷
يَبْهَرُ بِيَهْ اجْحَافُ وَابَارِيدُ تَقُولُ ⁸	عَرْمُ وَزْغَارِيْتُ لَجَبَةٍ دَوَاتُوه ⁸
إِيهَزُو رِيحُ الطَّرَبِ نَعْتُ الْمَخْتُولُ ⁹	دَايِسُ عَقْلُو حَيْرَاتُوه شَوْفَاتُوه ⁹
يَتَهَوَّلُ وَيَعُودُ لَا قُوَّةَ لَا حَوْلُ	يَسْبَحُ فَالْخَيَالُ تَكْثُرُ نَشَوَاتُوه ⁹

أليست هذه الصفات من أجمل الصفات التي يمكن أن تتحلى بها أي امرأة جميلة على سطح هذه الأرض؟! بلى إنها كذلك، فلا بد لأي رجل أن تسحره علامات الجمال هذه، ولا بد لأي ذكر أن يقع في غرام أنثى تتميز بمميزات كهذه. إنه سحر الجمال والملاحم العربية الأصيلة.

1- امثول: متماثلان. معلى سجاتوه: ما أعلى شجراته!

2- معنى الشطر الأول: ساق ممثلة تخفي الكعب معتدلة.

3- الخوى: فراع في أسفل الرجل (علامة من علامات الجمال عند المرأة خاصة).

4- ما عياتوه: لم تتعبه.

5- يتضمن هذا البيت كناية عن مرحلة الشباب وعنفوانه.

6- شاف: رأى. يتخمر: يذهل وينبهر.

7- يبهز: ينبهر. اجحاف: جمع جحفة وهي ما يوضع فوق الجمل لتجلس فيه المرأة عند السفر. اباريد: جمع

جمع بارود. عرم: جمع عارم وهي أنثى الطير (أنثى العقاب). دواتو: أفزعته فهرب.

8- دايِس: حائر ومنشغل. شوفاتو: رؤاه.

9- يتهول: يصاب بالهول.

والمرأة في توظيف شعراء منطقة بوسعادة هي رمز للجمال والخصوبة والحب والحنان والعطف والدفع. إنها القلب الواسع والصدر الرحب والأمل الواعد. وليس بعيدا عن سحر المرأة/ الأنثى؛ هناك سحر الأرض/ التربة/ الوطن. يقول الشاعر "عبد القادر العطوي" عن الصحراء؛ موطنه الأصلي ومسقط رأسه، وقد سحره جمالها وتعلق قلبه بتربتها واشتاقت نفسه إلى أهله وأحبابه فيها، وذلك في قصيدة "البيت الحمراء":

ذَا بَرِّي مَبْهَاهُ مَخْلَاهُ بِنَظْرَةٍ أَلِي شَافُو قَالُ مَا عَادَشُ يَنْسَاهُ
ابْنُ الصَّخْرَا وَصَخْرَتِي لَيَّا فُخْرَةً سَخَرْتَنِي بِجَمَالِهَا أَلِي الرَّبِّ اعْطَاهُ

الصحراء؛ فاخرة ذات بهاء وجمال، يحلو لساكنيها العيش فيها، ويروق للزوار الاستمتاع بمفاتيحها. إنها الأصل والموطن ومصدر الخير والأرزاق، وهي رمز للخيال الواسع والحياة السعيدة والعمر الطويل والمودة والتعاون والاجتماع؛ الصحراء تشبه المرأة تماما، إنها رمز للخصوبة والطهارة والنقاء والصفاء والعفة واستمرار الحياة وتواصل الكون، وهما رمز للجمال والبهاء والسعادة والبهجة والغبطة والسرور، حيث تشرحان النفس وتفرحان القلب. ولولا طول القصيدة المعتبر لأدرجنا أهم الأبيات التي تدل على هذا الجمال والسحر.

لقد استخدم الشاعر لفظة السحر مرتبطة بلفظة الجمال، وهذا دليل واضح على ما قلناه سابقا من أن السحر في توظيف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة هو رمز للجمال والحسن، ولا يرد أحد المصطلحين في قصيدة شعبية عند هؤلاء الشعراء تقريبا -إلا ورد المصطلح الآخر برفقته. هذا يدل على أن هؤلاء الشعراء قد هذبوا الكلمة ولم يستخدموها على أنها تحمل معنى السحر الحقيقي - كما ورد في القرآن الكريم - الذي حرّم المولى عزّ وجلّ تعلّمه وممارسته،

وإنما حاولوا توظيفها توظيفاً رمزياً جمالياً يوحي بثقافتهم الدينية العالية ومستواهم الأخلاقي الراقى.

من هنا؛ يتضح لنا جلياً أن هذا الاستخدام الرمزي للسحر خصوصاً هو توظيف واضح المعالم بعيد عن كل ما يشوبه من سوء ظن أو خروج عما أمر به الدين الإسلامي وما نهى عنه، ولا يعني هذا الاستخدام الرمزي أن الشعر الشعبي في منطقة بوسعادة «يجري ويلهث وراء توظيف الرموز واستلهاهم واستدعاء دلالاتها دون وعي بحقيقة تلك الرموز وخلفياتها المرجعية»¹ بل على العكس من ذلك فهو «ملتزم بضوابط وقواعد تتعلق أولاً برؤيته وتصوره الخاص وترتبط ثانياً بنظريته التي لا تغفل عن دور السيّاق في العملية الإبداعية ومن ثم يدقق في السياقات التي ينبغي أن يتنزل فيها الرمز حتى لا ينفلت عن دلالاته المقصودة».²

المقصودة».²

هذه الشروط وغيرها هي ما جعل شعراء المنطقة يعطون لفظة السحر بعداً جمالياً فنياً أكثر منه دينياً عقائدياً، وقد يكون ذلك أيضاً مرده إلى حساسية الكلمة في الوسط الشعبي، وأياً كانت الأسباب والظروف تبقى كلمة السحر عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة دالة على كلّ ما هو جميل يبهر ويسعد الإنسان، وقد نالت المرأة الحظ الأكبر من هذا الجمال لأنها أصل الحياة ومصدر الحب؛ وباختصار شديد؛ السحر عند شعراء بوسعادة هو الأنثى، الجمال والحبّ.

1- رابح بن خويّة: شعيرة المعنى الصوفي في القصيدة -شعر محمد الغزالي أنموذجاً- حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر، ع5، نوفمبر 2015، ص: 13.

2- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

6.3 - الحبل والغزل:

الحبل والغزل لفظان تم استخدامهما من طرف المولى عز وجل في القرآن الكريم، وهما من أساسيات الحياة في منطقة بوسعادة؛ إذ يتم الاستعانة بالحبال والخيوط بأنواعها في مختلف الأعمال والصناعات، ومنها الصناعات التقليدية التي تنتشر في المنطقة بكثرة وتنوع، ولا غنى لسكان بوسعادة عن صناعة النسيج التي تعتمد على خيوط الشعر والصوف والوبر وغيرها في إبداع أجمل الألبسة والأغطية والأفرشة التي لازال الإنسان في حاجة ماسة إليها في عصرنا الحالي.

وتعد الخيمة بلونيهما؛ الحمراء والسوداء من أهم هذه المنسوجات في بيئة أولاد نايل وما جاورهم، ذلك لأنها تعتبر مصدرا للأمان والاستقرار والراحة بالنسبة إليهم، ومن ثم كان توظيف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة لكلمتي الحبل والغزل كرمزين يحملان العديد من الدلالات التي توحى بنمط معيشة معين وتشير إلى بيئة محافظة مرجعها في الحياة هو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما صحّ عن الصحابة - رضوان الله عليهم - والتابعين والعلماء، وما تعارف عليه السكان كالعادات والتقاليد والأعراف التي توارثوها أبا عن جدّ فصارت بالنسبة إليهم قوانين تنظم سير المجتمع.

لقد وظف شعراء بوسعادة لفظة الحبل في قصائدهم بشكل مباشر تارة وتارة أخرى وظفوا لفظة الغزل للدلالة على الأمور المعقدة والمضطربة في حياة الإنسان، وهناك دلالات عديدة نكتشفها في الأبيات الموالية؛ بداية من الحبل كرمز ديني إلى غاية الخيوط المتشابكة المتداخلة المختلطة.

الشاعر "إسماعيل مدّاد" يعاتب قلبه ويلومه بشدة في قصيدة "دار بلا ساس"، ويخاطبه بقوله:

يا قلبي عيَّنتي ما كاش لأَباس
يا قلبي مَرَمَدتني ما بين النَّاس
يا قلبي عَذَّبتني بالجمرة حاس
من نارك حسيَّت ليَّام اطَّوالو¹
يذري منهم كُلُّ واحد في حالو²
سيدي ربِّي غيَّثني زاد اهبَّالو³

إنَّ القلب حسب توظيف الشاعر هو المحرك للإنسان والقائد والرُّبَّان، وهو الدافع لعمل الخير أو الشرِّ، وهو الأمر والنَّاهي، وهو الحامل للمشاعر المختلفة والعواطف المتنوعة، لذلك فإنَّ الشاعر يعرف جيداً بأن هناك عوامل كثيرة ستأثِّر على هذا العضو الحساس في جسم الإنسان. يوضح الشاعر هذه العوامل والأسباب في قوله:

هَذَا كَوْنُكَ يَا رَبِّي وَأَنْتَ عَسَّاسُ
أَسْبَابُ لَوْهَامِ نَفْسُو وَالْوَسْوَاسُ
هَذَا عَبْدُكَ يَا سَيِّدِي سَقَمَ حَالُو⁴
مَنْ تَرْبَةً وَأَضْعِيفَ وَأَرْشَاتٍ أَحْبَالُو⁵

لقد تعدَّدت الأسباب التي أدت إلى إحساس الشاعر بالضعف والتعب النفسي والحيرة، وما الشاعر إلا صورة مصغرة عن الإنسان بشكل عام؛ هذه العوامل هي الأوهام والنفس البشرية في حدِّ ذاتها إضافة إلى الشيطان الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ولم يكن تأثير ذلك عليه وعلى غيره إلا لأصله الترابي؛ قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} ⁶، وضعفه وحباله البالية بينه وبين ربِّه وبينه وبين الآخرين من بني البشر.

1- عيَّنتي: أتعبتني. ماكاش لأَباس: لست بخير. ليَّام: الأيام.

2- مَرَمَدتني: أشعرتني بالذل والهوان. يذري: يكفي.

3- غيَّثني: أغثني. اهبَّالو: جنونه.

4- عساس: حارس.

5- ارشأت احبالو: صارت حباله بالية ورثَّة.

6- سورة آل عمران، الآية (59).

الحبل في قول الشاعر هو رمز لدين الله الذي أمرنا أن نتمسك به، وأسبابه التي يجب أن نتعلق بها وذكره وعهده إلينا في كتابه، من الألفة والاجتماع على كلمة الحق، والتسليم لأمر الله، وهذا تأويل قوله تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا}.¹

والحبل في لغة العرب هو العهد.² ورثاة الحبل وقدمه وضعفه في قول الشاعر هو دلالة على ضعف الإيمان ووسوسة الشيطان وعدم الثقة في النفس واتباع الهوى. وهو -أيضا- ما أشار إليه الشاعر "السعيد بوعشرين" في قصيدة "سيدي خالد"، حينما اشتاق إلى زيارة هذه المدينة الثرية العريقة، فرحل إليها بخياله رحلة تاريخية فنية استحضر من خلالها عبق التاريخ ممزوجا بنشوة الحاضر. إنه حب المكان الطاهر وسعادة الإنسان بإخوانه الذين يرتاح بجلوسه بينهم ويسعد بتبادل أطراف الحديث معهم؛ لذلك فهو يناجي المولى عز وجل بقوله:

1- سورة آل عمران، الآية (103).

2- ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1994، ص: 298.

الرَّحْمَةُ يَا خَالِقِي ضَيْمِي سَدَى ذَنْبِي رَاهُ كَثِيرُ عَفْوِكَ نَتْرَجَّاهُ¹
وَارْحَمْ قَاعَ الْمُؤْمِنِينَ ابْلَا عَدَّة وَأُطْفِئْ بَيْنَنَا يَا الرَّحْمَنُ الْإِلَاهُ²
وَالصَّلَاةَ أَعْلَى أَحْمَدُ لَيْنَا عُمْدَةَ يَشْفَعُ فِينَا عَدُّ رَبِّي فِي مَلَقَاهُ
مَانِي شَاعِرُ قِي الْخَاطِرُ كِي صَدَى ضَاقَتْ رُوحِي سُورُ ذِ الْبُرِّ قُصْدَنَاهُ³
وَالْفَنَّا بِحَدِيثِ مَنْكُم مَّا يَرْدَى قَوْلُ امْرِصَّعٍ بِالذُّهَبِ لِلْقَلْبِ ادْوَاهُ⁴
أُوَهَادُ الشَّاعِرُ بَيْنَكُمْ شَاتِي قَعْدَةَ إِيرِيحُ بَعْدُ التَّعَبِ وَإِيزُولُ اشْقَاهُ

يطلب الشاعر من المولى عز وجل أن يرحمه وأن يغفر ذنبه ويعفو عنه؛ وتتضمن عبارته (ضيمي صدَى) كناية عن شدة الحزن والألم واعتصار القلب نتيجة لكثرة الذنوب والمعاصي، وهي كناية - أيضا - عن التعب النفسي الذي يعانيه الإنسان منذ ولادته إلى غاية وفاته عبر محطات حياته باحثا عن السعادة والاستقرار. لقد صار حزن الشاعر كالنسيج المتشابك الذي غطى على قلبه وعينه فلم يعد يعرف للفرح والسرور طعما ولا للراحة والنوم سببا إذ أصبح لا يهنأ له بال ولا يصفو له عيش إلا إذا زار مدينة سيدي خالد وفاز بقعدة مع فحولها وشعرائها، ولا يرتاح شاعر إلا مع الشعراء أمثاله...

وتشتاق الشاعر "الزهرة اشويحة" إلى زيارة قبر الرسول p والتمتع بالقرب منه وإمتاع حواسها كاملة بعطر سيرته الزكية في ذلك المكان الطاهر حيث تقبع

1- ضيمي: حزني الشديد وألمي القاتل. سَدَى: لفظة فصيحة؛ ومنه شَدَّتْ النسيج: أقامت سداها، سَدَّتْه وعبرة (ضيمي سَدَى) تتضمن كناية عن شدة الحزن والألم والحيرة.

2- قاع: جميع: كل. ابلا عدة: بدون عدّ

3- ماني: لست. قي: لفظة يطلقها بعض سكان المنطقة، وتنتطق (قا) عند البعض الآخر، وتأتي للتأكيد. وهنا قد تعني: غير. صَدَى: صار صدئا من شدة الحزن والألم والشوق؛ وتتضمن العبارة (قي الخاطر كي صَدَى) كناية عن شدة الحزن والألم والشوق.

4- ما يردى: لا يحول ولا يفتنى.

أحب بقعة إلى المولى عز وجل على سطح هذه الأرض، وهي ترجع أسباب طول انتظارها وعدم توفيقها إلى اضطراب أمورها وتعدد مسالك حياتها. تقول:

أَسْمِي سَبْعَ حُرُوفٍ نَذْكُرُ لَا خَفْيَانِ وَاهْلِي مَعْرُوفِينَ بِالشَّعْرِ امْتَالِي¹

أَسْمِي الزَّهْرَةَ وَاهْلِي مِنْ لَعْيَانِ بِجَاهِكْ يَا رَبُّ سَلِّكَ اخْبَالِي²

تدعو الشاعرة المولى عز وجل وتتوسل إليه أن يفك أزمته ويحل عقد حياتها، وأن يرتّب أمورها العالقة، المتشابكة والمتداخلة في بعضها البعض. لقد شبّهت الشاعرة حالتها الصعبة بحالة الخيوط التي اختلطت وعلقت ببعضها البعض وصعب فرزها والتفريق بينها، وهذا هو ما دلّت عليه العبارة: (سَلِّكَ اخْبَالِي) التي تحمل في ثناياها كناية عن صعوبة الأوضاع وشدة الحيرة والشوق الدائم والمستمر لزيارة النبي p والرغبة الجامحة في أداء مناسك الحج إلى بيت الله الحرام.

أما الشاعر "البشير قذيفة" فقد هام بحب فتاته، واختلط عليه الأمر، وكاد يفقد عقله بعدما رمته صاحبتة بسهامها ثم هجرته إلى الأبد.. ورغم أنها لم تكن بعيدة عنه ولم يكن يفصلها عنه إلا مسافة قصيرة إلا أنه كان يعاني من البعد المعنوي؛ بعد القلوب عن بعضها رغم قرب المسافات. احتار الشاعر ولم يدر ماذا يفعل أو كيف يتصرّف، فجعل يقول:

بَعْدَ أَنْ قُلْتُ خُلَاصَ مَنْ هَازُ الْخَطَرَةِ مَا نُدْخُلُشِي بِحَزْمِ شَطْوِ نَخْطِيَةِ³

1- خفيان: خفية.

2- لعيان: الأعيان.

3- الخطرة: المزة. ما ندخلشي: لا أدخل.

أَزْمَانِي مَكْتُوبٌ يَا هَآذُ الْحُضْرَةَ رَانِي فِي زِيَارٍ وَحْدِي حَاصِلٌ فِيهِ¹
 أَزْمَانَتِي بَسْنَهَامَهَا طُفْلَةٌ سَمَرَةٌ تَوَدَّرَ عَقْلِي حِينَ رَبِّي رَادٌ عَلَيْهِ²
 لَا طَالِبٌ لَا طَبِيبٌ يَنْفَعُ ذَ الْمَرَّةِ وَالْجُرْحُ إِذَا طَالَ وَاشْ اتَدَاوِي فِيهِ³
 عَنِّي مِيشٌ بُعِيدٌ وَأَنَا فِي حَيْرَةٍ اتَخَبَّلُ غَزْلِي وَمَا صُبْتُ أَنْسَدِيَّةً⁴
 رَاهَا تَسْهَرُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي دَشْرَةٍ وَسُمِّحْتُ فِي الْيَّ حَبُّهَا مَابَاتٌ اتَّجِيهَ

لقد فسد غزل الشاعر وخبل الغرام قلبه، ولم يعرف طريقة مثلى يسترجع بها محبوبته، فصار يشكو حظه ويريح خاطره بأبياته التي يعصر فيها قلبه عصرا ويبث فيها مكبوتاته وأشواقه الكامنة، حيث استخدم لفظة الغزل التي سبقها الفعل (اتخَبَّل)؛ وفي أسبقية الفعل الذي يحمل صفة فاعله الذي يليه دلالة على الحالة السيئة للشاعر، ونفسيته المتعبة الحائرة، وفي الشطر: (اتخَبَّل غزلي وما صبت أنسدِيه) كناية جميلة عن أزمة الشاعر وبلوغها ذروة الحزن والألم والشوق والحيرة، وجاء رمز الغزل الفاسد المختلطة خيوطه للدلالة على كل ما سبق ذكره.

وقد أحسن الشاعر باستخدامه لحرف الهاء الساكنة كحرف رويّ لقصيدته، وليس ذلك فقط، بل أضاف على ذلك أن سبق حرف الروي حرف الياء الساكنة التي سبقتها كسرة، والكسرة - أيضا - سبقها سكون؛ كل ذلك هو إبداع من الشاعر الذي جعل لقصيدته نفسا طويلا وصدى عميقا من خلال توظيفه لحرف الهاء الذي هو من الحروف المهموسة الرخوة، يخرج من أقصى الحلق ويجري

1- الحضرة: الحضور: الحاضرين. راني: إني. زيار: أزمة وضيق.

2- تودَّر: ضاع. راد عليه: أراد له ذلك.

3- طالب: أطلقت عند سكان بوسعادة في بادئ الأمر على كل عالم حافظ للقرآن الكريم، ولكنها حرّفت عن معناها الأصلي وألحقت بكل ساحر أو عراف.. وش: ماذا.

4- ميش: ليست. اتخبل: فسد وتشابك واختلط. ما صبت: لم أستطع. أنسدِيه: (فصيح): أسديه. ومنه: سدّت النسيج: أقامت سداه: سدّته.

معه النفس، وهو قابل للمط والتطويل. وهي تقريبا نفس الصفات التي تميّز حرف الياء في اللغة العربية إلا أن الياء حرف مجهور وهو من حروف المدّ.

هذه الصفات التي ميزت قافية الشاعر ساعدته على إطلاق آهاته المتتالية وزفراته المتوالية، ومكنته من أخذ حريته التامة في التعبير عن مشاعره وعواطفه، فانسرحت خوالج نفسه المرهقة الباكية سابحة في فضاء من الحزن والحيرة والألم، ومستغيثة عساها تجد حلا وانفراجا.

إنها لواعج الحب والعشق التي تجعل أي شاعر يترك لنفسه الحرية ويطلق لها العنان لتأخذ طريقها إلى قلوب المتلقين.

وهو ما يتضح جليا عند الشاعر "الحمدي بوشنافة" الذي أخذت فتاته "الزايخة" عقله قبل قلبه، وخبلت غزله بعدما كان مستويا معتدلا، حيث يخاطب الشاعر محبوبته ويعترف لها بحبه قائلا:

حَبِّيتُكَ يَا الزَّايخَةَ قَلْبِي يَبْغِيكَ ¹	أَدَيْتِي عَقْلِي رَاهُ رَاخٍ وَخَلَانِي ¹
مَنْ حُبُّكَ حَبِيتُ كُلَّ يَوْمٍ أَنْجِيكَ ²	نَنْتَزُهُ قَا كِي أَنْشُوفُكَ بَغْيَانِي ²
كِي تَحْكِلِي أَنْعُودَ نَنْظُرَ لَسْنَانِيكَ ³	جَوْهَرُ بَيْنَ اشْوَارِكَ زَادَ اكْوَانِي ³
وَالشَّفَّةَ رُمَانٌ زَادَتْ بَسْمَةَ لِيكَ ⁴	تَفَتَّتَ الْقَلْبُ إِلَيَّ امْسَكَّرَ دَخْلَانِي ⁴

1- الزايخة: المرأة المليحة الجميلة ذات الحسب والنسب والمال. يبغيك: يحبك. أديتي: أخذت. خلاني: تركني.

2- انجيك: أجيئ إليك. نتززه: أتنزهه؛ والمقصود هنا: أبتهج وأفرح. معنى الشطر الثاني: أبتهج وأفرح بمجرد أن أراك بعيوني.

3- كي: عندما. انعود: أعود؛ والمقصود هنا: أصير: أصبح. سنانيك: أسنانك. اشواريك: شفاهك.

4- امسكر: مغلق. دخلاني: من الداخل.

عَيْنُكَ كَحَلَّةٌ وَالْحُلُّ وَاتَى عَيْنِيكَ
شَعْرُكَ مِثْلُ حَرِيرٍ طَائِحٍ بَيْنَ إِيْدِيكَ
وَأَنْتِ بَيْضًا وَزَايِدُ الْخَدِّ امْوَاتِيكَ
قُدْرَةُ رَبِّي خَالِقِي وَشُ صَوَّرَ فِيكَ
خَدُّكَ وَرَدَّ رَبِيعٌ عَنْ كُلِّ الْوَانِي¹
أَكْحَلُ مِثْلُ غَرَابٍ فَوْقَ الْجُنْحَانِي²
وُخْبَلْتِي غَزْلِي الْيَّ كَأَنَّ امْقَانِي³
زَيْنُكَ لَخْلَاقٍ كُلُّشْ مِيزَانِي⁴

اهتم الشاعر بمحبوبته اهتماما عظيما، وأحبها حبا شديدا، وتحركت مشاعره لتبدع لنا قصيدة من أجمل ما قيل في غرض الغزل وفن الوصف. إنها الأنثى التي دائما ما تصنع مواقف الأنس والجمال والحنان والدفء والعطاء والحب.

لقد خبلت هذه الفتاة غزل الشاعر بعدما كان قائما معتدلا، وذلك من خلال جمالها بشطريه: الجمال المادي والجمال المعنوي، وصارت لفظة (الغزل) رمزا للحياة البشرية وحالة الإنسان من حيث شدة حبه وعشقه لطرفه الآخر وبالتالي تعلقه بالحياة وبحته عن السعادة وحرصه الدائم على التواصل مع غيره.

أما الغزل الفاسد فهو على العكس من ذلك؛ هو رمز للاضطراب والحيرة والشوق واتباع الهوى والتعلق بالآخر والتمسك بالمحبة وجعلها أولى الاهتمامات، والغزل المتشابك المختل هو رمز للحالة النفسية المضطربة التي يعانيها الشاعر أثناء مرحلة تفكيره في الفتاة التي سلبت عقله وسرقت قلبه فأصبح أسيرا في سجن هواها وأضحى عالقا في شباك غرامها.

1- كحلة: سوداء. واتى عينيك: زاد عيونك جمالا وبهاء. الواني: أصلها: ألوان؛ وقد أضاف الشاعر ياء المدّ لضرورة شعرية أوجبها استقامة الوزن الشعري.

2- طايح: منسدل ومتدل. أكحل: أسود. الجنحاني: الجناحين.

3- امواتيك: زادك حسنا وجمالا. خبلتني: أفسدت. امقاني: قائم ومننظم.

4- وش: ماذا. زينك: حسن لك وجمل لك. كلش: كل شيء. ميزاني: أصلها: ميزان؛ والياء للضرورة الشعرية. وكلمة ميزان هنا تحمل كناية عن العدل وتساوي الطرفين: جمال الشكل وجمال الأخلاق.

وهذا ما نلمسه - أيضا - عند الشاعر "عبد القادر العطوي" عندما يستهل حديثه عن الحياة الدنيا، ومثاله في ذلك هو "الحاج الطاهر" الذي رمز إليه بالعود (الحصان).

يقول الشاعر معبرا عن ذلك:

حَالُ الدُّنْيَا كِي الْي تَحْتُ سَجِيرَة	فَاتِ الظَّلَّ عَلَى اِيْمِيْنُوْ وَاتِيَّاسِرْ ¹
يَزْبِخُ مَوْلُ الْخَيْرِ وَامْلِيْخِ السَّيْرَة	يَفُوْتُ عَلَى لِحْسَابِ بِالْخَفَّةِ طَايِرْ ²
بْنُ شَرَّابِ الْوَادِ جَابِ التَّدْكِيْرَة	اِيْنْبَهْ مَنْ رَاَهْ فِي غَزْلُوْ خَامِرْ ³
مَانِيْشْ عَلَى عَوْدٍ وَلَا تَقْصِيْرَة	اِنْظَمْتُ اِرْكَابِيْ عَلَى الْحَاجِ الطَّاهِرْ ⁴

لقد كشف الشاعر عن رمزه في بيته الأخير، ومع ذلك فقد أراد أن يجعلها تذكرة منه لجميع الناس، وأن ينبه كل شخص غافل لم يستوعب الحياة من حوله بعد، وفي هذا إشارة إلى قول المولى عز وجل في القرآن الكريم: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ⁵؛ ويقال أن التي نقضت غزلها هي امرأة من مكة تدعى "ريطة" كانت خرقاء مختلة العقل، ولها جوار، وكانت تغزل هي وجواربها من الغداة

1- سَجِيرَة: شجيرة؛ ويقلب سكان منطقة بوسعادة بعض الحروف في الكلمات. اِيْمِيْنُوْ: يمينه. اتِيَّاسِر: صار على جهته اليسرى.

2- مَوْل: صاحب. يَفُوْتُ: يمر.

3- جَابِ التَّدْكِيْرَة: نظم القصيدة للذكرى. خَامِر: غافل وتائه.

4- مَانِيْش: لست. عَوْد: حصان: فرس. تَقْصِيْرَة: قصة أو حكاية مضحكة. اِرْكَابِي: قصيدتي.

5- سورة النحل، الآية (92).

إلى الظهر ثم تنقض ما غزّته وهكذا تفعل كل يوم، فكان حالها إفساد ما كان نافعا محكما من عملها، وإرجاعه إلى عدم الصلاح.¹

وفي موقف آخر، وقصيدة أخرى، يحاول الشاعر رسم صورة واضحة أكثر، وقريبة من ذهن المتلقي، يبرز من خلالها حالته النفسية الصعبة، ويعاتب من خلالها محبوبته على جفائها وعدم اهتمامها به وبمشاعره بعدما أقحمته على خوض تجربة حبّ لها، وكان جمالها الفتان هو السبب في تفكير الشاعر فيها وانجذابه نحوها.

يقول الشاعر في نبرة تفيض عشقا وشوقا وألما وقد وجه سؤاله لهذه الجميلة:

عَلَّاشُ الْجَفْوِ عَلَّاشُ مَنْكُ يَا شَعْوَةَ	حَنِّي عَنُّو وَعَظْفِي عَنُّكَ نَرْضَاوُ ²
مَا شَفَاكَ مَخْلُوقُ مَنْكُ يَتَلَوَّى	قَالَ نُمُوتُ وَمَا تَقُولُشْ لَا تَشْقَاوُ ³
يَقْطَعُ فِي الْمَنْسُوجِ مِنْ بَعْدِ السَّدْوَةِ	تَخْبِلُ غَزْلُو مَا لَقَى لِلْخَيْطِ الشَّاوُ ⁴
نَاشَفَ رِيقُو مِنْ الْعَطَشِ شَاهِي يَرْوَى	وُدْمُوعُو وَيَدَانِ فَصْلُ خَرِيفِ جِرَاوُ ⁵
يَبْكِي بَكِي إِيْتِيْمُ شَافَ امُّو تَهْوَى	رَدْمُوها قُدَّامَ عَيْنِيهِ وَمِشَاوُ ⁶
لَا بَا يَصْبِرُ كِي تَفَكَّرَهَا غُدْوَةَ	شَطْنُ حَالَةِ خَاوْتُو مِنْ بَعْدِ نَسَاوُ ⁷

1- ينظر: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج4، ص: 553/552.

2- علاش الجفو: لماذا الجفاء. شعوة: اسم لنوع من النخل.

3- ما شفاك: لم تأسفي لحاله: لم تشفقي لحاله.

4- الشاو: البداية.

5- ناشف ريقو: جاف ريقه. شاهي: اسم فاعل بمعنى: مشتته. يروى: يرتوي.

6- بكى: بكاء. شاف: رأى.

7- لا با: لا أبا: رفض. كي: عندما. غدوة: غدا. شطن: أقلق وحير. خاوتو: إخوته. من بعد نساو: من بعد ما نسوا.

حَظُّو تَاعَسْنَ مَا لَقِيَ لَا مَا يَهْوَى وَغَشَقْلُو فِي الْي النَّسَا لَيْهَا طَاطَاو¹
مَا هِيَ نَظْرَةٌ عَابِرَةٌ مَا هِيَ نَزْوَةٌ شَدَّيْتِيَهْ أَسِيرُ وَحَبَالِكُ سَادَاو

وظف الشاعر التناص في بيته القائل:

يَقْطَعُ فِي الْمُنْسُوجِ مَنْ بَعْدَ السَّدْوَةِ تَحْبَلْ غَزْلُو مَا لَقِيَ لِلْخَيْطِ الشَّاؤ²

وهو تناص مع الآية القرآنية السابقة التي يسرد فيها المولى عز وجل قصة المرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا. أما في بيت الشاعر فالذي نقض غزله هو الشاعر نفسه بعدما أقامه وعدّله ونسج خيوطه بيديه. لقد أضاع رأس الخيط، وفسد غزله، ولكن تصرفه لم يكن حماقة منه أو وسوسة، لأنه ليس أحقما أو أخرقا أو معتوها، بل هو عاشق متيم ضيعه الحب وخذّلته نفسه المغرمة. لقد صار يهذي كاليتم الذي فقد أمه حديثا، حيث واروها الثرى أمامه ورآها لآخر مرة وقد هوت في قبرها وقذفوا فوقها رزم التراب حتى توارى عن ناظريه جسدها الذي كان يحضنه بكل دفء وحب وحنان وعطف.

إنها صورة رائعة ورقيقة، شبّه الشاعر من خلالها حالته عندما هجرته فتاته وجفته وإن كان هجرها له عابر، لأنها ربما وصلتته فيما بعد بحالة الصّبي الذي هجرته أمه وجفته ولكن الهجر هذه المرة هجر أبدي سرمدى، لا عودة منه ولا أمل فيه للقاء ثان.

هكذا صار الغزل والنسيج والخيوط التي خبلها الشاعر بنفسه رمزا للحياة البشرية التي تتسم بعدم الاستقرار وبالاضطراب، ويدل الغزل المتشابك المختلط في هذه الحالة أيضا على الحبّ وشدة العشق والشغف والوله والولع والشوق لوصال المحبوب والتمتع بجماله عن قرب.

1- طاطاو: طاطان رؤوسهن احترما لها وتقديسا لجمالها.

2- ما لقي: ما لقي. الشاؤ: البداية.

أما الحبال في عبارته (شديتيه أسير وحبالك سداو) فهي رمز لقوة الجاذبية وفتنة الجمال وسحر الأنوثة؛ فالحبل هو الرباط المتين الذي يجمع الأشياء بعضها ببعض، وكذلك الشعور الذي يتولد بين أي أنثى وذكر إذا تألفت الأرواح واتفقت الطبائع وارتاحت القلوب لبعضها البعض. شعور الحب بين المرأة والرجل إذا يشبه الحبل المتين الذي يربط بين الأشياء؛ أما إذا كثرت الحبال ودقت ورقّت وشكّلت نسيجاً فهي دلالة على الحياة البشرية وبناء الشاعر الإنسانية، ثم إذا فسد هذا الغزل وانفصلت عراه فهو دلالة على تمزق الشمل وتأزم الأوضاع والبحث عن الحلول المناسبة لإطفاء نيران الشوق الملتهب وسط الحشا وبين الضلوع.

ولنا في قصة العنكبوت التي نسجت خيوطها على مدخل الغار الذي اختفى فيه الرسول p عند هجرته من مكة إلى المدينة لإيهام المشركين الذي يطاردونه وينوون قتله أكبر مثال قد نقرب به الصورة إلى ذهن المتلقي؛ حيث قال المولى عز وجل: { مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ }¹.

نسيج العنكبوت في الآية الكريمة هو رمز للأمن والاستقرار رغم أن هذا النسيج يشكل أوهن البيوت على وجه الأرض -حسب الآية السابقة- إلا أنه استطاع أن يخبئ ويحمي خير البشر.

لقد صار النسيج في هذه الحالة رمزاً للسلام والأمان والراحة النفسية والجسدية، أما النسيج في عبارة الشاعر (شديتيه أسير وحبالك سداو) فلها دلالات قريبة من الدلالات السابقة بالإضافة إلى أنها توحى بشدة الشوق وقوة الحب وصدق العواطف وسحر الأنثى وجاذبية جمالها ومفاتها التي تأسر الناظر إليها.

1- سورة العنكبوت، الآية (41).

وحبال الأنثى دائما ما تحاصر الذكر وتحكم عليه الخناق وتقتاده إلى أحضانها مهما بلغت قوته وقساوته ومهما وصل تجبره وتكبره.

7.3 - الغيم:

بين الغيم والسحاب تراوح توظيف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة؛ فنجدهم تارة يستخدمون لفظة الغيم، وتارة أخرى يستخدمون لفظة السحاب، والمتلقي يلاحظ بأنهم يوظفون الأولى عند التعبير عن الشوق المرافق للأحياء، ويوظفون الثانية للدلالة على الحنين لمن فقد من الأموات، ولكن هذا الحكم ليس حكما مطلقا في كل الحالات، بل هناك استثناءات يقع فيها بعض الشعراء بالنظر إلى طبيعة المنطقة وثقافتهم الخاصة وخلفياتهم العلمية والدينية وحتى عامل السن وظروف البلاد، كل هذه العوامل قد تؤدي إلى وجود تفاوت في توظيف هذه الكلمة أو تلك، والمهم في الأمر هو كيف وظفت الكلمتان وعلام دلت كل منهما!؟

الشاعر "أحمد وليد بن القبي" يحاول أن ينقل إلينا حالته النفسية الصعبة في قصيدته "زيارة إلى فرنسا"، عندما وجد نفسه وحيدا في بلاد ليست ببلاده وأرض ليست أرضه وأناس ليسوا بأهله. يقول:

بَقَيْتُ نَهْومَ قَا مَعَ وَسْطِ الْكُفَّارِ لَا مَنَ نَفْهَمَ هَدَرْتُوْ نَقْلِبْهَالُوْ¹
هَانِي فِي بَارِيْسَ عَائِشَ يَا حُضَارَ تَحْتَ الْغِيْمِ إِلَيَّ مَنِيْلَ بِكْحَالُوْ²
نُظِّلْ انْهَوْمَ فَالزُّنُقُ مَا عِنْدِي دَارَ وَنُعَدِّي فَالكَاتِبَةُ كَيْمَا قَالُوْ³

الغيم في بيت الشاعر هو رمز للغربة الذاتية والتعب النفسي وهو رمز للفرق والبعد والانفصال والهجر، وفيه إشارة للجهل والكفر وصعوبة التأقلم مع الآخر لاختلاف الدين والمبادئ والعادات والتقاليد ونمط الحياة وأساليب العيش، وأهم اختلاف هو في لغة التواصل بين الأفراد والجماعات.

وكلما اشتاق الشعراء وأخذهم الحنين إلى الأمكنة والمواطن والأشخاص والأولياء الصالحين ذكروا لفظة الغيم فأنجذتهم هذه اللفظة لأحسن تعبير عن مشاعرهم الجياشة وعواطفهم المتقلبة. وهذا ما حدث مع الكثير منهم فقد وظف الشاعر "السعيد بوعشرين" كلمة الغيم عندما تعكرت أجواؤه واغتم وأصابه هم شديد. فانطلق يشدو مادحا معتزا بالولي الصالح "سيدي خالد" ومفتخرا بالمناقب والآثر:

1- انهوم: أهيم. هدرتو: كلامه. نقلبهالو: أرد عليه.

2- هاني: هأنذا. منيل: من النيلة وهي صبغة لونها أزرق غامق تستخدم لصبغة الثياب خاصة عند سكان منطقة الجنوب الجزائري؛ وهنا بمعنى غيم أسود داكن يحجب ما وراءه. بكحالو: بسواده.

3- الزنق: الشوارع الضيقة. الكاتبة: ما كتبه الله للإنسان في حياته.

سَيِّدِي خَالِدٌ جَيْتٌ قَاصِدٌ لَا جَحْدَةَ هَارِبٌ لِيكَ اتَّفُكُنِي جَيْتُكَ نَدَاةٌ¹
 مَنَحِيرٌ مَهْمُومٌ وَأَهْوَالِي هَدَّةٌ غَيْمٌ امْضَهَبْ طَايِحٌ اَعْلِيَّ سَدَاةٌ²
 وَأَلِيَّ قَصْدُكَ زَالَتْ عَلَيْهِ الشَّدَّةُ يَهْنَى بَادِنُ اللَّهِ يَدِّي مَا يَرْضَاهُ³
 يَا سَبْعَ الصُّلَاحِ مَفْتُولُ الزَّنْدَةِ بَنُو عَيْسَ اجْدُودُ ذِ الْقَوْلِ اقْرَيْنَاهُ

شبه الشاعر حيرته وهمه وأهواله الكثيرة بالغيم الراكد الذي يشكل نسيجا من فرط كثافته وتخثره وحجبه لما وراءه، وهي صورة بيانية تتقل بصدق قوة الشوق وشدة الحبّ وألم المعاناة، فالغيم الذي يحجب عن الشاعر تاريخه ومآثره وأصالته ومن يحبهم هو رمز للمشاعر الملتهبة التي يكنها قلبه، وللأحاسيس الحزينة التي تعتصر داخل صدره اعتصارا، وللعواطف الحارة التي جعلته يشفق إلى هؤلاء القوم.

لقد غلبه الشوق وعشق الأرض، فجلبته رياح الهوى والحنين وأنهكه التعب والهم والغم وقتلته الحيرة والقهر والظلم؛ فأراد راحة وسكينة ونجدة وسعادة بين أحضان هؤلاء القوم بعدما ضاق خاطره فعبر عن كل ما سبق بلفظة الغيم التي أردفها بالصفات (امْضَهَبْ، طَايِحٌ عَلِيَّ، سَدَاةٌ).

والكلمة نفسها نجدها موظفة من طرف الشاعر "الحمدي بوشنافة" عندما شبه محبوبته بالنخلة في جمالها وخصوبتها وبساطتها وأصلها الثابت، حيث أطلق

1- سيدي خالد: وليّ صالح؛ أطلق اسمه على مدينة من مدن ولاية بسكرة (سبق التعريف به) تشتهر هذه المنطقة بوجود الكثير من الشعراء فيها. نَدَاة: لفظة يستخدمها سكان منطقة بوسعادة عند التوسل بالأولياء الصالحين.

2- هدة: كثيرة جدا. امْضَهَبْ: الضهب في لهجة المنطقة هو الضباب الذي يرافق حرارة الجو الشديد فيحجب الرؤية. طايح عليّ: نازل فوق.

3- ما يرضاه: ما يرضيه.

عليها اسم "السعدية" وهو اسم له دلالات توحى بالسعادة والفرح والبهجة والسرور .
يقول الشاعر :

السَّعْدِيَّةُ رَأَى ضَيَافَكَ ذِ الْمُدَّةِ وَفِي بَرِّكَ رَأَى بِقُرْبِكَ لِيهِ اجْوَارُ¹
فِي سَيَّارَةِ خَاصَّةٍ بِيَّاءٍ تَغْدَى وَهَلَكَنِي ذِ الْغَيْمِ دَلَكَمَ رَابُ اخْضَارُ²
وَبِلَادِي فِي بُوسَعَادَةِ الْمَسْعُودَةِ وَسَيْدِي ثَامِرُ رَاهُ صَالِحٍ مِنْ لُكْبَارُ³

ويقول الشاعر في قصيدة غزل أخرى:

وَحَتَّى التَّلْفُونُ مَا بَا يَمْشِي لِيكَ وَيَتَعَلَّى فَوْقَ السَّحَابِ الْفُوقَانِي
يُونُسْنِي بِخَبَارٍ نَبْدَا نَسْمَعُ لِيكَ نَتَبَقَّى مَرْتَاخَ تَذْهَبُ لِحَزَانِي⁴
هَلَكَنِي غَيْمُ الْحُضْنِ دَهْسَاتُ غَلِيكَ دَرَقَ عَنِّي قَاعُ بَرِّكَ بَكَّانِي⁵

ويمكن توضيح الرمز والمرموز إليه ضمن الأبيات السابقة من خلال

الجدول التالي:

1- رانا: إننا. اجوار: بجوارك (جار لك).

2- دلكم: تراكم وتكاثف. راب: نزل وتساقط وانحدر. اخضار: صار أخضر اللون داكنا من شدة كثافته.

3- سيدي ثامر: ولي صالح؛ يقال أنه مؤسس مدينة بوسعادة (سبق التعريف به).

4- نبدا: أبدأ. لحزاني: الأحزان؛ وباء المد للضرورة الشعرية.

5- الحُضْن: جمع حضنة؛ اسم يطلق على منطقة المسيلة وما جاورها. دهسات: مساحات كبيرة. درق: حجب وأخفى. قاع: كل: جميع.

المقطع الشعري	الرّمـز (الدّال)	المرموز إليه (المدلول)
1-وَهَلْكَنِي ذَا الْغَيْمِ دَلَّكُمْ رَبُّ اخْضَارُ 2-هَلْكَنِي غَيْمُ الْخُضْنِ دَهَسَاتُ عَلَيْكَ	الغيم	الهمّ، الغمّ، التعب النفسي، الشّوق، الحنين، شدّة الحبّ، الغربة الذاتية، الحزن، البكاء، رجاء وصال المحبوبة، الفراق، البعد، حجب الحبيبة، الرحيل

وفي صورة شعرية محكمة البناء للشاعر "محمد الريغي شبيبة" -رحمه الله-
وظف فيها رمز الغيم للدلالة على شدة الشوق والحنين واللهفة لزيارة قبر الرسول
ﷺ والتمتع بالقرب منه وأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، يفتح الشاعر
قصيدته بقوله:

رَكْبٌ شَرَّقَ مَا تَنَاشَ فَالْحَيْنَ اَدْرِقْ الْغَيْمُ مَرَقَرَقَ دُونُو بَانَ طَاخَ اَسْوَدُ¹
 دُونُ الْهَادِي طَاخَ الْغَيْمِ اَتَنَكَادِي بَانَ اَمَسَدِي عِلْفَجُوجُ كِي رَاكَدُ²
 جَا يَتَلَمَلَمُ كُلُّ لَيْلَةٍ اِيَعَشِّي مَعْلَمُ نَا مَعَاهُمْ قُلْتُ نُرُوحُ شُورُ اَحْمَدُ³
 بَنَ يَامِينَةَ جَا جَوْبَةَ بَعِيدَ عَلَيْنَا فِي الْمَدِينَةِ يَا حَصْرَاهُ يَا مَبْعَدُ⁴

الغيم في أبيات الشاعر هو رمز لشدة الشوق والحنين، وهو رمز -أيضا- للحزن والتعب والألم لصعوبة الوصول إلى المراد وإلى الهدف المنشود. إنه رمز يدل على سودانية النفس البشرية وكلما اشتد سواده وازداد تلبدّه وتراكم واقترب أكثر فأكثر كلما تفاقم أسى الإنسان وتعاسته وحزنه واشتد وجعه وهمّه وغمّه وسقمه وتكاثرت أهواله وشدائده وحاجاته وأتاعابه، وتجلّى فقره وخصاصته وقلة ذات يده، واستولى عليه الشعور بالضعف وانعدام الثقة في النفس والخوف من عذاب القبر وأهوال يوم القيامة ونار جهنم، وتسلمت عليه هواجسه وآلامه، وقويت محنه، وأظلمت الدنيا في عينيه فصار طلب الشفاعة من الرسول p أسمى غاياته وأعلى أُمُنياته وأصدق أحلامه، وأصبحت الجنة مبتغاه الأول ومغفرة المولى عز وجل مطلبه الملحّ.

1- ركب: القوافل التي شقت طريقها نحو بيت الله الحرام. شرق: سار نحو الشرق. مانشاش: لم ينتظر.

ادرق: اختفى. مرقرق: كثيف ومنتشر وداكن. طاخ: نزل وتساقط

2- اَتَنَكَادِي: من النكد؛ وهي عبارة تستخدم عند التحسّر. اَمَسَدِي: أقام سداه. لَفَجُوجُ: جمع: فجّ؛ وهو المساحة الشاسعة من الأرض.

3- يَتَلَمَلَمُ: يدفع بعضه بعضا. شُورُ: نحو: باتجاه.

4- يَامِينَةَ: أمانة بنت وهب؛ أم الرسول محمد p. جَا: أصلها جاء. جوبة: بعيد جدا. يا حصراه: يا حسرتها. يا مبعده: ما أبعد!

ولقد أكثر شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة من الربط بين لفظتي الغيم والنسيج؛ ويعود ذلك إلى التشابه الحاصل بينهما من ناحية الكثافة والتشابك واللون الداكن الغامق وحجب ما وراءه.

يقول الشاعر "أحمد وليد بن القبي" وقد اشتاقت نفسه وتاقت إلى زيارة الجزائر العاصمة ولكن ذلك لم يكن بالسهل عليه خاصة وأنه لا يملك وسيلة نقل للسفر إلى هناك. يقول الشاعر:

غَيْمٌ امْسَدِّي عَالَتْشَايَا دَارُ الْكَدَارِ وَاجْرَحْ لِي قَلْبِي وَعَيْنِي بَكَاهَا¹
مَا يَصْحَاشِي عَالْدَزَايِرَ طُولُ انْهَارِ تَبْكِي عَيْنِي كِي انْزَاعِي لِهَوَاهَا²
اللّٰهُ غَالِبٌ دُونَهَا لَالِي مَقْدَارِ لَوْ نَجَبَرُ حِيلَةَ اللَّيْلَةِ نَصْفَاهَا³

جرح الغيم الراكد قلب الشاعر وأبكى عيونه، لأنه وبكل بساطة ذكره بشوقه وألمه وحنينه وحزنه وضعفه وحاجته وقلة ذات يده وفقره؛ فالغيم هنا، هو رمز لبكاء الأوطان والحنين إلى الأرض ومحبة الإنسان لأخيه الإنسان وشوقه إلى زيارته ورؤيته إن كان حيا يرزق، فكيف الحال إذا كان هذا الأخ قد غادر الحياة الدنيا واستمتع بالحياة الآخرة داخل قبره.

وهو المعنى الذي أراده الشاعر "الحمدى بوشنافة" عندما قام بزيارة أخته "قوتة" مودّعا إياها بعدما وقف عليها في قبرها باكيا حزينا. يقول:

وُرِحْتُ شَوَارِ اخْتِي وَنَلَقَى غَيْرَ احْجَارِ مَرْدُومَةٍ فِي دَاخِلِ الْقَبْرِ الْمَغْمُومِ⁴
قُلْتُهَا وَاشْ بِيكَ وَرَبِّي مَا صَارَ وَشْ جَابِكْ حَتَّى سَكْنَتِي ذِ الْمَرْدُومِ⁵

1- الثنايا: النواحي. دار اكدار: شكل كتلا

2- ما يصحاشي: لا يصحو. الدزاير: الجزائر العاصمة.

3- لالي مقدار: ليس لدي قدرة. نجبر: أجبر. نصفاه: أذهب وأصل إليها.

4- شوار: نحو

5- واش بيك: ما بك؟ وش جابك: ما الذي جاء بك؟

قَالَتْ لِيَا بَيْنَنَا حَالُو لَقْدَارٍ مَا نَقْدَرُشْ نَحْدَتُكَ ذِ الشِّي مَقْسُومٌ¹
 أَمْ لَسَبَابُ إِلَيَّ وَصَلْتُ لِهَذَا الدَّارِ ذِي النَّهْيَةِ وَذَا الْمَكَانِ الْمَعْلُومِ
 هَانِي فِيهَا رَايْحَةٌ مِنْ كُلِّ اضْرَارِ أَمَّا لَعْمَالُ مُسَجِّلَةٍ كُلُّشْ مَرْسُومٌ²
 قُتِلَتْهَا بِالْعَافِيَةِ نَجْمَةٌ لَفَجَارِ غَابَ ضِيَاكَ وَالْغَيْمُ عَنْكَ طَاخَ اِهْدُومٌ³

إنها لوحة فنية في قمة الروعة؛ جسّد الشاعر من خلالها مشهدا من مشاهد النهاية الحتمية للإنسان؛ حيث شبه أخته بنجمة الفجر التي غاب نورها وغطّتها الغيوم فلم تعد ترى، ولن تظهر إلا إذا انقشعت الغيوم المتلبدة؛ ولكن الفارق بين هذه الأخت والنجمة هو أنّ النجمة ستعود إلى الظهور في اليوم الموالي في نفس مواعدها، أما الأخت فإنها لن تظهر أبدا. الغيم هنا؛ هو رمز للموت والتلاشي والبكاء والفناء والحزن والظلام والألم الصامت والفراق والبعد والاضمحلال.

والدلالات السابقة- نفسها- نجدها عند توظيف لفظة السّحاب؛ والملاحظ أن هذه الأخيرة ارتبطت ارتباطا وثيقا بالموت وفقد الأحباب، فالشعراء في استخدامهم للفظّة السحاب يحاولون تخفيف الألم عن أنفسهم واستبعاد الدمع عن عيونهم وإراحة قلوبهم والتنفيس عنها.

وقد يكون للقرآن الكريم تأثير كبير على ما ينظمونه من قصائد، خاصة فيما يتعلق بالسحاب الذي يُنزل به المولى عز وجل الماء والأمطار التي يحيي بها الله سبحانه وتعالى الأرض. يقول الله تبارك وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

1- ما نقدرش: لا أقدر.

2- هاني: ها أنذا. رايحة: مرتاحة. لعمال: الأعمال. كلش: كلّ شيء.

3- اهدوم: كتل كثيفة متراكمة (الهدوم في اللغة العربية هي الثياب؛ مفردها: الهدمة).

فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ¹.

السحاب لدى المولى عز وجل هو المتسبب في نزول الماء وإحياء الأرض بعد موتها وإخراج الثمرات بعد الجذب والقحط، وهذا أكبر مثال ضربه لنا المولى عز وجل لتوضيح قدرته العظيمة على إخراج الموتى من قبورهم أحياء بعد فنائهم ودرس آثارهم؛ حيث يذكر المولى سبحانه وتعالى المشركين من عبدة الأصنام والمكذبين بالبعث بعد الممات، المنكرين للثواب والعقاب بهذا المثل الذي يتضمن إحياء البلد الميت بقطر المطر الذي يأتي به السحاب الذي تنشره الرياح، وذلك من أجل أن يعتبروا ويتذكروا ويتعلموا أن من كان قادرا على ذلك، فيسير في قدرته إحياء الموتى بعد فنائهم، وإعادتهم سويا بعد دروسهم.

السحاب في استخدام شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة؛ ربما جاء على نفس وتيرة الآية الكريمة من حيث أنه مصدر من مصادر إحياء الأرض الميتة وبالتالي إحياء جميع الكائنات الحية بما فيها الإنسان. من هنا كان توظيف الشعراء للفظ السحاب بدل لفظة الغيم في أبياتهم التي تتضمن رثاء الموتى وبكاء الذين غادروا الحياة الدنيا واستقروا في قبورهم إلى يوم يرث الله الأرض وما عليها، وكأنهم من خلال استعارتهم للفظ السحاب يفتحون بابا من الأمل يربطهم بهؤلاء الأموات عن طريق عالم الغيب واستخدام الخيال واستدعاء صورهم عبر الأحلام وتذكر مواقفهم في الحياة والتفكير في لقاءهم الموعود والتنعم حينها بجوارهم في الجنة.

ويمكننا إدراج الصور الشعرية التي تتضمن رمز السحاب في الجدول التالي؛ وذلك نظرا لتشابه مدلولات الرمز في الأبيات الشعرية:

1- سورة الأعراف، الآية (57)

الشاعر	الصورة الشعرية	الرمز (الدال)	المرموز إليه (المدلول)
محمد الرّيعي شبيبة (رحمه الله)	وَأَشْ أَبْنَسِي فِي فَرَاقُو آخُوياً وَحْشُو كَدَّرْ كِي الْقَبْلِي بِسَحَابُو ¹	السّحاب	الشوق، الموت، الفراق، البعد، الحزن، البكاء، الاضمحلال، التلاشي، النأي، الرحيل، الغربة الذاتية، التعب النفسي، الفناء، الظلام
أحمد وليد بن القبّي	وَأَتَمَسَّى ذَاكَ الْقَمَرِ غَطَّاهُ سَحَابٌ وَإِظْلَامَتْ عَنِّي الدُّنْيَا مَقْوَانِي ²		
السعيد بوعشرين	يَوْمَ ارْجِيلُو مَشِينُو كِي عَنِّي غَابُ أَتَمَسَّى قَمَرِي وَغَطَّاهُ اسْحَابُو ³		

1- وش: ماذا. وحشو: شوقي إليه. كدر: (فصيح): تغيّر: وهو ضد صفا. القبلي: الرياح التي تهب من ناحية

القبلة. المقصود بالرتاء هنا هو صديق الشاعر الشيخ سي الدوادي بعلي.

2- اتمسى: غاب واختفى في زمن المساء. مقواني: أصلها: ما أقواني! والمقصود هنا: ما أضعفني! وما
أضعف حيلتي!

3- مشينو: ما أسوأه! وما أقبحه! كي: عندما.

8.3 - الشَّيب:

لم يعد الشيب مقتصرًا على كبار السن دون صغارهم؛ فنحن نرى في أيامنا هذه أطفالًا ومراهقين وشبابًا من الجنسين ذكورا وإناثًا لا يكاد شعر رؤوسهم يخلو من الشعر الأبيض، ويقال أن الشَّيب علامة من علامات الوقار والهيبة والحلم.

ولقد وظف شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة لفظة الشيب؛ وكان أبرزهم في هذا التوظيف الشاعر "عبد القادر العطوي" الذي استخدم هذه اللفظة في قصائد مختلفة وكان لذلك دلالات عديدة.

في قصيدة من أجمل قصائد الرثاء؛ حاول الشاعر من خلالها نقل صورة حية عن حزنه وبكائه وألمه عند سماعه لخبر وفاة المجاهد الحاج الشريف شنوفي* - رحمه الله - من منطقة "الشعبية" ببسكرة، حيث خاطبه في نبذة تفيض حسرة وأسى وحزنا قائلاً:

يَا شَيْخِي مَنْ فُرِّقْتُكَ شَيْبِي عَيْنِدْ وَدُمُوعِي وَلَاؤُ فَالْوَرْقَةُ مِدَادُ¹

الشيب في بيت الشاعر هو رمز للحزن والألم والبكاء والدموع والفرق والبعد والنأي، وهو رمز للحيرة والقلق والاضطراب والتوتر والتعب النفسي والانفعال الشديد المفاجئ. وهذا - أيضا - ما دلت عليه الآية الكريمة: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا} ²، ويقصد المولى عز وجل بذلك يوم القيامة، وإنما تشيب الولدان من شدة هول هذا اليوم وكرهه.

* - هو المجاهد الحاج الشريف شنوفي من مواليد 1922 بأولاد رحمة -الشعبية حاليا- ولاية بسكرة، توفي

- رحمه الله - يوم 30 مارس 2013 ودفن بمقبرة سيدي خالد ببسكرة. (عرّف به سابقا)

1- عيّد: ربما قصد بها الشاعر تكاثر وصار عدده كثيرا جدا.

2- سورة المزمل، الآية (17).

وشبّه الشاعر دموعه بالمداد الذي يستخدم في الكتابة على الورق، ولكنه أفرد ورقته الخاصة التي جعلها مسودة لهذه القصيدة الرثائية الحزينة، وكأنه بصنيعه هذا قد كتب قصيدته هذه بدموعه.. لقد فاضت دموعه حبرا وغزاه الشيب وكسا رأسه شابا من فرد الفاجعة وهولها وشدة تأثيرها عليه وتأثره بها، كيف لا وقد ترك هذا البطل فراغا رهيبا بين ذويه وأهله ومحبيه وأبناء وطنه جميعهم!؟

وبموته وانقطاعه عن الحياة الدنيا انقطعت أسباب الخير والكرم والجود والصلاح والقيادة والزعامة والسمعة الطيبة والجهاد عن الدين والوطن والأرض والعرض، وانفكت عرى التعاون بين الإخوان والأصحاب، واندثرت بعض العادات والتقاليد التي تهتم - خاصة - باللباس وإقامة الجلسات التي يجتمع فيها أبناء القبيلة بكبيرهم الذي يحافظ على حياتهم ويصلح بين المتخاصمين منهم وينشر السلم والأمن والهدوء بينهم وينبّه غافلهم وينصح المخطئ ويرشد الضال...

وفي "قصة شهيد" يستسلم الشاعر لآهاته وآلامه لينقل إلينا مشهدا من أشد المشاهد إيلاما للقلب. إنه مشهد أم تنتظر عودة ابنها، فلذة كبدها، ولكن الانتظار طال والابن لم يعد بعد.. فما الحل إذا؟! لا حلّ إلا مناجاة الابن في غيابه ومخاطبته بالقول:

يَا ضَيْمِي وَعَلَّاشُ عَنِّي مَا تَسْأَلُ مَا فَكَّرْتُ نَهَارَ تَبَعْتَلِي جَوَابٌ¹
 انْجَبَا فِي مَنْ كُنْتُ عَنُّو تَتَدَلُّ طَالَ غِيَابُكَ يَا أَحْمَدُ وَعُيَيْتُ حَسَابٌ²
 رَاهَا كَبْدِي عَلَى الْجَمْرِ فِيهَا يَشْعُلُ وَاشْ إِيْطَفِي يَا ابْنِي هَازِ الْمَشْهَابُ³
 ثَلْتُ اسْنِينَ بِحَالِهِمْ مَا قُلْتُ انْطَلُ يَا تَهَوَّاسِي مَنْ فَرَاكَ رَاسِي شَابٌ⁴
 نَارَ الْفُرْقَةِ حَطَّمْتُ مَا كَانَ أَمَلُ شَلْهَابَةَ مُقْبَاسَهَا يَقْدِي لَهَّابٌ⁵
 انْزِيلْفَتْ وَخَايِفَةٌ عَنَّا نَهْلُ تَتَشَشْفَى فِي الْجِيرَانِ وَلَحَبَابٌ⁶
 انْتَا جَاتِي حَالَهُمْ رَاهُ امْعَدَلُ غَيْرِ أَنَا مَتْمَحْنَةٌ وَالرَّاسُ أَشْهَابٌ⁷

تظهر دلالات لفظة الشيب في هذه الأبيات واضحة جلية على لسان هذه الأم المفجوعة التي تبكي غياب ابنها المجاهد الذي غادرها ذات يوم مودّعا إياها ولا أمل له في العودة إليها والارتقاء في أحضانها ورؤية وجهها مجددا. إنه يعرف مصيره منذ البداية.. أما هي فإنها لا تعترف بذلك إطلاقا، بل إنها تنتظر وتترقب وتتأهب لاستقباله في كل لحظة وفي كل ثانية.

الشَّيب في حالة هذه الأم هو رمز للمعاناة والحيرة والقلق والجفاء وطول الانتظار وحرقة القلب وشدة الشوق والأسى والحسرة واليأس والفراق والبعد والنأي، وهذا ما نلمحه في قولها: (يا تهواسي من فراقك راسي شاب)؛ وهو أكبر دليل على

1- يا ضيمي: يا حزني ويا ألمي. وربما قصدت بعبارتها ابنها الغائب الذي هو مصدر حزنها فاستعارت لفظة (ضيمي) لتلحقها به. وعلاش: لماذا.

2- عييت: تعبت وأرهقت.

3- المشهَاب: النار المشتعلة.

4- يا تهواسي: يا حسرتي.

5- شلهابة: مشتعلة ومحرقة وشديدة اللهب. مقباسها: قبسها. يقدي: ينقد.

6- انزِيلْفَتْ: اشتعلت شوقا واحترق قلبي. تَتَشَشْفَى: تفرح لألمي.

7- انتاجاتي: النسوة اللاتي هن في مثل سني. متمحنة: أعيش هذه المحنة. الراس اشهاب: شعر الرأس صار أبيضاً.

أن الشيب غزا رأسها من كثرة التفكير في غياب هذا الابن واحتمال رجوعه من عدمه، فهي تقارن حالتها السيئة بحالة النساء الأخريات ممن تعتقد بأنهن مسرورات مبهجات، والحقيقة أنهن يشبهنها تماما، فالاستعمار الفرنسي آنذاك سلب راحة الشعب الجزائري بأكمله وسرق فرحته واغتصب أرضه ونكل بشبابه وشاباته وألحق الأذى بالأطفال والكهول والشيخوخ ولم يسلم من القتل والتعذيب والحرق والتدمير حتى الحيوانات والنباتات...

ولكن شدة الألم وحرقة القلب ودموع العين وشروذ العقل وتوهانه وشوق الروح للروح وتعب النفس ووجعها وسوء الظروف وكثرة الظلم كلها عوامل أحزنت قلب الأم وأشعرتها بالبؤس واليأس والكآبة والتعاسة فاشتعل رأسها شيئا جراء إعمالها الفكر في هذا المصاب.

ونمرّ إلى قصيدة أخرى لا تقل أهمية عما سبق ذكره، خاصة من ناحية توظيف لفظة الشّيب كرمز له مرجعية دينية. في هذه القصيدة يحكي لنا الشاعر حكاية الكبر؛ حكاية جدّة من الجدّات التي يروي الشاعر على لسانها مراحل نمو الأنثى وتفاصيل هذا النمو من نواح مختلفة: جسمية ونفسية وذهنية.. يستفتح الشاعر قصيدته بمخاطبة هذه الجدة قائلا:

يَا جَدَّةَ عِيْدِي عَلَيَّ قَصِيَّةٌ كَيْفَ الدُّنْيَا تَفُوتُ عَالِرَاسَ الْيَّ شَابٍ

الشيب هنا، هو رمز لكبر الإنسان وتعاقب مراحل العمر عليه وصولا إلى مرحلة الشيخوخة التي يضعف فيها الجسد ويوهن خلالها العظم وتتعب أثناءها الحواس البشرية وتتغير الخلقة الإنسانية. وقد لخص الشاعر "عبد القادر العطوي" هذه المرحلة في الأبيات التالية:

كُلُّ دَقِيقَةٍ تَفُوتُ تُنْقِصُ مِنْ لِحْسَابِ	حَالَةِ الدُّنْيَا يَا ابْنِي هَازِي هِيَ
رَأَاهُ صَبَحَ مِنْ حَالِهَا عَطْشَانٌ وَغَابٌ ¹	فَاتَتْ عَنِّي كَيْ الِّي شَافَ ارْوِيَّةَ
تَوَقَّفَ عَنْ رَجْلَيْكَ بَعْدَ الْعَامِ حَسَابٌ ²	تَمْشِي عَلَى رِبْعَةٍ فِي شَاوِ الْبَدِيَّةِ
تَتَمَشَّى عَلَى اثْنَيْنِ هَذَاكَ الصَّوَابُ ³	لَا بِالْأَكْ الْعَامِ وَاتَزِيدُ شَوِيَّةَ
وَالِّي شَرَفْتَ مَا تَوَلَّى لِلشَّبَابِ ⁴	تَمْشِي عَلَى ثَلَاثَ ذِيكَ النَّهَائِيَّةِ
وَلُبِسْتَ النَّظَاطُورَ لِلنَّظَرَةِ قَرَّابٌ ⁵	كُنْتُ نَشُوفٌ بَعِيدٌ مَمْضَى عَيْنِيَا
امْدَوْخَنِي زَفٌّ فِي رَاسِي طَبْطَابٌ ⁶	انْقِصْ لِي سَمْعِي وَثَقُلُوا وَذُنْيَا
حَتَّى الْفَمُ مَا فِيهِ لَا ضَرْسَةَ لَا نَابٌ ⁷	لَا بَنَّةَ لَا ذَوْقَ طَاحُو سَنِيَا
اتَعَوَّقْتُ وَعُدْتُ فِي صَفِّ الْعِيَابِ ⁸	شُوفَ لَجَسْدِي مَا تَهْزُو رَجْلِي
وَلَا شَايِبَ زَيْدٍ لِحَوَاجِبٍ وَاهْدَابٌ ⁹	وَالشَّعْرَ الِّي كَانَ فَتْنَةً وَبُلِيَّةَ
ذَاكَ اللَّحْمَ الِّي كَمَسَاهَا جَلْدٌ ذَابٌ ¹⁰	وَيَا حَسْرَاهُ عَلَى الْخُدُودِ الْوَرْدِيَّةِ
سَكَرَانَةَ وَأَنَا الِّي مَا ذُقْتُ شَرَابٌ ¹¹	فَكْرِي شَارِدٌ مَا نَشَدُ الْوَصِيَّةِ

1- شاف اروية: رأى رؤية. غاب: عطشان: شديد العطش.

2- شاو البدية: أول الأمر.

3- لا بالاك: لربما. شوية: قليلا.

4- الي شرفت: التي هزمت. ما تولي: لن تعود.

5- نشوف: أرى. ممضى: ما أحد! ما أدق!

6- وذنيا: أذناي. امدوخي: يشعرني بالدوار. زف: طنين حاد. طبطاب: مصدر للصوت (طَبَّ طَبَّ).

7- بنة: ذوق. طعم. سنيا: أسناني.

8- شوف: انظر. العياب: جمع عايب وهو المعاق من رجليه.

9- ولا: صار.

10- جلد: صار فيه تجاعيد.

11- مانشد: لا أمسك ولا أحتفظ.

لَا حَفِيدَ يَبَاتُ مَا بَيْنَ إِيْدَيَا نُبَاتٍ نَلَاجِي كِي إِلَيَّ ضَرْبُ نَشَابٍ¹

إذا كسا الشيب رأس الإنسان ثم انتقل إلى حواجه وأهداب عينيه فإن هذه من المؤشرات الدالة على وصول الإنسان إلى قمة هرم الحياة، وبلوغه أقصى درجات العمر، وللشيب وقاره وهيبته رغم أن بياضه يدل على قرب المنية والولوج إلى القبر بكفن أبيض، والبياض هو رمز للنقاء والصفاء والطهارة والخلو من الذنوب والسيئات والمعاصي والخطايا وكل ما يدنس حياة الإنسان وكرامته وشرفه وسمعته وكيانه وشخصيته ككائن بشري على سطح هذه المعمورة.

وللشيب - في هذه الحالة - دلالات أخرى تتمثل في الخوف من انقطاع الأثر بانقطاع النسل بسبب العقم أو تجاوز مرحلة الخصوبة والإنجاب أو الهرم والعجز الذي يصل صاحبه إلى مرحلة متقدمة من العمر حيث يبلغ من الكبر عتياً، وهناك دلالة أخرى هي زوال العز والجاه وكذلك حصول الشقاء في الحياة الدنيا؛ وهذه الدلالات مبنوثة في أبيات الشاعر على لسان هذه الجدة التي تعترف قائلة:

لَا حَفِيدَ يَبَاتُ مَا بَيْنَ إِيْدَيَا	نُبَاتٍ نَلَاجِي كِي إِلَيَّ ضَرْبُ نَشَابٍ
بَعْدَ الْعَزِّ ضَحِيَّتْ ظَبِيَّةٍ مُنْسِيَّةٍ	عَافَتْهَا حَتَّى الْفِيرَانِ وَلُكْلَابٍ ²
تَتَلَوِّحُ تَحْتَ الرِّفَافِيفِ دُونِيَّةٍ	تَتَلَاعَبُ بِيهَا الصَّبِيَّةُ فِي لُعْلَابٍ ³

وهي الدلالات نفسها الموجودة في القرآن الكريم على لسان نبي الله زكرياء -عليه السلام- حينما خاطب المولى عز وجل: { قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي

1- نلاجي: أئن وأتاؤه. نشاب: سهم قاتل.

2- ضحييت: صرت: أصبحت. ظبية: جلد المعزاة بعد معالجته، يتم استخدامه في حفظ بعض المواد.

3- الرِّفَافِيف: حواف الخيمة من الجانبين توضع تحتها المستلزمات من متاع ومؤونة وأغراض. لعلاب: الأماكن الواسعة الخضراء المعشوشبة.

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا {4} وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ
وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا {5} يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ
يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا {6} {6} ¹.

إن لفظة الشيب عند شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة -حسب
قصائد الشاعر عبد القادر العطوي-وردت تحمل العديد من الدلالات التي توحى
بالموت والفرق والنفاء والبعد والألم والحزن والبكاء والدموع والرحيل والمعاناة..
ومن جهة أخرى تشير إلى قسوة الظلم وشدة الشوق والبؤس واليأس.. وقد تدلّ
على الهرم والعجز وبلوغ العمر منتهاه وفقدان الأمل من الحياة الدنيا...

1- سورة مريم، الآيات (4، 5، 6).

9.3- الجار:

للجار عند العرب منذ القديم مكانة عظيمة وأهمية بالغة. فهم يختارونه قبل اختيار الدار للسكن، والمثل الشعبي المتداول في منطقة بوسعادة وفي الجزائر ككل يقول: "اختر الجار قبل الدار".

ولقد أمر الله عز وجل بحفظ الجار والقيام بحقه وعدم إيذائه، وهو ما وصّى به الرسول ﷺ أيضاً - قال المولى تبارك وتعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} ¹؛ أي الجار القريب لنا في النسب والجار الغريب الذي ليس بيننا وبينه نسب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» ² (رواه البخاري ومسلم). وقد قال النبي ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» ³.

1- سورة النساء، الآية (36).

2- يحيى بن شرف الدين النووي: شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، مكتبة دار الفتح، دمشق، سوريا، ط4، 1984، ص: 52.

3- ينظر: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريسي، دار طيبة، الرياض، السعودية، المجلد 02، ط1، 2006، إكتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، الحديث رقم (2624) ورقم (2625)، ص: 1214.

-محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، المجلد 04، ج8، ط1، 1422هـ، إكتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، الحديث رقم (6014) ورقم (6015)، ص: 10.

لقد ارتوى شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة من فيض الشريعة الإسلامية، وطبقوا تعاليمها طاعة للمولى عز وجل وحباً في رسول الله محمد p حيث ارتقوا بعواطفهم الإنسانية، وسموا بأفكارهم، وتجلّى نبل أخلاقهم وصدق مشاعرهم وحرصهم على عمل الخير وتقديم المساعدة...

فتفننوا وأبدعوا في رسم لوحات فنية فائقة الجمال؛ تجسد بحق روعة الحياة لدى هؤلاء السكان واتحادهم وتماسكهم واهتمامهم وشوقهم لبعضهم البعض في الحضور أو الغياب أو عند تغرب أي فرد منهم.

وهذا ما نلمسه لدى الشاعر "أحمد وليد بن القبي" في قصيدته "زيارة إلى فرنسا" حينما اشتاق إلى قومه "أولاد نايل" وأخذ الحنين إليهم، فصار يهذي ويحلم برسول يأخذ سلامه إليهم، ويأتيه بخبرهم ويطمئنه على أحوالهم.

يعبر الشاعر عن هذا الشوق والحنين وهذه المشاعر الملتهبة في صدره

فيقول:

هَانِي فِي بَارِيسْ عَايشْ يَا حُضَارْ	تَحْتِ الْغَيْمِ الْيَّ مِنْيْلْ بِكْحَالُو ¹
نُظِّلْ انْهُومْ فَالزُّنُقْ مَا عِنْدِي دَارْ	وَأُنْعَدِّي فَالْكَاتِبَةَ كَيْمَا قَالُوا ²
فَرَفَزْ قَلْبِي وَالْعَقْلُ حَسِينُو طَارْ	امْفَرَفَزْ قَلْبِي وَقَادِي مَشْعَالُو ³
لَيْلْ انْقَاسِي فِيهِ عَنِّي عَادَ انْهَارْ	وَأَدْمُوعِي وَيدَانْ بِالْكَثْرَةِ سَالُوا ⁴
بِيَّا وَحْشْ وَلَدَتْ الْقَارْحُ قَحْدَارْ	عَطَّاهُمْ غَيْمِ السَّمَا جَرَّ اِكْحَالُو ⁵

1- هاني: هأنذا. منيل بكحالو: أسود داكن على شكل كتل.

2- انهوم: أهيم. الزنق: الشوارع الضيقة.

3- قادي مشعالو: متقدة نيرانه (كناية عن شدة الشوق).

4- عاد: صار. ويدان: وديان.

5- وحش: شوق: حنين. ولادت: أولاد. القارح، القحدار: الفحل ذو الشهرة الواسعة والسمعة الطيبة. جَرَّ اكحالو: جَرَّ كتله السوداء.

لَا غَادِي لَا جَائِي لَا حَدُّ نَسْأَلُو ¹	وَلَادَتْ نَائِلٌ جَاوُ جَوْبَةٍ يَا حُضَّارَ
لَا حُونِي الْكِفَانُ وَالْجِبَالُ أَطْوَالُو ²	اللَّهُ غَالِبٌ دُونَهُمْ حَالُو لُبَّارَ
لَا غَادِي لَا جَائِي لَا حَدُّ نَسْأَلُو ³	مَا هِيَ حَاجَةٌ طَائِسِي لَاعُودُ قَحَّارَ
وُدْمُوعِي مَنْ كُلُّ جِيهَةٍ يَنْهَالُو ⁴	وَيَنْ إِيْطِيخُ اللَّيْلِ يَلْحَقْنِي تَحْيَارَ
يَفْهَمُ مَقَالِي وَنَفْهَمُ مَقَالُو ⁵	مَا نَلْقَى مَنْ نَنْدُهُو يَدِّي لَحْبَارَ
وَيَفْهَمُ جَوَابِي وَنَفْهَمُ مِثَالُو ⁶	يَاخُذُ رَائِي مَا يُولِيلِي حَبَّارَ
سَالٌ عَلَيْهِمْ كُلُّ وَاحِدٌ بِسْوَالُو ⁷	يَلْحَقُ لِي لَوْلَادٌ نَائِلٌ بَيْتٌ وَدَارَ
كُلُّ آخِرٍ يَبْقَى مُقَنَّعٌ بِسْوَالُو ⁸	زَيْدٌ عَلَى جِيرَانِهِمْ جَارٌ عَلَى جَارَ
خِيَانٌ وَمَنْ جِيهَةٌ الرَّبِّ نَسْأَلُو ⁹	قُولُهُمْ يَا خَاوْتِي مَانِي حَقَّارَ
الْجَارُ عَلَى الْجَارِ مُوَلَاهُ يَسْأَلُو ¹⁰	كَيْمَا وَصَانَا الْعَزِيزُ الْجَبَّارَ

يبدو الشاعر من خلال أبياته مثقفا ثقافة دينية أهلتة لنظم هذه الأبيات التي تحمل في ثناياها صورا بيانية غاية في الإبداع والجمال وروعة التركيب. حيث وظف الشاعر لفظة الجار للدلالة على السلم والأمان ودفء العيش وسهولة الحياة إذا سادها التعاون والحب والاحترام وشاع داخل المجتمع الكرم والجود

1- جوية: بعيد. حد: أحد. نسالو: أسأله.

2- لبحار: البحار. لاحوني: حجبوا عني. الكيفان: الجبال الشامخة

3- معنى الشطر الأول: الأمر ليس متعلقا بسيارة ولا بحصان فحل

4- تحيار: حيرة. جيهة: جهة.

5- نندهو: أبعثه وأوصيه. يدّي: يأخذ.

6- يأخذ رائي: يسمع كلامي وينفذ طلبي. ما يوليلي حبار: لا يتكاسل ولا يتردد.

7- سال عليهم: بلغ سلامي إليهم.

8- مقنّع: قانع وراض.

9- حقار: ظالم وحقير. خائن: خائن.

10- كيما: كما. مثلما.

والشجاعة والحمية، وغلب على النساء الحياء والعفة والطهر. ولفظة الجار لدى الشاعر تدل - أيضا - على محافظة قوم أولاد نايل على مبادئ الدين الإسلامي واتباع تعاليم الشريعة الإسلامية والحفاظ على العادات والتقاليد التي تدعو إلى حسن الجوار وعدم أذية الجار.

فالجار لدى قوم أولاد نايل ولدى شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة هو رمز للأمن والهدوء والسعادة وحسن العشرة والمحبة والألفة والإخلاص والوفاء والحمية. وهذا ما يشير إليه الشاعر ذاته في قصيدة غزلية، حيث يقول:

وَحْدَةُ الْوَرْدَةِ شَفْتُهَا ثَالِثَ رَمَضَانَ	مَسْقِيَّةٌ بِمَيَاهِ دِيمَا زَقْرَانَةٍ ¹
يَا وَرْدَةَ زِدْتِي عَلَى قَلْبِي نِيرَانُ	فَكَزَّيْتَنِي فِي غَزِيلٍ خَلَانَا ²
يَا وَرْدَةَ مِنْ حُبِّ مَسْبُوعَةٍ لَعْيَانُ	الطُّفْلَةَ الَّتِي حُبَّهَا رَأَى أَكْوَانَا ³
أَنْوَرِيكَ أَوْصَافَهَا رِيْمُ الْغُزْلَانِ	الطُّفْلَةَ هَذِيكَ عُرِفَ الْبُسْتَانَا ⁴
كُلُّ نَهَارٍ أَسْأَلُ عَنْهَا فَالْجِيرَانُ	مَلِي رَاحَتْ لَا خَبَرَ عَنْهَا جَانَا ⁵

الجار هو سرّ جاره وحافظ عهده وجابر كسره ومفرّج همّه وغمّه ومضمّد جرحه وناصحه عند خطئه ومرشده عند عثرته وسنده في الشدائد ومؤنسه في المصائب ومصلح زلاته، وهو عينه التي يرى بها ولسانه الذي يتحدث به وأذنه التي يسمع بها وعقله الذي يدرك به وقلبه الذي ينبض حبا واحتراما واهتماما

1- شفتها: رأيتها. ديما زقرانة: دائما فرحة ومبتهجة ومغتبطة.

2- غزِيل: تصغير غزال. خلانا: تركنا.

3- لعيان: العيون. الّي: التي/الذي.

4- انوريك: أريك. عرف البستانا: الساق المنتصبّة الدقيقة من الشجرة الطويلة العالية.

5- ملّي: منذ. جانا. جاءنا.

ونفسه التي لا يمكنه الاستغناء عنها إلا بالموت أو الرحيل. هكذا يجب أن يكون الجار لجاره في الإسلام.

ومن هذا المنطلق كان تصرف الشاعر سليما عندما سأل جيرانه عن فتاته (طفلة)؛ وأشركهم حيرته وأشعرهم بألم محنته وحملهم مسؤولية البحث عنها معه؛ وإن كان في ذلك مبالغة في التعبير من قبل الشاعر، إلا أنه كان يدرك تمام الإدراك بأن جيرانه هم عيونه وهم مفتاح أمله والحراس الذين يسهرون على راحته وحمايته ومساعدته.

وتظهر صفات الجار بشكل أوضح في قصيدة "البيت الحمراء" للشاعر "عبد القادر العطوي" لما يسترسل في الحديث عن قوم أولاد نايل ويعدّد مناقبهم وطرق عيشهم، وينصح المتلقي بأن يتخذهم جيرانا له. يقول مادحا هؤلاء القوم:

فِي سَاحَتِهِمْ مَا تُحَسِّنُ بِالْحُقْرَةِ	وَلَدُكَ نَائِلٌ سَعْدٌ مِنْ يَنْدَهُ بِسَمَاهُ ¹
مَتَوَجَّدٌ وَخَفِيفٌ شَاطِرٌ لِلنَّعْرَةِ	نَجْدَةٌ لِلْمُضْيُومِ يُهْرَبُ تَحْتَ حِمَاهُ ²
هَلْ غَيْرَةُ وَزَنَادٌ مَا فِيهِمْ عُرَّةٌ	يَا سَعْدُ أَلِي دَارِهِمْ فِي الْجَارِ اخْذَاهُ ³
كُرْمًا وَابْطَالًا وَأَمَالِي كَسْرَةٍ	يَا ضَيْفَهُمْ ذَا بَيْتِكُمْ وَأَنْتَ مَوْلَاهُ ⁴

ما أسعد من اتخذ هؤلاء القوم "قوم أولاد نايل" جيرانا له! فهؤلاء الجيران هم رمز للأصالة والعراقة والشجاعة والبطولة والكرم والجود والحماسة ونجدة المظلوم ومواساة الحزين وإغاثة المنكوب والتخفيف من المربوب، وهم رمز لنقاء العرق

1- الحقرة: الاحتقار والظلم. من ينده بسماه: من ينادي على اسمه وينطلق به.

2- متوجد: مستعد. شاطر: لبيب وحاذق. النعرة: النجدة والحمية. المضيوم: المظلوم والحزين.

3- هل: أهل. مافيهم عرّة: ليس بينهم إنسان سيء أو رديء الأخلاق أو ذميم. دارهم: (بتخفيف حرفي الدال والراء عند النطق بهما): جعلهم. وضعهم. اخذاه: بمحاذاته؛ والمقصود هنا: وراءه.

4- أمالي: أصحاب. كسرة: من أسماء الخبز.

والصلاح والصفاء، وهم رمز للمحبة والمودة والوفاء؛ وباختصار شديد، الجيران هم رمز للأخوة الصادقة.

أما لفظة الجار في توظيف الشاعر "الحمدى بوشنافة" فهي رمز للأنس والحبّ والودّ وجمال الحياة والرّفقة والصدّاقة والأخوة. ففي رثائه لأخته "قوتة"، يحاول الشاعر أن ينقل إلينا معاناته وسوء حاله وحزنه وألمه وشعوره العميق بالغربة الذاتية والوحدة بعد موتها، إنها توأم روحه، وحمامته التي كانت تحوم حوله في غبطة وسعادة وهناء عيش وطيب خاطر، ولكن هيهات للأحوال أن تدوم كما يرغب الإنسان، وشتان بين ماضي الأمس وحاضر اليوم! يقول الشاعر مخاطباً أخته الفقيدة تغمدها الله برحمته الواسعة:

قُتِلَهَا بِالْعَافِيَةِ نَجْمَةٌ لَفَجَارٌ	غَابَ ضَيَاكَ وَالْغَيْمُ عَنْكَ طَاحُ أَهْدُومٌ ¹
انْفَكَّرَتْ مَنِينٌ كَانَتْ لِي فَالْجَارُ	مَثَلُ حَمَامَةٍ زَاهِيَةٍ بَيًّا وَاتَّخُومٌ ²
انْفَكَّرَتْ مَنِينٌ كُنَّا شَاوُ اصْغَارُ	فِي نَوَّارِ رَبِيعٍ نَحْسَبُ رَاهُ إِيدُومٌ ³
يَتَنَسَّمُ رِيحَ الصَّبَاحِ مَعَ لَفْجَارُ	وَأَخْنَايَا لِأَبَاسٍ فِي صَحَّةٍ وَأُنْعُومٌ ⁴
ضُرُكُ لَحَقَتْ دَالْتُو دَبْلُ وَاصْفَارُ	هَاهُو سَنَدٌ حَطَّمُوا رِيحُ الْمَسْمُومُ ⁵

ثم يتوجه الشاعر إلى "المرسم"؛ فيخاطبه سائلاً إياه عن جيرانه أين ذهبوا؟ وإلى أين ارتحلوا؟ ولماذا تركوه وحيداً ضائعاً بعدهم تائهاً وحائراً؟! يقول:

1- طاح اهدوم: تساقط كتلاً داكنة، كثيفة ومتراكمة.

2- معنى الشطر الأول: تنكّرت عندما كانت جارة لي. زاهية: فرحة ومسرورة ومبتهجة.

3- شاو: بداية: أول.

4- اخنايا: نحن. انعموم: نعم.

5- ضرك: الآن. دالتو: أجله وحينه. سند: هوت سيقانه المحطمة على الأرض.

يَا مَرْسَمَ نَسْؤُكَ عَوْدَ لَخْبَارٍ مَا تَجَدُّشْ عِيدَ عَنِّي ذَا الْمَرْسُومِ¹
اجْمِيعَ إِلَيَّ قُرْبَتِي لِيَا فَالْجَارِ صَدُّوا جُمَّلَةَ مَا تُبْقَى حَدُّ يُقُومُ²

لقد تتالت تشبيهات الشاعر في أبياته الأولى (نجمة لفجار، مثل حمامة، نوار ربيع، ذبل واصفار، هاهو سنْد)؛ للدلالة على أخته "قوتة" المتوفاة، حيث تغيّرت حياتها من نجمة مضيئة إلى نجمة غاب نورها وغطّتها الغيوم الداكنة المتراكمة، ومن حمامة مسرورة مبتهجة إلى حمامة لا وجود لها، ومن نوار فصل الربيع الزاهي بألوانه البديعة وأشكاله المختلفة إلى زهر ذابل مصفر حطمته الرياح السّامة وقضت عليه أهوال الفصول الثلاثة الباقية. إنها مفارقات الحياة وعجائب الله في كونه وخلقه.

ويعصف الشاعر ردّة فعل أخته "قوتة" حول علاقتها بجيرانها بقوله:

مَا غَيَّاتَشْ زَاهِيَةَ بَحْبَابٍ وَجَارٍ مَا رَجَعْتُ مَتْنُويَّةَ مَنْ نَاسِ الشُّومِ³

وقد ربط الشاعر بين الحمامة والجار في بيته القائل:

انْفَكَّرْتُ مِنْينَ كَانَتْ لِي فَالْجَارِ مَثَلُ حَمَامَةِ زَاهِيَةِ بِيَّا وَاتْحُومِ

وهذا يعود بنا إلى حياة الحمام الحقيقية؛ إذ هو من الطيور الأليفة التي تعيش مستقرة في جماعات مع بعضها البعض، تؤانس بعضها وتتعاون إناتها وذكرها على حضن البيض ورعاية الصغار. إنها رمز السلام والأمان وزوال الخطر منذ قصة سيدنا نوح -عليه السلام- والطوفان.

وتشبيه الشاعر أخته/جارتها بالحمامة السعيدة فيه إشارة إلى الدلالات السابقة؛ فالحمامة جارة والجارة حمامة وكلاهما رمز للسلام والأمان والأمان

1- المرسم: رسم الديار، مكان وجود الأخت.

2- الي قربتي: الذين هم أقاربي. حد: أحد.

3- ما عياتش زاهية: ألم تكن فرحة سعيدة؟! متنوية: قلقة وغاضبة. الشوم: الشؤم.

والهدوء والاستقرار والحب والمحبة والألفة والاهتمام والراحة والهناء والسعادة والفرح
والسرور والبهجة والغبطة ورغد العيش ودفء الحياة وطيب خاطر والطمأنينة
والقناعة والرضا والبساطة والتعاون والاجتماع والاتحاد.
وفراق الجار إما بالموت أو الرحيل هو رمز للغربة الذاتية والحزن والألم
والضياع والتوهان والحيرة، وباختصار شديد؛ فقدان الجار الصالح الطيّب هو
فقدان الحياة...

10.3 - البردة (البرنوس):

البردة - حسب ما هو معروف - هي كساء يلتحف به، وقد أطلق اسم البردة على القصيدة اللامية "بانت سعاد" التي مدح بها كعب بن زهير النبي ρ، عندما جاءه مسلماً متخفياً بعد أن أهدر دمه، فكساه بردته.¹

ومختصر القصة هو «أن كعب بن زهير بن أبي سلمى رضي الله عنه لما بلغه إسلام أخيه بجير غضب وبعث إليه بأبيات يلومه فيها على إسلامه، فأهدر النبي ρ دمه، ثم هداه الله إلى الإسلام فقدم المدينة وقصد المسجد فجلس بين يدي النبي ρ تائباً مسلماً وأنشده قصيدته بانت سعاد المشهورة فلما وصل إلى قوله:

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنْدٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ مَسْلُوكُ

رمى ρ إليه بردة كانت عليه».²

ويروى أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى كعب يريد شراء بردة الرسول ρ بعشرة آلاف درهم فأبى عليه، فلما مات كعب بعث معاوية إلى أولاده بعشرين ألف درهم، وأخذ منهم البردة. وقد كانت هذه البردة عند خلفاء الدولة العباسية يتوارثونها ويطرحونها على أكتافهم في الأعياد والمواكب جلوساً وركوباً.³

ولقد ساهم العرب عموماً وسكان منطقة بوسعادة بشكل خاص في الحفاظ على هذا النوع من اللباس*، حيث تعددت أشكاله وأنواعه وألوانه؛ وأخذ هذا الثوب

1- ينظر: أبو العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى، المطبعة الأميرية (دار الكتب الخديوية)، القاهرة، مصر، ج3، 1914، ص: 273.

2- أحمد تيمور باشا: الآثار النبوية، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 1951، ص: 14/13.

3- ينظر: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، دار المنهاج، جدة، السعودية، بيروت، لبنان، ط2، 2013، ص: 86/85.

*- يقيم سكان مدينة بوسعادة تظاهرة "عيد البرنوس" كل عام ويدعى إليها أصحاب الصناعات التقليدية مؤسسات وأفراداً، ويحضرها شعراء القصيدة الشعبية والجمهور من كل طبقات المجتمع ومن مختلف أنحاء

أبعاداً مختلفة: دينية، تاريخية (تراثية)، سياسية، اجتماعية، جمالية (فنية)، ثقافية، أخلاقية...

كما أن شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة كان لهم الدور الأكبر في الحفاظ على هذا الموروث الحضاري الثقافي، والاعتناء به من خلال توظيفه في قصائدهم كرمز من رموز الحضارة العربية الإسلامية. لقد تغنوا به باعتباره مصدراً من مصادر التراث وملهماً للإبداع أجمل القصائد وأجودها.

وهذا الشاعر "أحمد وليد بن القبي" وقد خصّ قصيدة كاملة تعنى بالبرنوس الذي يشبه البردة إلى حدّ كبير، بل يمكن اعتباره بردة لها جذور عربية إسلامية تعود أصولها إلى بردة الرسول μ حيث يفتتح قصيدته قائلاً:

وَلَيْدُ أَحْمَدَ رَأَى يَحْكِي عَالَمُ بُنُوسٍ	وُفَالسَّجَّارَةَ عَامِرِي لَا تَخْتَالَةَ ¹
ذَا مِنْ عَرْشِ أَوْلَادٍ نَائِلٍ بِالْخُصُوصِ	زَيْنِينَ الْمِيعَادُ فِي كُلِّ أَعْمَالَةَ ²
يَا حَسْرَاهُ غَلِيكَ يَا وَقْتُ الْبِرْنُوسِ	كَأَنَّا بِكَرِي يَلْبَسُوهُ الرِّجَالَةَ ³
جَمِيعَ الْيَ لِبَسُوهُ مَرْفُوعِينَ الرُّوسِ	مَا هُمْ حَقَّارِينَ مَا هُمْ ذَلَالَةَ ⁴
زَيْنِينَ الْمِيعَادُ مَا فِيهِمْ مَكْرُوسِ	وَسَطَ الْمَجْمَعِ يَهْدُرُوكَ بِالْدَالَةَ ⁵
إِذَا جَاءَ فِي وَسْطِهِمْ وَاحِدٌ مَخْصُوصِ	يَعْطُوهُ مِنْ الْمَالِ مَا هُمْ بُوْخَالَةَ ⁶

الوطن وحتى من خارجه. وقد كان للباحثة حظ في زيارة هذه التظاهرة يوم السبت 18 أكتوبر 2014 في دار الشباب "جمال الدين الأفغاني" ببوسعادة.

1- السجارة: الشجرة؛ شجرة النسب. تختالة: اختلاط (خلط في الأنساب).

2- زينين: مفردها زين بمعنى جميل وحسن. الميعاد: مجلس اجتماع القوم

3- يا حسراه! يا بكرى: قديماً. الرجالة: الرجال الأبطال الفحول.

4- حقّارين: ظالمين. ذلالة: أذلاء.

5- المكروس: الطفل الذي بلغ الحلم. يهدرولك بالدالة: يتحدثون معك واحداً تلو الآخر.

6- جا: جاء. مخصص: به خصاصة. بوخالة: بخلاء.

وظف الشاعر "البرنوس" في قصيدته للدلالة على الرجولة وعلوّ الهمة والفحولة والأصل العربي العريق والشهامة والنخوة والحميّة وسلامة الصدر من الأحقاد والضغائن والحيلة والمكر وحبّ النظام والكرم والجود وكثرة العطاء وفعل الخير والحث على ذلك، وللدلالة - أيضاً - على حبّ الحياة والعيش فيها بقناعة وسعادة ورضى. إنه جمال الحياة البدوية النقية من كل الشوائب؛ الخالية من فوضى التكنولوجيا وخبث البشر.

ويتأسّف الشاعر للحالة التي وصل إليها "البرنوس". لقد أصبح ذليلاً مهاناً رخيصاً من حيث المكانة بعدما كان رمزاً للجمال والأناقة:

الْبَرْنُوسُ الّـي كَانَ لِلْهَمَّةِ مَدْسُوسٌ	تَتَلَوُّحُ بَيْتِ النَّاسِ وَلِىَ دَرْبَالَةٍ ¹
وَفِي ذِ الْوَقْتِ غَلَاةٌ نَلْقَاوَهُ مَبْخُوصٌ	مَا يَسْوَاشُ زِيَالٌ عِنْدَ الدَّلَالَةِ ²
قَاشِي الْجَلْفَةِ يَلْبَسُو قَاعَ الْخَيْتُوسِ	وَاحْمَرُ ذَهَبِي كِي مَثَلُ الشَّعَالَةِ ³
وَإِجْبِيوَهُ مِنْ الْإِبِلِ مَا هُوَ مَغْطُوسٌ	هَازِي لِبَسَةَ النَّاسِ الْمَوَالَةِ ⁴
كِي نَتَفَكَّرَ وَقَتَهُمْ نَبْقَى مَهْسُوسٌ	وَدُمُوعِي مِنْ كُلِّ جِيهَةٍ سَيَالَةِ ⁵

ومع ذلك، فإن الشاعر لا يلبث أن يسترجع أمجاد قومه "أولاد نايل" فتمتزج حيرته بفخره، وبكاؤه بإعجابه وأسفه بنشوته؛ وفي خضم كل ذلك يحاول أن يزود المتلقي بفكرة موجزة عن نوع مشهور من أنواع "البرانيس" المصنوعة في المنطقة؛ يطلق عليه اسم "الْخَيْتُوسَة" أو "الْخِيدُوسَة" أحمر اللون يتم نسجه باستخدام وبر الإبل. والمتلقي يلاحظ دائماً طغيان اللون الأحمر على الغالبية العظمى من

1- مدسوس: مخبأ. معنى الشطر الثاني: صار لعبة في أيدي الناس (في الشطر كناية عن هوان البرنوس).

2- معنى البيت: وفي هذا الوقت لماذا نجده مهاناً؟ ليس له قيمة عند الباعة.

3- قاشي الجلفة: سكان ولاية الجلفة وضواحيها. قاع: كل: جميع. الشَّعَالَة: الشعلة.

4- إيجبيوه: يجيئون به.

5- كي: لمّا: عندما. مهسوس: حائر: حزين: قلق: متألّم.

استخدامات سكان البادية؛ وهو اللون الذي يميل إلى لون تربة الأرض، ومما لاشك فيه هو الدلالات الواضحة الموحية لهذا اللون الجذاب الذي يعدّ رمزا للبهجة والفرح والسرور والغبطة والسعادة والنشوة والحبّ والحماسة والحمية والشهوة والشوق وعشق الطبيعة والحياة.

وفي مدحه لقومه أولاد نايل يصف الشاعر "عبد القادر العطوي" أبطالهم ولباس الرجل منهم بعد جولة عبر قصيدته "البيت الحمراء"، حيث يقول:

وُلْبَاسُو تَيْسُورٌ وَعُمَامَةٌ صَفْرًا وَخَيْدُوسَاتٌ مِنَ الْوَبَرِ صَافِي نَقَّاهُ¹

وفي وصفه للمجاهد الحاج الشريف شنوفي رحمه الله يحاول الشاعر أن ينقل إلينا صورة هذا البطل بوصف لباسه الخارجي وما يعبر عنه من فخامة وأناقة وصرامة وجديّة وجمال وأصالة واضحة. يقول:

تَحْلَى الْجَلَسَةُ كِي أَنْتَ فِيهَا تُقْعَدُ بِخَضُورِكَ نَتَفَكَّرُ أَيَّامَ الْقِيَادِ²
لِعُمَامَةِ تَيْسُورٍ وَالْكُوسْتِيمِ أَسْوَدُ وَالْقَنْدُورَةِ فَوْقَهَا وَبَرِي وَقَادُ³
الْلُبْسَةِ الزَّيْنَةُ تَوَاتِي زَيْنُ الْقَدِّ مَتَرَّبٌ فِي هَدْرَتِكَ صَاحِبُ مِعَادُ⁴

ورد لفظ "الخيدوسات" في البيت الأول للشاعر في صيغة الجمع للدلالة على الكثرة، وكأنني به يريد أن يقنع المتلقي بأن كل الذكور عند هؤلاء القوم يملكون هذا النوع من اللباس التقليدي، ويتمتعون بارتدائه. كيف لا؟! وهو من الصناعات التقليدية المشهورة عند قوم أولاد نايل وفي منطقة بوسعادة بشكل خاص.

1- تيسور: اسم لقماش من النوع الفاخر ناصع البياض شفاف يوضع على الرأس على شكل عمامة.

2- تحلى: تحلو. كي: عندما. القياد: القادة (جمع قائد).

3- الكوستيم: كلمة أجنبية بمعنى بدلة خاصة بالرجال. القندورة: ثوب رجالي واسع قد يكون أبيض اللون وقد يكون له ألوان أخرى. وبري: يقصد الشاعر به البرنوس المصنوع من الوبر. وقاد: متقد.

4- معنى الشطر الأول: اللباس الجميل يزيد صاحب القد الحسن أناقة وبهاء. هدرتك: كلامك: حديثك.

ثمَّ؛ أليست جميلات هؤلاء القوم هن من يقمن بنسج هذه النفائس والبدائع من الثياب والأغطية والأفرشة؟! فيتركن فيها بصمة خاصة توحى بجمالهن وإتقانهن وحبّهن للآباء والأزواج والأبناء والإخوة...

ولفظه "البرنوس" في أبيات الشاعر هي رمز للقيادة والزعامة والبطولة والرجولة والبلاغة والفصاحة والصلاح والخير والنزاهة والصرامة والأناقة والجمال والحسن والبهاء والعروبة والأصالة والمحافظة والنجدة والشهرة والسمعة الحسنة والنسب الشريف النقي والتقى والحماية وحبّ الله وعبادته وطاعته وحبّ خلق الله والحثّ على فعل الخير ونشره بين العباد.

وبنفس الطريقة؛ وفي قصيدة الشاعر "السعيد بوعشرين" الذي استخدم لفظة "الوبري" كناية عن البرنوس، نلمح تقريبا نفس الدلالات، فهو عندما يمدح قوم أولاد نايل كعادة الشعراء الآخرين يصف - أيضا - لباسهم ويفخر بذلك.

يقول الشاعر واصفا جمال اللباس عند هؤلاء القوم:

لِبَسَةِ زَيْنَةٍ وَالْفَتَادَرُ بِالْمَجْدُولِ وَالْوَبري لِمَاغٍ خَفَّتْ وَزَنَاتُ¹

لقد استعار الشاعر لفظة "الوبري" للدلالة على كل الصفات الجميلة التي تميز الذكور عند قوم أولاد نايل وفي منطقة بوسعادة بشكل خاص؛ ومن أهم هذه الصفات صفة الرجولة الحقة، فالرجل رجل من خلال لباسه وحركاته وكلامه وكل مواقفه، والبرنوس هو زينة الذكور عند هؤلاء القوم، وهو لباس يستر جميع أعضاء البدن، وهو الأمر الذي يدعو إلى القول بأن الحياء والتستر هما خلقان فطريان يجريان في دماء هؤلاء القوم؛ رجالا كانوا أو نساء.

1- لبسة زينة: لباس جميل. الفتادر: جمع القندورة وهي ثوب واسع للرجال. المجدول: مجدول اسم مفعول من الفعل جدل؛ بمعنى مفتول، ويقصد به الشاعر هنا نوع من الخيوط المفتولة التي تزين بها بعض أنواع الثياب. الوبري: البرنوس من الوبر. وزناتو: وزنه.

ويلعب عنصر التناص دورا واضحا عند استخدام رموز منتشرة ومتداولة كهذه؛ حيث نجد أغلب الشعراء يعبرون بطريقة متشابهة تماما، فهذا الشاعر "الحمدي بوشنافة" لما يمدح بوسعادة يصف لباس الرّجل منهم فيقول:

تَلْقَى الرَّاجِلُ فِي لِبَاسُو مَتَخَبِّلُ نَعْتُ بُرْجٍ سَحَابٍ مِنْ لِبْعَادِ إِيَّانُ¹
فَاللَّبْسَةُ عَنْ عَادَتُو مَا يَتَبَدَّلُ فَنَادِرُ وَبِرَانِيْسٍ وَأَخْوَاتِسٍ بِأَلْوَانِ²
الْبُلْغَةُ زَيْنَةُ فَالرَّجُلُ صَفْرًا تَشْعَلُ وَالْعِمَامَةُ طَابِعَةُ الرَّأْسِ وَشِيشَانُ³
الْبُوسَعَادِي فِي حَالَتُو رَاهُ مُدَلَّلُ مَشْهُورُ بُلْخَلَقٍ وَالْهَمَّةُ وَاحْسَانُ

البرنوس في أبيات الشاعر هو رمز يعكس عروبة هؤلاء القوم وثقافتهم الإسلامية وهويتهم الوطنية وشخصيتهم المحافظة على القيم والمبادئ والتقاليد والعادات العربية عامة والجزائرية بشكل خاص. إنه جزء لا يتجزأ من الهوية والانتماء، وهو رمز للزينة والبهاء والشموخ والوقار والحسن والشهامة والهيبة والأنفة والعزة والكرامة والتمسك بالموروث الوطني. ألم يلبسه الأبطال الأحرار أيام ثورة التحرير الجزائرية المباركة فكان يقيهم صقيع البرد في الجبال وفي البادية والحضر؟!

وللبرنوس مكانة عظيمة عند قوم أولاد نايل عامة وعند سكان منطقة بوسعادة بشكل خاص ومن عظمة هذه المكانة التي احتلها ولا يزال أنه يقدم للشخصيات الهامة في الدولة؛ رؤساء ووزراء ومدراء.. كأغلى هدية وأثمنها

1- في لباسو متخبل: يلف ثوبه على جسده لقا ليستر جميع أعضائه. نعت: مثل. برج سحاب: سحابة كالبرج. من لعباد: من بعيد. إيان: يبين ويظهر.

2- الفرق بين البرنوس والخيتوسة (الخيدوسة) هو أنّ البرنوس أبيض اللون يصنع من صوف الغنم، أما الخيتوسة فتصنع من وبر الإبل الأحمر الذي يميل إلى اللون البني الداكن أو الفاتح وهي الأغلى ثمنًا مقارنة بالبرنوس.

3- البلغة: النعل. شيشان: جمع شاش وهو قماش ناصع البياض شفاف من النوع الرفيع. يلف على الرأس.

وأجملها على الإطلاق، ولطالما حدث ذلك في أغلب الزيارات التاريخية لهؤلاء القادة والمسؤولين. ألا يدل ذلك على أهميته وعلى جذوره المعبرة عن رسوخه في ذاكرة هؤلاء القوم كرمز له مرجعية دينية تعود إلى بردة الرسول!؟

الخاتمة

الخاتمة:

وفي ختام هذا البحث وددتُ التأكيد على النقاط التالية؛ وهي نقاط رأيتُ بأنها مهمة وتستحقُّ أن أُشير إليها ولو باختصار، ويمكن إيجازها فيما يلي :

- غلب على القصائد الشَّعبية في منطقة بوسعادة اللغة العربية الفصيحة، وظهر ذلك من خلال التوظيف الكثيف والجميل للمفردات العربية الفصيحة، ولكنّه توظيف لا يتماشى مع قواعد اللغة العربية الفصحى، لذلك ظهرت وكأنّها لهجة عاميّة.

- تباينت قصائد شعراء منطقة بوسعادة بين الطّول المعتبر أحيانا، والاعتدال الواضح أحيانا أخرى، وهذه سمة لاحظناها بعد جمع القصائد ودراستها دراسة عميقة.

- تتوّعت الأغراض التي نظم فيها شعراء المنطقة، وتراوحت أغلبها بين الأغراض التقليدية كالرّثاء والغزل والمدح.. وبين أغراض حديثة تهتمّ بمواضيع حديثة.

- كانت أهمّ الرموز الموظّفة من طرف شعراء القصيدة الشَّعبية في منطقة بوسعادة هي رموز الطّبيعة والتّراث والدّين؛ ولكنّ الرموز الطّبيعية أخذت الحصة الأكبر، وهذا راجع - كما ذكر سابقا في المتن - إلى البيئة الصّحراوية التي نشأ فيها هؤلاء الشّعراء أو عاشوا فيها قدحا من الزّمن.

- أجاد هؤلاء الشّعراء في توظيف الطّبيعة؛ حيث كان تركيزهم على عناصر منها: المكان والزمان والحيوان والنبات، وجعلوها متحرّكة معبرة عن مدلولات كثيرة توحى بها هذه الرموز الطّبيعية.

- يُمثّل الشعر الشعبي معجما طبيعيا متنوعا، حيث تعجّ القصائد الشَّعبية بالألفاظ المنتقاة من الطّبيعة التي يعشقها الشعراء، ويهيمون بجمالها وسحرها، وفي استخدامهم لهذا القاموس النابض بالحياة يُضفّون طابعا خاصا على ألفاظ

بعينها، ويجعلون لها مدلولاً معيناً يشترك في تفسير كُنْه الشاعر والمتلقي قارئاً كان أو مستمعا على حدّ سواء.

- قام شعراء بوسعادة باستدعاء الشخصيات التراثية كرموز تاريخية؛ لها العديد من الدلالات التي تشير إلى الذاكرة القوية لهذه الفئة من السكان في هذه المنطقة، بالإضافة إلى اعتزازهم وافتخارهم بهذا التراث وبأصحابه. فهم يوظفون الرموز التراثية بشكل واسع، ويخصون الشخصيات التراثية بهذا التوظيف، رغبة منهم في توطيد الصلات بين ماضي السلف وحاضر الخلف، وتجديداً منهم للعهود والبطولات وتوثيقاً لمبادئ الدين الإسلامي والحفاظ عليه ونشره، كما يقصدون من خلال استخدامهم لشخصيات الشعراء كرموز إلى التغني بمواقف القوة والشدة والبطولة والعفة والوفاء، كما لا تفوتهم الإشارة إلى بعض القيم كالحب والعفو والتسامح والعطاء...

- لا يخفى على المنتبّع لهذا النوع من الشعر في هذه المنطقة ما تتضمنه هذه القصائد من رموز دينية؛ تجعل المتلقي يدرك تمام الإدراك الخلفية الدينية لهؤلاء الشعراء؛ فهم مسلمون بالفطرة والسليقة، وأشعارهم تفيض بالرموز الدينية والتناص الديني والتقاطع مع القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

- اهتمّ شعراء القصيدة الشعبية في منطقة بوسعادة بالوزن الشعري والموسيقى الخارجية والداخلية والإيقاع؛ ومن ذلك استخدامهم للوزن الشعري "العشاري"، في الغالب وكذلك اختياريهم لحرفي رويّ؛ حرف موحد في الشطر الأول وحرف موحد آخر في الشطر الثاني، بالإضافة إلى حسن تجاور الألفاظ وتناسقها.

- و نستطيع القول بأننا تمكّنا من خلال العمل الميداني أن نجمع عددا لا بأس به من القصائد الشعبية في منطقة بوسعادة؛ وهذا ما سيسهل على الدارسين في المستقبل عملية البحث والدراسة إذا اختاروا تخصص الأدب الشعبي ومنه الشعر الشعبي.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع.

- القرآن الكريم

الشعراء:

- 1- أحمد وليد بن القبي.
- 2- إسماعيل مدّاد.
- 3- البشير قذيفة
- 4- الحمدي بوشنافه.
- 5- الزهرة اشويحة.
- 6- عبد القادر العطوي
- 7- محمد الرّيعي شبيرة "رحمه الله "
- 8- السّعيد بوعشرين.

الرّواة:

- 1- السيد عبد القادر بوعكاز
- 2- بن النّوي الشّابي بن سي النّوي - رحمه الله -
- 3- السيّد توفيق بن النوي ابن المرحوم "بن النّوي الشّابي بن سي النّوي "
- 4- السيد السعيد حبيشي.
- 5- الشيخ الراوية بوعدي عبد العالي بن بايزيد - رحمه الله - "جدّ الباحثة من أمّها "
- 6- السيّد بلقاسم شنوفي ابن المجاهد المرحوم "الشّريف شنّوفي ".
- 7- الشاعر عبد القادر العطوي.
- 8- الدكتور أحمد قنشوبة.
- 9- الراوية الشاعر أحمد سعدون.

المصادر والمراجع:

- 1- إبراهيم شعيب: الديوان المثير للشاعر ابن السايح الخيثر، مطبعة رويغي، الأغواط، الجزائر، ط1، 2006.
- 2- إبراهيم شعيب: ديوان عبد الله بن كزيو، مطبعة رويغي، الأغواط، الجزائر، ط2، 2004.
- 3- ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألف، مؤسسة سعيديان، سوسة، تونس، 1989.
- 4- أبو العباس أحمد القلقشندي: صبح الأعشى، المطبعة الأميرية (دار الكتب الخديوية)، القاهرة، مصر، ج3، 1914.
- 5- أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض، السعودية، ج1، ط2، 1999.
- 6- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرساني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 1994.
- 7- أبو عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني: شرح المعلقات السبع، تقديم: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط2، 2004.
- 8- أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط5، 1982.
- 9- إحسان عباس: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشرق، عمان، الأردن، ط3، 2001.

- 10- أحمد بسام ساعي: حركة الشعر الحديث في سورية من خلال أعلامه، دار المأمون للتراث، دمشق، ط1، 1978.
- 11- أحمد تيمور باشا: الآثار النبوية، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، 1951.
- 12- أحمد قنشوبة: البناء الفني في القصيدة الشعبية الجزائرية، منطقة شمال الصحراء نموذجا -1950/1850- دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، 2010.
- 13- أحمد قنشوبة: الشعر الغض - اقترابات من عالم الشعر الشعبي - الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، الجزائر، 2006.
- 14- الإمام أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الرّوزني: شرح المعلقات السبع، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط1، 2010.
- 15- آمنة بلعلّى: الرمز في بنية القصيدة العربية المعاصرة (دراسة تطبيقية)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1995.
- 16- الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف، تحقيق وتقديم: بكري علاء الدين، دار نينوى، دمشق، سوريا، ج1، 2014.
- 17- الأمير عبد القادر: الديوان الشعري، جمع - تحقيق - شرح وتقديم: العربي دحو، دار ثالة، الأبيار، الجزائر، ط3، 2007.
- 18- أوستن وارين و رينيه ويليك: نظرية الأدب، ترجمة: محي الدين صبحي، المجلس الأعلى لرعاية الفنون، دمشق، ط2.
- 19- بشير تاويريريت: رحيق الشعرية الحداثيّة في كتابات النقاد المحترفين والشعراء النقاد المعاصرين، مطبعة مزوار، بسكرة، الجزائر، 2006.
- 20- بهاء حسب الله: ظواهر أدبية في الشعر العربي القديم والمعاصر، دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، 2004.

- 21- بولرباح عثمانى: دراسات نقدية في الأدب الشعبي، الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، الجزائر، ط1، 2009.
- 22- جلال الدين المحلى، جلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، تحقيق: صبري محمد موسى وآخرون، دار الخير، بيروت، دمشق، ط1، 2001.
- 23- جلال الدين المحلى، جلال الدين السيوطي: تفسير الجلالين، تحقيق: صبري محمد موسى، ومحمد فايز كامل، دار الخير، بيروت، لبنان، دمشق، سوريا، ط1، 2001.
- 24- جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: تاريخ الخلفاء، دار المنهاج، جدة، السعودية، بيروت، لبنان، ط2، 2013.
- 25- جمال مباركى: التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، رابطة الإبداع الثقافية، الجزائر، 2003.
- 26- جميل بن معمر: ديوان جميل بثينة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1982.
- 27- الحاج مزارى: الهامل - مركز إشعاع ثقافي وقلعة للجهاد والثورة - المطبعة العصرية بلوزداد، بلكور، الجزائر.
- 28- حسن حنفي: التراث والتجديد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط4، 1992.
- 29- حنان محمد موسى حمودة: الزمكانية وبنية الشعر المعاصر - أحمد عبد المعطي نموذجاً - عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2006.
- 30- الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنتر، تقديم مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

- 31- رجاء عيد: لغة الشعر - قراءة في الشعر العربي الحديث - مطبعة أطلس، القاهرة، مصر، 1985.
- 32- سحر سامي: شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 2005.
- 33- السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث - مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية - دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر.
- 34- شوقي ضيف: في النقد الأدبي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط6.
- 35- الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7 الهجريين/ 12 و 13 الميلاديين، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004.
- 36- الطائع الحدادي: النص والمفهوم، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2010.
- 37- ظاهر محمد هزاع الزواهرة: اللون ودلالاته في الشعر - الشعر الأردني نموذجاً - دار الحامد، عمان، الأردن، ط1، 2008.
- 38- عامر بن المبروك محفوطي: تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل، مطبعة النعمان - الليدو - الجزائر، ط1، 2002.
- 39- عبد الحميد بن محمد ابن باديس الصنهاجي: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2003.
- 40- عبد الحميد بورايو: القصص الشعبي في منطقة بسكرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

- 41- عبد الرحمان بن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار ابن الجوزي، القاهرة، مصر، ط1، 2010.
- 42- عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط 1، 2000.
- 43- عبد الستار أحمد فراج: ديوان مجنون ليلى، دار مصر للطباعة، مصر، 1979.
- 44- - عبد العزيز محمد شحادة: الزمن في الشعر الجاهلي، دار الكندي، أريد، الأردن، 1995.
- 45- عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط3.
- 46- عبد الله إبراهيم: المركزية الغربية، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، لبنان، 2010.
- 47- عبد الله التطاوي: أشكال الصراع في القصيدة العربية - من القديم إلى المعاصر (رحلة المعارضات) - مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، ج7، 2005.
- 48- عثمان حشلاف: الرمز والدلالة في شعر المغرب العربي المعاصر (فترة الاستقلال)، منشورات التبيين، الجاحظية، الجزائر، 2000.
- 49- عدنان حسن قاسم: التصوير الشعري - رؤية نقدية لبلاغتنا العربية - الدار العربية، مدينة نصر، 2000.
- 50- العربي دحو: معجم شعراء الشعر الشعبي في الجزائر - من القرن 16 إلى أواخر العقد الأول من القرن 21م - دار الألمعية، قسنطينة، الجزائر، ط1، 2011.

- 51- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر -قضايا وظواهره الفنية والمعنوية-، دار الفكر العربي، ط3.
- 52- علي البطل: الصورة في الشعر العربي، دار الأندلس، ط2، 1981.
- 53- علي بولنوار: الشعر الشعبي الجزائري في منطقة بوسعادة، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2010.
- 54- علي عشري زايد: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997.
- 55- علي عشري زايد: عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة، مصر، ط4، 2002.
- 56- عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: قصص الأنبياء، تحقيق: عبد الحي الفرماوي، دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة، مصر، ط5، 1997.
- 57- عمار الطالبي: آثار ابن باديس، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، المجلد 01، ط3، 1997.
- 58- عمر أحمد الرياحات: الأثر التوراتي في شعر محمود درويش، دار اليازوري العلمية، عمان، الأردن، 2009.
- 59- فتحية كلوش: بلاغة المكان - قراءة في مكانية النص الشعري - مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- 60- كامل عبد ربه حمدان الجبوري: الطير ودلالاته في البنية الفنية والموضوعية للشعر العربي قبل الإسلام، دار الينابيع، دمشق، سوريا، ط1، 2010.
- 61- المتحف الوطني للمجاهد: أناشيد وطنية، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، وحدة الطباعة، روية، الجزائر.

- 62- محمد السرغيني: محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1987.
- 63- محمد الملي: ابن باديس وعروبة الجزائر، الطباعة الشعبية للجيش، 2007.
- 64- محمد بركات حمدي أبوعلي: البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية ونظرية السياق، دار وائل، عمان، الأردن، ط1، 2003.
- 65- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي: صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، شرح وتعليق: مصطفى ديب البغا، دار طوق النجاة، المجلد 04، ج8، ط1، 1422هـ.
- 66- محمد بن عبد الرحمن الدّيسي: تحفة الأفاضل في نسب سيدي نايل، شرح وتعليق: عبد الكريم قذيفة، الجمعية الثقافية للعلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمان الدّيسي، الجزائر، ط1، 2012.
- 67- محمد زغلول سلام: مدخل إلى الشعر الجاهلي - دراسة في البيئة والشعر - منشأة دار المعارف، الإسكندرية، مصر، 1995.
- 68- محمد عبد الواحد حجازي: الأطلال في الشعر العربي - دراسة جمالية - دار الوفاء، الإسكندرية، مصر، ط1، 2002.
- 69- محمد فتوح أحمد: الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط2، 1978.
- 70- محمد كعوان: التأويل وخطاب الرمز - قراءة في الخطاب الشعري الصوفي العربي المعاصر - دار بهاء الدين، الجزائر، ط1، 2009، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010.

- 71- مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفارياني، دار طيبة، الرياض، السعودية، المجلد 02، ط1، 2006.
- 72- مصطفى الغلاييني: جامع الدروس العربية، مراجعة وتنقيح: سالم شمس الدين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2005.
- 73- ملاس مختار: دلالة الأشياء في الشعر العربي الحديث - عبد الله البردوني نموذجاً - ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، 2002.
- 74- منير القاسمي الحسني: زاوية الهامل - التاريخ المصور - دار الخليل القاسمي، بوسعادة، المسيلة، الجزائر، ط1، 2007.
- 75- ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2000.
- 76- ناصر علي: بنية القصيدة في شعر محمود درويش، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ط1، 2001.
- 77- ناصر لمجد: ناصر الدين ديني - حياته وأفكاره - دار الخليل القاسمي، بوسعادة، المسيلة، الجزائر، ط1.
- 78- نزار أباضة : الأمير عبد القادر الجزائري - العالم المجاهد - دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط1، 1994، الأردن، 1995.
- 79- نواره ولد أحمد: شعرية القصيدة الثورية في اللّهب المقدّس، دار الأمل، الجزائر، 2008.
- 80- هيفرو محمد علي ديركي: جمالة الرمز الصوفي، دار التكوين، دمشق، سوريا، ط1، 2009.

81- وجدان الصايغ: الصور الاستعارية في الشعر العربي الحديث - رؤية بلاغية لشعرية الأخطل الصغير - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

82- وحيد عبد السلام بالي: الصارم البتار في التصدي للسحرة الأشرار، دار الإمام مالك، باب الوادي، الجزائر، ط10، 1998.

83- يحيى بن شرف الدين النووي: شرح متن الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، مكتبة دار الفتح، دمشق، سوريا، ط4، 1984.

84- يسري عبد الغني: ديوان قيس بن الملوح - مجنون ليلي - دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1999.

المعاجم والقواميس:

1- ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، كورنيش النيل، القاهرة، مصر.

2- أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقرئ: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987.

3- الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج2، ط1، 2003.

4- الطاهر أحمد الزاوي: ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير وأساس البلاغة، دار الفكر، ج2، ط3.

5- عبد الله البستاني: البستان - معجم لغوي مطول - مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

- 6- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تعليق: أبو الوفا نصر الهوريني المصري الشافعي، مراجعة: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2008.
- 7- مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي الشيرازي الشافعي: القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، ج2، 1995.
- 8- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1990.
- 9- محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1986.
- 10- المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1987.
- 11- هيئة الأبحاث والترجمة لدار الراتب الجامعية: الأسيل - القاموس العربي الوسيط - (عربي/عربي)، دار الراتب الجامعية، بيروت، لبنان.

الدوريات والمجلات:

- 1- أحمد زعب: سيمياء الاستطراد والتخلص في الخطاب الشعري الشافهي - نزاع القيم بين الموت والحياة - محاضرات الملتقى الثالث، السيمياء والنص الأدبي، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم الأدب العربي، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2005.
- 2- حفناوي بعلي: قصيدة حيزية.. قراءة سيميائية في شعرية العشق والموت، محاضرات الملتقى الثالث - السيمياء والنص الأدبي - 20/19 آفيل 2004، الكتاب الثالث، منشورات قسم الأدب العربي، كلية الآداب والعلوم

- الاجتماعية والإنسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، مطبعة شركة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2004.
- 3- رابح بن خوية: شعرية المعنى الصوفي في القصيدة -شعر محمد الغزالي أنموذجا- حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات، جامعة المسيلة، الجزائر، ع5، نوفمبر 2015.
- 4- سعيد جاب الخير: العلاقة بين التصوف وشعراء الملحنون في الجزائر - محمد بن مسايب نموذجا - الملتقى الوطني الأول حول التصوف في الأدب الشعبي - دورة الشاعر الشيخ أحمد بن معطار - التصوف في الأدب الشعبي الجزائري، الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، دار أسامة، الجزائر، 2007.
- 5- عبد الحميد حاجيات: حيزية لابن قيطون، مجلة آمال، وزارة الاتصال والثقافة، مجلة آمال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغبة، الجزائر، العدد 68، ط2، 2000، (عدد خاص بالشعر الشعبي الملحن).
- 6- وهب رومية: الشعر والناقد من التشكيل إلى الرؤيا (عالم المعرفة)، سلسلة شهيرة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر 2006، العدد (331).
- الرسائل الجامعية:**

- 1- السحمدي بركاتي: الرمز التاريخي ودلالاته في شعر عز الدين ميهوبي، مذكرة ماجستير، إشراف: معمر حجيج، جامعة العقيد الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية: 2009/2008.
- 2- عبد القادر فيطس: الشعر الملحن الجزائري -1830/1954- دراسة تحليلية فنية، أطروحة دكتوراه، إشراف الأستاذ: أحمد الأمين، كلية الأدب واللغات، جامعة الجزائر، 2009/2008.

المراجع الأجنبية:

- 1- Barkahoum FERHATI: Le musée national Nasr-Eddine Etienne Dinet de Bou- Saada (1930 - 1993) Genève, INAS Editions, Alger, 2003.
- 2- Fernand ARNAUDIES: Etienne DINET et El-Hadj Sliman ben Ibrahim, L'editions p. & g. soubiron, Alger.

فهرس المواضيع

فصل تمهيدي: ماهية الرّمز

11	1- مفهوم الرّمز لغة واصطلاحًا.....
11	1.1- الرّمز لغة.....
11	1.1.1- لفظة الرمز حسب المعاجم القديمة.....
13	2.1.1- لفظة الرمز حسب المعاجم الحديثة.....
14	3.1.1- لفظة الرمز في القرآن الكريم.....
15	2.1- الرّمز اصطلاحًا.....
19	2- مفهوم الرمز عند الغرب وعند العرب.....
19	1.2- الرمز عند الغرب.....
19	1.1.2- الإغريق.....
20	2.1.2- الإنجليز.....
21	3.1.2- الفرنسيين.....
22	2.2- الرمز عند العرب.....
25	3- جماليات الرمز في الدّراسات الأدبية.....

الفصل الأوّل: رمز الطّبيعة

31	1- مفهوم رّمز الطّبيعة.....
33	2- الشعراء والطّبيعة.....
35	3- رموز الطّبيعة في الشّعْر الشّعبي.....
35	1.3- رمز المكان.....
37	1.1.3- الخيمة.....
51	2.1.3- البحر.....
59	3.1.3- السّماء.....
60	1.3.1.3- الشّمس.....

63	2.3.1.3- القمر
67	3.3.1.3- النجوم
70	2.3- رمز الزّمان (الزّمن)
71	1.2.3- الفصول الأربعة
71	1.1.2.3- فصل الشتاء
74	2.1.2.3- فصل الربيع
77	3.1.2.3- فصل الصّيف
80	4.1.2.3- فصل الخريف
82	2.2.3- الليل والنهار
86	3.2.3- الفجر والمساء
91	3.3- رمز الحيوان
91	1.3.3- الغزال
99	2.3.3- الخيل
112	3.3.3- الإبل
122	4.3.3- الأسد واللبّوة
136	5.3.3- الطيور
137	1.5.3.3- الحمامة/القمرى
142	2.5.3.3- العقاب /العارم
147	3.5.3.3- الغراب
149	4.5.3.3- البوم
152	5.5.3.3- طيور متنوعة
155	4.3- رمز النّبات
156	1.4.3- الشّجر

164	2.4.3- التَّحْلُ
169	3.4.3- الزَّهْرُ
الفصل الثَّاني: رمز الثُّراث	
175	1- مفهوم رمز الثُّراث
178	2- الشعراء والثُّراث
180	3- رموز الثُّراث في الشعر الشعبي
181	1.3- أولياء صالحون
182	1.1.3- سيدي محمد نايل
190	2.1.3- سيدي خالد
194	3.1.3- سيدي عيسى
197	4.1.3- سيدي ثامر
200	5.1.3- سي بوضياف
203	2.3- فنانون
204	1.2.3- ناصر الدين ديني
209	3.3- أئمة ورجال دين
211	1.3.3- الشيخ محمد بن أبي القاسم
215	2.3.3- الشيخ عبد الحميد بن باديس
221	4.3- ثوار ومجاهدون
223	1.4.3- الأمير عبد القادر
227	5.3- شعراء وعشاق
228	1.5.3- شعراء الفصيح
229	1.1.5.3- عنتره بن شدّاد العبسي

235	2.1.5.3- قيس بن الملوّح
239	2.5.3- شعراء الملحون
240	1.2.5.3- الشيخ السّماقي
243	2.2.5.3- محمد بلخير
245	3.2.5.3- عبد الله بن كريبو
249	3.5.3- قصّة عاشقين
الفصل الثالث: رمز الدّين	
255	1- مفهوم رمز الدّين
258	2- الشعراء والدّين
262	3- رموز الدّين في الشعر الشعبي
263	1.3- الدنيا
273	2.3- القبر
288	3.3- الجنة
294	4.3- الكتاب
306	5.3- السّحر
329	6.3- الحبّل والغزل
341	7.3- الغيم
351	8.3- الشيب
358	9.3- الجار
366	10.3- البردة (البرنوس)
373	خاتمة

المصادر	قائمة
375.....	والمراجع
390.....	فهرس المواضيع
396.....	ملخصات الدراسة

ملخصات الدراسات

ملخص البحث بالعربية:

يأتي البحث " أشكال الرّمز في القصيدة الشعبيّة - شعراء منطقة بوسعادة أنموذجاً - " في وقت شهد فيضاً في الدراسات النّقديّة حول الشّعْر الشّعبي، ومبادرات من طرف بعض النّقّاد والباحثين الذين تناولوا القصائد الشعبيّة في بحوثهم الأكاديمية كمواضيع جادّة للدراسة و النّقْد.

وبالعلاج البحث قضية هامّة من قضايا النّقْد الأدبي؛ وهي قضية تهتمّ بالحضور المكثّف للرموز الفنيّة في الشّعْر الشّعبي؛ حيث يشكّل الرّمز وسيلة إبلاغيّة وإيحائيّة لا يستغني عنها الشّعراء في بناء قصائدهم، لِمَا تحمله من دلالات متنوّعة وأفكار متعدّدة، توحى بما يختلج في نفسيّة الشّاعر. و لَغَايات خاصّة: أدبيّة، وجماليّة، واجتماعيّة، و غيرها، يجعل الشّاعر من الرّمز قناعاً و ستاراً.

وقد تناول هذا البحث جانباً من المسيرة الشّعريّة لشعراء منطقة بوسعادة إحدى أشهر المدن الجزائرية، و أكثرها عراقية، وأشدّها غوصاً في أعماق التّاريخ؛ هي منطقة سياحية خلّدها الرّسام العالمي المشهور " نصر الدّين ديني " في كتبه ولوحاته وقال عنها مقولته المتوارثة عند أبناء بوسعادة: (لو كانت الجنّة في السّماء لكانت فوق مدينة بوسعادة، ولو كانت في الأرض لكانت هي مدينة بوسعادة).

الكلمات المفتاحية: الشعر الشعبي - القصيدة الشعبية - أشكال الرمز

Synopsis:

In a time where we have a plenty of studies related to popular poetry, besides to initiatives led by researchers and some critics who dealt with popular poems in their academic studies as carefully and deeply analyzed topics for study and criticism, my research paper **"Symbolism in Popular Poetry in the Region of Bou Saada "** is one of those efforts.

My study deals with an important issue which is the intense existence of esthetic aspects in popular poems which is a good means to convey meanings in an attractive way. Through this esthetic aspect, the popular poet expresses his/her internal feelings and psychological state besides to literary, social and artistic dimensions. Symbolisms is still a way to deal with some social taboos that cannot be discussed publicly.

This research paper deals with popular poetry in the region of Bou Saada, which is one of the most popular cities in the region with a deep and rich history. It is a tourist city that had been represented in the paintings and writings of the universal painter Nasr Eddine Dinét (Originally Alphonse-Étienne Dinét). The latter said his famous words " If there is a paradise in the sky, it would be just above Bou Saada; If it is on earth, it would be Bou Saada. "

Résumé:

Cette recherche "les formes de signe dans le poème populaire - poètes de la région de Bou Saada au titre d'exemple " vient au moment d'une abondance d'études critiques concernant la poésie populaire, et des initiatives prises par certains critiques et chercheurs qui ont pris les poèmes populaires dans leurs recherches académiques comme des sujets sérieux pour l'étude et la critique.

La recherche traite une question importante de critique littéraire ; et c'est une question intéressée par la présence intensive des signes artistiques dans la poésie populaire dont le signe constitue un moyen annonciateur et inspirateur indispensable pour les poètes dans la construction de leurs poèmes parce qu'il porte des différentes significations et idées qui inspirent ce qui déroulent dans la psyché du poète. Et Pour des tendances spéciales: littéraires, artistiques, sociales.... etc, le poète fait de signe un voile voire rideau.

Cette recherche a pris un côté du procession poétique des poètes de Bou Saada, l'une des villes fort connues et anciennes de l'Algérie, et la plus plongée dans la profondeur de l'histoire, une zone touristique commémorée par le célèbre peintre "Nasreddine Dinet " dans ses livres et ses tableaux, en disant son célèbre dicton hérité chez les gens de Bou Saada: (Si le Paradis est dans le ciel, il serait au-dessus de Bou Saada, et s'il est sur la terre, il serait la ville de Bou Saada elle-même).